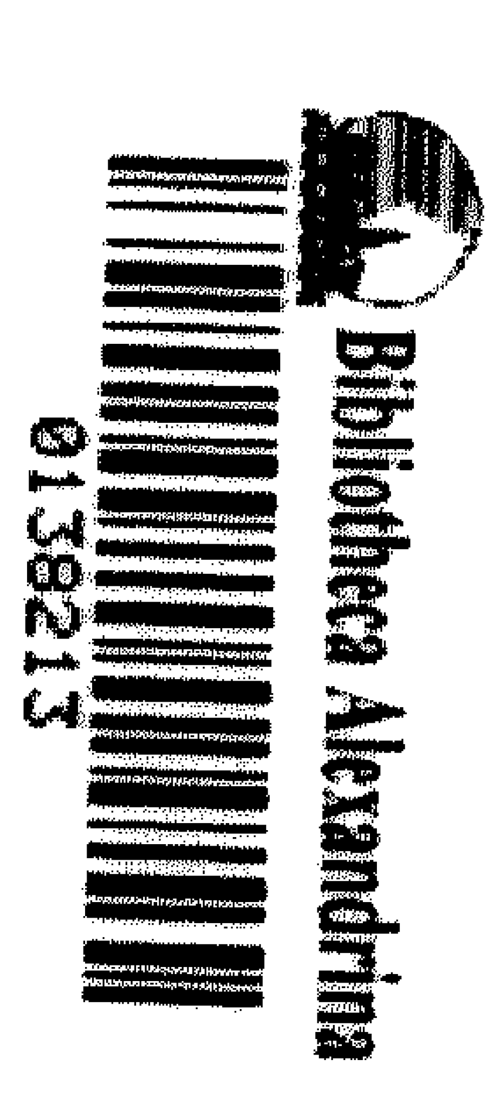
مايكل هوارد

نظرية الحرب وممارستها

طبع وترجمة

مركز الدراسات والابحاث العسكرية



دمشق

١٩٨٠

مايكل هوارد

نظرية الحرب وممارستها

طبع وترجمة

مركز الدراسات والابحاث العسكرية

دمشق

١٩٨٠

المقدمة

اننا لا نهدف في هذا الكتاب الى محاولة اي تقييم نهائي للمساهمة التي قدمها ليدل هارت للتاريخ العسكري ونظريته او بالنسبة للاحداث التي جرت في ايامه . اذ ان اية محاولة من هذا القبيل بالنسبة لمفكر مازال في اوج نشاطه ستكون غير مستكملة وسابقة لاوانها . اننا حاولنا فقط ان نوفر له تكريما لائقا : اي مجموعة مقالات تقدم الى استاذ عظيم في عيد مولده السبعين من قبل تلاميذه واتباعه والمعجبين به واصدقائه .

ولم يحد من حجم هذه المجموعة سوى الاعتبارات المكانية وحدها . وقد كان من الواجب ان يسطر العديد من امثال هذا الكتاب يساهم فيه الطلبة ورجال الدولة والمؤرخون والمفكرون من الساسة الذين يقرون بسرور بأنهم مدينون ليدل هارت . ولم يكن من الهين انتقاء اولئك الذين تجب دعوتهم للمساهمة . وقد استند في ذلك الى اعتبارين اثنين اولهما ان المساهمة يجب ان تتجمع حول موضوع واحد واسع ومركزي : هو تطور النظرية الاستراتيجية والتكتيكية في الغرب منذ بدايتها في القرن الثامن عشر حتى يومنا هذا وتفاعل هذه النظرية مع الممارسة الحالية للحرب والتحضير لها من قبل العسكريين ورجال الدولة . وثانيهما كان جعل المساهمين اكثر ما يمكن تمثيلا للفئات المختلفة واجيال المفكرين الذين تأثر عملهم ليدل هارت : بحيث لا يقتصر ذلك فقط على الافذاذ من معاصريه وعلى تلك الفئة الفتية من جيل الضباط الاقدمين الذين سنحت لهم فرصة ممارسة القيادة في الحرب بل يتناول ايضا تلك المجموعة الاحدث من العسكريين والطلبة الذين مازال بعضهم في العشرين من العمر وهم الذين كرس ليدل هارت في سبيلهم معظم السنوات العشرين

الماضية من اجل مساعدتهم واسداء النصح لهم ، والذين ستبقى تعاليمه راسخة في اعمالهم .

ان فقدان اية مساهمة من قبل المانيا وهي الارض التي حققت فيها افكار ليدل هارت ذلك النجاح المثير ، ولو انه كان مشؤوما ، هو امر يدعو للاسف . ان مثل تلك المساهمة كان قد خططها بالاصل احد اشهر المؤرخين العسكريين الالمان الاحياء المرموقين وهو الدكتور هانس آدولف جاكوبسن ، الا ان سوء صحته اجبرته في اللحظة الاخيرة على التخلي عنه . وقد حل محله بعد لمحة قصيرة جدا الكابتين روبرت اونيل من الجيش الاوسترالي الذي يدين له الناشر بالجميل ليس نظرا لجودة مقاله فقط بل للسرعة المدهشة التي اصدره بها .

وادين بالشكر لجيرالد دوكوورت وشركته المحدودة لسماحها بالاقتباس من كتاب الميجر جنرال ج. ف. س فولر « الحرب والحضارة الغربية » : ١٨٣٢ ـ ١٩٣٢ ، وكتاب « دراسة الحرب كأداة سياسية وتعبير عن ديموقراطية الجمهور (١٩٣٢) » .

مايكل هوارد

القسم الأول

جوميني والتقليد الكلاسيكي
في التفكير العسكري

بقلم مايكل هوارد

ولد مايكل اليوت هوارد في عام ١٩٢٢ ودرس التاريخ في كلية كنيسة المسيح في اوكسفورد وخدم مع حرس كولد ستريم في ايطاليا من ١٩٤٣ — ١٩٤٥ ومنذ عام ١٩٤٧ علم في « كلية الملك » بلندن حيث اصبح استاذا للدراسات الحربية منذ عام ١٩٦٣ .

وتتضمن مؤلفاته كتاب فك الاشتباك في اوربا ، وكتاب الحرب الفرنسية — البروسية (الذي نال عليه جائزة داف كوبر التذكارية في عام ١٩٦٢) . وقد نشر مجموعتين من المقالات وساهم فيهما وهما : العسكريون والحكومات ودراسات حول ولنفتون كما نشر مقالات عديدة ومجلات في التاريخ والاعمال الاستراتيجية . وكان منشغلا بشكل عام « **بالاستراتيجية الكبرى** » المجلد الرابع ، ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ، وبتاريخ المملكة المتحدة في الحرب العالمية الثانية ، وهو الناشر لمؤلفات جامعة برنستون حول كارل فون كلوزويتس .

« من المتفق عليه عالميا انه ليس من فن او علم اشد صعوبة من فن الحرب وعلمه ، على انه من عجيب تناقض العقل البشري ، ان اولئك الذين يزاولون هذه المهنة لا يبذلون سوى مشقة صغيرة او لا يبذلون اية مشقة لدراستهما . ويبدو عليهم انهم يفكرون بان معرفة اشياء قليلة تافهة لا لزوم لها تهيء قائدا عظيما . وهذا الرأي عام الى درجة انه لا يدرس في زماننا الحاضر الا الشيء اليسير او لا يدرس شيء في اي جيش مهما كان شأنه . وان التغييرات المستديمة وتنوع الادوات والتطورات ، الى ما هنالك مما يدرس للعسكريين ليبرهن بجلاء على انه مبني على نزوة مجردة . ان هذا الفن مثله مثل الفنون جميعها مبني على بعض مبادىء ثابتة هي بطبيعتها لا تتبدل الا ان تطبيقها فقط يمكن تنويعه اما هي نفسها فثابتة » .

بهذه الكلمات استهل « هنري هامفري ايفانس لويد » في عام ١٧٦٦ كتابه: تاريخ الحرب الاخيرة في المانيا . ويمكن القول بأنه ايضا قد فتح عهدا جديدا في تاريخ الفكر العسكري .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، استكمل الطلبة من كل لون من الوان المعرفة البشرية تقريبا تحررهم البطيء من سلطة المفاهيم التقليدية المستقرة عموما عن طريق الكنيسة من العصور القديمة وكان من البحث العقلاني والطريقة العلمية الذي ابتدأ بالزحف في ايام « باكون » و « غليليو » والذي تم ايقافه في القرن السابع عشر عندما كانت المفاهيم التقليدية المتنازعة تقسم أوربا في معركتها من اجل السيطرة ، قد اصبح الآن زاحفا في سيل متدفق يغسل ما حوله كما يغسل ماض قلاع المعتقدات التقليدية تلك مع الكنائس والجامعات جالبا معه موقفا جديدا ليس فقط بالنسبة للظواهر العالمية بل ايضا بالنسبة لتنظم الانسان نفسه ونشاطاته . ان القوانين التي عمل العالم بموجبها والتي نظم بها البشر مجتمعاتهم لم يعد بالإمكان ان تبقى مدة اطول منسوبة الى اوامر الهيئة كلية القدرة تنقل عبر هيئة اكليركية تدعمت قوتها احيانا بحماس سادي من قبل السلطات المدنية . الا ان القول بان بعضا من هذه القوانين يجب ان يوجد ، لبدهي بذاته بالنسبة لمجتمع كان قد تعلم بعد

مرور عصرين من شبه فوضى ، ان يعتبر النظام الفضيلة الاجتماعية الاولى . وكان « نيوتن » قد كشف عنها في عالم الطبيعة — وهي قوانين من نوع جديد تنبثق عن الصفات المميزة للمادة التي تشكل العالم ولا تفرض عليها من قبل سلطة آمرة او خارجية . وقد خلقت هذه القوانين نموذجا منتظما للسلوك في العالم ، والانسان بالتزامه بجزء منها يمكنه ان يستخلص المبادىء التي ادارت الكل .

ولكن الم يكن الانسان ايضا جزءا من هذا العالم ؟ او لم تكن نشاطاته ايضا تنظمها مبادىء اساسية منبثقة عن طبيعته وحاجاته ، تستنتج بالمشاهدة وهي معترف بها عالميا ؟ هكذا فكر « مونتسكيو » ، الذي ظهر مؤلفه العظيم عن « روح القوانين » عام ١٧٤٨ وافتتحه بتعريفه الدقيق لا بل الثوري : « بأن القوانين في اشهر معانيها هي العلاقات الضرورية الصادرة عن طبيعة الاشياء » . كذلك فكر مؤلفو « الانسيكلوبيديا الكبرى » معتبرين ذلك في الوقت نفسه بيانا رسميا ورفيقا ملازما للعصر الحديث الذي بدأ بالظهور عام ١٧٥٠ . ففي حقل التعليم ، وعلم الجزاء ، والقانون ، والاقتصاد والسياسي ، والزراعة ، والعلوم التطبيقية ، في جميع هذه الحقول كان هناك رواد ليعملون في السنوات الوسطى من القرن ليوطدوا عالميا قوانين ثابتة يمكنها ان تحل محل القبول دون محاكمة لنماذج تقليدية من السلوك ، دليلا للعمل .

الا ان نشاطا بشريا واحدا كان ينتظر « مونتسكيو » ، « نيوتن » . ولم يكن « لويد » وحيدا في ملاحظته بان ممارسة الحرب كانت فريدة من نوعها ببقائها تحت رحمة الافكار التقليدية . وكان « فولتير » قد لاحظ بتهكم بان « فن الحرب شبيه بفن الطب » قاتل وحسدسي ، ولكنه لم يفعل شيئا لتحسين الوضع . وقد استهل المارشال « دي ساكس » مؤلفه « احلام فن الحرب » (٣) بالملاحظة القيمة التالية : « ان لكل علم مبادؤه وأحكامه ، ما عدا فن الحرب الذي لا يملك شيئا منها » ، ولكن مع ان دراسته مغلفة بالارادة والحكمة ، فلا تبرز اية مبادىء . وقد بدأ « جيبرت » كتابه « تجربة عامة في التكتيك » (١٧٧٢) بمثل تلك الذريعة ولكنه بما فيه من خليط مضطرب

ومشع لادراك سياسي ودقة فنية يمثل آخر مكان يتحرى فيه عن تلك المبادىء. الا ان لويد قد فعل اكثر من ان يضرب كفا بكف تأسفا على عدم وجود اي تفكير علمي واضح يتعلق بالنشاط العسكري . وقد حاول ان يقوم هو نفسه بشيء من ذلـك .

حاول « لويد » بالفعل في مقدمة كتابه « تاريخ الحرب الاخيرة في المانيا » وضع مخطط اولي لدراسة اوفى للشؤون العسكرية ظهرت بعد خمس عشرة سنة في عام ١٧٨١ ، بعنوان « مذكرات عسكرية » وقد اشار فيها الى انه كان هناك قسمان لفن الحرب ، قسم ميكانيكي يمكن تدريسه وقسم تطبيقي لـه لا يمكن تدريسه ، وشأنه في ذلك شأن الشعر وعلم البيان اذ لا تكفي فيهمـا معرفة القواعد اذا لم يكن الانسان يملك الموهبة . وقد اشار ايضا الى ان الحرب ليست موضوعا في علم الميكانيكا البسيطة لان القوى المعنية هي قوى انسانية قابلة لضغوط روحية ولضعف غريزي . ومع ذلك فقد خصص انتباها كافيا لقضايا القيادة والروح المعنوية كما فعل بالنسبة للشؤون الادارية ، والتكتيك ، وللقيادة العامة للعمليات . واخيرا فان مناقشته للصلة بين سياسة الحكومـة والعمليات العسكرية قد اظهرت قبل خمسين سنة من نشر كلوزويتس لـ « فوم غريج » ، تفهما ثابتا لمكان الحرب كأداة للسياسة ، وللكيفية التي اثرت فيهـا الاعتبارات السياسية على ادارتها .

ومن الطبيعي ان يجد المرء دائما روادا سابقين للرواد الحاليين ، وكذلك يمكنه عادة ان يجد معاصرين غامضين يواكب عملهم عمل المفكرين الذين تعزو اليهم الاجيال القادمة ميزة الاختراعات الجديدة . ففي كتابات المركيز « دي سافورينانو » في القرن السادس عشر وفي كتابات « مونتيكوكولي » في القرن السابع عشر نعثر على تحاليل منتظمة لادارة الحرب تتسامى كثيرا على تجمع التفاصيل الواقعية والتعليمية التي يتميز بها معظم الكتاب في زمانهم . اننا نجد في اعمال الكولونيل نوشرن فون شورن الهولندي المعاصر لـ « لويد » قسما هاما قد خصصه للاستراتيجية التي عرفت بانها فن قيادة الجيوش وادارة العمليات . الا ان مؤلفات « لويد » كانت تتضمن ايجازا في التعبير واقتصادا

في الاسلوب زوداه بتأثير اعظم من تأثير معاصريه وسابقيه المتصف بالاطناب ، ولعل هذا التفوق ناجم عن ان استنتاجاته كانت متناسقة تماما مع النمط العام لتفكير القرن الثامن عشر الى ابعد الحدود . وهو في الواقع عالج بذكاء تلك الظواهر المعنوية للحرب التي كان يقتضي التأكيد عليها كثيرا في القرن التاسع عشر ، والظواهر السياسية التي شغلتنا في القرن العشرين ، ولكنه كان قد رأى ان الاسس الحقيقية للحرب قائمة على الرياضيات والطبوغرافيا ذينك العلمين اللذين يعتبران اصح العلوم . وقد اكد ان التمسك بذلك بثبات يمكن القائد على الدوام من المناورة في تحريك جيشه ومن الوصول الى هدفه . ويكون الهدف عادة احتلال اراض ذات قيمة سياسية . واذا فشلت المناورة تصبح المعركة ضرورية . الا ان « لويد » اعتبر ، كما فعل قبله « ساكس » ان الجنرال الكفؤ يجب ان يكون قادرا على بلوغ هدفه دون ان يحارب احدا . وزيادة على ذلك ، فان « لويد » في جعله العمليات الحربية تستند الى علم صحيح ، قد ارسى دعائم التعابير للتحليل الاستراتيجي التي لا تزال مستعملة حتى الآن . فقد صاغ عبارة « خط العمليات » لكي يصف الممر الذي يتحرك جيش ما بموجبه من نقطة الانطلاق الى الهدف النهائي ، ومتسلحا بذلك فانه اسقط بعض المبادىء الاستراتيجية الاولية . والخط يجب ان يكون اقصر ما يمكن ومستقيما بقدر المستطاع . ويجب ان تكون حمايته ضد العدو الاعتبار الاول في اية خطة استراتيجية ، وانهاك خط عمليات العدو يجب ان يكون الاعتبار الثاني . ويجب ان يؤدي الخط الى احد الاهداف الحقيقية الاساسية، كما ان انتقاء خط لعمليات الصحيح يحدد نتيجة الحملة .

وهناك مدرستان للمفكرين العسكريين يمكن ان نرجع بنسبهما الى « لويد » . فلقد كان هناك اولئك الذين حاولوا اتباعه بارسائهم مبادىء استراتيجية متينة مبنية على معطيات كمية وجغرافية ولو جستيكية ، وكان هناك المدرسة التي ركزت بالدرجة الاولى على مظاهر الحرب المعنوية والسياسية التي جعلت من المستحيل عليها ان تعتبر ان ادارتها بمثابة علم صحيح . وكان « هنريك فون بيلو » الذي نشر مؤلفه : « روحية الطريقة الحربية الجديدة » عام ١٧٩٩ مثالا بارزا للمدرسة الاولى . فقد اضاف « بيلو » تعابير اوسع

للالفاظ الاستراتيجية . وقد عبر عن المكان الذي يقصده الجيش بالهـــدف وعن المخزن او المستودع الذي ينطلق منه بكلمة الموضوع ، وعن الخط الذي يربط المواضيع التي يعتمد عليها الجيش بكلمة القواعد . الا ان مفهـــوم « الموضوع » لم يعمر اكثر من صاحبه ولكن تعبيري الهدف والقاعدة وكذلـك تعبير « لويد » لخطوط العمليات قد استقرت في التفكير العسكري حتى يومنا هذا . ولكن اذا كان « بيلو » بهذا المعنى قد طور افكار « لويد » بنجاح فانــه من جهة اخرى قد ادى بها الى نوع من التعقيد . وقد اعتبر ان كـل عمليات عسكرية يمكن تصورها باستعمال تعابير المثلث باعتبار راسه متجها نحـو هدف الجيش وزاويتيه الاخريتين نحو الاطراف الخارجية « للقاعدة » . كما قرر انه يجب أن يكون مقياس الزاوية الراسية على الاقل تسعين درجة اذا كان يقتضي أن تدار العملية بسلامة . واي شيء يقل عن ذلك يصنع خط العمليات في وضع غير سليم ومعرض للمهاجمة . ومتى اعتمد القائد على هذه الاعتبارات وبنى عليها بعض الحسابات الهندسية المعقدة ، يستطيع ان يجهز عملياتـه متوقعا اقصى حد من النجاح .

ان هذه الشكلية البالغة الحد التي تركت حركات جيش العدو دون ادخالها في الحساب تماما قد رفضتها الاكثرية الغالبة من معاصري بيلو ومن جاؤوا بعده . وانه لما يذهل والحق يقال ان مثل هذا المؤلف قد نشر بعد ثـلاث سنوات من اول حملة نابوليونية في ايطاليا عام ١٧٩٦ . ولربما يجب النظر الى « بيلو » على انه آخر المفسرين للحرب في القرن الثامن عشر والمذهب العقلاني ، في لحظة كان فيها هذا المذهب مدنيا وعسكريا قد نحي جانبا بالحركة الادبية الالمانية في العهد الثوري . وكان « جورغ بيرنهورست » المعاصر لـ « بيلو » هو الذي نادى في كتابه « تأملات في الفن الحربي » (١٧٩٧) بالثورة في التفكير العسكري الذي كان بمثابة ثورة في فن الحرب . وقد تبع « بيلو » ، « لويد » في المدرسة « الكلاسيكية » لاصحاب النظريات العسكرية الذين بحثوا فـي زحمة فوضى الحروب عن مبادىء واضحة ومتماسكة ومتقابلة تصلح باعثـا للادراك والعمل . وكان « بيرنهورست » هو حامل لواء الرومانتيكية . وقـد تساءل كيف يمكن ان يكون هنالك اية مبادىء للحرب ؟ لقد كان التحدث عنها

قبل اختراع الاسلحة النارية امرا مشروعا ، الا ان الاسلحة الحديثة قد ادخلت عنصرا بالغ الاهمية من الصدفة والشك والمجهول الى درجة ان محاولتنا القيام « بتحليل علمي » اصبحت مضيعة لوقت الانسان العاقل . ان القادة العظماء مثل « الفريدريك الكبير » لا يدينون بنجاحهم لاي اسلوب يمكن نقله من قبل الاخرين ولا لاي تمسك « بالمبادىء » بل للطاقة وللعبقرية ، وللحظ . ان المظهر الاصطناعي « للاسلوب » الفريدريكي (الذي شبهه تشبيها غير موفق ولا مناسب بالصفة الطبيعية المزعومة والبساطة المتسم بهما التكتيك الامريكي في حرب الاستقلال) والحقيقة ان تنظيم الجيوش العاملة مع تمريناتها وبزاتها الموحدة قد انقضى زمانه . وفي الحقيقة قدم بيرنهورست الى الشؤون العسكرية « البساطة والصفات الطبيعية والوضوح والحقيقة التي طالب بها « روسويت »، « ووسورت » .

وهكذا فقد افتتح القرن التاسع عشر بعرضين متطرفين لوجهتي نظر متعاكستين بطريقة جدلية بحيث ان تقرير احدهما هو مطمح كل صاحب نظرية عسكرية جادة . وسرعان ما حل محل « بيلو » وبيرنهورست مفكران اكفأ منهما واكثر تأثيرا . وكان على تقليد القرن الثامن عشر للتحليل العملياتي الدقيق المبني على احتياجات الشؤون الادارية والقيود الطبوغرافية ، ان ينتقل الى جيوش اوربا وامريكا الشمالية بواسطة الجنرال « انطوان هنري جوميني » (١٧٧٩ ــ ١٨٦٩) ، بينما الهم التأكيد على ان الحرب هي عالم للمجهول الذي لا يمكن التنبؤ به والتي لا تعتمد كثيرا على المعلومات تقدر اعتمادها على الارادة وقوة الشخصية واللحمة المعنوية ، الجنرال « كارل ماريا فون كلوزويتس » (١٧٨٠ ــ ١٨٣١) للعمل هو ومن جاؤوا بعده من ذوي النفوذ ــ امثال مولتكه، وفوش ، وجنرالات الحرب العالمية الاولى .

وكان جوميني وكلوزويتس يتمتعان بخبرة كبيرة كعسكريين وبحنكة كمفكرين حيث امكنهما التقليل من قيمة حجج المدرسة الفكرية المضادة . وبتعريفهما للعلاقة بين نظرية الحرب وممارستها استعملا الكثير من التعابير نفسها .

« فقد كتب « جيميني » انه من بين سائر النظريات عن فن الحرب تعتبر النظرية المنطقية الوحيدة هي تلك النظرية المبنية على دراسة التاريخ العسكري اذ انها تضع عددا من المبادىء المنظمة ولكنها تتخلى عن القسم الاكبر في الادارة العامة للحرب ، الى العبقريات الطبيعية دون ان تربطها باحكام عقائدية . وعلى العكس من ذلك ليس من شيء يمكن ان يقتل تلك العبقرية الطبيعية ويؤدي الى انتصار الخطأ مثل تلك النظريات المتحزلقة المبنية على مفهوم خاطىء هو ان الحرب علم وضعي وان سائر عملياته يمكن ارجاعها لحسابات معصومة عن الخطأ . وكذلك فان النشرات الميتافيزيكية والشكوكية التي يصدرها بعض الكتاب لا تنجح كثيرا في اقناعنا بانه لا يوجد قواعد للحرب ، لان كتاباتهم لا تعمل شيئا مطلقا لتدحض القواعد المبنية على أبرز الاعمال الفذة للحرب الحديثة او تبرر حتى ولو بتحليلات اولئك الذين يستنكرونها » .

وكقاعدة عامة (على حد قول كلوزويتس) انه عندما يكون نشاط ما منشغلا بمعظمه بالهدف ذاته اكثر فاكثر وبالمرامي والوسائل نفسها فانه ولئن كان من الممكن ان تقطع هناك تغييرات وعدد من الترتيبات المتنوعة الملائمة ، الا ان مثل هذه الامور قابلة للتحول الى موضوع دراسة في ابحاث الكليات اذ ان هذه الدراسة هي بالفعل اهم الاقسام الاساسية لكل نظرية ، وتحمل عنوانا خاصا لذلك الاسم ... واذا كانت النظرية تتحرى عن المواضيع التي تشكل الحرب ، وتفصّل بصورة اجلى ما يبدو لاول وهلة مندمجا ، وتوضح توضيحا تاما الصفة المميزة للوسائل وتبين اثارها المكنة ، وتجعل طبيعة الاهداف واضحة للعيان ، واذا كانت تؤدي الى تحمل شعاع البحث النقدي الاساسي على ساحة المعركة بتمامها ـ تكون حينئذ قد اكملت الواجب الاساسي لدائرة اختصاصها. وتصبح حينئذ الدليل لمن يرغب في ان يجعل نفسه متعرفا على الحرب من خلال الكتب ... وهي ستثقف ذهن القائد المقبل في شؤون الحرب ، او على الاصح تقوده في تثقيفه لنفسه ، ولكنها لا ترافقه الى ساحة المعركة .

الا ان هذا الاعتراف بوجود مجال مشترك لم يكن اكثر من تحية بين متبارزين . فقد طعن كل منهما بافكار الآخر متورطا ان لم نقل فعل ذلك

متعمدا بصورة خاصة . وقد منح كلوزويتس غفرانا قصيرا لمبادىء جوميني الاساسية : « ان القول بان السر الكامل للحرب يكمن في الصيغة القائلة : « في وقت ما ، وفي مكان ما ، حشد قوات متفوقة » ليس سوى قيد تسيطر عليه قوة الحقائق » . وقد رد عليه « جوميني » بتعال : « اذا كان السيد الجنرال كلوزويتس كما كنت انا مرارا كثيرة ، في موقف طرح لهذه الاسئلة ورؤية الاجابة عليها ، فلن تساوره مثل هذه الشكوك حول نجاعة نظريات الحرب المبنية على مبادىء ، لان النظريات وحدها يمكن ان تقودنا الى مثل هذه الحلول » . وفي الواقع ان كلوزويتس في « متاهتة المدرسية » بكاملها يؤكد انه لم يكن باستطاعته ايجاد اي شيء باستثناء عدد صغير من الافكار النيرة والمواد الجديرة بالاهتمام .

ان سخرية جوميني لم تكن ضرورية فمن الممكن انه راى عملا اكثر مما كان قد رآه كلوزويتس . ولكن ذلك لم يكن ليزيد زيادة كبيرة عنه وقد واجه كلوزويتس الحملات الاولى من الحروب الثورية في اعوام ١٧٩٢ ـ ١٧٩٥ كملازم يجري والحملات الاخيرة في المانيا وواترلو كرئيس اركان في فيلق ولكن خدمته انتابها الانقطاع الطويل في السنوات الاحدى عشرة من السلم بين بروسيا وفرنسا بعد عام ١٧٩٥ والسنوات الست من اسرة كأسير حرب بعد حملة جينا عام ١٨٠٦ حتى تجنيده في جيوش القيصر عام ١٨١٢ . وباعتبار ان جوميني قد درس حملات بونابارت الاولى في مسقط راسه في سويسرا فقد نجح في استثمار الفوضى العامة للجيوش النابوليونية وربط نفسه برئاسة اركان المارشال ناي في حملات اولم عام ١٨٠٥ ، « وجينا » عام ١٨٠٦ ، وايلو عام ١٨٠٧ ، واسبانيا عام ١٨٠٨ ، قافزا الى منصب رئيس الاركان بينما ظل محتفظا بجنسيته السويسرية وخدم في الحملة الروسية كحاكم عسكري اولا في ڤيلنا ، ومن ثم في سمولنسك ، والتحق مرة اخرى بـ « ناي » من اجل حملة المانيا عام ١٨١٣ . وادت سلسلة من النزاعات الشخصية الحادة التي اتسمت بها خدمته العسكرية بأسرها (لقد استقال ما يقرب من خمس عشرة مرة) الى التحاقه بمعسكر الحلفاء في الوقت المناسب من اجل معركة « لا يبزيغ » وغزو فرنسا الذي إعقبه عام ١٨١٤ . وان الفرص التي اتيحت له اول الامر لمراقبة ادارة الحرب النابوليونية لم

يكن لها مثيل ولقد كان قادرا في كتاباته التي تلت ذلك على أن يجعل لهـا تأثيرا حسـنا .

وقد بدأ جوميني بالكتابة عام ١٨٠٣ وكشفت له دراسة حملات « فريديريك الكبير » والفتى بونابارت حسب أعتقاده بصورة دقيقة تلك المبادىء النيوتونية الاساسية للاستراتيجية التي عبثا ما بحث عنها اصحاب النظريات في القرن الثامن عشرة وهذه تقوم اولا على « قيادة المرء لقواته الرئيسية بالتتابع نحـو النقاط الحاسمة في مسرح القتال ، وضد مواصلات العدو بقدر الامكان دون ايقاع الفوضى في مواصلاته هو نفسه ، وثانيا على المناورة على وجه تشتبك فيه هذا الحشد من القوى مع اجزاء متقطعة من قوة العدو ، وثالثا في ميدان المعركة، بحيث يتم تركيز القوات الرئيسية في المكان الحاسم ، او ضد قسم مـن خط العدو الذي يراد اخضاعه ، واخيرا للتأكد ليس فقط من أن جميع القـوات متمركزة في المكان الحاسم بل ايضا انها قد « ارسلت » الى الامام بقوة وتركيز كي تحصل على نتيجة آنية .

وعلينا ان نقارن بين عمل جوميني وعمل اي من سابقيه ـ باستثناء لويد دائما ـ وذلك لكي تقدر وضوح رؤياه . والحقيقة انه كان هناك بعض من طالب باعتباره نيوتون الذي انتظره العالم العسكري ذلك الزمن الطويل . اما فيمـا يختص بمساهمته في الحملات النابوليونية ، فطالما انه كرس بقية حياته الطويلة ليرسم صورته للاجيال القادمة مفصلا لتلاميذه المؤمنين به كيف ان نصيحته انقذت نابي كما انقذت آخرين غيره من كارثة متكررة وكيف ان تجاهلهم لهـا قد ادى بهم الى الفشل ، فمن العسير ان نميز الحقيقة من سيرة حياة وضعها الشخص لتقديس ذاته على ان هناك الكفاية من الوضوح المستقل للدلالـة على انه ادرك بالواقع ذهنية نابوليون جيدا حتى انه استبق حركات الجيش الفرنسي سواء اكان في حملة مارنكو عام ١٨٠٠ ام في حملة جينا عام ١٨٠٦ وان قدرته التحليلية قد حظيت باحترام نابوليون نفسه . ولكن حتى اكثر ثمرات مهنة جوميني المحترمة لا يمكنها ان تخفي ضعفه واية مساهمة قد يكون اداهـا لنجاح جيش الفرنسيين يجب ان تكون قد توازنت بعجرفة فكرية وعدم مهارة

في التعاون مع زملائه مما ادى الى اعتبار وجوده في اركان عامة منشغلة امرا لا يطاق في اغلب الاحيان . وقد عزا جوميني البرود الذي احاط به اكثر فاكثر وفشله في اتمام نجاحات باهرة اخرى ، الى الحقد الشخصي لـ «بيرتيه»، رئيس اركان نابوليون ، ولكن مع افتراض وجود هذا العنصر فليس من العسير ان نتعاطف مع موقف بيرتيه المنهمك دون راحة في مشاكل متعددة لجيش متحرك هائل ، ضد افراط في التبسيطات التي يقوم بها واضع النظرية السويسري الشاب . ان الجيوش ونستشهد بـ لويد ثانية ــ مؤلفة من رجال : اي تجمعات حركتها محدودة ليس فقط بالانقسامات الناشئة عن عيوب ادارية ومخاطر طبيعية ، ومعلومات غير ملائمة ، وخوف بشري ، بل عن منافسات وطموحات وجمود النظام مما يتطلب صفات شخصية كبرى للتغلب على ذلك . وكان ينبغي ان تدرك هذه العوامل من اجل التغلب عليها . ونرى ان كلوزويتس وليس جوميني هو الذي اكد بحق كم هي اساسية معرفة مثل هذا الضعف البشري لمن يودون ادارة الحرب .

يمكن ادراك ان شهرة جوميني كانت عرضة للافول بصورة متزايدة بشهرة منافسة اذ ان التأكيد الكلوزويتسي على الارادة يتناسق جيدا مع رومانتيكية منتصف القرن التاسع عشر . كما ان تأكيده على المعركة قد لاءم الافكار الداروينية الاجتماعية التي اصبحت مألوفة في نهاية القرن . في حين اننا نجد في ايامنا ان تأكيده المكرر على الحرب باعتبارها عملا سياسيا ، ذا صلة وثيقة بنوع خاص في مسائل العصر النووي . على ان تأثير جوميني من الناحية العملية لم يكن اقل من تأثير كلوزويتس اذ ان الجنود يدربون على التفكير بالمصطلحات الجومينية وليس بالمصطلحات الكلوزويستية . وان كتابه « الوجيز في فن الحرب » المنشور لاول مرة عام ١٨٣٧ تضمن بقالب واضح ومكثف في آن واحد ، الدروس التي كان قد نشرها اثناء اعماله المبكرة عن حملات فريدريك ونابوليون . ومن المشكوك فيه ان يكون قد كتب دليل اكثر انتظاما وادراكا لحركات العمليات العسكرية في أي زمن كان . ان الاكاديميات التي تدرس المهارة الحربية المعقدة تجد في كلوزويتس دليلا مدهشا للضباط الصغار المجتهدين . لكن كتاب جوميني « الوجيز » قدم لكدورات الاركان موجزا جاهزا

كان يتطلبه تطور ادارة الحرب في القرن التاسع عشر بالنسبة لجيوش اوربا وامريكا الشمالية . وقام جوميني شخصيا بوضع المخطط للاكاديمية العسكرية التي اسسها « نيقولا الاول » في سانت بطرسبورغ ، وكانت افكاره ، وبخاصة كما نقلت من خلال كتاب السير « ادوراد بروس هملي » الضخم وهو « العمليات الحربية » ، قد زود اولئك الضباط البريطانيين الذين كانوا يعدون للاهتمام بالحرب الكبرى بنقطة الانطلاق . ويمكن للمرء ان يستشف مقولاته من مؤلفات كثيرين من اصحاب النظرية الفرنسيين مثل ديريكاجية وبيرون على حين انه فيما يخص الولايات المتحدة على حد قول احد الثقاة انه قيل ولسبب معقول ان كثيرين من جنرالات الحرب الاهلية ذهبوا الى المعركة حاملين سيفا باحدى اليدين وكتاب جوميني « الوجيز في فن الحرب » باليد الاخرى ... وكانت كتابات جوميني الوسيلة التي تسربت بواسطتها الفنون النابوليونية الى الفكر العسكرية في الحرب الاهلية والتي كانت هامة جدا في تطوير الاشكال الاساسية لاجراءات ميدان المعركة الحديث .

وخلاصة القول ان كتاب « الوجيز » كان اعظم كتاب للنصوص العسكرية في القرن التاسع عشر ويمكن دراسته حتى الآن بفائدة ليس فقط من قبل العسكريين وحدهم . وادرك جوميني مثل كلوزويتس — ولعله في الواقع كان مقلدا له — ان الحرب هي اداة سياسية ، وتتغير بطبيعتها بالنسبة لدرجة الشعور القومي او الفائدة المرجوة منها ، وخصص الفصل الاول منه لقضية « سياسة الحرب » ، ومختلف انواع الحروب التي يمكن ان تخوضها امة ما : من عقائدية ، واقتصادية ، وشعبية ، للدفاع عن ميزان القوى ولمساعدة الحلفاء في توطيد الحقوق او الدفاع عنها مع مختلف المتطلبات التي يحتاجها ذلك . وفي فصله الثاني عالج **السياسة العسكرية** ، او التساؤلات المحلية المتعلقة بالسياسة العسكرية ، وفي جميع هذه المواضيع الوثيقة الصلة بوقتنا الحاضر كانت تعليقاته ممتعة بشكل خاص . كيف يتسنى الحفاظ على **الروح المعنوية للجيش** في حالة السلم ؟ كيف يستطيع المرء ان يؤمن انفاقا ملائما في الدفاع ؟ كيف يجب تنظيم التجنيد والاحتياط ؟ كيف يجب تمويل الحروب ؟ وفوق كل ذلك في حال عدم وجود سير مطلق قبل نابوليون او فريدريك من

يستطيع ان يقود جيوشه وما هي الترتيبات التي يجب وضعها للقيادة ؟ ان السيد المطلق الذي تنقصه المهارة العسكرية يجب ، كما يصر جوميني ، ان يبتعد كثيرا عن جيوشه حيث لا يؤدي وجوده الا للضرر . ان باستطاعته ان يضايق قائد ميدان المعركة واذا كان الجيش مرسلا الى مكان بعيد ومقطوعا عن مواصلاته ومضطرا ان يشق طريقه فكم مخزنة هي النتائج الناجمة عن وجود الحاكم في مقر القيادة . وفي عام ١٨٧٠ حدث ذلك فعلا . وخلافا لذلك يجب ان يتولى القيادة رجل ذو خبرة وشجاع ، وصلب في المعركة بحيث لا يتزعزع ابان الخطر ، مع وجود رئيس اركان ذي مقدرة كبيرة ، ومستقيم وامين ، عندئذ يستطيع القائد الاعلى ان يعيش معه بتآلف ، وهذا هو في الواقع النموذج الصحيح لشكل القيادة العليا كما تطورت اليه في القرن العشرين .

وقد قسم جوميني الادارة الفعلية للحرب الى استراتيجية ، والى تكتيكات كبرى (ادارة المعارك) ، وشؤون ادارية ، وهندسة (معرفة شكل صيق على انها حرب الحصار) ، وتكتيكات صغرى ، وكان لديه قليل من القول فيما يخص القسمين الاخيرين اما تعليقاته على التكتيكات الكبرى فهي ذات مغزى كبير في الموضوع النابوليوني بالدرجة الاولى . وكانت كتاباته عن الشؤون الادارية والاستراتيجية هي التي اتصفت بالسداد الدائم . وقد تضمنت الشؤون الادارية التي عرفها بأنها : « الفن العملي في تحريك الجيوش » كل مسؤوليات الاركان العامة . فهي تشتمل تحضير سائر ادوات الحرب ، ووضع الترتيبات للاحتمالات المختلفة ، وتنظيم سائر تحركات الجيوش ، وجمع المعلومات ، وتنظيم التموين والنقل ، واقامة المعسكرات والمستودعات والمخازن، وتنظيم الخدمات الطبية والاشارة ، وتوفير تدعيم خط الجبهة . ويعكس تركيزه على هذا الفرع من ادارة الحرب تجاربه في الحروب النابوليونية . وقد ذكر أن العمليات النابوليونية كانت تعتمد على حسابات استراتيجية ماهرة ، ولكن تنفيذها كان ولا شك عملا رائعا للشؤون الادارية . واخذ جوميني بعين الاعتبار العنصر الذي ادخله النقل عن طريق السكة الحديدية فبقي تحليله صحيحا كاساس للكتاب يتضمن واجبات الاركان حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى .

ولكن المبادىء الجومينية الشهيرة احدثت اثرا ملائما في مجال الاستراتيجية . وقد عرف الاستراتيجية في الواقع بأنها : « فن ادارة القسم الاعظم من قوات جيش ما الى اهم نقطة في مسرح الحرب ، او في منطقة العمليات. والتكتيك هو فن وضعها موضع التنفيذ في اللحظة وفي النقطة الحاسمتين في ساحة المعركة التي يجب ان تقع فيها **الصدمة** الحاسمة . ومن هذا المبدا الالزامي ، تنبع جميع الحسابات الاستراتيجية . ويجب ان تظهر للعيان النقطة الحاسمة ، وكذلك خط العمليات المختار الذي يقود اليها انطلاقا من القاعدة العسكرية . « يكمن الفن العظيم في هذا الاختيار لخطوط العمليات » ، واضاف مشددا ، « في وضع المرء نفسه متحكما في خطوط مواصلات العدو دون توريط خطوطه نفسها » . ويتوقف انتقاء خط العمليات المشار اليه على تصرفات العدو كما يتوقف على كيفية توضعه على الارض . وهناك اشكال مختلفة ممكنة للخطوط ــ اما متحدة المركز ، او مختلفة المركز ، واما داخلية او خارجية ــ حسب الظروف . ومن الممكن ان يكون هناك ايضا انواع مختلفة « للنقطة الحاسمة » . ويجب ان يكون الهدف جناح العدو ومن ثم خط انسحابه . ويقتضي محاولة الاختراق في مركز يكون الدفاع فيه ضعيفا والتقدم بالتتابع من نقطة الى اخرى كما فعل بونابارت عام ١٧٩٦ . ويتوقف الكثير من المهارة في انتقاء خط العمليات على نشرها على قدر ما تستوعبه مساحة الجبهة بصورة لا يستطيع معها العدو ان يقدر مسبقا اين تقرر التمركز من اجل الضربة الحاسمة .

ان كل هذه الملاحظات كانت بسيطة ، وعملية ، وبقيت معقولة بسبب الاشارة المتكررة لحملات نابوليون وفريدريك الكبير . ولسوء الحظ فان ميل جوميني التحليلي قد دفعه بعيدا الى ساحة المحاكمة المجردة اكثر مما كان يجب ان تسمح له تجربته للحرب بالمجازفة . وقد يكون مشروعا على انه قد يكون خطرا ايضا ان يفكر صاحب النظرية بالنسبة لساحة القتال بتعابير « رقعة الشطرنج » . وقد نسج جوميني حول المفهوم الهيكلي الجميل والبسيط « للقواعد وخطوط العمليات » الذي كان قد ورثه عن « لويد » و « بيلو » ، نموذجا معقدا للخطوط والنقاط الاستراتيجية ، ونقاط الهدف ، والوضع

الاستراتيجي، والجبهات الاستراتيجية، والجبهات العملياتية ، ومحاور العمليات ومحاور المناورة ، ومناطق العمليات، وخطوط المواصلات وكان كل منها معرفا بدقة اساتذة القرون الوسطى وكانت موضوعة بتركيب عام لكي تربك البسطاء وتسحر اردا انواع الجنود المثقفين . ولا نحتاج لجهد كبير لنلمس تأثير هذا النوع من تفكير جوميني على مفاهيم هاليك الموزونة والمتحذلقة خلال السنوات المبكرة من الحرب الاهلية الامريكية .

ان ذلك التحليل اللفظي المضجر هو اسوأ ما يكون لانه يلقي الغموض على ما كان يمكن ان يصبح أهم ارث يتركه جوميني الى المفكرين العسكريين القبايين . ومثله مثل كلوزويتس – وفي الواقع انه يحاكي اي شخص قد عاش خلال العقود النابوليونية الهائلة – فقد رفض معتقدات القرن الثامن عشر التي اعتنقها « ساكس » و « لويد » وهي ان الحملات يمكن كسبها دون معارك . ولكنه لم يعالج المسألة بتفصيل كما عالجها كلوزويتس بل كان دائما هدف العمليات في جميع تحليلاته الاستراتيجية هو جيش العدو وكانت كل الاهداف الجغرافية تشكل وسائل الى ذلك الهدف دون ان يكون لها قيمة بحد ذاتها . ومن جهة اخرى ، فهو خلافا لـ كلوزويتس واتباعه ، وبخاصة لمولتكيه ، قد نظر الى المعركة بمضمون اوسع من كونها نزاعا واضحا وضخما للقوى « انها مقارنة دموية ومدمرة لمقدار القوى المادية والمعنوية » ، فالذي يملك اكبر كمية منهما في النهاية يعتبر منتصرا . وبالنسبة لـ جوميني كان لمكان وقوع المعركة شأنه وكذلك لكيفية سيرها . فيمكن ان تخاض في ظروف مؤاتية وغير مؤاتية . ويمكنها ان تؤدي الى نتائج حاسمة وغير حاسمة ، ويتوقف ذلك على الوضع النسبي لخطوط عمليات الطرفين المتقابلة . وفوق كل شيء ، ان ادارتها ، ولا يقل عن ذلك الحسابات التي تقضي الى قيامها ، هي موضوع مهارة وتصميم وانتقاء اللحظة الحاسمة وكذلك المكان الحاسم للزج بالاحتياطي ، وكذلك تنسيق تهديدات الاجنحة مع الهجوم الجبهي . وكان جوميني قد شاهد الكفاية من المعارك لكي يدرك صعوبة ذلك . وقد اعترف بان « المعارك تخرج عن كل رقابة علمية وتزودنا بافعال مأسوية ، وتقوم فيها الصفات الشخصية والروح المعنوية ، والف سبب آخر احيانا ، بلعب دور قيادي ... وباختصار ان كل

ما يمكن التعبير عنه هو انه سيكون لشاعرية الحرب وميتافيزيائها على الدوام تأثير على نتائجها » . ومع ذلك كان التمسك ببعض المبادىء الأولية يمكن ان يعطي الدليل ، عبر التخبط ، ويجعل النصر لا يقل توقفه على المحاكمة الرشيدة منه على التصميم المجرد والصدفة .

ان مفهوم جوميني للمعركة بوصفها متلازمة مع العمليات وبالوقت نفسه خاضعة لرقابة موجهة بالعقل قد تلاشى بالنظرية التي أطلع عليها مولتكيه وسواه لدى كلوزويتس وهي ان الجيش المقابل يجب ان يكون الهدف الذي تقتضي مهاجمته باقوى قوة ممكنة بالاعتماد على اعداد اكبر وقوة روح معنوية اعلى ليمكن اختراقه . وقد وصف مولتكيه استراتيجيته لعام ١٨٧٠ بانه كان عليها مجرد « البحث عن قوى العدو الرئيسية ومهاجمتها حيثما وجدت » وكانت خطة الجيش الفرنسي السابع عشر عام ١٩١٤ غير بارعة ايضا . اما خطة شليفن نفسها فقد كانت ولا شك مناورة على نمط نابوليوني حقيقي تهدف كما حدث ، الى سحق جناح العدو ، والاستيلاء على خطوط مواصلاته وحمله على خوض المعركة في ظروف تكون فيها الهزيمة حاسمة . وقد ادرك « شليفن » مسبقا انه بدون مثل ذلك القرار السريع ستؤدي اسلحة القرن العشرين وانظمته العسكرية الى الافلاس والتوقف التام فقط . وهذا ما كان لدى جوميني نفسه بصورة ما قبل ثلاثة ارباع القرن . فقد اظهرت لنا الحروب النابوليونية ، كما اشار الى ذلك عام ١٨٣٧ ، « بان المسافة لم تعد تحمي قطرا ما من الغزو ، والدول التي تريد ان تكون في امان تحتاج الى نظام جيد من الحصون والخطوط الدفاعية ، ونظام مماثل من الاحتياط والمؤسسات العسكرية ، وبالاختصار سياسة عسكرية قديمة . ولهذا السبب نرى ان الشعوب في كل مكان تنظم نفسها في ميليشيات تكون قوة احتياطية للقوات العاملة تزداد بها قوة الجيوش الى مستوى متصاعد هائل ، وكلما كان عدد الجيوش كبيرا كلما ازدادت الحاجة الى نظام عمليات سريع وقرارات فورية .

ولكن فشل خطة شليفن اظهرت لنا ان تطبيق مبادىء جوميني في عصر

تسند فيه كتل الجيوش خطوط حديدية وتكون هي فيه مسلحة باسلحة القرن العشرين النارية قد كشفت عن صعوبات فنية لم يتمكن حتى الآن احد من معرفة كيفية التغلب عليها . وبدت مبادىء الحرب الكلاسيكية غير موائمة لمتطلبات حرب الخنادق . والصفات « الرومانتيكية » للقوة المعنوية والتحمل خلال مدة السنوات الاربع الطويلة قد بلغت حدها . ولكن قد نشأ عن هذا النزاع وهو اهم النزاعات المأسوية التي اكتسبت فيه المعركة الكلوزويتسية حياة رهيبة تقتضي تضحية هائلة بحد ذاتها لا تمت بصلة الى الاهداف الاستراتيجية والسياسية ، فنون جديدة جعلت من الممكن التفكير مرة اخرى بتعابير الحركة والمناورة والمعركة كأداة وليس كغاية ، والقيادة كنشاط ذكي يتطلب المهارة والدقة كما يتطلب التصميم والخبرة بالشؤون الادارية ، والحرب كمسخر للسياسة وليس سيدا لها . وكان الوقت قد حان بالواقع لانعاش التفكير العسكري الكلاسيلكي ، وقد اتى هذا الانعاش من بريطانيا بمؤلفات ج. ف. فولر و ب. ب. ليدل هارت . وكان من الملائم ان تعود الدورة الى عملها في البلد الذي بدات فيه اصلا بكتابات « لويد » قبل قرن ونصف .



القسم الثاني

كلوزويتس
والقرن التاسع عشر
بقلم
بيتر باريت

ولد بيتر باريت في برلين عام ١٩٢٤ ودرس في فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة . وقد انقطعت دراسته قبل التخرج في جامعة كاليفورنيا في بيركلي بخدمته في فوج المشاة في غينيا الجديدة ، والفلبين ، وكوريا . وبعد اتمامه الدراسة في بيركلي وقضائه بضع سنوات في الرحلات والكتابة انتسب الى كلية « كنغ كوليج » في لندن حيث نال درجة الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٦٠ . وكان مساعد ابحاث في مركز الدراسات الدولية في برينستون ، ١٩٦٠ ــ ١٩٦٢ ، واصبح منذ ذلك الحين استاذا مساعدا في جامعة كاليفورنيا . وتضمنت مؤلفاته « حروب العصابات في عام ١٩٦٠ » (مع جون شاي) ، وادارة فرنسا للحرب الثرية من الهند الصينية حتى الجزائر . ولا يزال كتابه عن « يورك » وعهد الاصلاح البروسي قيد الطباعة وهو الناشر في برنستون لكتاب اعمال كارل فون كلوزويتس .

ان الابداع الفكري واستقلاله ليسا من الصفات المميزة الموفرة للراحة الا فيما ندر سواء اكان ذلك بالنسبة للاستاذ ام لاتباعه . والجديد يصعب انجازه كما يصعب تقبله بترحاب . الا ان المجدد يمكنه وسط الاغلبية المتحجرة التي تحرس المقدسات ان يعتمد على دعامة مخربة تحول النفور الى حماس ومن ثم الى امر واقع يصبح بدوره واضحا . وتكون مراحل هذه العملية في اغلب الاحيان غامضة . واحيانا تحدث ضجة تاريخية صاخبة لتأييد قائد ملهم ولكن في الغالب يقتضي انتظار التأييد عقودا عديدة وفي الغالب ايضا تتغير الفكرة الاصلية اثناء وضعها موضع التطبيق العملي وتأخذ تحت ضغط الاحداث اشكالا لم يقصدها مطلقا مبدعها او يتخيلها . وبكفاءة لا تنقطع عن كونها مؤثرة، ينتقي كل جيل اشكالا لفكرة ما تبدو مفيدة لاول وهلة ، في حين انها تهمل او حتى انها تزيف كامل المفهوم العقلي الذي تنحدر منه .

وقد عانت نظريات كلوزويتس من مثل هذه الطريقة من الاختيار والتحول خلال القرن التاسع عشر . ولم تتمكن مقالاته السياسية التي بدأت بالظهور مطبوعة في عام ١٨٧٠ ، باستثناء واحدة او اثنتين منها ، من المساهمة في الانطباع الاول لفكرته . على ان اكثر كتاباته عن المواضيع العسكرية اصبحت معروفة سريعا على مدى واسع بعد وفاته مع صدور طبعة من « مؤلفات بعد الوفاة » ما بين ١٨٣٢ و ١٨٣٧ في عشرة اجزاء تضمنت الثلاثة الاولى منها « في الحرب » . وعلينا ان نسلم بان الجمهور العسكري الالماني لمس بسرعة ، المجهود الفكري الاستثنائي الذي تنم عنه هذه الدراسات التاريخية النظرية . ولم يلبث لقب « المدرسي » ان ظهر دون ابطاء ، وبعد مضي عشر سنوات على نشر الجدل الذي اثاره كتاب « في الحرب » شكل هذا الجدل موضوعا لعملية نشر شعبي ــ كان احتضانا لا يمكن نكرانه ولو انه خطر . وقد ترجم كتاب « في الحرب » للهولندية عام ١٨٤٦ ، وبعد مضي بضع سنوات تبعتها ترجمة فرنسية ، واثناء ذلك نشر الكولونيل « ج. ج. غراهام » ترجمته الانكليزية في عام ١٨٧٣ . وقد كان ينظر الى كلوزويتس عبر العالم الغربي على انه اشهر كاتب حربي الماني متميز . ولكن لم تستطع لا الحملات ولا النظريات في ذلك العهد ان تكشف لماذا نظر الناس نظرة عالية لمؤلفاته . وان المقارنة بين مجموع ما كتب من نقد

وبين النصوص الاصلية ترينا في كثير من الاحيان تفشية للافهام التي لا يلتقي بعضها بالبعض الآخر ، وحتى ان اولئك المعاصرين الذين شعروا بانهم مقتنعون بان تفسيراتهم قد احاطت بجوهر الموضوع يبدون احيانا عاجزين عن ادراك كيفية بروز الشهرة العظيمة . وقد كتب المؤرخ ماكس جانس حوالي نهاية القرن : « هناك شيء ما غريب فيما يتعلق بتأثير كلوزويتس ، وهذا التأثير غامض في طبعته ، كما ان كتاباته ايضا التي لم تكتمل وتنشر الا بعد وفاته قد قرئت على نطاق ضيق ، ومع ذلك فان افكاره انتشرت عبر الجيش الالماني برمته وبرهنت على انها مثمرة الى ابعد حد .

ولكن ما هي هذه الافكار التي اعتقد « جانس » انها تتعلق بمفاهيم مولتكيه الاستراتيجية والتي لم تكف الاسماء العسكرية الشهيرة في عصر ولهلم منذ شليفن وما بعده عن تقريظها ؟ ولا نجد هناك اشارة بان العصر اعتبر كلوزويتس ذا اهمية من اجل ابحاثه عن الحرب بوصفها ظاهرة سياسية واجتماعية او من اجل تلك الصيغ كالتمييز بين الحرب الشاملة والحرب المحدودة، وبالتأكيد ليس من اجل اشهر انجازاته : اخضاع قضايا النزاعات المسلحة بين الامم الى التحليل الجدلي للفلسفة الالمانية المثالية . ان هذه الميزات قد لوحظت في الحقيقة ، الا ان الاهتمام بخدمة الضباط والعاملين والمعلقين تركزت على وجوه مختلفة وثانوية من عمله . وهنا واجه الباحث النظري العسكري المصير المشترك مع شخصيات اخرى من العهد الالماني الكلاسيكي ، وهم رجال قاموا لزمن قصير بافكارهم وكتاباتهم بمزج النظرة الكلية بدقة الادراك وبالحساسية نحو وحدة الافراد والثقافات . ومن الشعراء امثال « غوته » ، « هولدرلين » لم يسأ فهمهم بفظاظة اكثر مما اسيء في العقود التي سبقت وتلت تأسيس الريخ الالماني الثاني . وكم كان من الاسهل اتباع الخطأ عند هبوط المرء من سماء الادب والفلسفة الى منطقة الفعالية تلك التي طالب « جيرهارد ريتر » بان تسمى بالمهارة وليس بفن الحرب .

وقد صادفت حياة كلوزويتس نقطة من اعظم نقاط التحول في تاريخ ادارة الحرب . وفي عام ١٧٩٣ بعد ان قضى ثلاث عشرة سنة كملازم بحري بروسي ، ساهم في المرحلة الاولى من محاولة الحلف الملكي الاطاحة بالنظام

الجديد في باريس . وخلال العقد التالي ، راقب في موقع حامية « براند نبورغ » ومن ثم كطالب في اكاديمية برلين الحربية ، ديناميكية الشعب الفرنسي الجديدة وآلتها الحربية كيف تطورت ، واصبحت مندمجة في نظام ، وبسطت نفوذهـا عبر اوربا . وان اسبق نشراته التي لا تزال محفوظة والتي كتبها قبل سنـة من معركة « اوسترليتز » ، تبرهن عن الوثوق والذي قبض به على ناصية الامور الاساسية في الاستراتيجية النابوليونية . وقد اسر في حملة تشرين عام ١٨٠٦ وبعد عودته من الاسر في « السواسون » ، التحق بالرجال الذين جاهدوا لاعادة تنظيم المؤسسات العسكرية البروسية في قالب ثوري . ومن عام ١٨١٢ حتى عام ١٨١٥ حارب ضد اساتذته الفرنسيين . وبعدئذ مرت خمس عشرة سنة من التأمل والكتابة تلتها في عام ١٨٣١ جولة اخيرة من الواجبـات في الميـدان اقتضاها ظهور الوطنيين البولونيين ــ وكانت نموذجا من النزاع لم يبنى على اسباب لها صلة بالدولة بل على دواع غير منطقية ونفسية وكان قد تنبأ بمراميها المتنامية مرارا في مؤلفاته .

ولم يكن كلوزويتس ليدرك منذ البداية ، وحتى في الجيش البروسي ، بان ثورة في ادارة الحرب قد قامت فيما وراء نهر الرين . وقد بحث ضباط عديدون في عام ١٧٩٠ في اسباب انتصارات الجمهوريين وترينـا تقاريرهـم ومناقشاتهم ومقترحاتهم التي امتلأت بها المجلات العسكرية الدورية ان قلـة منهم قد عجزت عن ادراك بعض وجوه التفسير . ولكن في احيان كثيرة كانـت اراؤهم مجزأة ويغمرها ظل من الافكار والتحاملات المسبقة النظرية وقد تبدد تبصرهم المتحيز في عشرات من التبدلات الادارية والتكتيكية الصغيرة التي اجرى تجاربها الجيش البروسي في السنوات الاخيرة قبل كارثة « جينا » . ومن بين اولئك الذين كانت رؤيتهم اكثر وضوحا يعد « شارنهورست » الرجل الـذي ادخل كلوزويتس الشاب في دراسة الحرب المنظمة وفيما بعد ، في سنوات الاصلاح ، ابتدأ بالاعتماد عليه كمساعد مقرب . ولم يعبر « شارنهورست » عن تحقيقه عن تراجع الجيوش الملكية غير المتوقع باصطلاحات عسكرية حصرا . فقد كتب في عام ١٧٩٧ « ان اسباب هزيمة الدول الحليفة يجب أن تكون محتواه في اعماق ظروفها الداخلية وفي ظروف الوطن الفرنسي ــ واضاف بانه يقصد

العوامل النفسية كما يقصد العوامل الطبيعية وان تحليلاته بدءا من الاسباب السياسية للحكومات المتضادة والى الفاعلية المقارنة لتنظيم سرية مشاتهم والى التكتيك ستظل من احسن ما خلفته حرب الحلف الاول . ولكن لم يكن لدى « شارنهورست » اية رغبة في ان يباشر في دروس المعارك والحملات الخاصة لينتقل الى البحث الفلسفي عن الحرب على هذا النمط . اذ انه كان مصلحا عمليا ، غير متأثر بصورة مدهشة برجال الدعاية سواء من النظام القديم ام من النظام الجديد ، الذين كتبوا مستهدفين اقناع رجال الدولة والعسكريين في اوربا بانه بدون تبدلات في الاستراتيجية والادارة والتدريب لن تنجح جيوشهم مطلقا بمواجهة التهديد الفرنسي . وعلى الرغم من ان كلوزويتس كان يتطلع الى مهنة محتملة ومن انه يميل بشدة الى الدقة الفنية في مهنته فقد كان ميالا الى زيادة في الاتجاه النظري . وكانت ظروفه الخارجية ايضا مختلفة عن ظروف ذلك الرجل الاكبر منه سنا . وقد كتب مؤلفاته فترة نضوجه عندما كان الامبراطور قد مني بالهزيمة ، ولم يعد من الضروري آنئذ تكييف المرء لحججه بالنسبة للمتطلبات النظرية والسياسية لذلك الزمن . وقد آن الاوان لتقييم التجربة النابولونية وتحديد كم كانت ذات مدلول عن الحرب بصورة عامة . واخيرا لهدم الاستراتيجية التقليدية للنظام القديم ولاولئك الكتاب الذين احتفظوا بمفهومه التقليدي في العهد الجديد وحاولوا ان يسقطوا لا محدودية الحرب وعنفها في شباك « المبادىء العلمية » التي جددوها .

اما القيمة القتالية لكتاب « في الحرب » فلا يمكن اغفالها ابدا . ولكن القراء في النصف الثاني من القرن حاولوا النظر الى الكتاب وكأنه خط في فراغ ـ فقد كانوا مضطرين في استشهاداتهم للاشارة الى التغيير التكنولوجي الى يوم قام فيه المؤلف بمشقة بتحويل تلهفهم الى تطبيق لنصوصه على قضاياهم الخاصة . وان نوع التحريف نشأ عندما رفع الكتاب من التربة التي غذته ، يماثله في ذلك التأويل الذي احاط بنظرية كلوزويتس عن اهمية الاعداد المتفوقة . وقد اعطى انصار فكرة الامة المسلحة ووزراء الحربية ورؤساء الاركان في قارة اوربا قبل عام ١٩١٤ قيمة مطلقة الى تلك الحجج كما فعل مؤخرا النقاد بصورة غير ودية بحكمهم على المؤلف بانه بشير القوة الفاشمة الذي اوجد

بتفكيره تغطية عقلانية للنزيف الدموي الفظيع في الحرب العالمية الاولى . وكانت ضغوط العصر قوية في الواقع بحيث تؤدي الى خداع القراء بموقف قد حدده المؤلف باقصى درجة من الوضوح . وكان مهتما كما قال كلوزويتس ، بمقاومة « فكرة غريبة » انتابت رؤوس بعض النقاد ، وبموجبها يكون للجيش حجم يعتبر احسن الاحجام ، وهو حجم نموذجي ، تصبح بعده كل القوى الاضافية عبثـا بدلا من ان تكون ذات نفع » . وكانت نظريات هـؤلاء الكتاب ـ وقـد سمى كلوزويتس منهم « مونتالامبيرت » ، و « تامبلهوف » ، و « ماسنباخ » وآخرون ـ مرتكزة على معرفتهم للقيادة المعاصرة ونظام التموين . وعندما حـدث التغيير بتطور الخطوط الحديدية وكل اشكال الطرق العامة وتم انشاء جهـاز اركان فعال او ببسـاطة ـ وبدلالة اكبر ـ مع نمو نظرة جديدة تجاه القتـال لدى القادة والجيوش ، فان مفهوم حجم الجيش المثالي فقد كل قيمة كان قد استحوذ عليها . ومع ذلك ، كان من غير الضروري انتظار الاختراعات المقبلة ، فالتحليل المنطقي ، الذي لا يمكنه قبول التحديدات لامتداد العنف او درجة القدرة التي يتطلبها ، قد اظهر فراغ مثل تلك القوانين الرياضية المستقرة لادارة الحرب وحتى انها فعلت ذلك باقناع اكثر . وان اللهجة القوية التي استعملها كلوزويتس في مناقشته للكتابات العقلانية في القرن الماضي كانت مناسبـة للموضوع ـ اذ لم تكن ابدا مقصودة ولا ملائمة لتصلح قواعد مقررة .

زودت حملات فريدريك والثورة الفرنسية ونابوليون كلها سوية يضاف اليها عجز النظريين عن تقرير التنوع ، كلوزويتس بالمادة لكي يبني عليها ادلته. الا ان هدفه كان خلق عمل ذي فائدة مستديمة . وقد ساعده في هذه الغاية طبيعة ادارة الحرب في ذلك الحين . وكان النظام المطلق قد حافظ على مؤسساته العسكرية في عزلة اجتماعية ومهنية واستعملها بصورة عامة بحذر لحمايـة سياسة محدودة . وقد هدمت تسعينات عام ١٧٩٠ هذه الحواجز . وغدت الحرب من جديد موضوعا للشعب ككل واتخذت بصورة كاملة طبيعة مختلفة او على الاصح اقتربت اكثر من طبيعتها الصحيحة ، ومن كمالها المطلق ولم يكن للطاقات التي عبئت اية حدود ظاهرة ، بل انها بدلا من ذلك اختفت في الطاقـة والحماس اللذين تحلت بهما الحكومات ومواطنوها ... فالحرب المتحررة من

كل عقدة اصطلاحية اندلعت ثانية منطلقة بجنونها ألاولي . بهذه العبارات تنبأ كلوزويتس عن المستقبل كما وصف الحاضر على الصورة نفسها . وفي الحملات التي اشترك فيها بنفسه ، قدر القوات التي كانت ستتميز باللجوء الى الحرب في علاقات الدول خلال القرن والنصف المقبلين . الا انه كان له السبق بمعرفة تلك القوات في دور مبكر من التطور . وكانت ثورة اوربا قد بدأت بشكل ضيق ولكنها لم تكن بعد قد تقوت بالتقدم التكنولوجي . وكان بامكان كلوزويتس مناقشة الحرب بذهنية غير مثقلة بتجديدات الاسلحة وبالمبالغات النظرية التي اربكت الاجيال فيما بعد . واذا وجدت المكونات الرئيسية للحرب الحديثة مسبقا فان التعقيدات لم تكن قد تراكمت بعد الى حد يمنع حدوث تحليل عالمي لها .

واذا ذكرنا الخطوط الكبرى لهذا التحليل فان ذلك يكفي لرسم الفجوة التي تقوم بين الكثير من افكار كلوزويتس والمواقف تجاه الحرب التي سادت النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد انطلق كلوزويتس من الاعتقاد بانه حتى قضايا العمليات لا يمكن السيطرة عليها من وجهة النظر العسكرية البحتة . وليس حتى على كتيبة واحدة ان تشتبك القتال لاعتبارات سياسية ، بل ان مهمتها ونظريتها وتنظيمها تنبع من مصادر ينطوي عليها المجتمع والسياسة والتكنولوجيا . وقد كتب كلوزويتس بان الحرب ليست منطقة معزولة من النشاط البشري بل على الاصح انها امتداد للسياسة باشكال مختلفة . فالحرب تعبير عن حياة سياسية ، مفرغة في قالب اجتماعي ، ومادي ، وصفات نفسية لكل جيل . انها عمل قوة يمارس لاحداث تغييرات في السياسة المعادية ويجب ان تكون غايته النهائية تدمير ارادتها ووسائلها التي تمكنها من المقاومة . وللعنف ميل للتسارع . ومع ذلك فان مفهوم العنف الكامل الذي يزود النقطة اللازمة التي يشار اليها في سير التحليل يتبدل في الواقع بالمصالح السياسية ، وبالقوى المادية والروحية ، وبالاشياء الحياتية التي لا تدخل بالحسبان . ان السياسة تحكم موضوع القتال والوسائل المستخدمة والاهداف التي يجب بلوغها . وهذه العوامل مجتمعة تحدد صفة كل حرب خاصة : اذ ان بعض الامم قد تحارب في سبيل وجودها ، او من اجل الهدف السياسي ويكون الهدف

العسكري محدودا ، يتبعه نقص في القدرات المعبأة . ولما كان الواقع يبدل مثالية العنف الكامل ، كذلك تكون الحوادث والمشاعر ، وصدمات الحياة ، ذات علاقة بتطبيق الخطط سواء اكانت تطبق على سرية ام على جيش : ان الاشتباك في الحرب هو حركة في مقاومة ناقلة . ويجب ان تكون النظرية والتطبيق العملي على علم احدهما بالآخر الا انه من الخطأ انتظار تطابقهما . فالنظرية يجب ان تدخل في حسابها التنوع اللانهائي للحرب الفعلية وتتجنب الصفة المقيدة التي تنتمي الى اي تحليل كان . وغايتها لا تكمن في ايجاد دليل للاشتباك بل مساعدة المحاكمة العقلية المثقفة وتوفير نماذج مثالية تقاس بها وتقدر الاشكال التي تتخذها الحرب حقيقة .

وكانت الاجزاء التي استوعبت من حجة كلوزويتس في النصف الثاني من القرن هي القيود التي فرضها على دور النظرية ، ومناقشته التكميلية لامور الحرب التي لا تدخل في الحسبان . وهذا ما عبر بصورة تحليلية عن النظرية البروسية في ايامه ، كما برزت من حطام المناورة الاستراتيجية التي اعقبت العهد الفريدريكي والتي اثبتت وجودها في حرب التحرير . وقد اصبحت عدة عوامل ذات علاقة مألوفة : الحجم المتنامي للقوات المتوفرة ، وخفة حركتها المتزايدة ، التي اصبحت ممكنة بوجود ادارة اكثر مرونة ومصادر تموينية اشمل ، والاهمية الجديدة للمعركة ، وضرورة وجود درجة اعلى من المبادهة العملياتية من قبل القادة المرؤوسين . وقد اعتمدت فاعلية النظرية على هدف استراتيجي مشترك وعلى تنسيق حازم من قبل القيادة العليا . وكانت مهمة الاركان العامة ، التي تقوم بجمع واجبات التعليم والتخطيط مع سلطات في بوتقة واحدة ، تأمين هذين الامرين . وبالنسبة لتطوير هذا التنظيم تبوأ كلوزويتس مكانا خاصا بوصفه جنديا وكاتبا . وبعد انتصارات ذلك التنظيم في عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ شاعت شهرته عالميا ، على الرغم من ان العديد من استجابات هيئة الاركان لمشاكل الحرب في عصر تسوده المادة والقوميات العدوانية لم تتوافق مع افكاره . وقد اصبح رمزا : الضابط المثقف الذي تغلب على **العسكري الفظ** . وقد قوي مركزه في المانيا برؤياه الاسطورية السنوات الاولى من القرن . وكان كلوزويتس في حياته بعيدا عن العامة ، وكان

تطرفه مدعاة للخشية ونتيجة لذلك لم يكن مستقبله المهني لامعا على الرغم من ان مهنته محترمة وكان هو شخصيا خائب الامل . وبعدئذ وفي عهد ريخ وبلهلم اصبح مبجلا كشاهد مثقف لعهد الاصلاح ، وكنظري على مستوى القادة العظام الموهوبين ــ امثال بلوخر ويورك ــ واجتذبت كتبه الاهتمام الوطني نفسه الذي احاط بتحليلات حملاتهما . الا ان وجهة نظر كلوزويتس ذات النزعة العالمية ، شأنها شأن مثالية الفلسفية ، جنح خلفاؤه الى النظر اليها كتقاليد لجيله وكطرائق فكرية وانشائية اكثر مما هي صفات مركزية لمؤلفاته . ولا يمكنها ان تكون الا قليلا اكثر من ذلك حتى التضخيم الذي اضفاه كلوزويتس على العلاقة بين السياسة والحرب ــ وهي تشكل انعكاسات متقابلة دائمة يسود فيها عامل السياسة ــ فانه يجري مباشرة ضد الحركة الرئيسية للتفكير العسكري الاوربي . وقد كان الاحتفاظ بهذا النحو عندما اعيدت لاول مرة طباعة النسخة الالمانية من كتاب « في الحرب » ، عام ١٨٥٠ ، هو ما حدا بالناشر الى الابهام ان لم نقل الى قلب المقطع الذي رجح تفوق القيادة المدنية على القيادة العسكرية تماما حتى في زمن الحرب . وكذلك فان الاحترافية التي وسمت بثبات نفوذها على الرغم من معارضة الحكومة والجيش نفسه ، بدأت من نزاع مولتكيه مع بسمارك المتعلق بقذف باريس الى ذلك التقدير المبالغ فيه لما هو فني محض والذي لقي اشهر تعبير كامل عنه في خطة شليفن .

وقد حوى كتاب (في الحرب) اقساما رآها قراء العهدين الولهلمي ــ والفيكتوري ــ اكثر تلاؤما مع ميولهم . وكان مما تميز به كلوزويتس ان ابحاثه النظرية لم تبتعد كثيرا عن محك الحياة الواقعية ، فعندما سار حبل المنطق بشكل جيد قطعه قائلا : « ان مثله مثل نباتات كثيرة لا تحمل ثمارا الا عندما لا ترتفع سوقها عاليا اكثر مما ينبغي وهكذا هي الحال في الفنون التطبيقية يجب الا تكون اوراق النظرية وبراعمها مسموحا لها بالنمو اكثر مما ينبغي بل يجب ان تبقى قريبة الى التجربة ــ وهي مجالها الخاص بها . وكانت التحليلات الاستراتيجية والعملياتية قد شرحت الحرب الحقيقية ، وعلى اساس ذلك طور كلوزويتس ما كان يمكن تسميته بالمقولة الثانية من المقترحات وهي وجود علاقة متبادلة بين الهجوم والدفاع ، ومفهوم النقطة المتصاعدة الى الذروة ،

ونظرية ان الهجوم يضعف كلما تقدم وانه اضعف اشكال الحرب مع اكثر الاهداف ايجابية بينما يكون الدفاع اقوى الاشكال مع اكثر الاهداف سلبية . ومع ان هذه الحجج على درجات متفاوتة كما هي حال الحجج الاخرى فقد كانت توحي بعوامل يمكن توفرها في جميع النزاعات ، الا انها بالضرورة قد عكست الاوضاع الخاصة بالعهد النابوليوني على وجه اسرع مما فعلته افكار كلوزويتس من حيث الطبيعة الاساسية للحرب . ولكن لما كان قراؤه يتجاهلون الحوار الجاري مع محللين آخرين والذي كان واضع كتاب (في الحرب) منهمكا فيه فانهم سلطوا ضوءا على المحتوى التاريخي وعلى الوظائف المنهجية لتلك القضايا . وقد وافق قراء كلوزويتس على ان النظرية يجب الا تستهدف ان تكون علما بكل شيء ، وبالواقع فانهم ذهبوا الى مسافة ابعد منه بمطالبتهم بالا تكون مساوية في ضرورتها التجربة العملية وثابروا مع ذلك على البحث عن النظرية كوصفات من اجل العمل . وبصورة رئيسية ان ما سيطر على التفكير العسكري في جو تلك الازمنة الواقعية انما كان موقف جوميني وليس الموقف الكلوزويتس ولا يمكن لكتاب (في الحرب) ان يتجنب اعتباره نوعا من الكتب العملياتية .

وكانت النتيجة خليطا من سوء الفهم عانى منه تفسير كلوزويتس الى درجة كبيرة في العصر الحاضر . ان الذي اثر في هذا التخبط في السياسة العسكرية يمكن استنتاجه من ان بعض المراقبين على الاقل اعتقدوا انه كان من الممكن الاشارة الى النتائج المباشرة ومثال على ذلك ان احد ضباط هيئة الاركان الالمانية كتب ، قبل الحرب العالمية الاولى ببضع سنوات ان ضعف الاستطلاع الاستراتيجي البروسي في حملة كونيفراتس كان ناشئا بصورة كبيرة عن حقيقة ان الاستطلاع في تعاليم الجنرال فون كلوزويتس الذي كان معتبرا حتى عام ١٨٦٦ اول مرجع واشهره في كل أمر يتعلق بالحرب ، قد نوقش بشق النفس . وقد اشير الى اخفاق كتاب « في الحرب » بالانصراف بصورة خاصة لمعالجة القضايا الواقعية كما ابدي الاسف لذلك وهناك بعض النقاد كالجنرال « فون شيرن » قد توصلوا الى الاستنتاج ان كلوزويتس قد حلل بصورة رئيسية تلك الصورة الغامضة من الحرب التي لا يمكن مطلقا تلقينها .

وكان هناك استثناءات من هذا التشوش الفكري ، في صفوف العسكريين كما في صفوف الدارسين ، الا ان تفكيرهم كان له اثر مباشر ضعيف . وقد وجد ماركس وانجاز في صفحات كتاب كلوزويتس تثبيتا مدرسيا مرضيا لرأيهما بان الجيوش والحروب « تعكس الصلة بين عوامل الانتاج وبين بنية المجتمع » ، وان الشكل الذي تتخذه الحرب تحدده طبيعة السلطات المشتبكة . وقد طبق معاصرهما ، « ولهلم روستو » ، وهو ملازم بروسي ذو معتقدات تحررية انهى مهنته العسكرية كرئيس لاركان غاريبا لدى ، تحليلات كلوزويتس التاريخية في دراسته للمؤسسات الاوربية العسكرية مع محاولته في غالب الاحيان ، بمعرفة غير وافية ، ان يرسم التأثيرات المتقابلة للتكتيك ، والاستراتيجية ، والنظرية السياسية ، والسياسة . وقد اثر « روستو » بصورة بالغة على مؤرخ اعظم هو « هانس ويلبروخ » الذي حقق مؤلفه الرئيسي ما كان متوقعا من عنوانه كموضوع للماجستر وهو « تاريخ فن الحرب في اطار التاريخ السياسي » . ان التأثير الذي يمكن ان يكون للبحث العلمي عن الماضي على سياسة الدفاع المعاصرة لم يكشف عنه بصورة واضحة مثلما فعلته — على حد قول ديلبروخ — اعادة اكتشاف حجة كلوزويتس بان الاستراتيجية الفعالة ليست بحاجة الى ان تبنى على حرب ابادة ، بل باستطاعتها ايضا استخدام وسائل واهداف محدودة . وقد عارضت هيئة الاركان العليا وحلفاؤها في المجتمع الالماني الاكاديمي هذه النظرية على اساس كاريخ وكذلك على اساس عملياتي عشرات السنين . ولم تتضح تطبيقاتهم العملية لمعارضتهم حتى عام ١٩١٤ . وكان بين العسكريين المحترفين الالمان الجنرال « فون كايميرر » الذي حاول قبل جميع الآخرين ان يقنع زملاءه الضباط بقيمة التفكير المجرد لدراسة الحرب الحديثة . وفي انكلترا خلال الفترة نفسها قام « ج. ف. ر. هندرسون » بدمج مفاهيم كلوزويتس مع خصائص الجندي الامبراطوري ضمن عدد من المقالات عن الحرب ، والاستراتيجية ، والنقد العسكري التي احتفظت بقيمتها حتى وقتنا الحاضر .

ان الدافع الرئيسي الذي حدا يمثل هذه الافكار المتباينة لقراءة كتب كلوزويتس بشيء من عقلية المؤلف كان تفهمهم لحقيقة كانت دوما واضحة

وضوحا ذاتيا للجميع باستثناء اضيق الباحثين : ان الحرب تسمو فوق ما هو عسكري محض . اما ادراك تأثير السياسة والسياسيين على العمليات فلا يتطلب ولا شك تشابها في وجهات النظر السياسية . كما انه لا يعني بالضرورة القبول بالاتجاهات السياسية التي يمكن تمييزها في كتاب (في الحرب) او في تواريخ الحملات . وبالتأكيد لم يلمح الى هذا الا فيما ندر . وكان كلوزويتس على العموم بتوسعه بنظريته قد اعتبر ان القيادة السياسية العقلانية مضمونة : اننا نعتبر امرا مسلما به بان السياسة تمزج كل مؤسسات الادارة الداخلية ، بما في ذلك ما يتعلق بالانسانية . فالسياسة اخيرا ليست شيئا في ذاتها بل هي فقط الممثلة بجميع هذه المصالح تجاه الدول الاخرى . ويمكن لهذه السياسة ان تسلك اتجاها خاطئا اذ انها قد تخدم الطموح والمصالح الشخصية او غرور الحكام ولكن لا مرتكز لها هنا ... اذ اننا يمكننا ان نعتبر السياسة كممثلة لجميع مصالح المجتمع فقط . وقد اشار في مقاطع نظرية وفي استشهادات عديدة تاريخية الى الروابط المتقابلة بين المجالين المدني والعسكري، ولكنه نادرا ما عبر عن حكم بشأن حكمة السياسات ذات العلاقة . وقد عبر بصراحة اكثر عن آرائه السياسية في الرسائل وفي تلك المخطوطات التي لم تضمها مؤلفاته . وتكشف قراءة تلك النصوص عن تناقض ظاهري . ان القرن الذي الف نظريات كلوزويتس العسكرية ووجدها صعبة القبول ، عمل في بعض النواحي بالتناسق مع وجهات نظر كلوزويتس السياسية التي ظلت على وجه الاجمال غير معروفة .

ولم تظهر مقالات كلوزويتس في المواضيع السياسية واوراقه ورسائله التي تعالج المسائل العسكرية من وجهة نظر سياسية ، مطبوعة الا متاخرة حوالي اواخر القرن . واول ما نشر ، في عام ١٨٥٨ ، كان مقالا عن تورط الميشيا الاجتماعي والسياسي في الدولة البروسية . وقد شاهد ١٨٦٩ ظهور الجزء الثالث من سيرة حياة غنيزنيو للكاتب بيرتز الذي تضمن المذكرة الدبلوماسية التي كتبها كلوزويتس عام ١٨١٢ لتبرير اولئك الضباط ، بما فيهم هو نفسه ، الذين كانوا يفضلون الاستقالة من مناصبهم على

ان يخدموا تحت قيادة فرنسية ضد روسيا . وفي سيرة حياة كلوزويتس التي نشرها شوارتز عام ١٨٧٨ طبع مراسلات كثيرة كما طبع مخطوطات عديدة في مواضيع سياسية . وبعد مرور عشر سنوات على ذلك شعر القسم التاريخي في الاركان العامة اخيرا انه يستطيع السماح بنشر دراسة كلوزويتس عن بروسيا في عام ١٨٠٦ ، بعد ان لاحظ بعض المؤرخين تعليقات غير لائقة . ابداها بعض المؤلفين عن الاشخاص والاحداث . وقد تم نشر رسائل اخرى ومخطوطات اثناء الحرب العالمية الاولى وبعدها .

وان كتابات كلوزويتس السياسية ليست فقط منتشرة في الاثا رالادبية التاريخية والمجلات الدورية بل هي مبعثرة في محتواها ومعالجتها . وكانت هذه المقاطع وليدة الصدفة ومتسببة عن احداث خاصة «كمراسيم كارلسباد»، والثورة الفرنسية عام ١٨٣٠ ، والعصيان البولوني . وعلى الرغم من تقديره بان طبيعتها السياسية هي امر اساسي لدراسته « فن الحرب » ، فان المواقف السياسية التي بنى عليها كلوزويتس نظرياته العسكرية لم تكن بحد ذاتها لتتطور الى تشكيل قواعد نظامية . ولم تشكل الاسس التي بنيت عليها ابحاثه على نظرية تخص العلاقات الدولية او على الاعتقاد بصحة نظام خاص سياسي واجتماعي ،. وانما على نفاذ البصيرة في طبيعة السلطة . وان توحيد عناصرها يشكل اهمية للفعالية السياسية . وبدءا من المقالة الاولى عن الاستراتيجية لشاب يبلغ الرابعة والعشرين والى التحاليل عن المجتمع القومي الاوروبي التي وضعت خطوطها الاولية قبيل وفاته ببضعة اشهر تكشف كتاباته عن سحر موطد مع طاقات يمكن خلقها بمزج استثمار مقرر لموارد البلاد الاجتماعية والاقتصادية تصاحبه سياسة خارجية هجومية ، او على الاقل واقعية .

وكانت الثورة الفرنسية قد علمته ان اعظم موارد الدولة المتعلقة بالطاقة السياسية انما هي شعبها . وتكون هذه الطاقة محدودة في حال انقسام المجتمع الى فئات من الطبقات والمهن ، الا انه يمكن تحريرها باعطاء كل فرد مجالا لتطوره بخلق شعور الاخلاص لديه نحو الدولة وتطابق في المصالح مع قادتها

على نحو يرغب فيه ان يصرف طاقته في سبيلها . اما الدولة فقد اكد كلوزويتس بان عليها ان تنفخ روحا في داخل القدرة البشرية .

والى جانب اعترافه بالطاقة المستقرة في الشعب – وبرغبته في استثمارها حتى اذا عنى ذلك تغييرا اجتماعيا – فقد قدر الدور الذي يمكن ان تقوم به القوى النفسية في الشؤون الداخلية والخارجية للدولة . وقد تعرض رجال الدولة الذين تجاهلوا المعنى السياسي للعاطفة ، ولما هو غير منطقي ، سواء أكان ذلك لدى الحكومات ، ام القادة ، ام الشعوب ، الى خطر عدم ادراكهم للعالم الحديث . وقد اتضح مرارا عديدة كم كان من الصعوبة بمكان لدى « ميترنيخ » اعترافه بان على نابوليون ان يسلك طريق عمل يتنافى بصورة واضحة مع مصالح فرنسا . اما كلوزويتس فلم يقع مطلقا بهذا الخطأ . فقد انتظر ان يطيع الامبراطور شيطانه ، مهما كانت النتائج . الا انه لم يغفل مطلقا تعاظم السلطة الذي ينجم بالضرورة عن نزاع ذي مصالح فردية وقومية . فلقد كانت مغامرة نابوليون في « المائة يوم » يائسة ومكلفة ، ومع ذلك فانها احاطت التاج باسطورة كان لها اثر على سير تاريخ فرنسا الاخير . ويماثل ذلك ، الموقف الذي اتخذه فريدريك الكبير ضد التحالف الاوروبي الذي اضاف طاقات الى راس المال المعنوي ، وبالتالي السياسي ، ولكن في اندر الظروف يمكن أن يسمح النظام المطلق لشعبه باجراء مثل هذه الموازنة . ولما كان حق وضع السياسة مقصورا على قلة وكذلك المساهمة في ادارة سياسة الدولة فان هذا يعني بان الحرب كانت في عزلة عن الشعب باعتبارها نشاطا مهنيا لا قوميا وكانت طبيعتها مرسومة بتوسع ، باستخدام المتطوعين المأجورين وباتفاقات تحدد مجال استعمال القسوة وشدتها . والجنود انفسهم قد دربوا على كبت كل عاطفة ومبادهة ، الى ان يصبحوا كما كانوا يقولون بصيغة مبتذلة في ذلك العهد، ارقاما في آلية الساعة ودمى ميكانيكية . وقد ادى تحرير الطاقة الشعبية ابان الثورة الفرنسية الى جعلهم مهملين . ولم يكن كلوزويتس لينفي بان الروح الجمهورية كانت اقل عالية ، وان الثورة الشعبية ظلت مثلا اعلى ، وان جيوش الثورة قد عانت من الهرب من الجندية اكثر جدا مما عاناه خصومهم الذين

لم يحاربوا في سبيل المبادىء بل في سبيل بعض الدريهمات اليومية . الا ان المدى الذي بلغته المثالية آنئذ يبدو اقل مغزى بالنسبة اليه من الامكانية الجديدة وهي ان الناس — اذا رغبوا — يستطيعون الآن ان يجعلوا من قضية الدولة قضيتهم الخاصة .

وقد كتب كلوزويتس حوالي نهاية حياته انه لا يمكن ان يكون متأكدا ان السنوات بين ١٧٨٩ ومعركة واترلو قد وضعت نموذجا للمستقبل . اذ ستحدث انقسامات عميقة بين الحكومات والشعوب مرة اخرى « ولكن » كما اردف « ان القارىء سيتفق معنا بالقول انه عندما ترمى الحواجز ارضا فانها لن تقام مرة ثانية بتلك السهولة » . ان القدرة العالية للطاقة العسكرية والسياسية لدى الشعوب الاوروبية كانت حقيقة لا تقبل الجدل بالنسبة اليه . وقدم حجة بانه خلال العهد النابوليوني والسنوات الاكثر هدوءا التي تلته على السواء كانت الحكومات والمجتمعات قد تصرفت عكس مصالحها لو انها حاولت ان تتجاهل اوسع توقف اقوى موارد الدولة التي كانت بحوزتها .

وكانت السلطة بالنسبة للكوزويتس جوهر السياسة كما ان العنف جوهر الحرب وبناء على ذلك فقد شجع تلك الظروف الداخلية التي تجعل الدولة في اقوى موقف في علاقاتها الخارجية وهذا هو السبب ايضا الذي من اجله بدا له ان التوسع في القاعدة السياسية يجب ان يظل في بروسيا ضروريا حتى بعد التغلب على نابوليون . واذا كان التاج غير راغب في ان يضع دستورا فقد كتب الى غنيزنيو في عام ١٨١٦ ، بانه ينبغي عليه ان يتخلى عن بعض سلطاته المطلقة الى ابرز رجال الدولة . واستسخف الخوف من الثورة وبصورة خاصة عندما يستند اليه كحجة ضد الميليشيا او الحرس الوطني . ومنذ اندلاعها كان احد اكثر مناصري اللاندويهر ، تصميما ليس بصورة كلية بسبب قيمته المحضة في عملياته بل لان مثل تلك التشكيلات امنت للشعب دورا اكبر في المؤسسة العسكرية وبذلك قوت مصنع الدولة باكمله . وقد كتب عندما كان اضطهاد الاحرار في ذروته ، ان بروسيا بحاجة لتسليح عموم الشعب لكي تستطيع الصمود في وجه العملاقين اللذين سيستمران في تهديدها على الدوام من الشرق

ومن الغرب . فهل على الدولة ان تخشى شعبها نفسه زيادة على ذلك ... ومن السخريات في ذلك العهد لجوء ميترينخ في مؤتمر « ايكس لا شابيل » الى اقناع ممثلي بروسيا بالتهديد الثوري الذي يشكله الطلبة والصحفيون والموظفون المدينون للدولة وكان كلوزويتس الضابط المكلف بتنظيم امن الاجتماع . .

ولكنه اذا كان قد استخف بخطر الثورة والح في طلب ضمانات دستوريه فان ذلك لم يكن بسبب دواعيه النظرية الشخصية اذ انه ابدى الاستخفاف نفسه بالشعور الوطني الرومانتيكي لدى الاساتذة والطلاب لاحراقهم كتبهم واشتياقهم لامبراطورية القرون الوسطى مثلما كان ايضا مستخفا بميترينخ وبقية « معلمي رياضة العقل البشري » اللمسويين كما اسماهم في احدى المرات . وابدى ريبته بالشعور الاكاديمي للواقعية السياسية ، وخشي من العون الذي يمدون به الرجعيين من البروسيين ، الذين استخدموا حماسهم الشديد كعذر للحيلولة دون اي تحرك نحو اي توزيع فعال للسلطة . وكان المدى الذي يمكن فيه تجنيد سلطة الدولة لتحقيق هدف علاقاتها الخارجية امرا حاسما بالنسبة للكوزويتس . ولكن طالما هي لم تجمد الطاقة الشعبية او تقوم بعمل تجاهها ، يكون لشكل الحكومة الوطنية ولطبيعة بنيتها الاجتماعية اهمية ثانوية .

ولقد كان كلوزويتس على استعداد لتقدير الصفات الخاصة بشعب ما او بدولة ما ، او التنظيمات الخاصة بهما بقدر ما كان متحررا من الافكار النظرية المسبقة . ولم يكن تجرده مع ذلك انعكاسا لعدم المبالاة ، بل كان عليه ان يقاوم لاكمال هذا التجرد . وعندما كان شابا كتب فور اخلاء سبيله من سجن افرنسي مقالا كان مغايرا للقساوة والتبجح الفرنسيين مع الالمان المخلصين والشرفاء الوطنيين . الا ان هذه المقارنة الوقحة ذات الطابع القومي والتيستشف من لفتها تأثير مدام دي ستايل ، والاخوة شليحل ، لم تكن مجرد تعويض عن سجنه . اذ انه كتب بالدرجة الاولى لاقناع الشعب الالماني بأن ليس عليه ان يخشى تجدد الحرب مع فرنسا . وكان المقال دعوة للتعبئة السياسية ، وله علاقة بكراريس هنريش فون كليست (التعاليم الالمانية) . على ان موقف

كلوزويتس قد تبدل بصورة سريعة . ففي الوقت الذي عاد فيه الى فرنسا كالفاتح كان شعوره القومي قد انهار الى درجة من الركود الذي وجده ينغص كل انسان آخر من المعسكر البروسي تقريبا . ونجد مقطعا نموذجيا في رسالة لزوجته في تموز عام ١٨١٥ انتقد فيه القادة العسكريين البروسيين اعزمهم على نسف جسر اينا ولاظهارهم القساوة تجاه لويس الثامن عشر وبذلك جعلوا انفسهم مكروهين من الشعب ومن النظام الجديد على حد سواء . وقد اضاف بان الانكليز سيظهرون على صورة احسن في احتلالهم « لانهم سيبدون بانهم لم يأتوا الى هنا بنفسيتنا المشغوفة بالاخذ بالثأر » . لم تجرفه العاطفة بالشعور القومي المجرد الذي كان مبعثه تعلق الماني مبكر بالارض الام مع انه كان راغبا في استثمار دعوتها الشعبية .

وكانت العلاقات مع الدولة بنظره موضوعا جديا الى درجة انها تختفي مع العاطفة والذريعة المعنوية . وعندما فشل قبل بضعة اشهر من وفاته في الحصول على موافقة لنشر مقالين له ، قدر ظرف اوربا بعد ثورات عام ١٨٣٠ واخذ يتوسع في وجهة النظر التي كانت في طريق الذيوع باعتبارها السياسة الحقة . وقد راى ان مصالح بروسيا والتوازن الدولي لا تؤيد تقرير المصير القومي في ايطاليا وبولونيا ، ولا يمكن السماح لاية اعتبارات تاريخية او التزامات سياسية او اخلاقية مهما كانت مقنعة بان تغير هذا الراي . ولكنه اذا كان قد رفض « الموقف الذي يبدو انه ذو علاقة بالمصالح فوق القومية » فان تحليله للموقف البروسي كان ايضا متحررا من الانحراف المعنوي . ولم يكن بالنسبة اليه ، اغرب من ان يبرز بمطالب معنوية صورية ، السياسة التي حكم هو بان لا غنى عنها لمصالح الدولة . وعند بلوغه الثامنة والعشرين كتب بانه وجد ماكيافيللي مؤلفا ذا تعاليم سامية وبخاصة في مناقشته للعلاقات بين الحكومات واضاف بان « النقطة الوحيدة التي اخطأ فيها ماكيافيللي هي انه مع قدر من عدم اللياقة سمى الاشياء بأسمائها الصحيحة » . وقد أقر بالسلطة التي تمثلها الدولة او التي قد تتسلمها كما اقر بدور الدولة في تطوير الفرد ولكنه لم يسبغ اية قيمة معنوية ذاتية على وجود اية امة بصورة خاصة او لاندفاعها نحو سلطات اعظم .

ان ذلك يوحي بحدود التوفيق بين مفاهيم كلوزويتس السياسية والمواقف التي سادت العهد الولهلمي . واذا ما ادت آراؤه في السياسة الى القاء ظل على المستقبل فانها تكون قد فعلت ذلك بصورة ناقصة ومتحيزة . وقد استطاع قليلون من رجال الدولة ان يكملوا استقلاله بالرأي بينما مازال عدد اقل منهم يعتبرون الشؤون الخارجية مقياسا لكل شيء . وكان الموقف الدبلوماسي والعسكري لكل امة قد ضعف خلال القرن بسبب التنافر بين الطبقات وبين رجالات الدولة وجماعات عديدة من المحكومين ولكن الامم مع ذلك كانت تتعلم لصهر مجتمعاتها من اجل المنافسة والنزاع بفاعلية لم يسمع بها ، وكانت تستخدم القوة بطريقة تتفق مع نظرية التطور الآلي للقوة التي تحدث عنها كلوزويتس مع ان كلوزويتس لم يخف ابدا اراءه بجعل الانانية القومية والطبقية مثالية وهما اللتان زودتا حاليا الحرب والسياسة بنغمة متصاعدة الطبقة . وعندما اصبحت كتاباته السياسية معروفة اسيء فهمها هي الاخرى ودخلها التحريف. وقد كان اعترافه بأهمية القدرات الاجتماعية وتفهمه لاعمال سلطات الدولة من ضمن المستودع الفكري لذلك العهد ، واما مبادؤها الاخلاقية الاساسية ، التي بتعبير عملي ، قامت لاهداف محدودة في الشؤون الخارجية وللمشاركة بالمسؤوليات والواجبات ضمن المجتمع ، فقد تم تجاهلها . ويمكن اليوم ان نخلف وراءنا اخيرا غرور الشعور القومي وكوارثه . وعلى الاقل ، فان استخدام القوة السياسية والعسكرية المسيطر عليه والعقلاني قد اصبح في يومنا هذا حاجة ملحة عالميا . وبما اننا لم نعد متورطين لوقت اطول في المعارك القديمة ، فان بامكاننا تقييم كلوزويتس بتجرد اكثر مما استطاعه من جاوؤا بعده مباشرة. وان كلوزويتس بوصفه صاحب نظريات عن الحرب ومعبرا عن اوربا الداخلة في العصر الحديث معا ، قد اصبح يعني بالنسبة لهذا العصر اكثر مما يعنيه بالنسبة لعصره .

القسم الثالث

قضايا القيادة والاركان

في الجيش النمسوي من عام ١٧٤٠ حتى ١٨٦٦

بقلم

غوردون آ. كريغ

درس غوردون اليكسندر كريغ في جامعة برنستون ، وكلية باليول في اكسفورد ، وفي مدرسة برنستون للدراسات العليا حيث حصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة ، في عام ١٩٤١ . وخلال الحرب العالمية الثانية عمل في مكتب الخدمات الاستراتيجية وفي وزارة الحربية وكان في ذلك الوقت برتبة « كابتن » في الفيلق البحري الاحتياطي الامريكي في مسرح الباسفيك . وعلم التاريخ فيما بعد في جامعتي يال ، وبرنستون (حيث اصبح استاذا للتاريخ عام ١٩٥٠) . وعمل استاذا للتاريخ في جامعة ستانفورد منذ عام ١٩٦١ واستاذا فخريا في جامعة برلين منذ عام ١٩٦٢ . وتتضمن مؤلفاته كتاب « سياسات الجيش البروسي » ، ١٩٤٠ ـ ١٩٤٥ (الذي نال عليه جائزة هـ . ب ء آدامز للجمعية التاريخية الامريكية في عام ١٩٥٦) ، وكتاب : « من بسمارك الى اديناور » ، وكتاب : « فن ادارة شؤون الدولة » ، وكتاب : « اوربا حتى عام ١٨١٥ » ، وكتاب : « معركة كوينغراتس » . وكان مساعد ناشر وساهم في مؤلف : « واضعوا الاستراتيجية الحديثة » : ومؤلف : « الفكر العسكري

من ماكيافيللي حتى هتلر » ، ومؤلف : « السياسيون ، ١٩١٩ – ١٩٣٩ » ، وهو ايضا ناشر في برنستون لمؤلفات كارل فون كلوزويتس .

بتاريخ الثامن عشر من حزيران عام ١٨٥٧ احتفل الجيش النمسوي بالذكرى المئوية لتأسيس جماعة « ماريا تيريزا » وهي جمعية ضباط كانوا قد منحوا حق العضوية بسبب افعال بدرت بمبادهة شخصية وساهمت بصورة ملموسة في انتصارات الاسلحة النمسوية . وكان رئيس الجمعية الامير ميترينخ العجوز ، الذي بذل في التنظيمات العناية نفسها التي كان قد بذلها في مؤتمر ڤيينا عام ١٨١٤ . وفي الوليمة التذكارية في قصر « شوبنرن » ، التي حضرها ممثلون عن كل افواج الجيش ، أهدي الامبراطور « فرنسيس جوزيف » رصاصة من ميدان معركة « كولان » ، مطلية بالذهب ومعها لوحة محفور عليها اسم الفيلدمارشال « داون » وجميع العسكريين الاخرين الذين نالوا صلبان « ماريا تيريزا » في يوم النصر على « فريدريك » بروسيا . وفيما بعد ، وفي الساحة الخلفية لـ غلورييت ، كان هناك لوحات مرسوم عليها مشاهد من تاريخ الجيش منذ زمن « ماريا تيريزا » ، وخطابات من ممثلي البلاط تكريما للذين قضوا في المعركة في سبيل قضية عائلة « هابسبورغ » ، وصورة درامية لمشهد من معركة « أسبون » . واختتمت الاحتفالات بتمثيل مسرحية شيللر : « معسكر ولنشتين » .

ومن المحزن التأمل في كيف ان هذا الوفاء الكبير لعظمة النمسا العسكرية قد اعقبته الهزائم المذلة التي جردت عائلة هابسبورغ الملكية من نفوذها وممتلكاتها في ايطاليا والمانيا ودفعت بها سريعا الى مستقبل مجهول . وقد اعطي لهذا السقوط الفجائي من المجد ، الذي صعقت له اوربا المعاصرة ، عدة تفسيرات ؛ وبصورة خاصة حاجة الامبراطورية لوحدة قومية وعدم الوثوق ببعض جنسيات رعاياها ، وضعفها الخطير في الموارد المالية وبادارتها ، والنقص في ادوات التسلح التي نجمت عن نفقات عسكرية غير ملائمة . وكانت هذه العناصر ولا شك ذات اهمية . ان النقاش في هذا الموضوع من جهة اخرى قد جعل هزائم عام ١٨٥٩ و ١٨٦٦ تتأثر ايضا بصورة جدية بالعلاقات المدنية – العسكرية وبالخلافات التي ظلت بدون حل ، مع احترام فن الحرب ، والتي كان لها جذور في الماضي البعيد الذي احتفل به متيرينخ بالمسرحية عام ١٨٥٧ .

(١)

وكان من المناسب كليا ان يتضمن الاحتفال تمثيلية تتعلق بـ والنشتين ، لانــه عــلى الرغم من ان تلك الشخص الغامض قد لاقــى حتفــه في ايغــر قبل ارتقاء ماريا تيريزا العرش باكثر من قرن ، بقي تأثيره ماثلا في جيشهــا وفي جيوش خلفائها . وقد تم في الواقع انشاء اول جيش نمسوي جاهــز من بقايا قوات المرتزقة التي جمعها والنشتين ودربها ، عندما نظم الامبراطــور فرديناند الثالث تسع افواج مشاة وعشر افواج خيالة في ختام الحروب الدينية. وفي القرن الثامن عشر حارب بعض هذه الافواج نفسها ضد فريديريك فــي ساحات القتال البوهيمية حيث قام جيش والنشتين بمناوراته . وبعــد قرن فيما بعد استطاع فرسان « هيســن » الذيــن بــرزوا في « سكالتيــز » ، « ولانجينهوف » ان يعتبروا انفسهم متحدرين من « البابن هايمرز » الذيــن ورد ذكرهم في مســرحية « شيللر » ، وعلى الاقل كان هناك ثلاثة افواج اخرى من اصل مماثل . وفي قلعة « والنشتين » في « جيش » عاصمة « فريدلاند » تلك الدوقية التي انشأها « فرديناند الثاني » لقائده الجنرال بعد « معركــة الجبل الابيض » امضى الامبراطور فرنسيس الثاني خمســة اسابيع في عــام ١٨١٣ ، وهناك قام متيرينخ ، و « نيسلرود » ، و « ويلهلم فون هامبولد » باجراء بعض المفاوضات التي سبقت دخول النمســا في الحلف الكبيــر ضــد نابوليون . وهكذا كان لـ ولنشتين علاقة ثابتة على الاقل بانتصارات الجيوش التي اعقبت ذلك بقيادة « شوارزنبرغ » ، « وراديتزكي » . وكانت « جيتشن » ايضا مسرحا لقتال دام يوما كاملا بين قوة نمساوية ــ سكسونية والجيش البروسي الاول في جزيران ١٨٦٦ ، وهي المعركة التي كان يجب ربحها لو لم يحل دون ذلك فقدان الاتصالات مع القيادة العليا في المؤخرة .

ولكن تأثير « ولنشتين » على الجيش النمسوي اقترن باشكال اخرى غيرها ، وهي اشكال اقل خطا . وعلى كل حال ان اكثر الامور التي يمكن ان تذكر فيما يخص صاحب « فريدلاند » هي انه كان رجلا صاحب اطماع وربما رجلا غدارا ، وقد ادي غموض دوافعه بالامبراطور ذاته الذي كان قد كافأه بروقية من اجل انتصاراته الى حرمانه من سلطته ، او ربما ، الى التشجيع على اغتياله . ولم تكن مؤلفات « شيللر » بحاجة للاحتفاظ بهذه الذكرى . وليس من المقالات القول انه كان هناك على الدوام نوع من عقدة « والنشتين » في ڤيينا ؛ خلقت مشاكل مدنية — عسكرية خطيرة واقلقت علاقات القيادة في الجيش خلال العهد الجديد .

وانه لامر مذهل الا نجد الا بصعوبة ، حاكما او رئيسا لوزارة بعد عهد ماريا تيريزا ليس على درجة ما من سوء الظن بقادة الميدان المرموقين . ولعل الامبراطورة الكبيرة كانت بهذا الشأن كشذ عن القاعدة لانها ، خلافا لاغلبية خلفائها ، كانت قابلة للاعتراف بالجميل . فهي لم تنس مطلقا ان انتصار « داون » في « كولان » قد سجل نقطة تحول كبرى في مصير النمسا ، وظلت مخلصة للفيلدمارشال مدة طويلة بعد ان بدأ وزراؤها وحلفاؤها بالضجيج لاستدعائه الى البلاد . وحال حذره البالغ دون انتصاره انتصارا كاملا على « فريدريك » . وقد دفع « داون » ثمن مساندة امبراطورته بعمله الدؤوب في سبيل تجديد قوة الجيش وجعله قوة محاربة فعالة من خلال جيش كان في عام ١٧٤٠ يتألف من وحدات غير منظمة تسوده الفوضى وتنقصه القيادة والتسليح والتدريب ، وترك لخلفه « لاسي » مؤسسة اساسية متينة وقوة مقاتلة كانت تعتبر عموما مضاهية في الجودة لمثيلتها البروسية .

ان اشهر قائدي ميدان موهوبين في تلك الحقبة التي امتدت بين « حرب السبع سنوات » وانشاء حلف عام ١٨١٣ كانت صلاتهما باسيادهما الملوك اقل توفيقا . اذ كان « لودن » المنتصر في « أولموتز » و « كونيرسدورف » وغلاتز افضل من « داون » من الناحية الاستراتيجية وكان ذا تفكير هجومي يفوقه بما لا يقاس . وهو الآخر فضلا عن ذلك قد حظي بشعبية اكثر من اي قائد نمسوي منذ « أوجين سافوي » . وكان هذا سببا في فوزه بالخطوة لدى

« جوزيف الثاني » الذي لم يجد عملا لمواهب انفيلدمارشال . وقد دفــع ب «لودن» الى الانزواء الذيدام مدة ربع قرن حتى عام ۱۷۸۹ . وقبل سنة من وفاته دعي على جناح السرعة لانقاذ الامبراطور من تعقيدات حرب لم يحسنوا رسم خطتها ضد الاتراك وقد اظهر مهارته القديمة للمرة الاخيرة باستيلائـه على حصن « بلغراد » .

ان المعاملة التي لقيها من دعي في بعض الاحيان اعظم قائد جيش في النمسا بعد عهدا اوجين اسوأ من ذلك . فلقد كان على الارشيدوق « شارل » ان يواجه شكوك اخيه « فرنسيس الثاني » وعداء وزراء الامبراطور السافر ، الذيـن لم يترددوا في مناقشة استراتيجيته او حتى ادارته للعمليات . ففي عـــام ۱۷۹۳ ، مثلا ، عندما قام الارشيدوق الشاب ، اثناء ما كان يسمى فعليـــا « بمعمودية النار » ، بدفع جيش « ديمورييه » الفرنسي الثوري الى خارج مقاطعة بلجيكا النمسوية ، افسدت هذه الانتصارات الاولية برفض الامبراطور الدائم ، العامل بنصيحة وزيره توغات سواء لتقوية القوات النمسوية فـي الغرب ام اللجوء الى الوسائل الدبلوماسية لتأمين تحالف اكثر فعاليــة مـع بروسيا . وعندما تجدد الضغط الفرنسي في بداية عام ١٧٩٤ ، انكر على شارل ان يعتبر قائدا عاما مع انتصاراته السالفة المبررة لذلك ؛ مما سبب سحـق الجيش النمسوي سيء القيادة في الغرب ، من قبل « جوردان » في « فلوراس » وبعد مرور عامين على ذلك ، وعندما جعلت دقة الحالة الحرجة على الرايـن من المستحيل ابعاد شارل عن القيادة العامة ، عمد « توغات » الى الاحتفاظ لنفسه بوسيلة خاصة ، فقد عين اللفتنانت فيلدمارشال الكونت بليفارد كنائب له ، وتدخل بواسطته بالعمليات ضد العدو . وعلى الرغم من الاستياء الناجم عن ذلك والتشويش فقد خاض شارل حملتين بارعتين ضــد « جوردان » ومورو ، منزلا بكل منهما على انفراد الهزيمة ومجبرا جيوشهما على التراجع عبر نهر الراين . ولكن حتى هذا لم يوقف التدخل الوزاري في ميدان العمليات او يخفف الريبة التي كان يحاط بها شارل في ڤيينا .

وقد خلق الارشيدوق اعداء له في العاصمة لانه لم يقصر نشاطاته على

المجال العسكري . وقد اكد بقناعة كبيرة بان السياسة الخارجية لدولة ما يجب ان تحدد على اساس تقييم مواردها الذاتية ، وبصورة خاصة قوتها العسكرية وطاقتها . وفي حالة النمسا ، كانوا يصرخون من هذه القاعدة في اغلب الاحيان. وقد انتاب شارل شعور متزايد في عامي ١٧٩٦ و ١٧٩٧ بان الحكومة ترمي الى بلوغ اهداف كانت بعيدة المنال بالنسبة لاي جيش قد اضعف نشاطه كما اضعفت روحه المعنوية بحملات مستمرة ، ولم يتردد في السفر الى ڤيينا لمتابعة قضيته . وكانت هذه الاندفاعات ، رهينة الصدف ، توغر صدور الوزراء وتحنيفهم ، وكانوا فيما يخصهم لا يردعهم شيء عن التدخل في مجال اختصاص شارل ذاته ، وكذلك فقد عملوا على اثارة حفيظة اخيه . وفي عام ١٧٩٧ ، عندما جاء الارشيدوق الى العاصمة بوصفه قائدا للجبهة الايطالية ، وحذر بان السلام يجب تحقيقه لان الروح المعنوية للقوات كانت قد بلغت نقطة التحول ، فقد وجد نفسه ، كما تحدث بكاية ، « مطرودا خارج ڤيينا » . وفيما بعد برهن بونابارت الشاب على ان جميع مخاوف شارل كان لها ما يبررها ، الا ان ذلك لم يكسبه اي تقدير . وبعد ان اضطرت الحكومة للرضوخ لصالح « لوبين » ، ازيح شارل عن مركزه في ايطاليا وارسل الى « مانهايم » مغضوبا عليه ، ليتسلم زمام قيادة جيش الراين للمرة الثانية الا ان ذلك كان ضمن اوامر مشددة بوجوب البقاء في مقر قيادته الجديد ما لم يعط اذنا خاصا بمغادرته .

ولم يتحسن وضع شارل مع مرور الايام . وخلال حرب الحلف الثاني ، دفع به التدخل الوزاري المتواصل الى حد الاستقالة وكانت تلك خطوة لم يعد النظر فيها الا بعد ان اتهمه الامبراطور بالخروج عن الطاعة . ومرة اخرى احرز انتصارات ساحقة في الميدان وكانت في هذه المرة ضد « ماسينا » في سويسرا ، ولكنها ايضا طرحت جانبا بسبب تبدلات في بنية القيادة الحليفة بوحي سياسي مما اتاح للفرنسيين استعادة قوتهم .

وادى النقص الكامل للتنسيق بين الاستراتيجية السياسية والعسكرية الذي نجم عن ذلك الى افول نجم النمسا في « مارنكو » عام ١٨٠٠ . واخيرا

اضطر « توغات » الى ترك العمل وطالب الشعب بمنح سلطة اوسع الى الجندي النمسوي الوحيد الذي يؤمل ان يكون قادرا على دحر الفرنسيين في ساحة المعركة . وقد رضخ الامبراطور لهذا الشعور ، وعين شارل رئيسا لمجلس الحرب الاعلى في كانون الثاني ١٨٠١ وبعد ستة اشهر عين ايضا وزيرا للحربية والبحرية معا . واصبح الآن بعد ان جمع كل سلطات المؤسسة العسكرية بيده ؛ في مركز يخوله الشروع في اصلاحات اعتقد طويلا بانها جوهرية . ولكن هذه الفرصة المتاحة كانت لفترة محدودة . فلقد سمح له باجراء تغييرات لفترة قصيرة في قوانين الانضباط والتدريب والتجنيد وعمل الاركان .الا انه في عام ١٨٠٥ نقض الامبراطور اسس هذه الاصلاحات بقضائه على الوحدة المحدثة في النظام العسكري باعادة المستشارين الحربيين كمجموعة منفصلة ، وتجريد شارل من كل نفوذ عليها . وحتى انه زعزع سلطة الارشيدوق في قيادة الجيش بصرفه لمساعديه الرئيسيين وتزويده برئيس اركان كانت افكاره معارضة لآرائه بشدة هو الجنرال « ماك » ، الذي اعتقد فرنسيس بانه يتمتع بمواهب عسكرية تضاهي مواهب اخيه في العظمة . ورافقت هذه التغييرات المشبطة للعزيمة اندلاع حرب عام ١٨٠٥ ، التي ارسل شارل اثناءها الى الجبهة الايطالية ، بعيدا جدا بحيث لم يستطع منع هزيمة «ماك» الساحقة في «اوسترلتز» ، التي قضت على كل شيء كان قد انجز منذ بداية القرن .

وبعد عام ١٨٠٥ اخذ شارل على عاتقه اجراء الاصلاح للمرة الثانية بنجاح كاف لتهيئة الجيش للمجهود العظيم عام ١٨٠٩ ولاول هزيمة واضحة حلت بنابوليون في المعركة ، وهي انتصار النمسويين في « اسبرن » . ولكن اذا كانت « اسبرن » ذروة مهنة شارل فقد كانت ايضا نهايتها ، ولم يكن ذلك فقط بسبب حدوث معركة « واغرام » بعدها بل لانه لم يعد هناك اي عمل مقبل له . فعلى الرغم من خدماته المؤداة للدولة ، لم يكن هناك استعداد لتعيينه قائدا اعلى مرة اخرى . وعندما ازفت ساعة التحرير في عام ١٨١٣ ، لم يرض به الامبراطور ولا ميترينخ وقال هذا الاخير « نحن بحاجة الى قائد يصنع الحرب ، لا الى قائد سياسي . ان الارشيدوق يرغب في ان يصبح وزيرا للخارجية ايضا وهذا يتنامى مع وظائف القائد » .

ومن جهة اخرى لم تسند اليه القيادة العليا في الحملة التي قادت الى « ليبزيغ » بسبب تنازل نابوليون عن العرش بل اسندت الى الفيلدمارشال « كارل فيليب برنس شوارزنبرغ » ، وكان ذا كفاءة ولكنه لم يكن قائدا ملهما ، وكانت طريقته في القيادة كما وصفها كلوزويتس (ولعله مراقب متحيز) « مترددة وتنقصها العزيمة » وكان شوارزنبرغ حذرا الى حد لا يستطيع معه ان يشتغل بالسياسة ، وغامضا الى درجة لا يمكن معها ان يكسب تأييدا شعبيا كبيرا على قدر كاف ليخيف السياسيين في ڤيينا . ولكنه مع هذه الصفات لم ينج من نوع من التدخلات التي ازعجت سلفه . وفي ايلول عام ١٨١٣ طلب اليه رئيس اركانه « رادتسكي » ان يقنع الامبراطور ليس فقط بضرورة الدعم المادي المتزايد بل ايضا بالتقليل من تدخل البلاط في مجال التخطيط الاستراتيجي . وقد كتب « ان كل خطة عمليات اقترحناها حتى ذلك الوقت قوبلت بمعارضة بالسرعة نفسها التي تكلمنا بها لوضعها موضع التنفيذ . وكان لدى كل واحد ما يقوله في مجال النقد ، ولكن لم يجرب احد ما ان يضع اقتراحا افضل » . وفي شهر كانون الاول ١٨١٣ تباطأت قوة اندفاع النمسويين نحو فرنسا عندما عارض الامبراطور ومساعدوه في عبور الجيش لنهر الراين . وعندما مارس راديتسكي الضغط لاكمال الهجوم ، قال فرنسيس مازحا « يبدو كانه يود في النهاية اما ان يسجن واما ان يقطع راسه بسبب افكاره المتعلقة بالعمليات وتساءل احد مستشاري الامبراطور بغضب : (هل انت تحاول ان تكون ادهى من الامير اوجين ؟ » .

ان الخلافات بين الجنرالات والسياسيين ليست مستهجنة في زمن الحرب ، وقد يكون من الصعب وجود امة ما لا يتضمن تاريخها نزاعا بين المدنيين والعسكريين . الا ان ما يسترعي الانتباه في حالة النمسا ، هو حقيقة ان مثل هذا النزاع كان مستمرا الى درجة انه اصبح نوعا من قاعدة سياسية نمسوية . وحتى ابان الازمة الكبرى ١٨٤٨ — ١٨٤٩ ، عندما توقف مصير العائلة الحاكمة على نشاط العسكريين ومهارتهم ؛ وجد البلاط والسياسيون متسعا من الوقت كي يتيحوا لشكهم الذي اصبح تقليديا ان يتناول المهارة العسكرية البارزة . ووقف الى جانبهم ايضا في هذا المضمار الامبراطور الجديد

فرنسيس جوزيف . ففي ١٣ شباط ١٨٤٩ واثناء الحملة الهنغارية بقيادة الفيلدمارشال « وندشفراتس » ، نشرت صحيفة « الفانيار زايتونغ » اشاعة تقول بأن الامبراطور قرر ان يكرم القائد بمنحه لقب دوق « فريدلاند » وأدى هذا التلميح الى اسم والنشتين ، يضاف اليه ما اعتبره الامبراطور توريطا له لكي يصبح هو نفسه مجرد آلة بيد العسكريين ، الى ضجر فرنسيس جوزيف والى جعله يستجيب لاولئك السياسيين والعسكريين الذين ارادوا ان يسقطوا « وندشفراتس » لاسباب خاصة بهم .وفي نيسان ١٨٤٩ استدعي الفيلدمارشال من هنغاريا بسبب فشل حملته ضد الثوار ولم يبق لديه شيء آخر بعد ذلك سوى التطلع غير السار الى تدخل روسي لانقاذ قضية النمسا . وقد استبدله بـ « فيلدزيغمايستر لودويك فرايهر فون ويلدن » الذي كان قد لعب دورا فعالا في المؤامرة التي حيكت ضده والذي كان قد تبجح بالسهولة التي سيقضي بها على الاضطرابات الهنغارية . وكما كان شأن مثل هذه التغييرات التي حدثت في التاريخ النمسوي ، لم تكن النتائج مرضية . فقد تبخرت ثقة « ويلدن » بظرف شهر واحد من تعيينه وابتدأ بالضجيج في شبه نغمة مذعورة تستدعي الانتباه مطالبا بالطريقة نفسها التي كان سابقا قد وصفها بأنها غير ضرورية . وفي حزيران طلبت اخيرا المعونة الروسية وتلا ذلك تدخلها .

وقد كان من المسلم به ان العسكريين كانوا على الدوام موضع ريبة . وكان لدى الارشيدوق شارل وجهات نظر مستقلة عن السياسة الخارجية أوحت الى البعض بالامتناع عن البقاء في مجاله الخاص . وكان « وندشفراتس » قد وجه عشية حملته الهنغارية رسالة الى الامبراطور طالبا ألا يتخذ أي قرار وزاري بقضايا رئيسية قبل التشاور المسبق معه ، وهو طلب تذكره ولا شك فرنسيس جوزيف عندما ظهر مقال والنشتين في صحيفة « الفايز زيتونغ » وبدا « هاينو » القائد النمسوي في مرحلة تطهير الثورة الهنغارية وقحا في تصرفاته مع فيينا ومعارضا معارضة عنيدة لاي شكل من الرقابة الوزارية او حتى للاستشارة الى درجة ادت الى استدعائه .

ووقعت حوادث كثيرة من هذا النوع في سنوات الثورة جعلت الامبراطور

عديم الثقة تماما بالجنرالات القادة في جيشه ومن ضمنهم في ذلك الحين « راديتسكي » المحاط بالاحترام والذي اعتبر الامبراطور رئاسة اركانه التي سماها ميترنيك ـ « حانوت ڤيرون » ـ مركز طاقة نهديم . وقد اقنعه هذا الشعور الى ان يذهب الى ابعد من تكتيك الرقابة الذي كان يمارسه سابقوه ـ بالتدخل الوزاري في امور القيادة ، واثقال القادة بالنواب والمساعدين اللذين كانت وجهات نظرهم لا تتفق مع وجهات نظر قادتهم ـ وتركيز كل مواضيع القيادة الهامة كترتيب القوات ، والتحركات ، وشؤون الافراد في قبضته . ولما كان الافتراض بأنه يمكن ان يحيط بسائر هذه المواضيع شخصيا امرا غير واقع انشأ ادارة عسكرية مركزية لتقوم بها ووضع على راسها معاونه الجنرال « كارل لودويغ كونت غرونه فون بنشار » ، وهو ابن أحد مساعدي الارشيدوق شارل . وكان « غرونه » مطبوعا على الارادة ، والطاقة الكبيرة ، والغرور الذي لا حد له . وكانت معرفته العملية بالفن العسكري مع ذلك هزيلة بمقدار ما كانت ثقته بتفكيره العسكري عظيمة وكان في اغلب الاحيان معارضا بصورة آلية لاولئك الذين كان لديهم اطلاع اوسع فيما يتعلق بامور الجندية من اطلاعه هو نفسه ولهذا فقد لعب دورا رئيسيا في تأليب الامبراطور ضد « وندشغراتز » ، وكان دائما منتقدا لمنقذ مقاطعات النمسا الايطالية ، الذي وصفه في احدى المرات بـ « رادتسكي الحمار العجوز » . ولهذا فان وضع امور القيادة بكاملها في يد هذا الجنرال السياسي لان ذلك كان النتيجة العملية لقرار الامبراطور ، وبقي ذلك خلال السنوات العشر التالية ـ لا يمكن أن ينجم عنه سوى الاضطراب في حال نشوب ازمة كبرى . ولم يخل التاريخ النمسوي مطلقا من الازمات مدة طويلة .

(٢)

ان التخبط والعجز اللذين حلا بعلاقات القيادة بسبب ما كان قد سمي آنئذ « بعقدة والنشتين » قد تفاقما نتيجة للمواقف وللتفكير المعتاد داخل سلك الضباط نفسه ويرجع اصل ذلك على الاقل الى الماضي البعيد والى معركة « كولان » وما نجم عنها . والقول بان هذه المعارك تربح غالبا بمبادهة شخصية هو صحيح ، كما هو صحيح ايضا ان التصميم على تحمل المسؤولية يجب تلقينه لضباط الجيش ، ولكن فاعلية الآلة العسكرية تتوقف مع ذلك على الابقاء على ميزان دقيق بين الحرية والتبعية . ولم يكن هناك « كليست » نمسوي يضفي اهمية على الصفة الثانية ، ولم يكن ذلك ايضا من القيم بالغة التقدير من قبل جماعة « ماريا تيريزا » . ولعل من المبالغة القول بان صوفية ذلك النظام هي المسؤولة على نطاق واسع عن تكرر حالات الترك وعصيان الاوامر من قبل قادة الافواج والالوية او حتى قادة الفيالق في الحملات النمسوية . وكان مطمح كل ضابط الحصول على صليب « ماريا تيريزا » . وبما انه لم يكن يكتسب الا بعمل شخصي يدل على الشجاعة فان المحافظة على الاوامر بصورة جيدة كانت تبدو دائما لا تفي بالغرض .

وبصورة لا شعورية دفع هذا الامر قسما من الضباط النمسوية لان يسبغوا قيمة اكبر على الفردية بدلا من النظام وامتداد لذلك ــ على الصفات النفسية لا العقلية . وقد سرت في الجيش البروسي أيام « ديسوار » الماضية وحتى بعد ذلك التاريخ عدد من العبارات التهكمية بالنسبة « للحبر المرشوش » و « للمتحذلقين » ، ولكن ذلك خف كثيرا بعد اصلاحات العهد النابوليوني . وقد استمر الامر في النمسا على الاقل الى وقت متأخر حتى حلول الهزيمة عام ١٨٦٦ . وكانت مقاومة اية دراسة نظامية لشؤون الحرب مظهرا عاما خارج

الفروع الفنية . وبوضع اعلى واجبات الجيش في ايدي كبار النبلاء الذين نظروا الى الحرب بوصفها نوعا من رياضة الدم فقد تمت ممارسة قليل من الضغط على صغار الضباط لتغيير موقفهم . وعندما بدأ فيلدمارشال المستقبل مولينارى حياته العسكرية في فوج المشاة السادس عشر في « تريفيزو » عام ١٨٣٧ ، خدم تحت امرة كولونيل كان قد ترك كل موضوع تثقيفي وتدريبي في يد مساعد له غير كفؤ . ونتيجة لذلك ، « لم يعمل شيء من اجل التثقيف النظري أو في سبيل تحسين وضع الضباط والجنود . حتى انه لم يزعج احد نفسه ليرى ان عددا كبيرا منهم لا يتقنون اية اعمال تتعلق بفوجهم ومع ذلك فقد تركوا يعملون بها » . ان مثل هذه الحالات لم تكن ويا للاسف مقتصرة على « تريفيزو » .

وبعد عام ١٨٤٨ ظهر اتجاه في الدوائر العليا ليس فقط لعدم اعطاء وزن التعليم بل للتشكيل فيه . وهذا كان ، على اقل تقدير ، رد فعل الامبراطور تجاه ردة ضباط كثيرين من الايطاليين والهنغاريين خلال عام الثورة . وقد اعلن فرنسيس جوزيف على الفور ، بشرح دونه على اقتراح اصلاح رفع اليه ، « بان قوة الجيش لا تعتمد كثيرا على الضباط المثقفين بقدر ما تعتمد على المخلصين والشجعان » واضاف بان هذا يجب ان يرسخ في الاذهان عند ملء مراكز القيادة في المستقبل . وفي التطبيق العملي يمكن لهذا الوضع أن يؤدي فقط الى المحاباة بين الضباط الذين كانوا قد تعلموا بصورة واضحة ، وهو في الواقع ما كانت عليه الحالة في السنوات التي ساد فيها نفوذ « غرون » .

ومن الواضح ان تطور اي شيء في النمسا له علاقة بنظام الاركان العامة الحديث كان يتأثر بصورة كبيرة بهذه المواقف لانه من المفروض ان الاركان العامة هي مركز المعلومات ، وعقل الجيش المفكر . وباوسع المعاني ، للاركان العامة وظيفتان : أولاهما : التجميع النظامي الواسع في زمن السلم لمعلومات ذات طابع خاص يمكن ان تكون ذات اهمية لادارة العمليات المقبلة او للتهيئة الذاتية لعمليات مقبلة ، وثانيتهما ، التحضير الفكري لادارة العمليات المقبلة سواء اكان ذلك من خلال تطوير نظامي للمهارة في معالجة مواقف يسبق وقوعها

بصورة عارضة ام من خلال وضع خطط نوعية للحرب ، او كلاهما . وتتضمن الوظيفة الثانية عموما ، تدريب ضباط اركان ينتقون خصيصا للخدمة في رئاسة اركان الجيش ، او الفيلق ، او اللواء او افرع القيادة ، واعطاء معلومات ملائمة ونصائح الى الضباط القادة . وفي النمسا تطورت آلية القيام بهذه المهام ، الا ان النتائج لم تكن ذات اثر ملموس . وكما هي الحال في الاقطار الاخرى ، يرجع اصل نظام الاركان العامة النمسوي الى هيئة اركان القرن الثامن عشر ، وهي هيئة مكلفة بسائر التدابير الضرورية لعسكرة الفرق في الميدان . وفي زمن « ماريا تيريزا » بوشر بتوسيع وظائف تلك الهيئة (التي تضمنت في البداية جهازا هندسيا) وتكييفها مع طبيعة الحرب المتغيرة . وكان الفيلدمارشال « دون » رجلا يرى ان الحرب « علم قابل للادراك » ينبغي تعليمه . وحسب وجهة نظره ينبغيعلى القائد الحقيقي ان يكون ملما بالتكتيك والاسلحة والخرائط ، والموارد المتعلقة ببلاده وبالبلاد الاخرى ، وبالقضايا الفنية للقيادة ، وعليه بالاضافة الى ذلك ، ان يكون ملما بعض الالمام بالنظرية الاستراتيجية . « ان الذكاء والقوة هما الشيئان الوحيدان الحاسمان في الحرب » كما قال لمولاته الملكة . « ان الذكاء هو اهم صفة يتحلى بها الضباط كما ان الروح المعنوية العالية تماثلها بالنسبة للجنود » . وبما أن « دون » كان مؤمنا بذلك فقد شجع الامبراطورة على مساندتها لمدراسها الحربية في « فينر نوشتاد » ووجه كل طاقاته نحو مثل تلك الواجبات كتحسين فن رسم الخرائط ، والابتداء بدراسات جدية عن ادارة العمليات ، وادخال المناورات السنوية بالنسبة للجيش .

ولم تستمر قوة الدفع التي اضفاها « دون » على تطوير نظام هيئة الاركان في السنوات التي تلت مع ان « جوزيف الثاني » قد ابدى اهتماما سريعا بالموضوع . ولم يحدث تقدم جديد قبل أن يقوم الارشيدوق شارل باصلاحاته في اعوام ١٨٠٠ ــ ١٨٠٩ . وقد اصر ، شأنه في ذلك شأن « دون » ، على أن القادة الجيدين ليسوا كذلك بالولادة بل يصنعون صنعا وان مستقبل الدولة النمسوية يتوقف بدرجة كبيرة على حسن تثقيفهم العسكري . وقد حاول « شارل » وضع تدريب للضباط في نظام موحد يكون مستمرا من مستوى

ملازم صعودا حتى رتبة جنرال . وفي الوقت نفسه قرر ان يعيد تنظيم هيئة الاركان العامة باخراجه منها كل الضباط الذين كانوا قد خدموا كمساعدين او اداريين ، ويحوله الى هيئة يقتصر عملها على الواجبات الاستراتيجية والعملياتية ، وتحضير دروس فنية ودروس تتعلق برسم الخرائط وتجميع المعلومات عن الجيوش الاجنبية ، ووظائف هيئات الاركان الاخرى الحديثة . وقد قطع هذا التنظيم شوطا ابعد من ذلك بعد عام ١٨٠٩ عندما كان «راديتسكي» رئيسا لهيئة الاركان العامة . وفي عام ١٨١٠ اعيد تنظيم هيئة الاركان لتأمين اقسام منفصلة لفن رسم الخرائط ، والمخابرات والاتصالات ، وحفظ الوثائق الحربية ، وخدمة الاركان العامة (مصلحة لخدمة فروع القيادة) ، ومصلحة المفوضيات والسفارات في الخارج (بداية نظام الملحقين العسكريين) .

ويعتبر كل ذلك تقدما ، على الرغم من أن الدول الاخرى لم تفعل أكثر من ذلك في تلك الفترة . ولكن بينما كانت كانت دول اخرى تقوم بتطوير فعالية اركانها العامة (مثل بروسيا) في السنوات التي تلت عام ١٨١٥ ، كان العكس جاريا لسوء الحظ في النمسا .

وكان لذلك سبب واحد هو ان رئيس هيئة الاركان العامة شغل مركزا متواضعا نسبيا في التسلسل العسكري . وكان الارشيدوق شارل يأمل في ان يكون شاغل هذا المركز مستشار رئيس مجلس الحرب الاعلى فيما يخص المواضيع المتعلقة بالاستراتيجية والعمليات . وكان قد حدد مرسوم امبراطوري لعام ١٨٠٩ مركز القائد بهذه العبارات . ولكن لم يمنح مطلقا سلطة يحتفظ بها في وجه رؤساء الافرع في المجلس الحربي الاعلى ، وكان نفوذه يكبح دائما من قبل بيروقراطيين عسكريين كانوا ، كما قال عنهم راديتسكي ، يعرفون « عن الجيش » وعن روحه وحاجاته بقدر ما يعرفون عن ديوان السلطان . وكان هناك سبب آخر هو السبب التالي . ففي وقت مبكر من عام ١٨٢٠ شعر الامبراطور انه من الضروري اصدار امر بعدم محاولة اجراء اية تجربة مكلفة (اقامة الجسور على الدانوب وما شابه) في مناورات الخريف من تلك السنة وان على المراقبين ان يدفعوا نفقاتهم الخاصة . وقد طبقت مثل هذه الاختصارات

طوال تلك الفترة قبل عام ١٨٤٨ . وحالت توفيرات اخرى دون تطوير تدريب الاركان . وقد لعب التضييق المالي ايضا دورا في الاخفاق في توسيع هيئة الاركان العامة ونجم عن ذلك انه عندما اندلعت الثورة على الامبراطورية كان هناك فقط أحد خشر ضابطا مدربا من الاركان قابلا للخدمة في ايطاليا في الجيش الذي كان في ذلك الحين يبلغ ما يقرب من سبعين الف رجل .

الا ان الاهم من تلك الامور كلها كان اهمال اهمية التعليم بوصفه فضيلة عسكرية ، الذي انقص من احترام عمل الاركان حتى بنظر اولئك الذين اصبحوا ضباط اركان . ولقد قال « رادتسكي » (ربما لاحساسه بما سيقع) في عام ١٨١١ بان اليقظة ضرورية مخافة ان يصبح عمل الاركان العامة « ارضا خصبة لفطر ذي حظ (من المتهنين) او خشية ان يؤدي لسان ذرب ، او مقعد مريح على ظهر جواد ، او مخزون جيد من التعابير الفنية ، الى اعتبار ذلك كافيا لتأهيل رجل للخدمة في الاركان » . وعندما عين بيك ، الذي اصبح فيما بعد رئيسا للاركان ، ملازما في مكتب عمليات القائد العام لجيش ڤيينا عام ١٨٥١ ، وجد ظروفا تبرر مخاوف « رادتسكي » . وفيما عدا بعض الاستثناءات كان كل الضباط في الاركان « كسولين سعداء » وهم اما ذوو اسماء تظهر انتماءهم الى طبقة النبلاء الراقية او يتمتعون بحماية ذوي البأس . وكان من بينهم ابن تاجر خيول يعتني باصطبل القائد العام . وبعد مرور عام على ذلك ، عندما اصبح « بيك » مؤهلا للقبول في الكلية الحربية ، اكتشف بان تلك المؤسسة ، في السنة الاولى من وجودها ، كانت مهيئة نفسها لقيم ذات شأن . اما التركيز فقد كان على التعليم الحفظي كما ان ركوب الخيل قد لعب دورا مبالغا في المنهاج الدراسي .

وبعد ان اسس الامبراطور « فرانسيس جوزيف » مقر القيادة العليا العسكرية عام ١٨٤٩ ومنح ثقته التامة لكونت « غرون » اصبح الحد من نفوذ الاركان العامة ومن ضباط الاركان عموما موضوع سياسة رسمية . وقد جعل « غرون » هيئة المساعدين المنشأة حديثا ، الوكالة المنفذة لتعليماته ، ووضع في اركان الجيش والفرق مساعدين نقلوا اليه تقارير عن المهام التي اغتصبت

والتي كان يقوم بها في الماضي اعضاء من هيئة الاركان العامة . وكان « موليناري » الذي راقب عمل هذا التنظيم في ايطاليا عام ١٨٤٩ وشاهد معاون الامبراطور الجنرال « سكونهولز » يعمل كل ما في وسعه لبث الفوضى في العمل ويبطل تعليمات الرئيس اللامع لدى « رادتسكي » « هنريك فريهر فون هيس » ، سلم بان المساعدين كانوا على العموم رجالا موهوبين ، ونشيطين ووطنيين ، الا انه اضاف بانهم غير مدربين في فن الحرب ، وربما لهذا السبب غضبوا من ضباط الاركان . وبعد القضاء على فوضى الثورة اهتم « غرون » بالامر ورأى ان « هيس » الذي كان قد عين رئيسا لهيئة الاركان العامة ، لم يتجاهلوا امره فقط حتى بالنسبة للمواضيع الاستراتيجية بل ايضا اذل علنا ، وبما ان « هيس » لم يكن من اولئك الرجال الذين يقاومون ، فقد تدنى نفوذ اركانه الى الحضيض في عام ١٨٥٠ . وقد حرم من السلطة والمال والمنزلة ، ولم يبق الا اليسير الذي يمكن ان يقوم به للابقاء على الحقيقة الهامة بأن الحرب عمل معقد لا يمكن السيطرة عليه الا بالذكاء والاجتهاد . وقد لاحظ آثار ذلك على الاقل احد المراقبين الاجانب المتعقلين . ففي عام ١٨٥٤ قام الملحق العسكري البروسي الامير « كرافت زوهوهانلوه انجلفيجين » ، وهو ضابط مدفعية ساعدت بطاريته على قذف الفرق النمسوية في مرتفعات شلوم في الثالث من تموز ١٨٦٦ ، بمراقبة المناورات السنوية للجيش النمسوي . وقد ذكر بان جميع فروع الادارة كانت تشكو من نقص في التدريب والتجهيز « كما ان تدريبات الاسلحة المشتركة اظهرت ان قيادة الوحدات ، وكذلك القيادة العليا ، كانتا في وضع صبياني ، مما اثار الدهشة في نفسي » . ولم يحصل اي تحسن في السنة التالية . وكانت المناورات مخططة ومنفذة بصورة سيئة ، وبما انه لم يكن هناك اي نقد فقد بدت هدف . وبعد انقضاء يوم على التدريب ، التقى « هوهانلوه » بقائد المدفعية الجنرال « بوير فون بويرنفلد » وهو عائد على حصانه الى الاركان فسأله لماذا يبدو كئيبا . فأجابه « بوير » : (لم اتعلم اي شيء) . ومن سوء حظ النمسا ان نتائج هذا التهرب المتعمد من الذكاء ، الذي يمكن ادراكه ، لم تقتصر على المناورات .

(٣)

في عشية حرب ايطاليا عام ١٨٥٩ ، ثارت غضبة بشأن التنافر بين المدنيين والعسكريين الذي حال دون التنسيق بين القوة والدبلوماسية في ايام الارشيدوق شارل . وقد تدهورت العلاقات بسرعة بين القادة العسكريين ووزارة « الكونت بيويل شوبنشتاين » خلال حرب القرم ، لان « بيويل » كان قد عمل في ذلك النزاع للتدخل الى جانب الدول الغربية على حين ان العسكريين (بما فيهم « غرون » الذي وجد نفسه للمرة الاولى الى جانب « وندشفراتس » وهيس) وقفوا اما الى جانب الحياد واما الى جانب الولاء للتحالف الروسي القديم . وفي جلسة عقدها مع الامبراطور سفير النمسا في باريس ، الكونت هوبنر ، بعد مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ، اتهم فيها العسكريين بانهم مسؤولون مباشرة عن عزلة النمسا آنئذ ، وكانوا قد وجهوا انذارا بشأن مساعدة روسيا لم تأخذ به الحكومة مطلقا ، وبذلك زادوا في نقمة روسيا ، وفي الوقت ذاته نالوا من سمعة الحكومة في نظر الانكليز والفرنسيين . وقال هوبنر بعنف ان الاشتغال بالسياسة اصبح مرضا عسكريا ، واورد امثلة من عام ١٨٤٩ . وعموما، كان يبدو ان الامبراطور كان يؤيده في الرأي . وادار السياسيون ظهورهم في عام ١٨٥٩ متجاهلين الاعتبارات العسكرية في تخطيطهم للسياسة القومية . وقد لجأ « بيويل » في محادثاته مع الحكومتين الايطالية والفرنسية الى تكتيك كان قد خطط لجعل الحرب لا مناص منها ، على حين انه رفض في الوقت ذاته الاعتراف لزملائه بان الموقف كان خطيرا بصورة كافية لتبرير طلب العسكريين برنامج تسلح عاجل وشامل . وفي لقاءاته مع مستشاري الامبراطور كان على الدوام ينكر بان فرنسا كانت جادة بمساندتها لحكومة « بيدمونت » في اي نزاع يمكن ان ينشب . وقد ابدى ملاحظات واضحة حول تحالفات النمسويين المرتقبة مع بروسيا والدول الالمانية ، وحتى مع بريطانيا العظمى .

ووافق على ان يسافر الارشيدوق البرت ، وهو ابن الارشيدوق شارل واحد الجنود البارزين ، الى برلين ليحاول الحصول على وعد بالمساعدة من بروسيا في حالة تدخل فرنسي ، لكنه قضى على هذه المهمة عندما وجه إنذارا الى « بيدمونت » دون اعلام البرت بأنه سيفعل ذلك . واخيرا وبعد ان خلق موقفا لا يمكن فيه تجنب حرب قد تخاض باسوأ ظروفها ــ وكان هيس قد حذر بالحاح مرارا بان الانذار يجلب الكارثة ، وكان على حق.ــ غسل بيويل يديـه من كل القضية . وفي اجتماع للوزراء في ٢٧ نيسان ١٨٥٩ ، اشار « غرون » الى ان للعسكريين الحق في ان يعرفوا من هم اعداؤهم الحقيقيون ، وعلى وجه الدقة ما هي اهدافهم ، ومن بصورة خاصة سيأتي لنجدتهم ، وتساءل بحنق عما تم بوعود « بيويل » المعسولة . فاجاب الوزير بلطف بان المفاوضات لا تزال جارية الا انه يرى ان الموقف شبيه بالموقف الذي كان عليه لدى اعتلاء ماريـا تيريزا العرش . وعلى اية حال ، اضاف قائلا : « ان الاجوبة على الاسئلـة المطروحة من قبل جنرال صاحب الجلالة لم تعد في نطا قالمجال الديبلوماسي ، بل ان المسؤولية الكاملة في اعطاء اجوبة حاسمة تدخل الآن ضمن المجـال العسكري » .

ان الضرر الحاصل نتيجة هذه القضية الكلاسيكية وهي التنسيـق الخاطىء بين المدنيين والعسكريين قد (اضيفت اليه الآن قلة الدراية في تصرف العسكريين الناجمة عن التراخي الفكري في النصف الاخير من القرن . .وليس هنا مجال سرد تفاصيل الحملة الايطالية لعام ١٨٥٩ ، الا ان بعض الامور المأخوذة من السجل المحزن جديرة بالذكر . فقد سار الجيش النمسوي الى ايطاليا دون ان يكون لديه اي نظام تمويني ملائم ، او اية معلومات دقيقة عن قوة العـدو وامكانياته ، او حتى خرائط يعتمد عليها تكون مرشدة لحركاته . ويرجـع الفضل لـ « غرون » في عدم تسليم قيادة الجيش لـ « هيس » الذي كان يعرف ايطاليا حيث خدم كرئيس لاركان « راديتسكي » عام ١٨٤٩ وفي تسليمهـا لـ « فرانز » كونت غيبولاي ، وهو من اصحاب الحظوة في البلاط الا ان ثقته مؤهلاته كانت ضعيفة وادى تردده الحذر الى تهديم الروح المعنوية قبل ان يقوم بأي اشتباك فعلي بالعدو . وفي الوقت نفسه كان يعطي اذنا صماء لنصائـح

الآخرين ولم يلبث ان اصبحت علاقاته سيئة مع رئيس اركانه « كوهن » الى درجة انهما كانا يتخاطبان بالكتابة . وكانت الاوضاع في رئاسة اركان غيبولاي مضطربة الى درجة ان احد القادة قال ان المشهد قد سبب لـه اضطرابـا في معدته . ولم يكن هناك سلسلة اوامر واضحة وكان قادة الوحدات يتلقـون على الدوام اوامر متناقضة من ضابطين او اكثر من الضباط الاقدمين وكـان عليهم على الدوام استدعاء جنودهم من مهمة تافهة بقصد ارسالهم الى اخرى مماثلة . وبسبب هذا النوع من الاوضاع ضاعت الفرصة الضيئلة التي كانت ممكنة لدحر الايطاليين على انفراد قبل ان يأتي الفرنسيون بقوتهم . وفـي بداية حزيران اصبحت قوات غيبولاي في حالة تراجع تام عبر تيسينو . وقد وقعت معركة « مفتنا » في ٤ حزيران ١٨٥٩ وادت الى انسحابات جديـدة بصورة مفاجئة الى درجة ان رئاسة الاركان فقدت كل سيطرة على القيـادات المرؤوسة .

وقد اعفي غيبولاي من منصبه في ١٨ حزيـران ، وتولى الامبراطـور شخصيا قيادة الجيش ، والى جانبه « هيس » وكذلك « غـرون » وجميع اركانه . الا ان هذا التعديل لم يحسن الموقف ، الى ان شاع سريعا انه يقتضي التصديق على جميع الاوامر الصادرة عن « هيس » من مكتب « غرون » قبل ارسالها . وقد سجل « موليناري » الذي زار الاركان العامة في ذلك الوقت مشهدا يلخص كل الامور التي كانت على خطأ في ادارة الحرب .

عندما غادرت القيادة العليا للجيش « ڤيللا فرانكا » ، فقد فعلت ذلـك في صف طويل من العربات الانيقة قاد فيها الامبراطور الموكب مع مساعـد له يتبعه الارشيدوقات ثم الجنرال المساعد ثم باقي الجنرالات المعينين في المكتب العسكري ، وبعد ذلك حشد من الضباط المعاونين . وفي آخر صف العربات كانت هناك عربة تقودها جياد غير جذابة لتقل رئيس هيئة الاركان العامة وصعد اليها هيس بتثاقل وبعد بضع لحظات التفت قائلا الي « موليناري » : « لا يمكنك تصور مقدار ألمي » .

(٤)

وفي الرابع والعشرين من حزيران اتمت معركة « سولفبرينو » خيبة الجيش النمسوي وسقوط اولئك الذين دفعوا به الى هذه الحالة المؤسفة. وقد اعفي « بيويل » على الفور من منصبه . وكان هيس قد اضناه تقدمه في السن وخيبة امله ، فقدم استقالته ، وحاول غرون ان يدعم مركزه الا انه تعرض لحملة حادة من قبل اناس مثل هونبر الى حد ارغم نيه الامبراطور على تركه يذهب . وامتلأ مركز الاركان فجأة بوجوه جديدة مثل ريشبرغ ، الدبلوماسي الرزين من مدرسة ميترنيخ ، الذي حل محل « بيويل » في وظائفه . واللفتنانت فيلد مارشال « فرانزفوليو دي غرنيفيل » ، وهو جندي يعرف عن الحرب اكثر مما يعرفه « غرون » ، وكان خبيرا بالرجال بشكل ممتاز وناقدا بارعا لهم . أشغل مركز المساعد الاول للقائد العام وقد أعيد تنظيم كل المؤسسة العسكرية ، وحول المجلس الحربي الاعلى الى وزارة الحربية ووضعت تحت امرة « اوغست كونت ديجبنفيلد سكونبورغ » ، وكان رجلا شديد النشاط عازما على اصلاح الضعف الذي تكشف في ايطاليا . واخيرا جرى تعيين اشهر العسكريين منذ راديتسكي وهو بطل سولفيرينو ، « لودويك أوغست فون بينيديك » ، رئيسا لهيئة الاركان العامة .

ان هذا التغيير في التنظيم كان من شأنه تضييق شقة الخلافات المدنية والعسكرية التي نجم عنها ذلك الطور البالغ في السنوات من عام ١٨٥٤ الى ١٨٥٩ ، لان « رشبرغ » كان طوال المدة على وئام مع العسكريين . وكانت النتيجة ايضا ذات آثار هامة على قدرة الجيش الا انها كانت مختلطة . ولا يساورنا الا قليل من الشك في ان العمل الممتاز الذي قامت به مدفعية النمسا وخيالتها في حرب بروسيا وبصورة خاصة في معركة « كونيغراتس »

يعود الى النشاط الذي عالج به « ديجنفيلد » قضايا الاسلحة والتموين والتدريب . ومن جهة اخرى ، كان وزير الحربية ايضا على اقل تقدير مسؤولا جزئيا لاستخلاصه نتائج خاطئة من مراقبته للتكتيكات الفرنسية في عام ١٨٥٩ ، ونتيجة لذلك لتضخيمه المبالغ به لتكتيك الصدمة في التدريب النمسوي في زمن كانت تقرر فيه المعارك بقوة النار . ان هذا التحيز لصالح الحربة ، الذي كان يشاطر فيه الرأي الامبراطور نفسه ، قوي بالانتصارات التي احرزتها الفرق النمسوية في الدانمرك عام ١٨٦٤ . ولكن هذه الانتصارات كانت ، كما لاحظ مراقبون بروسيون مهرة ، لقاء ضحايا بشرية هائلة .

واذا نحينا كل ذلك جانبا ، نلاحظ انه لم يحصل اي تجديد في مجال يعتبر من المجالات الحيوية ، وهو اذا سميناه باسمه ، نظام الاركان العامة . لانه لايمكن مشاهدة اي تغيير مرتقب هنا الا في حال قيام احد من ذوي الشأن بتشجيع التغيير العام تجاه دور الذكاء في الحرب . واما « بنيديك » الذي قد يتمتع بالوزن الشخصي اللازم لاتمام ذلك فلم يكن مهتما اهتماما كافيا باجراء المحاولة وذلك لانه بالدرجة الاولى لم يكن لديه الوقت ليفعل ذلك : بالاضافة الى انه بوصفه رئيسا لهيئة الاركان العامة وعلى رأس هيئة اركان الفيالق، قد شغل منصب حاكم هنغاريا حتى تشرين الاول عام ١٨٦٠ وعين بعدئذ قائدا للجيش الثاني في ايطاليا . وهذا قد دل على ان اكثر اعماله في هيئة الاركان كان يجب ان يقوم بها عن طريق نوابه ، اولا ، عن طريق ، الجنرال « فون رامنغ » وثم من عام ١٨٦١ ــ ١٨٦٤ من قبل اللفتننانت فيلدمارشال « ناغي » . وكان هذا ترتيبا صعبا مخططا لاعلاء شأن سلطة هيئة الاركان وقدرها .

الا ان ما كان ذا اهمية اكبر هو حقيقة كون بنيديك ــ وهذا كان صحيحا ايضا بالنسبة للارشيدوق البرت الذي كان تأثيره في الجيش ان لم تقل في الجمهور ، يماثل في اهميته تأثير بنيديك ــ اكثر اهتماما بالمحافظة على ما كانوا يدعونه غالبا « روح الجيش القديمة » منه بالتقدم في استخدام الذكاء والخبرات التي تتصل بعمل الهيئة . وكان « بنيديك » بوصفه هو نفسه عضوا في جماعة « ماريا تيريزا » ــ وكان قد نال صليبها في كورتاتون في ايار من عام ١٨٤٨ ــ قد اعتقد بأن الحرب انما تكسب بالشجاعة والانضباط والاندفاع .

وهذه كانت الصفات التي سعى لتشجيعها في قياداته زمن السلم . ومن ناحية اخرى ، ان الضباط الذين سعوا لكسب موافقته بتنظيمهم تمارين تتعلق بالعمليات او بكتابتهم دراسات تكتيكية لم ينالوا تشجيعا . وقد ازعجته هذه الامور وكان ، كما كتب عنه مؤرخ سيرة حياة رئيس الاركان « بيك » معارضا لاي نوع عمل ينجز على طاولة خضراء وفوق كل ذلك لاي نوع نشاط علمي يبذله العسكريون .

ولكن حتى احدث مؤرخ لسيرة حياة « بنيديك » لم يكن بوسعه أن يشير كفاية الى مدى انجازه في المدة التي كان فيها رئيسا لهيئة الاركان العامة . فقد ادخلت بعض التعديلات على فن رسم الخرائط ، وعلى اقسام التاريخ والمحفوظات . ووسع دور الهيئة في برنامج المهنيين ، وانشيء قسم للسكك الحديدية . ولتجنب نوع الاحتكاك الذي في قيادة الجيش والفيالق في عام ١٨٥٩ خفض نفوذ المعاونين ، ومع ذلك لا شأن يذكر لاشارتنا الى ان « بنيديك » قد عارض في هذا الاصلاح وانه لم يكن كاملا . ومن ناحية ثانية لم يتم انجاز شيء كبير الاهمية . فقد ظل مركز هيئة الاركان العامة مبهما كما اشار الى ذلك خليفة « بنيديك » في مذكرة قدمها في عام ١٨٦٥ ولم توضح مطلقا العلاقة بين رئيسها ورئيس قسم العمليات في وزارة الحربية ولم يكن يمارس اية رقابة فعالة بشأن انتقاء الرؤساء لمختلف فيالق الجيش .

وكان مما يستدعي النقد الاشد هو الاخفاق في التأثير على الضباط بوجه عام لخلق الاحساس بالاهمية الحيوية لوجود نظام جيد لهيئة الاركان . ولم يكن لاية ضجة كانت قد رافقت نظام هيئة الاركان البروسية منذ زمن « شارنهورست » علاقة بهيئة الاركان العامة النمسوية . اذ انها بالواقع والى درجة مؤسفة ظلت تربة خصبة للممتهنين ، وهذا ما كان معروفا بشكل واسع . وعندما كان « بيك » يعمل في قسم الخرائط في تلك السنوات ، فقد كان مكلفا بمهمة وضع مخطط جغرافي لوسط المانيا ، مبني على تقارير يجب ارسالها الى الوطن من قبل ضابط اركان آخر يعمل في المانيا . ومع ذلك ، فان هذا الضابط الآخر قد اختفى في ملاهي « بادامز » . وعندما الح « بيك »

بطلب المواد اجابه بان يحفر خارج « بابديكر » . ولم نكلف الرتب الادنى بهذا النوع من العمل . وقد استطاع « هينيكشتاين » ان يكتب عام ١٨٦٥ : « لقد تساءلت ما اذا لم يكن معيبا ان يكون لنا في الوقت الحاضر اربعة رؤساء لهيئات أركان الجيش لا يتمتعون كليا باية كفاءة » .

وعندما اصبح « هينيكشتين » معبرا عن هذه العيوب ، رفض الرجل الذي كان عليه ان يقود جيش الشمال ضد روسيا في عام ١٨٦٦ ان ينظر في شكاوى زميله نظرة جدية . وقد نصح بنيديك ، على الفور ، خلفه عندما اصر « هينيكشتين » على انه لا يتحلى بالموهبة اللازمة ليصبح رئيسا للاركان ، بانه متخوف اكثر مما ينبغي . دعه يستلم العمل لفترة ثم على كل حال اذا حصل امر هام كنشوب حرب يمكنه دائما ان يتخلى عنه وان يستلم قيادة فيلق ! ان هذه النصيحة ، التي تعبر بوضوح عن رأي « بنيديك » دون تملق بشأن دور الذكاء في الحرب تفسر لماذا كان نظام هيئة الاركان النمسوية دائما مضطربا وغير فعال في عام ١٨٦٦ كما كان شأنه في عام ١٨٥٩ وهناك دواع للاعتقاد بأن « بنيديك » بعد فقدانه خطوته ، شرع في وقت متأخر بالشك بصحة فلسفة الحرب التي كان يشاطر فيها بالراي الاكثرية العظمى من ضباط الجيش النمسوي . « كيف يمكننا التغلب على البروسيين ؟ قال ذلك بحزن الى أحد زائريه لقد تعلمنا شيئا يسيرا ، في حين انهم شعب على غاية من الجدية » .



الفكر العسكري الاوربي والعقيدة

من عام ١٨٧٠ ـ ١٩١٤

بقلم جاي لوفاس

ولد جاي لوفاس في عام ١٩٢٧ وخدم في بحرية الولايات المتحدة في جزر « الالوشيان » خلال الحرب العالمية الثانية . ونال شهادته العليا من كلية « الليفيني » عام ١٩٤٩ وحصل على شهادة الماجستر والدكتوراه في الفلسفة من جامعة ديوك في شمالي كارولينا ، وعاد للتدريس في قسم التاريخ في كلية الليفيني عام ١٩٥٧ . وامضى فصلي صيف عامي ١٩٥٧ و ١٩٦١ في اوربا جامعا المواد لكتبه « التراث العسكري للحرب الاهلية » ، والارث الاوربي (شيكاغو عام ١٩٥٧) ، « وتعليم الجيش » ، والفكر العسكري البريطاني ١٨١٥ ـ ١٩٤٠ (شيكاغو ١٩٦٤ : كاسيل ، لندن ١٩٦٥) . وهو ايضا مؤلف : « الحرب الاهلية » ، « ووجهة نظر جندي » (شيكاغو ١٩٥٨) ، وقد حرر عدة مقالات ومجلات . وكانت دراسته « لفن الحرب » ، وفريدريك الكبير » مهيأة للنشر في خريف عام ١٩٦٥ ، وهو الآن بصدد ترجمة رسائل نابوليون ككتاب مرافق .

تشكل الحرب الفرنسية ـ البروسية حدا فاصلا ذا اهمية بالنسبة للتاريخ العسكري كما بالنسبة للتاريخ الديبلوماسي وبعد عام ١٨٧٠ تدفقت تيارات الفكر العسكري الرئيسية من برلين دون باريس على اعتبار ان العقيدة العسكرية الالمانية والمؤسسات ، والتكتيكات والتنظيم ، وحتى مقاطع اللغة واللباس الرسمي قد تسربت الى الجيوش الاخرى واستقرت فيها . واصبحت كلمتا نسق ، وسلاح ابيض باللغة الالمانية قسما من مجموعة الفاظ العمل

التعليمي العسكرية كالكلمتين الفرنسيتين (النسق) ، (السلاح الابيض) . وقد لاقت الطريقة الالمانية المتعلقة بالمناورات السنوية وكذلك الاركان العامة الشهيرة مقلدين في كل مكان كما زيد حجم سرية المشاة سواء عاجلا ام آجلا لدى الجيوش المجاورة حتى تتناسب مع التنظيم البالغ ٢٥٠ رجلا المستخدم كأساس للوحدة التكتيكية في عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . وبعد الانتصارات البروسية المذهلة المندفعة نحو النمسا وفرنسا ، طبقت الدول في اوربا كذلك الطريقة الالمانية في الخدمة الالزامية والمناطق العسكرية . واذا كانت بريطانيا والولايات المتحدة ابطأ من سواهما في اعادة بناء مؤسساتهما ، فلم يحتج اي جيش من الجيوش زمنا طويلا لابدال القبعة الفرنسية بالقبعة البروسية مما يشكل « نظرة جديدة » تعكس التغيير في التفكير العسكري .

ان الخوض في سيل الكتابات الفنية والنظرية التي ظهرت بعد عام ١٨٧٠ يمكن الانسان بسهولة من ان يقضي فيه أسوأ ايام حياته . وقد اتاحت صحف اختصاصية جديدة للعسكريين في كل مكان فرصة لنقل آرائهم ، وقامت المدارس العسكرية الجديدة بتنشيط دراسة الحرب في مختلف مراحلها وعينت اتجاها للنظرية والعقيدة . وقد رافق المناقشات كتب تكتيكية معاد النظر فيها وحاولت عبثا ان ترافق في خطاها التغير التكنولوجي . وحتى التاريخ العسكري الذي كان بالنسبة لكاتب مثل « نابيير » ، مؤلف كتاب « تاريخ الحرب في شبه الجزيرة » يعني اطارا لحكم عسكرية مقبولة ، اصبح الآن اسيرا للاقسام التاريخية لمختلف هيئات الاركان العامة او انه ايضا استخدم كواسطة لاثبات صحة بعض وجهات النظر الخاصة او مغالطاتها .

اما اليوم وقد انحسرت المياه فقد اصبح من الممكن ان نتبين اهم اتجاهات التفكير العسكري وعقيدته في سنوات الانتقال والاكتشاف الناشط ، والاعداد المندفع . وتختلف المسائل ولا شك بعض الاختلاف من جيش الى آخر فقد زادت الحروب الخارجية في الغالب في شدة خطر المواقف التي بدت للعالم العسكري فريدة من نوعها . ولم تقع الاقطار الناطقة بالانكليزية مطلقا بصورة

كاملة في دوامة الفكر العسكري الاوربي . الا ان التطورات في كل قطر اتجهت في حركتها نحو شبه اتجاه عام موحد بالنسبة للقضايا الاساسية ــ باستثناء القضايا الجغرافية وقضايا السياسة القومية ــ ولقد كان مشتركا بينها : شكل التكيف بالنسبة للتغيرات التي فرضتها على المجتمع الثورة الفرنسية وتمويل الثورة الصناعية وخاصة في مجال التسلح ، والنقل ، والاتصالات . وبدا للوهلة الاولى ، الحل بسيطا وجليا ــ وهو تقليد الالمان . ولكن بعد مرور عشرين عاما كانت دروس التعليم لا تزال هي الحروب الالمانية في سبيل الوحدة واصبح سير التكنولوجيا اكثر سرعة . وكانت هذه النقطة هي التي اخفق فيها العديد من النظريين .

وفيما يتعلق بحقل الاستراتيجية ، فقد وجدت روح العقيدة الالمانية تعبيرا بسيطا في مذكرة رئيس الاركان العامة الكونت « هلموت فون مولتكه ». فقد كتب هذا المحارب المجتهد في عام ١٨٦٨ ــ ١٨٦٩ ما يلي :

» ان خطة العمليات من اجل الهجوم على فرنسا قائمة فقط على البحث عن القسم الاعظم من قوة العدو ومهاجمتها ان وجدت . والصعوبة تكمن في تنفيذ هذه الخطة البسيطة بقوات كبيرة جدا ... ان تعبئتنا مهيأة حتى آخر التفاصيل . هناك ستة خطوط سكك حديدية قادرة على نقل الجيوش الى المنطقة ما بين الموزيل والرين . وان جدول المواعيد الزمنية الذي يحدد الوقت الصحيح للانطلاق والتجمع لكل وحدة مهيأ . وبالاستيلاء على معابر النهر علينا ان نؤمن الهجوم بعد بضعة ايام (اليوم الرابع عشر من التعبئة) متفوقين بأكثر من ضعفي العدد » .

هذه هي الصيغة التي اراد « مولتكه « ان يترجم بها مذاهب كلوزويتس الى عمل : ابحث عن جيش العدو ودمره بقوى متفوقة تستمد كفاءتها من تعبئة الطاقة البشرية للامة والتخطيط الدقيق في زمن السلم ونظام مواصلات السكك الالماني المتطور نسبيا . ولم تبدر اشارة ما للاشكال الهندسية التي سادت اعمال « بيلو » ، و « جوميني » المبكرة ، ولا لعلم ما وراء الطبيعة الذي خيم في غالب الاحيان على نظريات « ويليسون » ، وكلوزويتس وبالتأكيد فهو لم يشر

الى الافكار التالية التي نعثر عليه في معظم الكتابات عن الاستراتيجية . اذ ان الاستراتيجية بالنسبة لمولتكيه « هي نظام الوسائل » وليست علما مجردا ويجب الكشف عن اسرارها بصورة واقعية بدلا من التفكير العقلاني وقد رفض مولتكيه اية فكرة عن القوانين العامة او الانظمة التي يمكن ان تتحول الى عقيدة . وبهذا ارجع مولتكيه كامل القضية الى الحدود التي يمكن ان يعمل حسابها سلفا بطريقة سليمة . ففي عام ١٨٧٠ كما كانت الحال في عام ١٨٦٦ يجب بذل كل جهد لوضع ثلاثة جيوش بروسية على مسافة الدعم من قبل بعضهما البعض، وعندما يتم ذلك لا تبقى اهمية لما ينتظر من العدو ان يفعل ــ ان التفوق العددي، في حال عدم وجود قيادة اكثر هجومية وتكتيك افضل ، بمكن ان يؤمن الظفر « اي الحقيقة الحاسمة للحرب » .

ان ظفر مولتكيه يعني ان افكاره التي تطورت تدريجيا بينما كان يعمل في المخططات العسكرية المتتابعة لتوحيد المانيا ارتقت بسرعة الى عقيدة اساسية (لقد صرح مؤخرا ابان معركة « كوينغراتس » احد قادة الفرق البروسية لدى تلقيه امرا موقعا من رئيس الاركان « ان هذا يبدو كله حسن المظهر ونظيفا ولكن من هو الجنرال مولتكيه على وجه هذه البسيطة ؟ ») . وفي المانيا صرف اتباع مولتكيه الاربعين سنة التي تلت وهم يشرحون المبادىء التي تتضمن استراتيجيته بعد تنظيمها وتكييفها مع الظروف الجديدة .

شاطر معظم الكتاب العسكريين الالمان مولتكيه نفوره من العقائدية العقلانية في ابحاثهم عن تحليل الحرب . فمثلا ان « فيردي دوفيرنوا » قد اكد بان الحرب شأنها شأن الحياة نفسها لا يمكن ارجاعها الى قوانين جامدة لا تتغير تتجاوز قوانين الولادة والموت « ان القرار تمليه دائما القضية الخاصة : فقد تكون قاعدة ما صحيحة في حالة ما وخطأ في حالة اخرى . وبلوم كان الشخص الآخر الذي جادل بان « الاستراتيجية فن » وانها اذن كنتيجة لجوهرها الاصلي الحقيقي لا يمكنها ان تكون علما . وسنستخف بطبيعة الاستراتيجية اذا سعينا الى تحويلها لنظام تعليمي محدد تحديدا صحيحا . اما خلف « مولتكيه » ، « وولدرسيه » ، فقد انتقد كذلك اتجاه الابحاث بسبب وضعها قواعد تطبق في سائر الظروف .

ولم يكن من المنتظر ، مع ذلك ، ان يكرس طلاب الاستراتيجية الالمان انفسهم في الاعوام التي تلت عام ١٨٧٠ للطريقة . ان تحليل « بلوم » الدقيق والعميق للاستراتيجية نموذجي بمعالجته الموضوع « بصورة اوسع في طبيعة التفكير لا في العقيدة » وان « بلوم » باعتباره ان الهجوم اكثر الاشكال فعالية في ادارة الحرب قد جعل دراسته للاستراتيجية المنشورة في عام ١٨٨٢ بجوهرها تفصيلا لآراء مولتكيه ، الا ان هذه الدراسة وكذلك كتابة الامير كرافت « وسائل في الاستراتيجية » (١٨٨٧) المعتبرة وليدتها الاكثر حيوية ، أعتمدت على اوراق مولتكيه الاصلية التي كان معظمها لم ينشر بعد . وبهذا المعنى فان المغزى المستمد من عقيدة مولتكيه لم يقدر حق قدره الا بعد تقاعده في عام ١٨٨٨ .

وقد كرس الامير « كرافت » ، وهو من أنصار الطريقة الاستقرائية ، سلسلة رسائله المكتوبة على شكل احاديث عن التحليل الاستراتيجي ، للحملات الحديثة التي كانت تفاصيلها « معروفة بشكل كاف » والتي يمكن أن تحتوي على قدر كاف من الرؤية « نستطيع بموجبها في الحالات المماثلة ، ولئن كانت ظروفها ليست نفسها بالضبط ان نجد فيها اسسا لمقرراتنا » . وقد نفى أن يكون له اية غاية لارساء « نظام مطلق للاستراتيجية » ، لان ذلك ليس الا شعوذة شافية لجميع الامراض ، كما انه لم يكن ليرجو مع ذلك ان يظل قراؤه ، ولئن نسوا التواريخ والتفاصيل متذكرين المبادىء الحقيقية للاستراتيجية التي لا تقوم بعمل يزيد عن وضع اتجاه للسير . وهذه المبادىء هي :

١ ــ على السياسة القومية ان تسير جنبا الى جنب مع الاستراتيجية .

٢ ــ ان الجيش المعادي هو الهدف الاول للاستراتيجية .

٣ ــ لا يمكن لاحد ما ان يكون قويا قوة كافية لمعركة حاسمة .

٤ ــ ليس على احد ان يتبع نظاما ثابتا بل عليه دائما ان يعتمد على محاكمة سليمة .

٥ ــ ان تغيير الخطط الاستراتيجية في حال عدم وجود اضطرار بسبب الظروف يقود الى كارثة ...

وقبل ان نتهم الامير « كرافت » بالقبول الاعمى لنظريات كلوزويتس واخفاقه برؤية ما وراء حروب ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، من الضروري ان نأخذ علما بقصده من الكتابة . ونظرا لقناعته بان « القوانين المجردة لا تطبق بحذافيرها على اية حالة واقعية » كان شغله الشاغل ان يوضح للجيل الاحدث من الضباط الالمان كيف رسمت القوى الطبيعية والفكرية الاستراتيجية في الحرب الحديثة . وهو لم يوجه رسائله الى المستقبل الاكثر بعدا لانه اعترف بانه حتى المفاهيم الاساسية للحرب والسلم والسياسة والاستراتيجية عرضة للتغيير .

ان هذه الدراسة الذرائعية قد تميز بها من لعله كان اشهر الكتاب الالمان المعروفين في تلك الحقبة . وكان هدف « فون ديرغولتز » الرئيسي لـدى كتابته « الامة تحت السلاح » في عام ١٨٨٣ ان يسترعي الانتباه الذي كـان الى ذلك الوقت منصرفا بمعظمه حصرا للقيادة في المعركة ، الى الاستراتيجية . وكان كلوزويتس قد كتب عن الحرب بانها يجب ان تكون جماعية ومطلقة ، ولكن « فون ديرغولتز » الذي كان ، الى بضع سنوات خلت ، قد نشر دراسة مرضة للنقاش عن « ليون غامبيتا وجيوشه (١٨٧٧) » . استرعى الانتباه فيها الى هبة الشعب الجماعية التي ادخلها الفرنسيون بعد الكوارث الاولية ، حاول بعبارات كانت على الاغلب عامة ، تفسير قول كلوزويتس « الامة تحت السلاح » . انه لم يعط شيئا جديدا من الواقع ولا انطلاقا ذا مغـزى مـن كلوزويتس او من طرائق عام ١٨٧٠ ، وبالتأكيد ولا اي قانون يمكن تطبيقه تطبيقا عاما . انه كتب « للحاضر فقط » وعلى غرار الامير كرافت ، قصـر ملاحظاته على « العمليات العسكرية المعاصرة لنا » . ولكن « فون ديرغولتز » بكتابته الى كتلة الجيش تشكك في ان تغييرات اساسية في الحرب والمجتمـع تتراءى وراء الافق . « سيأتي يوم يذوب فيه وجه الحرب الحالي عندما ستفسد مرة ثانية الاشكال ، والعادات ، والآراء . واذا نظرنا امامنا الى المستقبل يتراءى لنا اننا نشعر بمجيء زمن تقوم فيه الملايين المسلحة في الوقت الحاضر بلعب دورها . وسيبعث اسكندر آخر بمجموعة صغيرة من المحاربين المهرة المجهزين تجهيزا حسنا ويدفع بالشراذم العاجزة امامه ... » الا أن « فون ديرغولتز » كان مهتما بالحقائق الحاضرة لا برؤى المستقبل . ان « الخيال » ، على حد

قوله ، « يفتقر الى النموذج الذي يرسم بموجبه خطوطه » ، واذا استطـاع التعمق اكثر بالنظر الى المستقبل فانه يجد ضرورة مطلقة لاتحاد اشد بين عمليات الحصار ... والاشتباك في ميدان المعركة ... واستعمال اوسـع للتحصينات ... ومدفعية ثقيلة ، كما في الماضي ، ... ترافق الجيوش فـي الميدان ، لكي تكون جاهزة للاستخدام حيثما تبدو نيران مدافع الميـدان عاجزة عن كسر المقاومة » .

ان اكثر ما قيل عن « فون ديرغولتز » يمكن ايضا ان ينطبق على آراء « بيرنهاردي » ما عدا ان هذا الاخير بدلا من ان ينظر الى الحرب « بوصفهـا استمرارا للسياسة بوسائل اخرى » يبدو في الغالب انه أعتبرها هدفا في ذاتها . ومتأثرا بالداروينية الاجتماعية وكذلك بآراء تريتشكي فقد نظر الـى الحرب « باعتبارها اعظم عامل لتقدم الثقافة والقدرة » « وضرورة حيويـة بيولوجية » يمكن تبريرها حتى في الحقل الديني نظرا للمواقف النضالية فـي المسيحية » . الا ان « بيرتهاردي » من حيث تفكيره الاستراتيجي كان خارجـا من القالب نفسه الذي تكيف فيه سابقوه . اذ انه ايضا رفض اية فكرة تحاول طبع حملات نابوليون اومولتكيه بطابع نظام ، فقد اعتقد دائما بصورة واقعية ، مع كل كاتب حربي الماني منذ كلوزويتس ، بان الهجوم كان اقوى اشكال الحرب الناشبة وان هدف الاستراتيجية الوحيد هو جعل المعركة الحاسمة تجري في انسب الظروف . ويبدو انه كان مهتما الى درجة اكثر من غيره بتأثير كتلـة الجيش على العمليات الحربية . وردد بالحاح بان الكيفية يجب الا تفسح المجال للكمية وان القو ة ـ ولم يقصد بها فقط حجم جيش ما بل ايضا نجاعته في امور التسليح والتدريب والحركة والروح المعنوية ـ يجب الا تختلط بالعدد . ولعل هذا الاهتمام كان لا غنى عنه في زمن كان فيه الانتباه المتزايد مكرسا لقضايا التعبئة والحشد الاستراتيجي ، لان الاختلاف « بين القوى العسكرية العظمى ، كما لاحظه فون ديرغولتر قبل بضع سنوات ، يصل الى ساعة واحـدة مـن الـزمن » .

واخيرا استقر التفكير الالماني الاستراتيجي في الخطة البارعة لـ « الكونت

الفريد فون شليفن » ، رئيس الاركان العامة من عام ١٨٩١ الى ١٩٠٥ . ان تفاصيل خطة شليفن التي نشرت كثيرا والافتراضات التي نسجت حولها، قد عالجها معالجة تدعو الى الاعجاب ، الاستاذ ريتر في دراسته الحديثة ويكفي ان تقرر هنا انه بقدر ما يستطيع فني ان يتبع خطوات فيلسوف ما فان شليفن تابع تقليد مولتكيه . على ان هناك فروقا هامة بين الاثنين . ان شليفن ينقصه القبض على ناصية العوامل السياسية ولم تكن اهدافه محدودة بهذا القدر . وكان على مولتكيه في عامي ١٨٦٦ — و ١٨٧٠ فقط ان يدفع بالنمسا وفرنسا خارجا عن الشؤون الالمانية الا انه كان على شليفن ان يقاوم احتمال حرب اوربيه عامة تشمل انظمة متنافسة من التحالفات، يقوم كل منها على فكرة الامة تحت السلاح . وقد غدت الحرب مطلقة ، وبدا النصر الان معتمدا على تحطيم العدو السريع . وحيثما استخدم مولتكيه الاستراتيجية كدليل ومنح الجنرالات المرؤوسين مبادهة هائلة ، حاول شليفن ان يراقب قادته بصورة اشد وان يفرض على العدو حركاته بالاعتماد على خطته الرئيسية . وفي حين مدح شليفن متملقا تراث مولتكيه « لا طريقة واحدة ولا دواء واحد ... بل عدة » ، الا ان شليفن نفسه كان غير قادر على مقاومة اغراء الترياق الشافي لجميع العلل من اجل النصر .

اما في فرنسا فان رسم خطوط التفكير الاستراتيجي كان اكثر صعوبة ، اذ ان العسكريين الفرنسيين الذين صعقتهم الهزيمة الحديثة واذلتهم ، كان اول رد فعل لهم انهم انحوا باللائمة على عدم تفوقهم بالعدد وعلى التأخر في التعبئة مما سبب الهزيمة ولذلك يقتضي خلق نموذج جيش جديد « بخطوط موازية تقريبا للنسق الالماني الخاص بالخدمة العسكرية الالزامية مع اركان عامة حديثة وهلم جرا » . ورافق ذلك يقظة فكرية من حيث الاساليب . وكان الكتاب الحربين كانوا يخوضون معارك عام ١٨٧٠ مرة ثانية واكتشف البعض ان جيشهم قد باء بالفشل نتيجة قيادة سلبية وادارة غير كفوءه ونقص في التعاون الذي ادى بصورة غير مباشرة الى انشاء المدرسة العسكرية العليا في عام ١٨٧٨، والى اصلاح الاركان العامة بعد مضي سنتين ، والى تزايد عام في الاهتمام بكل امر له علاقة بالتعليم العسكري . وهناك آخرون استنتجوا بان الالمان قد ربحوا

لانهم كانوا اول من ادرك مغزى الحرب الحديثة وحللوا الحملات البروسية وحاولوا تفهم طريقة مولتكيه في الحرب الناشبة . واخيرا دفعت بهم تحرياتهم الى الاحتكاك بنظريات كلوزوينس الذي بدوره دفع بهم الى اعادة دراسة حروب نابوليون باعتبارها مصدر معظم افكار كلوزويتس . ودار احد المواضيع المركزية في المؤلفات الفرنسية العسكرية بعد عام ١٨٧٠ حول سؤال : هل طبق مولتكيه فقط مبادىء نابوليون العظيم على الظروف الحديثة للحرب ام انه من خلال تطويق جيوشه وتجمعها اثناء المعركة ــ بالتعارض مع طريقة نابوليون في التوحيد قبل المعركة ــ اسهم ببعض الشيء الفذ في تطوير الاستراتيجية ؟ اذ انه بالنسبة لضابط فرنسي وطني هناك دائما فرق .

في البداية سار كتاب الاستراتيجية الفرنسيون على منوال معاصريهم الالمان بثورتهم على الشكلية والتحليل التشريحي لجيميني الذي ظل استاذهم في الطرق النابوليونية لمدة خمسين سنة ، وهذا ما يمكن تحريه في كتابات الجنرال « ليوال » الاولى منظم المدرسة الحربية العليا وضابط الاركان اللامع والباحث المتمكن عن الحرب وصاحب النفوذ الكبير . وكان ليوال في كتابته بتفصيل منمق عن كل ادوار الحرب ــ التعبئة ، والزحف ، والاستطلاع والتموين ، والقتال ــ محجما حتى عن تسليمه بوجود استراتيجية بهذا المفهوم . وكما ان عنوان احد كتبه الاخيرة « استراتيجية المعركة » (١٨٩٥) ، يتضمن ايحاء كاملا ، فانه حاول حتى ان يتنصل من الالفاظ التقليدية لدى التفكير من خلال خطوط العمل . ومع المعارك التي اصبحت الان تمتد اميالا عديدة والجيوش المؤلفة من مئات الالوف ، يبدو أن التعاريف المألوفة قد فقدت معناها وكذلك لم يعد يكفي ان توسع القواعد القديمة لتشمل هذه الشروط الجديدة . « انه لخطأ » . اذ ان ذلك قد حدث مع تغييرات جذرية كما ان التوسع لن يكون باديا في كل شيء ولا بالطريقة ذاتها . ان تجمع الجيوش سيتحقق في زمن اقصر وستتناقص المسافة التي كانت في البداية فيما بينها حتى تصبح تقريبا معدومة . ان عدم توقع المعركة لا بد منه ولهذا السبب ان كل من يستعيد ذكرى المناورات المجيدة التي اوصلت الى «مارنكو» و «اوسترليتز» و « جينا » يصبح عرضة للاستهجان ... اما اليوم فمن يصل الى الساحة

يقاتل فيها . تلك هي حرب المستقبل . وبموجب هذا الخط من المحاكمة الفعلية اصبحت الاستراتيجية في تأثيرها تعبئة مع زيادة طفيفة وستكون المرحلة الاولى للمعركة التيتنبأ بها (ليوال) (بداية مأساة مسلحة هائلة) تستمر اياما وتستنفذ على الدوام عددا متزايدا لم تشهد له مثيل من الرجال .ولم يعد هناك متسع من الوقت ولا المكان لاجراء المناورات اذ على الجيش ان يستخدم كتلا ضخمة في مكان محدود ويتجنب الثغرات في الخط وكذلك العمليات المنعزلة التي تقوم بها وحدات مستقلة .

ونجد كتابة اكثر تمسكا بالتقليد فيمؤلف « ديركاغيه » « الحرب الحديثة » (١٨٨٥) . اذ مع ان هذا الكاتب يعترف بتبدل طبيعة الحرب ، فانه يؤكـد بان « مبادىء الماضي تحتفظ بكامل اهميتها » . ولقد استخلص من مراسلات نابوليون وحملاته ، مبادىء استخدمها حينئذ ، لتقدير فاعلية البروسيين في عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ . فما هي النتيجة ؟ هي ان مبادىء نابوليون لا تزال قابلة للتطبيق ، وان البروسيين يدينون بدرجة اقل بانتصاراتهم لنبوغ قادتهم مما يدينون بها لتطبيقهم السليم لقواعد الفن العسكري . ولم تكن الاعتبـارات الاستراتيجية ولا الاستعدادات غير الكاملة من اجل التعبئة ، ولا نظام التكتيكات الخاطىء ، السبب الذي ادى الى هزيمة الفرنسيين ، ولم يكن هناك من حاجة لاغراق مبادىء سليمة في سبيل البحث عن شبح . فليس على المرء الا ان يدرس النظام العسكري البروسي ويقوم بتعبئة مماثلة لتعبئة مولتكيه البسيطـة والسريعة ويتفهم الطريقة التي بموجبها طبق الجنرالات البروسيون المبادىء المستقرة ، على الحرب الحديثة .

ان مؤلفات « دير كاغيه » نموذجية في تلك الحقبة من عدة وجوه . وان جمعه الهائل للمعلومات التاريخية لكن ينبرز مبادىء خالدة ، قد جرى تقليده وبلغ حده في كتابات الجنرال بيرون الذي كان لكتابه « الاستراتيجية والتكتيكات الكبرى » (١٨٨٧) مظهر مؤلف علمي ولكنه في الحقيقة لم يكن ليزيد الا بقدر يسير عن ترتيب تنظيمات مفيدة او تصنيف خلاصات مأخوذة عن دراسات اخرى . وان تقدير « ديركاغيه » لمولتكيه بوصفه ظل نابوليون الموهوب كـان موضوعا اشتهر في مؤلفات الكابتين « جلبير » والجنرالين « مايار و بونال » .

فلقد وجد كل منهم الكثير مما يمكن نقده مما فهمه (وكان فهمه في الغالب خاطئا) من المذهب الالماني . وفي الواقع ان بونال ، عندما كان يقلد الطريقة الالمانية في الدراسة بسبر مضن لتاريخ الحملات المختارة ، بدا انه في الاغلب يعلن عن تحرره من التأثير الالماني . ومع تسليمه بان العناصر المؤلفة للجيش البروسي عام ١٨٦٦ كانت « بصورة خاصة صحيحة » ، فقد عثر على « عدة افكار خاطئة » بالنسبة للاستراتيجية كانت شائعة في القيادة العليا . اذ لو ان النمسويين كانوا قد اتبعوا ابسط مبادىء نابوليون فقط « لكان عرش (الهوهنزولرن) غير مقضي عليه » . « وكما حدث فقد كفرت الجيوش البروسية عن اخطاء قيادتها العليا بقدرتها وذكائها وتثقيفها العسكري الممتاز » . او كما قال آخر وكان قاصدا تخفيض العملة الالمانية التي كانت لا تزال متداولة « ان العسكريين اصلحوا حماقات الكهان ، والكهان لقنوا الدروس العسكريين » . وقد قضى مولتكيه نحبه وهكذا تمنى الكثيرون ان يكون قد قضي على السحر الذي كان قد رمى به الجيل السابق .

لقد كان « بونال ومدرسته » ذرائعيين بادخالهم الروح الهجومية على التخطيط الاستراتيجي الفرنسي . اذ حتى عام ١٨٨٤ كانت غاية القادة الفرنسيين العسكريين تأخير اي تقدم باستخدامهم الحصون بينما يعبئون بانتظام ويجمعون جيوشا كبيرة في الداخل يضربون بها الوحدات الالمانية المتسربة من وراء الحدود . الا انه منذ بداية عام ١٨٨٧ ، تطلبت خطط الحرب الفرنسية عملا هجوميا اوسع على امتداد الحدود ، وبعد التحالف مع روسيا اصبح الجيش الفرنسي ملتزما باستراتيجية هجومية . وفي عام ١٨٩٨ كان « بونال » هو الرجل الموثوق لتحقيق هدف وضع الخطة الجديدة رقم (١٤ ؟ وبذلك تلقت افكاره القبول الرسمي .

وقد اطلقت الروح الهجومية العنان لكتابات اشهر النظريين الفرنسيين واكثرهم تأثيرا فيما بين الحروب هو فوش الذي اصبح فيما بعد مارشالا . وقد كتب الكثير عن « فوش » حتى اصبح من الضروري هنا ان نشير فقط الى مكانه في تطور العقيدة الاستراتيجية الفرنسية . فهو على غرار « اردانت دي بيك » الذي ركزت كتاباته تركيزا جديدا على الروح المعنوية ، فقد ارسى عناصر

الحرب الروحية والنفسية وحاول على غرار « لبوال » و « بونال » مقاومة التأثير الالماني وكذلك فان هناك وضوحا كبيرا يستشف من كتاباته بانه استند كثيرا الى كلوزويتس ولم يختلف اساس صعوده عن اسس كثيرين من معاصريه الالمان . فان « فوش بقوله » : « لا يوجد شيء نسميه نظرية مطلقة ففد شعر بان على المرء ان يعالج امور المصادفات » . وهو قد آمن ايضا بحرب قصيرة وعنيفة مع معركة تكون الهدف الرئيسي للاستراتيجية ولكن فيما اعلن اشهر النظريين الالمان بان قوة النار الحديثة قد جعلت التطويق المرجو ممكنا على مستوى استراتيجي فقط وليس على مستوى تكتيكي ، اكد فوش بان « النتائج التكتيكية » هي الامور الوحيدة ذات الاهمية في الحرب ... « ليس هناك من استراتيجية يمكنها من الآن فصاعدا ان تتفوق على تلك التي ترمي الى تأمين نتائج تكتيكية والنصر في القتال » وان مبادئه الاربعة ـ الاقتصاد بالقوى ، الحرية في العمل ، حرية التصرف بالقوات والامن ـ كلها تقتضي الحركة ، ان لم تكن على الاقل مناورات نابوليون المرنة « اي الحركة بقصد البحث عن معركة ... لتجميع القوات في الميدان ـ لتنفيذ الهجوم » . واصبح ايمان « فوش » بالهجوم لدى مريديه المتحمسين بشكله الضخم الدافع المرشد في خطة الحملة الفرنسية المتبناة عام ١٩١٣ . اذ ان الخطة رقم (١٧) التي اهتمت بالانتشار الاستراتيجي اكثر من اهتمامها باية مناورة او عملية نوعية ، كان لها هدف واحد ثابت فقط : « مهما كانت الظروف فان ... الغاية التقدم بجميع القوات للهجوم » ويبدو ان الطيش قد اصبح افضل عناصر المقدرة .

ولم يكن التفكير الاستراتيجي في انكلترا والولايات المتحدة مرتبطا باي موقف نوعي خاص وكالعادة فقد كان بحاجة الى ابداع . وبالواقع لم يكتب الا النذر اليسير في الموضوع وكانت اشهر النصوص مقتبسة من الكتابات السابقة وتعكس البحث الهندسي لجيميني . وكان هاملي الذي دام كتابه « عمليات الحرب » (١٨٦٦) بطبعاته المختلفة ، كمرجع لمدة نصف قرن ، اكد مبادىء جيميني والارشيدوق شارل التي بقيت ذات قيمة بعد عام ١٨٧٠ . وكانت تنقيحاته مخصصة في قسم منها للتكتيكات ، وحتى هنا فقد كان متأخرا عن الزمن بسنوات . وخلافا لاغلب النظريين في اوروبا ، تجاهل « هاملي » بالفعل

العوامل المعنوية واذا كان كلوزويتس وكذلك فوش لم يشيرا الى البحر فليس هناك ما يدل على ان هاملي خصص حيزا اكبر من التفكير لما كتبه الاول عن الحرب . مع استثناء هام واحد : فان كتاب مبادىء الاستراتيجية (١٨٩٤) للكابتين جون بيجيلو كان ايضا مستقى من كتابات سابقيه من النظريين . ولكن بدءا من زحف شيرمن في جورجيا يبدو ان بيجيلو قد كون مفهوما افضل عن الحرب الشاملة . وعلى الاقل انه علم ماذا قد يحدث عندما تجر « الحرب الى وطن شعب يضمر العداء » .

لقد كان هناك كتب تمهيدية اخرى عن الاستراتيجية الا ان الكتاب الوحيد الذي قد يكون مبتكرا هو كتاب الكولونيل س. اي. كالويل : « الحروب الصغيرة » : مبادؤها وممارستها (١٨٩٦ ؟ . وكانت تلك منطقة تجاوز فيها العسكريون البريطانيون كل من سواهم بالاختبار وسدت محاولة « كالويل » لاكتشاف المدى الذي يجب ان تتعدل فيه المبادىء المقررة لتلتقي بشروط الحرب احتياجا حقيقيا قبل حرب البوير وحتى انها ترجمت ونشرت في فرنسا في وقت كانت فيه بريطانيا المنافس الاستعماري الاول .

وقد تحدثت مؤلفات كثيرة عن حيوية الفكر البريطاني الاستراتيجي خلال تلك الفترة على انه من بين المؤلفات البالغة اربعا وعشرون مؤلفا بالاضافة للعناوين الواردة في قائمة مكتبة وزارة الحربية عام ١٩١٢ تحت عنوان « الحرب الاستعمارية » ، كان ذلك الكتاب هو الوحيد الذي كتبه بريطاني ، ويبدو ان الصعوبة الرئيسية كانت تكمن في انه قبل ان يعرف قادة الامة السياسيون دور الجيش ويقرروا ما هي الافضليات التي يجب ان تخصص للدفاع الامبراطوري ، وللدفاع عن الوطن ، وللقوة المرسلة في حملة والتي اعدت قبل انقضاء القرن لتدخل ممكن في اوروبا ، لم يمكن امام النظريين البريطانيين والمخططين العسكريين اي خيار سوى ان يتلمسوا طريقهم في الظلام . وكان من الممكن في المانيا وفرنسا استباق اية تفاصيل ضرورية في التعبئة قبل البدء واعطاء الاستراتيجية شكلها بموجب ذلك . اما في انكلترا ، من جهة اخرى ، فقد كان « لا فائدة من الاستباق الحوادث والتساؤل في اية بقعة من الكرة

الارضية يمكن ان نستخدم فيها جيوشنا مرة ثانية وكذلك ان نتنبأ بالتكتيك ، والتسلح ، وحتى بنوع عدونا المقبل . وقد حصل اخيرا لدى الكولونيل « ج. ف. ر. هندرسون » وآخرين معه رد فعل ضد الشكاية لدى « هاملي » مربي الجيش البريطاني على ان هندرسون كان قادرا ان يصور شيئا ما من « روح الحرب ... والتأثيرات المعنوية ، وتأثير السرعة ، والمفاجأة والسرية » في كتاب تاريخ حياته المشهور : « ستونوول‌جاكسون والحرب‌الاهلية الامريكية (١٨٩٨)»، الذي كان قد كتبه ليصلح نوعا ما كبحث عن الحرب وليشرح فيه مفاهيمه الاستراتيجية الخاصة ، ولكنه لم ينتج هو او زملاؤه من الضباط اي انتاج فكري ذا مغزى عن الاستراتيجية . وان اكثر العقول المتفهمة اما انها ظلت في حقل التكتيكات الكبرى او في اشياء اخرى مثل « سبنسر ويلكنسن ، والكولونيل آكورت ريبنكتون ، اللذين اصبحا منهمكين بصورة متزايدة في الادارة العسكرية والتنظيم » . اما الكتابات التكتيكية فأكثر انتشارا ، وفنية للغاية، وعسيرة الادراك في الغالب نظرا لاشكالها المعقدة واهتمامها البالغ بالتفاصيل . ومن الواضح ان كثيرا مما كان قد قيل عن الفكر الاستراتيجي يمكن تطبيقه على التكتيك ايضا بنسبة كبيرة او قليلة ولم يرفض الالمان العلم المجرد من ناحية فقط ليقبلوا هذه الطريقة ، من ناحية اخرى ، وقد ركز الكتاب الفرنسيون كثيرا على الروح الهجومية وعلى قوة الارادة . وبقي بعد ذلك فقط اقتراح الاتجاهات العامة ووضع اطار لبعض الحلول الملحة .

ان الاعتراف الضمني بتزايد اهمية الدفاع والرغبة في تحقيق الانتشار الاوسع في تشكيلات المشاة كانا شائعين لدى التكتيكيين بعد عام ١٨٧٠ . فان كلوزويتس كان قد اشار الى الميزات الطبيعية للدفاع ــ وهذه حقيقة غالبا ما تجاهلها التلاميذ الذين جاؤوا فيما بعد ــ وحتى ان « مولتكيه » في كتاباته السابقة للحرب ، اشار بتكرار الى القوة المتنامية التي اضفتها الاسلحة الحديثة على الدفاع . لهذا فان التشديد على التطويق في كتابات مولتكيه التي بلغت اخيرا نقطة اعتقد بعدها انه لم يعد ممكنا اكمال التطويق التكتيكي ــ فان الحل يكمن في مجال الاستراتيجية .

ان الاتجاه نحو الترتيب المنتشر قد رسم معالمه مسبقا الكتاب التكتيكي

الجديد الذي تبناه جيش الولايات المتحدة عام ١٨٦٧ . وقد ادرك مؤلفه الميجر جنرال ايموري ابتون من تجاربه في الحرب الاهلية (التي تضمنت هجوما مظفرا على رأس الجسر الساحلي للقوات الكونفدرالية في محطة « راباها نوك » عام ١٨٦٣ والخرق الحاصل في منطقة « ميول شو » في سبوتسلفانيا بعد عام من ذلك) قيمة البساطة ، والمرونة وفوق كل ذلك ، المناوشة : اذ ان الضباط في التدريب على المناوشة ... يهدفون دوما للتأثير على كل رجل بفكرة فرديته والمسؤولية الملقاة على عاتقه ، وهم يرون بها ان الرجال يوفرون قوتهم ويحتفظون بحضور ذهنهم ويقتصدون في مؤونتهم ويستفيدون من سائر الميزات التي يمكن للارض ان توفرها لهم للتغطية . وبعد عامين من ذلك دهشت السلطات البروسية من كتيب رفض ، على اسس حملة عام ١٨٦٦ ضد النمسا ، الرتل والصف على السواء وذلك لصالح « الحشد للمناوشة » وهو التشكيل الوحيد للمعركة الذي يمكن ان يكون له فاعلية . ان الدفاع الرسمي ارتل السرية ، الذي يعرض اربعة صفوف للعدو عندما كان قسم المناوشين (المؤلف من صفين) بعيدا ، فشل في حسم المسألة ، وقد كررت احدى الدراسات التكتيكية الاولى النظرية القائلة « ان تأثير اسلحتنا النارية الخيفة قد اقتضى الانتشار » . ومن هذه الاستنتاجات من حرب ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، استخلص الكابتن « بوغوسلافسكي » : « ان الحشد الكبير من المناوشين والوحدات التكتيكية الصغرى ، ذلك هو شكل المشاة ... وان كل فكرة مهاجمة بكتل كبيرة او دفعها في خط لاطلاق النار احداها على الاخرى ، قد تفجرت اخيرا ... ان السر الحقيقي لقتال المشاة ... قائم الآن على التنظيم والسيطرة على العمل المستقل للجندي الفرد ، وقادة الوحدات الصغرى ، وذلك لتسهيل ادارة دفة القتال ، دون ضياع تلك الميزات نفسها في الاعتماد على النفس .. ان تشكيل مشاتنا القتالي هو في حشد المناوشين » .

وابدى احترام مماثل في انكلترا لقوة النار من قبل عسكريين تقدميين كالميجر جنرال « السير باتريك ماك دوغال » واللفتانت الشاب « فريدريك موريس » . وكانت بالنسبة « لـ ماك دوغال » احسن طرق المهاجمة هي في قذف صف قوي من المناوشين لاجتذاب نار العدو يتبعها الصف الرئيسي

المعركة الذي عليه الضرب بموجات متتابعة . ولكن مع ذلك حذر « ماك دوغال » بان ذلك ليس وصفة اكيدة للنجاح : ان الحملات المقبلة قد تقرر في كل الاحتمالات بالمناورات الاستراتيجية وليس بالمناورات التكتيكية . واكد « موريس » بان القوات المهاجمة يجب ان نطبق تشكيلات مرنة وتستخدم الارض بطريقة افضل . « اذا كان على جيش ما ان يوقف قوة الهجوم ، عليه في هذه الايام ان يهاجم بصف مناوش ، مع نظام خاص للمساندة والاحتياط » . وقد قرر ، ومثله في ذلك مثل اكثر الالمان ، ان مهاجمة الجناح قد اتاحت افضل التوقعات او في حالات عديدة ، التوقع الوحيد الفعلي للنجاح ، وقد اقر « ماك دوغال » بان احسن الحلول هو في خليط ما من الاستراتيجية الهجومية مع التكتيك الدفاعي .

وكذلك في السنوات التي تلت الانتصارات البروسية مباشرة ترجح من التجارب المشاهدة التي وصفها احد الثقاة بانها : « ادهش التشكيلات » ، رأي يحبذ الانتشار بأي شكل . ويمكننا اعتبار تنظيمات المشاة الفرنسيين عام ١٨٧٥ كانتصار لانتشار الصف ، اما التنظيمات الالمانية لعام ١٨٧٦ فقد الغت الرتل الهجومي وابدت اهتماما متزايدا « بالقتال في خط مفتوح » ، على حين ان العقيدة البريطانية تحركت في اتجاه « اربعة صفوف مخففة غير محمية من قبل المناوشين » . وكذلك جرف الحماس بعض المصلحين البريطانيين ، في الحقيقة ، عندما شاهد ماك دوغال كتيبة في احدى المناورات تتقدم بصف منتشر ضد « عدو » يشغل الامتداد نفسه من الجبهة ولكن في صف مغلق ، لذا فقد كان يفوق عدد المهاجمين بنسبة ثلاثة الى واحد .

وفي عام ١٨٨٠ ، نظرا للصعوبة الكبيرة في اشراك المبادهة مع الانضباط في التشكيلات المنتشرة وفي تركيز حجم كاف من النار ضد النقطة المعرضة للهجوم، جرت محاولات لتعزيز خط النار . وبدأ رجال التكتيك بعد ان اتبعوا توصية مبكرة اوصى بها الميجر « فون شيرف » في كتابه : « تكتيك المشاة الجديد » (١٨٧٣ ؟ ، بالتفكير باصطلاحات خط النار ، والدعم ، والاحتياط في خط المعركة، ويجب دعم المجموع بخط تان واحيانا بخط ثالث . وباقامة خط النار وطلب وابل من النيران فقد نشأ امل بان التشكيلات الهجومية ستزيد من شدة النار

والسيطرة عليهـا في آن واحـد . وقـد زيـد ولا شك حجـم الهـدف الذي يتعرض لـه .

وقد تضمن **كتاب التمرين الالماني الميداني** (عام ١٨٨٥) ، ان كل اشتباك يهدف الى ان يكون له صفة قطعية يستتبع شغل كامل المساحة القابلة للانتشار بخط قتال كثيف واوصى بما يلي :

« عندما يصل خط النار الى مسافة قصيرة من العدو ، ويكون قد دعم دعما كافيا » ، وجرى تمهيد الطريق للهجوم باعلى درجة ممكنة من النار ، يجب ان يدفع بمجموعات الجنود المنتشرة على نسق في المؤخرة الى ابعد خـط دون توقف ، وعلى الاثنين معا توجيه الضربة الاخيرة . ويجب ان تقرع طبـول كل المجموعات المغلقة منذ اللحظة التي يصبح فيها التقدم من اجل المهاجمـة غير ممكن حجبه عن الانظار ... وفي هذه اللحظة التي هي اهم اللحظات الفاصلة في الهجوم ، هناك فقط كلمة سر واحدة لخط انقتال وهي « الى الامام ، الى الامام قدما نحو الهدف ! » وان قرع الطبول ، وضجيج « التقدم السريع » المتواصل الصادر عن جميع النافخين في الابواق ... يجعل كل الناس ... في حركة ومع الهتافات تقذف القوات المهاجمة نفسها على العدو » .

وقد كشفت التنظيمات الفرنسية لعام ١٨٨٤ النقاب عن اتجاه مماثـل ـ اي خط معركة كثيف متقدم ، « مرفوع الرأس » دون اهتمام بالخسائـر في حين ان تنظيمات عام ١٨٩٥ دفعت الى ابعاد آثمة على الغالب .

« وحال وصول الكتيبة الى بعد ٤٠٠ متر من العدو ، تثبت الحـراب وتطلق نار فردية ... باعظم كثافة ... ويبدأ الهجوم على دفعات متعاقبـة تتبعها نار سريعة لوقت قصير . وان خط النار المعزز بالاحتياط وعند الضرورة بالكتيبة في الخط الثاني ، يصل تدريجيا الى ما يقرب من ١٥٠ الى ٢٠٠ متر من العدو . ومن هذه المسافة يبدأ بمخزون النار وبكل الاحتياط المتاح ... متراصا من اجل الهجوم . وباشارة من الكولونيل : تقرع الطبول ، ويعلن صوت الابواق للتقدم فيهجم كامل الخط الى الامام صارخا « الى الامـام ، بالحـراب » .

هذا مستخلص من « الهياج الفرنسي » وهو لا يختلف بصورة رئيسية عما كان يتعلمة الضباط البريطانيون في التكتيكات الصغرى لـ كليري ، كما يقرأ الضباط الامريكيون في مؤلف « واغز » : **التنظيم والتكتيك (١٨٩٤)** ، النص التكتيكي النموذجي في جيوشهم المتقابلة . ومن الغريب ان نلاحظ ان « واغز » كان احد القلائل الذين جلبوا الانتباه في موضع آخر ، الى فيمة الخندقة في الحرب الاهلية . ولكن هندرسون قد فعل في ذلك الوقت انشيء نفسه ، وفي وقت ما اعلن هو الآخر ايمانه بفاعلية الهجوم الجبهوي بصفوف متعاقبة من المشاة .

ولحسن الحظ ادت الانكسارات في جنوبي افريقيا الى اعادة البحث في التكتيك البريطاني ودفعت الى تبني مذهب اكثر واقعية ، ومع ان التضخيم مازال باقيا في انشاء خط النار ، « فلقد كان الشكل بصورة رئيسية مرنا وملائما للارض ، باهداف محدودة ... كاستعمال غطاء حسبما هو متوفر ، وتأمين هدف صعب للعدو على قدر الامكان » . وبدلا من توخي اخذ العبرة من حوادث جنوبي افريقيا ومنشوريا ، ابدى الكتاب الفرنسيون والالمان اتجاها بارزا للحكم على الحوادث على ضوء تفضيلاتهم الخاصة . وما على المرء الا قراءة كتاب الجنرال « لانغلو » : « دروس حربين حديثتين » ليقدر المدى الذي ظل فيه المجلس الحربي الاعلى غير متأثر بالنقد الذي كان يتصاعد من التجربة البريطانية ضد البوير . ان لهجة التعالي في الكتاب الرسمي لرئاسة هيئة الاركان الالمانية عن تاريخ الحرب في جنوبي افريقيا (١٩٠٦) تكشف عن موقف مماثل ، في حين ان ظفر اليابانيين في منشوريا كان ينظر اليه النقاد الالمان بالغبطة ذاتها التي ينظر فيها المعلم عندما يفكر بمنح جائزة لاحد تلاميذته . ومع ان التاريخ الرسمي البريطاني عن الحرب الروسية اليابانية قد اخذ علما بقيمة القنابل اليدوية في حرب الخنادق ، وفاعلية الرشاشات ، وكذلك الاعتماد المتنامي على الاعمال الترابية فان الانظمة الالمانية الاولى للمشاة الصادرة بعد تلك الحرب قد نصت على ان استخدام الارض محدود للحفاظ على الاتجاه وضخمت تضخيما جديدا عمل الحراب . « لاجل المهاجمة يدفع بخط النار الى اقرب ما يمكن من العدو . وان الهجوم بالسلاح الابيض قد سجل نهائيا فشله » . واما

التنظيمات الفرنسية لعام ١٩٠٢ فهي في حين كانت تعترف اعترافا اوسع بقوة النار ، فقد ظلت الروح الهجومية تسيطر عليها . وقد اعلن « فوش » « ان اي تحسين يطرأ على الاسلحة النارية مسخر نهائيا لاضافة قوة الى الهجوم » ، والعقيدة الجديدة لعام ١٩١٣ اعلنت بان « الجيش انفرنسي ، وقد عاد الى تقاليده ، لن يعرف بعدئذ اي قانون آخر سوى الهجوم ... وان سائر الهجومات يجب ان يدفع بها الى الحد الاعلى ... وانه يقتضي الانقضاض على العدو بالحراب بهدف تدميره ... ولا يمكن الحصول على هذه النتيجة الا لقاء تضحيات دموية . واي مفهوم آخر يجب رفضه بوصفه مخالفا لطبيعة الحرب الاصلية . انني اؤمن بالنظام كما افهمه » ـ وبالتأكيد ان مثل هذا الايمان حري بالقديس اوغستينوس .

ولقد قطعت الخيالة ايضا شوطا موازيا . وكانت الرغبة الاولى لدى اكثر الكتاب العسكريين بعد عام ١٨٧٠ هي التعلم ، ولم يستسلموا لغريزة البقاء ألا متأخرين . وكان الحل الاساسي يتأرجح بين امرين ، اما ان تستمر الخيالة في اللجوء الى تكتيك الصدمة ، منطلقة بنفسها نحو العدو في تشكيلات كثيفة جاهدة في قذف قواتها بالتأثير المطلق للهجوم الراكب ، واما ان تتعلم كيفية استخدام قوة النيران . اما في بريطانيا فقد بشر في عام ١٨٦٠ عدة كتاب ، متأثرين بعمليات الخيالة في الحرب الاهلية ، بمذهب متطرف هو ان الخيالة غدت قوة نار متحركة ، تعتمد بالدرجة الاولى على الحصان كوسيلة للتنقل ، وهي نظرة شاطرهم فيها معظم ضباط الولايات المتحدة مع تجربة حديثة استقوها من الحرب الاهلية او من حربهم ضد الهنود الحمر (من اصل ١٢ سرية خيالة ارسلت مع قوة الحملة الى كوبا عام ١٨٩٨ كانت واحدة منها فقط راكبة) .

واما في المانيا فلقد كان البحث تقليديا اكثر . فان الجنرال « كارل فون شمت » ، الذي كان قد تعلم درسا في عامي ١٨٧٠ و ١٨٧١ وهو : « كان من الضروري الذي لا غنى عنه » في بعض الاوقات ان تقاتل الخيالة مترجلة ، ومع ذلك فقد كان يفضل عمل الصدمة في مناسبات كثيرة ، وقد استخدم نفوذه

بوصفه عضوا في لجنة الخيالة عام ١٨٧٤ لكي تتضمن التنظيمات الجديدة الصادرة في السنة التالية اهتماما اكبر من ذي قبل بالتكتيك المترجل . ومن جهة اخرى ، قضت التنظيمات الصادرة في فرنسا عام ١٨٧٦ بان تكتيك الصدمة « شرط اساسي للنجاح » علما انه كان هناك كتاب قليلون كالكولونيل « بوني » من الذين استمروا في القول بانه يجب على الخيالة ان تكون قادرة على القتال مترجلة اذا كانت ترغب في التمسك بمكانها في ميدان الحرب الحديثة . وقد اصر على « ان الخيالة التي تعجز عن القتال مترجلة كما تقاتل على الخيل هي خيالة متأخرة وليست في مستوى مهمتها وهي مقضي عليها بالهزيمة » .

وفي عام ١٨٨٠ حدث احياء ملحوظ للايمان بقدرة تكتيك الصدمة . اذ انه على السواء في التنظيمات الفرنسية لعام ١٨٨٢ والتنظيمات الالمانية لعام ١٨٨٦ نرى تشديدا على **السلاح الابيض** . ولعل اهم مساهمة في المجال النظري كان كتاب « ليوال » : « تكتيك الاستخبارات » (١٨٨١ ؟ الذي بسط فيه الجنرال الفرنسي امكانيات فرقة الخيالة بتجميعها الاخبار موفرة الامن ومنفذة الغارات. الا ان « ليوال » شأنه شأن « فون شمت » ، دافع عن التكتيك المترجل فقط عندما تكون الوسائل الاخرى غير ملائمة للوضع . وفي المانيا قوت كتابات الكابتن « هوينغ » والامير « كرافت » عزيمة اولئك الذين اعتقدوا بان الخيالة لا يزال لها وظيفة هامة في المعركة . اما الامير « كرافت » فانه مع اعترافه بان قوة النار المتزايدة قد ادت بالخيالة الى وضع « مماثل لوضع الاسلحة الاخرى » وذلك برسائله عن الخيالة (١٨٨٤) فقد اكد بان العسكريين قد قاموا برد فعل زائد عن اللزوم بالنسبة للتغيير : انني قد بنيت حكمي على تجربة الحرب ... وقد توصلت الى نتيجة وهي ان الدور الذي قامت به الخيالة في المعركة الهجومية يمكنه دائما ، على الرغم من توسع نطاق تأثير النار على الاسلحة الاخرى ، ان يظل في بعض الظروف ذا صفة حاسمة بالغة الحد ، ولكنني أعتبر ان حظ الخيالة فيمعركة دفاعية لا يزال كبيرا ... حيث يمكن تمركز كتل الخيالة قريبا من البقعة المختارة ، وتحت تغطية ، وتنطلق في اللحظة المناسبة . وكان « فون ديرغولتز » ممن الحوا ايضا بان الخيالة « يمكنها ايضا ان تلعب دورها بتقديرها الوقت كما كانت في الازمنة السابقة ... وقد قال متفاخرا ان

الخيالة الالمانية لا تخاف شيئا من خيالة العدو ، وان القضية تكمن فيما اذا كانت خيالتنا ستجعل نفسها مخيفة لمشاة العدو » .

لقد وضعت حرب « البوير » المسالة في المقام الاول . اذ ان التنظيمات الفرنسية والبريطانية لعام ١٩٠٤ اوصت بوجوب زياده القتال المترجل ، الا انه لم يمض زمن طويل حتى تلاشت الانطباعات التي تكونت في جنوبي افريقيا . اما في فرنسا حيث كتب « فوش » عن كواكب الخيالة التي تظهر فجأة « من غيمة من الغبار والدخان » لتندفع نحو الهدف فقد كان هناك اهمال عام للتدريب المترجل ، وكذلك في المانيا فان « بيرنهاردي » قد قرأ التنظيمات الجديدة وكتب مؤلفين بمجهود غير مثمر لادخال واقعية اوسع الى عقيدة الخيالة . وكان « بيرنهاروي » مقتنعا بان على الخيالة ان تستخدم بصورة اوسع قوة النار ، فقد دافع امام مريديه من ضباطه طالبا اليهم « الا يبهرهم صوت الماضي والا يقعواتحت تأثير سحره لانه لا يمكن استعادته مطلقا » .

الا انهم في بعض الاوساط في انكلترا كانوا ينظرون حتى الى برنهاردي بانه تقليدي اكثر مما ينبغي . وان اعترافه بان « هجوم الصدمة القديم قد انقضى امره » لم يكن كافيا بنظر « ارسكين شيلدرز » الذي كان قد قاتل ضد البوير وكان مقتنعا بان **السلاح الابيض** يجب الغاؤه لصالح المشاة الراكبة . ولسوء الحظ فان بعض رجال الخيالة آنئذ ، او حتى بعد الحرب عندما كان عليهم ان يتوصلوا الى حل مع الدبابة قد ابدوا رغبة بان يفصلوا عن خيولهم ، وقد اعاد كتاب : « **تدريب الخيالة** » لعام ١٩٠٧ تأكيد المذهب القائل بان « جوهر روح الخيالة يكمن في اقامة التوازن الصحيح بين قوة النار وهجوم الصدمة . . .ويجب ان يكون مقبولا كمبدأ ان البندقية ، بوصفها فعالة كما هي بالواقع ، لا يمكنها ان تحل محل الفاعلية الناجمة عن سرعة الحصان ، وجاذبية الهجوم ، والذعر من الفولاذ البارد . وكانت **صحيفة الخيالة** ، التي مولها ضباط الخيالة الذين كانوا بالخدمة في انكلترا في ذلك التاريخ ، قد اسست عام ١٩٠٦ لكي تجعل وجهة النظر هذه دائمة » .

اما تشكيل المدفعية ومناوراتها فقد كانت اكثر بساطة واقل تعرضا

للنقاش من حالة الاسلحة الاخرى . وقبيل عام ١٨٧٠ أهمل في الغالب تركيز النار الذي كانت تتميز به المعركة النابوليونية . ففي الحرب الاهلية عملت الارض المغطاة بالاحراش الكثيفة ، وكذلك التنظيم الخاطيء ، ضد هذا المبدأ ، وفي عام ١٨٦٦ دخلت المدفعية البروسية في كل مناسبة تقريبا . على حد قول الامير « كرافت » « الى المسرح متأخرة كثيرا وبمدافع قليلة العدد جدا . ولكن البروسيين علموا بعد عام ١٨٧٠ ، وكذلك فعلت الجيوش الاخرى ، الى اية درجة بالواقع اصبح استخدام المدفعية بكثافة اول مادة من العقيدة . ويبدو ان **رسائل المدفعية** (١٨٨٤) الاعلامية للامير « كرافت » قد تضمنت قسطا اكبر من اي كتابه كتب عن الموضوع وعايشت حتى التغييرات الفنيـة في **المعدات** ، وبصورة خاصة مدافع الميدان سريعة الاطلاق ، والتحسينات التـي ادخلت على القذائف وادخال مدافع الحصار الثقيلة ، وعلى العموم فان الدور الاول المخصص للمدفعية في المعركة هو التغلب على مدافع العدو في مبارزة هائلة للمدفعية وبعد ذلك تقديم المساندة القريبة الفعالة للمشاة في الهجوم. واذا كان هناك اتجاه في تكتيك المدفعية فلقد كان ذلك نحو زيادة في كمية المدفعية وعيارها، مما حول المدفعية تدريجيا من سلاح مساعد الى سلاح مسيطر في المعركة . واذا ما بقي المشاة ملوك المعارك حقا فلا تتويج ممكن دون تفوق بالمدفعية .

وينقصنا المتسع الذي يجب فيه ان نناقش المسائل الاخرى التي استرعت انتباه الكتاب العسكريين خلال تلك الاعوام او حتى ان نرسم خطوط نظريـات هؤلاء الثائرين على المذهب الذي كان يتحول بسرعة الى خطوط صلبة يصعب النفاذ الى اي جزء منها كما هي حال نظام الخنادق لاعوام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ . وكان عدد قليل من المثقفين في كل جيش يقودون النقاش حول المشاكل الراهنة وتشترك معهم في ذلك الاكاديمية الحربية ، والمدرسة الحربية العليا ، وكلية الاركان ، والمؤسسات الاخرى بهدف تدريب الضباط ذوي الرتب العليا . وفي اغلب الحالات كان البحث المفتوح عن الحلول في عام ١٨٧٠ قد ضيق الى التزام بعقيدة رسمية في بداية القرن ، وهي حركة يمكن تقصيها في كتب التدريب وحتى في التاريخ الرسمي المعد من قبل مختلف هيئات الاركان . وظهرت حول عام ١٨٩٠ تقريبا نزعة بارزة نحو الابتعاد عن التقليد الاعمى للاساليب والتنظيم

الالمانيين في جيوش فرنسا ، وروسيا ، وانكلترا ، وبدا ان الجيش الالماني نفسه قد تغير نوعا ما من حيث طبيعته .

واثناء السنوات العشر الاولى بعد عام ١٨٧٠ ، لاحظ تلاميذ نابهون بان البروسيين مدينون بظفرهم لقيادتهم كما هم مدينون به لتنظيمهم وللتكتيك ، وكان الموضوع الرئيسي في عدة بحوث المانية قد عالج القضية الاساسية للتدريب والرماية وهي كيفية التوفيق بين المبادهة الفردية والابتكار مع الانضباط الضروري على المستويين التكتيكي والاستراتيجي . وقدر معظم الضباط الاجانب باقل مما ينبغي اهمية هذا الموضوع وفي ذلك الوقت فقد الالمان انفسهم قدرا كبيرا من الروح التي قادت العمليات والمناورات في عام ١٨٧٠ . وقد كتب « هندرسون » معلقا على المناورات الالمانية لعام ١٨٩٥ « حتى ان العسكريين انفسهم يتصرفون تصرف الاناس الاذكياء ، الذين يدركون تماما واجباتهم ، وتملأ الحقائق مجلدات عن الطريقة التي يتعلم بها حتى الافراد انفسهم أستعمال مبادهتهم ، وعن اهمية نظام التدريب الفردي » . غير ان هذا الجيش نفسه احدث انطباعا مختلفا تماما في عام ١٩١١ : فقد شاهد « ريبنغتون » من أسرة جريدة التايمز جنودا « بنظرات كئيبة شبه مروعة وكالآلة ، يهاجمون بطريقة نظامية وبتثاقل » ، وفي مناسبة اخرى ، استغرب ماذا حل بمدرسة مولتكيه العظيمة ... ولاولئك الذين كانوا قد ابقوا اصبعهم على نبض الجيوش الاجنبية خلال السنوات الاخيرة ، وكان اضمحلال مذهب النقد العسكري الالماني يشكل ولا شك مفاجأة . وقد بدأت بعض الجيوش الغربية تفقد شيئا من مركزها الممتاز في التسعينات من القرن الماضي ، فالسلام طويل الامد والحياة المرهقة الروتين الخاص داخل الثكنات هما احدثا نتائجهما المحتومة . ويمكن لاي قارىء لكتاب : « الدفاع عن دفرز درفت » (١٩٠٤) ان يتأكد بأن الجيش البريطاني الذي اشترك في حرب البوير قد عانى من نفس القيود .

ان الحرب العالمية قد دفعت ، لمدة ما على الاقل ، بالفكر العسكري وبالعقيدة الى مدى اقرب الى الواقع مما حصل منذ عام ١٨٨٠ . فما الذي حدث ؟ ولماذا لم يستطع سوى عدد ضئيل من المفكرين العسكريين استباق

معرفة ماذا سيفعل المدفع والخندق للحرب ؟ ولعلهم ، ولو سجلت معركة المارن الاولى انتصارا المانيا ، لكانوا اقرب للحقيقة ، ولكنهم نظرا لتعايشهم مع كتابات تلك الحقبة ، فان ثلاثة اقتباسات من كتاب مشهورين عن الحرب يمكن ان توحي بالمسبب للتحريف :

(١) ـ « ان العلم قد استحوذ على ميدان المعركة ، وان كل الذين لا يخرون ساجدين امام هذا المعبود يعتبرون رجعيين ، وضيقي التفكير ، ومتخلفين عن العصر » .

(٢) ـ « اينما ينظر الانسان يرى فكرة ماهرة تخط الى خدعة في ارض التدريب » .

(٣) ـ « من المعروف جيدا بان التاريخ العسكري ، عندما بدرس سطحيا، يعطينا براهين لدعم اية نظرية او رأي » .

العقيــدة والتدريب
في الخيالــة البريطانيـــة
١٨٧٠ ـ ١٩١٤

بقلـم بريـان بونـد

ولد بريان جيمس بونــد عام ١٩٣٦ ، وخدم في المدفعية الملكية مــن عام ١٩٥٤ حتى عام ١٩٥٦ ، ودرس التاريخ في كلية « وورستر » بجامعة اوكسفورد من عام ١٩٥٦ الى عام ١٩٥٩ . وبعد ذلك درس التاريخ العسكري في كليــة الملك بلندن ، واصبح مدرسا محاضرا للتاريخ الحديث في جامعة ليفربول منذ عام ١٩٦٢ . وهو كاتب مقالات عديدة في التاريخ العسكري في مجلات دورية تبحث في التاريخ والادارة وهو منكب حاليا على دراسة الجيش البريطاني فــي القرن التاسع عشر .

منذ ايام فريدريك الكبير وقائد خيالته أنجريء سيدليتز وحتى هجوم لواء اللورد كارديغان الخفيف الذي رافقه حظ سيء في عام ١٨٥٤ ، لم يقم سبب لمناقشة فعالية ، وخاصة الاثر النفسي ، **للسلاح الابيض** – « اي فرس الحرب والفولاذ البارد » الحربة والسيف – – على ميدان المعركة . ولا شك بوجود حالات عديدة – وبخاصة في واترلو – برهن فيها المشاة المنضبطون جيدا عن صمودهم « لتكتيك الصدمة » في هجوم الخيالة ، على انه جرت هجمات خيالة مظفرة عديدة على مشاة ومدفعية ضعفت فيهما الروح المعنوية الحقتها
خيالة مظفرة عديدة على مشاة ومدفعية ضعفت فيهما الروح المعنوية الحقتها

وقد اوجبت السلسلة المتلاحقة من النزاعات الاوربية بين عامي ١٨٥٩ و ١٨٧٠ ولربما بصورة اكثر وضوحا ، الحرب الاهلية الامريكية ، الى الجميع باستثناء العسكريين الاكثر تمسكا بالتقليد ، بان امكانيات الخيالة قد انتابها تغيير عميق ودائم . ومع ان الترابط كان لا يتحقق ولا يقبل به الا ببطء ، فان تلك الحملات قد دلت على ان قوة النار قد ازدادت بصورة هائلة ، وان الخيالة، بقدر ما طبقت تكتيكات الصدمة وجها لوجه فان الصف الاقرب القائم بالهجوم، قد عانى من تفوق مقابل . وحول عام ١٨٧١ ادت الانجازات القليلة التي قامت بها تكتيكات صدمة الخيالة في اي من صفوف المتحاربين في الحروب حديثة العهد الى اظهار دور الاسلحة المقبل في بوتقة الانصهار . وقد عزي فشل الخيالة بصور شتى لاوضاع الخصم الطبيعية وهذا كان مقبولا بالنسبة لكثير من الاراضي الامريكية ، او عزي ، ببساطة اكثر ، لضعف التدريب . وعجز القيادة ، وهذا ما كان حقيقيا بالنسبة للخيالة الفرنسية في عام ١٨٧٠ . وبين العسكريين القلائل الذين ادركوا ان السبب الاساسي يكمن في ازدياد قوة النار وازديادها المتواصل ، كان احد ضباط الجيش الهندي السير « هنري هافلوك » والكولونيل « جورج دانيزون » احد ضباط الميليشيا الكندية . ويمكن استخدام ادراكهما الاساسي لرسم الخلفية التكنولوجية التي تطور تنظيم الخيالة البريطانية وتدريبها بموجبها ، او لم يتطور ، في نصف القرن قبل الحرب العالمية الاولى .

وقبيل حرب القرم ، لاحظ « هافيلوك » ان الخيالة كانت قد هاجمت المشاة بنجاح وذلك بصورة رئيسية فقط لان ذلك الاخرق المتردد المرتبك براون بيس قد اعترف بانه حشا سلاحه وتهيأ للاطلاق واطلق حوله ما يقرب من طلقتين بالدقيقة ــ وان الخيالة يمكنها تغطية منطقة الخطر البالغة ٢٠٠ باردة بما يقرب من ثلاثين ثانية . (وكتب في عام ١٨٦٧ ؟ : لقد وسعت الاسلحة المحلزنة الآن منطقة الخطر الى ما لا يقل عن ٨٠٠ باردة ، او ١٠٠٠ باردة ، وبالاضافة الى ذلك فان الاسلحة الجديدة الدقيقة قد اضفت اهتماما حذرا على المهارة الفردية في الرماية . ولم تكن انتقادات « هافيلوك » موجهة الى الخيالة لكونها كذلك ، بل كانت موجهة ضد **عبادة السلاح الابيض** لانه علل بان خيالة شمالي امريكا في الحرب الاهلية قد رفعت حاليا من شأن دور الخيالة باستخدامها البندقية كسلاحها الرئيسي . وكانوا جاهزين لاستلال السيوف والهجوم في الوقت المناسب ، الا ان النار المترجلة ، بالاضافة الى قابلية التحرك المجهزة بالحصان ، كانت اكثر التكتيكات فعالية .

ان نظرية ان البندقية يجب ان تصبح السلاح الرئيسي للخيالة وان القتال المترجل عادة مألوفة كان بمثابة لعنة بالنسبة للخيالة الاوربية ، وحتى انه جعل اقل استساعة بأقوال « هافيلوك » اللاذعة التي اطلقها عليها : مثلا « ان الرماح البريطاني بعلمه وفأسه يشبه مفارقة تاريخية رائعة مستعارة من القرون الوسطى » . وكذلك فان « دينيسون » كان أيضا متأثرا تأثرا عميقا بمشاركة النار وتكتيك الصدمة في الحرب الاهلية الامريكية وكان اقل اقتناعا من « هافيلوك » بان هجمات الخيالة التقليدية اصبحت الآن من مخلفات الماضي. واقترح الاحتفاظ على اقل تقدير بربع القوى الراكبة « كخيالة حقيقية ، مسلحة كما ينبغي ، ومدربة كذلك ، وملقنة بان لا شيء بمقدوره ايقاف هجوم منفذ تنفيذا جيدا .. » .

وعلى الرغم من مختلف الابحاث والمبالغات فان هافيلوك ودينيسون كانا مشتركين في فكرة هي ان قوة النار ستزداد سيطرتها على ساحة المعركة على حساب الخيالة ، وان الحرب الاهلية الامريكية زودتنا باحسن الامثلة العملية

على كيفية تمكن الخيالة من تكييف نفسها مع الظروف الجديدة . أما بالنسبة للنقطة الاخيرة فقد كانت تسبق زمنها بمقدار عشرين سنة ولاسباب متنوعة كان تأثير الحرب الاهلية على الفكر العسكري البريطاني مكبوتا ، ومن الصعوبة بمكان رسم هذا التأثير سواء أكان على العقيدة الرسمية ام على ذلك المجال المحدود للتدريب الذي كان قائما في تلك الآونة . وكان التفكير العسكري البريطاني غامضا بصورة رئيسية بالافتراض المدرك جزئيا والقائل بأن الحروب الاوربية هي وحدها التي « يحسب لها حساب » . وعلى هذا فان المانيا بانتصارها على فرنسا ــ وهي المثل الاعلى منذ ايام نابوليون ــ قد اصبحت المؤثرة الاولى على العقيدة البريطانية الرسمية . وظل تكتيك الصدمة المثل الاعلى بالنسبة للخيالة الالمانية وعلى هذا الوجه وجدت الخيالة البريطانية عزاء عندما واجهت تطبيقات خيالة ما وراء الاطلسي المشوشة .

وحتى مع حكمة الادراك المتأخر فان من الخطأ التفكير بأن الحصان في عام ١٨٧١ قد ولى زمانه في ساحة المعركة . اذ بالنسبة للتكتيك كان لا يزال الوسيلة الرئيسية للحركة ، في حين ان قيمته الاستراتيجية في الاستطلاع ، والاغارات ، ومهام الحماية قد ثبتت مؤخرا ، وبخاصة في فرنسا عام ١٨٧٠ ، وكانت تلك القيمة ستزداد على الارجح كلما توسعت الجيوش وجبهات القتال . ومن جهة ثانية ، فان العوائق الموضوعة للحصان ، كالاسلحة النارية الاوتوماتيكية ، والاسلاك الشائكة ، والتحصينات ، ومع ان هذه العوائق تنذر بالسوء ، الا انها لم تسخر بعد قوتها الكاملة للدفاع . ولهذا فان القضية ، في الفترة التي سبقت عام ١٩١٤ ، لم تكن ما اذا كان ينبغي الغاء الخيالة ، بل الى اي مدى يجب او يمكن ان تصل اليه في مواجهة الظروف الجديدة . واما في المجال الاستراتيجي فان « دروس » الحرب بوصفها مؤثرة على الخيالة الاوربية بدت واضحة وضوحا كافيا بشكلها الذي تقبلها به الخيالة البريطانية كمسألة تعديل وتطوير فعلي ، وكاستجابة لا تثير الدهشة منذ ان ازدادت اهمية الاسلحة على وجه لا يرقى اليه الشك . وهذا لم يكن حال المجال التكتيكي الذي كانت فيه « دروس » الحرب اقل وضوحا في ذلك الوقت حيث بدت التغييرات معتدلة ومنطقية بالنسبة لمن كان بعيدا اما للخيالة فقد شعرت حيالها بحقد مستطير لان

الحربة بالنسبة اليها تشكل « حالة فكرية » وان « الهجوم » لا يتضمن نقط حركة تكتيكية بل طريقة كاملة للحياة . الا ان النقاش في موضوع الخيانة المتسع من جهة ثانية قد تطور وفاقا للنتائج المذكورة من حيث التسلح ، والقتال على ظهور الخيل او على الاقدام ، وامكانية الهجوم .

واذا اخذنا رسما تخطيطيا للخيالة البريطانية في منتصف تلك « الايام المظلمة » فيجب في اول الامر ان نلاحظ حجمها الصغير بالنسبة للجيش ككل . ففي عام ١٨٧٠ كان هناك واحد وثلاثون فوجا مقابل مائة واربع واربعين كتيبة مشاة (كل منها تعادل تقريبا فوج خيالة ؟ ، وظل العدد ثابتا حتى ١٩١٤ . وفي عام ١٨٨٩ حسب انه كان لدى الجيش النظامي ، بما في ذلك القوات البريطانية في الهند والاحتياط ، ٢٦٦٥٦٩٢ رجلا ، فيها ٢١٩٢٢ من الخيالة واحتياطها اي ٢ر٨٪ . وكان عدد الرجال الراكبين في القوات المساعدة اقل من ذلك كثيرا . ويضاف الى قلة العدد هذه الانتشار . فقد كان التوزيع المعتاد ١٤ فوجا في انكلترا ، وفوج في اسكوتلاندة ، وستة في ايرلندة ، وعشرة فيما وراء البحار غالبيتها في الهند .

الا ان مجموعة من العوامل اضفت على الخيالة احتراما وطنيا ومهنيا على السواء بغض النظر عن نسبة عددها . وقد تجمعت على انجازاتها الفعلية التاريخية هالة من الفتنة . والقصص الخيالية يمثلها التفاخر شبه الجدي بان دور الخيالة في المعركة يضيف نغما الى ما يمكن ان يعتبر من ناحية اخرى هديرا ناشرا . ان تراكم الانجازات الماضية قد تحول الى « روح الخيالة » فأكسبها جوهرا قيل انه لم يوجد في اي صنف آخر وهو ذو قيمة عملية لانه يظهر التناقض بالنسبة لاصلاحات غير مرغوب فيها . يضاف الى ذلك أن لهجة المجموعة التقليدية الارستوقراطية قد حوفظ عليها بانتقاء متأن لمرشحي الضباط وبنفقات مرتفعة جدا علىا لفوج . وقد كتب « السير ايفلين وود » في عام ١٩٠٦ مذكرا بانه « منذ ثماني سنوات خلت » طالبت غالبية ضباط القيادة بمخصصات سنوية مقدارها من ٥٠٠ جنيه استرليني الى ٦٠٠ جنيه . اما الآن فقد خفضت اذ يمكن للضابط شديد الحرص ان يلتحق بالخيالة بنفقة

تبلغ في البداية ٤٠٠ جنيه استرليني ، وهو اما ان يصيد او يلعب البولو بمخصصات تبلغ ٣٠٠ جنيه استرليني . وهذه التفصيلات لم تذكر فقط لاضافة لون بل كعوامل اساسية لادراك الهلع الذي كانت الخيالة تنظر به الى خسارة دورها التقليدي ، وقسوة عملها في حراسة المؤخرة .

ومع انه كانت توجد منظمة خيالة متطورة على الورق من الفرقة واللواء نزولا حتى الفوج او السرية ، فان معظم عمل رجل الخيالة اليومي كانت لا يقضي في أي من هذه التشكيلات بل في اصغر وحدة منها اي الجماعة . والسبب الرئيسي لذلك هو ان طريقة الخيالة الاجتماعية والتي كان الهدف منها تأمين قضاء الضباط اقصر وقت في واجبات الفوج واطوله في الصيد والمطاردات المفيدة . وكانوا يقضون في « الواجبات الداخلية » وقتا طويلا الى حد ان التدريب الميداني كان عليه ان يحشو ادفعتهم مرتين كل منها ثلاثة اسابيع . ان مجموعة الرماحين التاسعة مثلا ، افترض انها ستكتسب المهارة في اعمال الركوب واعمال الترجل والاعمال الكشفية والاستطلاع والقيادةوالاشارات في اربعة ايام . وكانت هذه « الحالة الويلنغتونية » في الاعمال ، والتي ظلت موضع تطبيق في عام ١٨٧٠ ، كان يجب ان يرمى بها خارجا قبل ان يصبح للتدريبات على المدى الواسع اية قيمة .

لقد كانت الخيالة البريطانية مقسمة الى ثلاث انواع ــ الثقيلة ــ والمتوسطة ، والخفيفة ــ وذلك بالنسبة لحجم الحصان والفارس ووزنهما . وكان النوع الثقيل يتضمن الافواج الخمسة من الخيالة المخصصة لداخل البلاد وهي لا تستخدم في الخارج . وكان هناك ثلاثة عشر فوجا متوسطا من الفرسان والرماحين وعدد مساو من الافواج الخفيفة كلها من الفرسان وكان الفرسان يحملون بنادق قصيرة تحشى من الفوهة (وبعضهم كان يحمل ايضا مسدسا) كما كانوا مسلحين بالسيوف ، قبل القرم بمدة طويلة ، في حين لم يكن الرماحون يحملون سوى السيوف ، والحراب ، والمسدسات . وقد بديء بانتاج البندقية سنايدر التي تلقم من مؤخرتها بعد وقت قصير من حرب القرم ولم تلبث ان حل محلها هي بدورها بندقية « المارتيني ــ هنري » (١٨٧٨) ، والبندقية « لي مثفورد » (١٨٩٢) ، واخيرا البندقية « لي انفيلد » (١٩٠١) .

وكان يتم تبني البنادق على مضض خاصة من قبل الرماحين ، الذين اشتهر احد المواجهم بانه جمع اول دفعة منها في كومة . وهكذا حوالي عام ١٨٨٠ كان كل رجل من الخيالة يحمل سيفا وبندقية قصيرة وكان الرماحون ، بالاضافة الى ذلك ، يحتفظون بسلاحهم . وعلى الرغم من انتاج انواع جديدة اخرى متعددة من البنادق القصيرة فان فن استخدام الاسلحة الصغيرة لم يكن ينظر اليه نظرة جدية من قبل الخيالة قبل عام ١٨٨٠ ، لكنه اعتبر « انحطاطا وعبثا » ولربما كان ذلك محتوما طالما ظلت المخصصات السنوية اربعين طلقة فقط لكل رجل .

وفي النصف الاول من عهد الملكة فكتوريا لم يسمع بالمناورات العسكرية عمليا : وكان اقرب شيء يضاهيها هي قوات المتطوعين ليوم الميدان السنوي في برايتون ، وكان مشهدا لتجمع شعبي كبير لكن دون اية اهمية عسكرية . وقد ظل هؤلاء يحوزون موافقة حرس الخيالة حتى عام ١٨٧١ ، عندما ادى عرض غير موفق الى ان المشرف العام قد كتب تقريرا الى « دوق كامبردج » انه اذا لم يتم تدريب الرجال بشكل افضل وتتحسن ادارتهم فسيكونون اشد خطرا على الدولة بدلا من خدمتهم لها . وقد يكون اول من لمس اهمية التدريب الميداني هو « الامير كونسورت » . ففي حين كان كثيرون من الضباط القدامى يعتبرون ابسط المناورات «سرا تقابيا متحذلقا» فان الامير قد اعتبر الفكرة البسيطة والجديدة في الوقت ذاته هي ان القوى المتقابلة عليها ان تناور وبعضها ضد بعض . واحتلت « المعركة » التجريبية مكانا لها في مخيم القيصر قرب «الدرشون» عام ١٨٥٨ ، الا ان وفاة الامير غير المتوقعة قد اجلت التطور لمدة عشر سنوات .

ان الفضل الاكبر في ادخال المناورات الحقيقية يعود للسير «هون غرانت» ، الذي اصبح قائدا لمنطقة « الدرشوت » عام ١٨٧٠ ، مع ان من الواجب ايضا الاعتراف بان « دوق كامبردج » قد شجع الفكرة . وقد اقنع كاردويل من قبل غرانت كي يسمح للقوة الضخمة المؤلفة من ٣٠٠٠٠ من الوحدات النظامية والمساعدة بالتعسكر في « بيركشاير » عام ١٨٧١ . وبصورة مفاجئة الغي المشروع من قبل وزارة الحربية وكان ذلك بصورة علنية بسبب الحصاد

الاخير ، ولكن من الممكن انه كان بسبب العجز عن نقل اكثر من ٥٠٠٠ رجل من « الدرشوت » . وبدلا من التخلي عن المخطط فقد دبرت « معركـة » قـرب الدرشوت .

وفي الجو السياسي السائد في انكلترا في اواخر العهد الفكتوري كانت الجهود المبذولة حتى من قبل امهر العسكريين كالسير « ايفلين وود » لتقليد الحرب الحقيقية محكوما عليها بالفشل . اذ عندما اقتضت الحال تجنـب المحاصيل ، وعدم المساس بالطرائد مع احترام الخطوط الضيقة للحدود فلم يبق للخيالة سوى خيار ضئيل وهو تنفيذ الهجوم . وحتى بعد ان تم الحصول على منطقة تدريب جديدة مؤقتة في « كانوك شيز » عام ١٨٧٣ ، فقد اضطرت الخيالة الى التعرف على كل شبر من الارض ومن الدرشوت قبل انتهاء المناورات بمدة طويلة . ومع ان التدريب المشترك بجميع الاسلحة في الميدان لم يصبـح ممكنا الا بعد ابتياع قسم من سهل سالزبوري من قبل وزارة الحربية عـام ١٨٩٨ يمكننا ان نسجل عهدا جديدا لتدريب الخيالة بدءا من عام ١٨٨٩ عندما استلم السير « ايفلين وود » قيادة الدرشوت . وقد حدثت تجديدات واسعة في السنة التالية عندما عسكرت فرقة من الخيالة في هضاب بيركشاير وقامت بتمرينات في الشؤون الكشفية والمناورات . وقد تم التخلي عن حركات العرض الارضية القديمة باستثناء الهجمة ــ بعد ان تم التحقق من انه لا يمكن ايجاد قادة موهوبين وملهمين من السماء ، ان التجربة وحدها المكتسبة في السلم هي التي تمكنهم من استخدام كتل الخيالة باثر فعال في الحرب . وبدءا من عـام ١٨٩٥ ايضا وضع السير « ردفيرس بوللر » الجنرال المساعد ، بالاشتراك مع السير « جون فرنش » كمساعدة ، كتيبا جديدا عن الخيالة ونظما الخيالـة داخل البلاد في الوية دائمة .

في العديد من الحملات الاستعمارية الصغيرة بين عامي ١٨٧٠ و ١٨٩٨ اتيحت للخيالة النظامية فرص قليلة لاكتساب الشهرة ، مع ان هذه الاعمـال كاندفاع السير « درووري لو » الى القاهرة بعد انتصار ولزلي في التل الكبير عام ١٨٨٢ ،قد اقترنت بكثير من المديح . والسبب الرئيسي ولا شك هو ان معظم

الحملات وقعت في ارض غير ملائمة كلية **للسلاح الابيض** مثل أراضي الغابات الاستوائيـــة في افريقيا الغربية او جبال افغانستان . وكان ذلك دليلا على قيود **السلاح الابيض** الامر الذي ادى الى انه عندما التحقت المجموعة التاسعة مـن الرماحين بالسير « فريدريك روبرت » في مسرح العمليات الاخير عام ١٨٧٩ حولها على الفور الى مجموعة حملة بنادق راكبة مصدرا لها الامر بحمل بنادق قصيرة — كسلاح رئيسي — معلقة على الظهور في حين ظلت السيوف مثبتة في السروج . ونتيجة لذلك بدات الخيالة غير النظامية تلعب دورا هاما في الحرب الاستعمارية . ان بروز الخيالة غير النظامية في بريطانيا بتسميات مختلفة منها « خيالة الحدود الخفيفة » ، والبنادق الراكبة ، او المشاة الراكبة ، يمكـن ان نتمثل صورة عنه من خلال مهنة السير « ريدفرس بوللر » الذي بلغ ذروته كقائد ميداني بين عامي ١٨٧٠ و ١٨٨٥ . فقد قاد وهو برتبة رائد في « حرب الكفير » في صيف ١٨٧٨ مجموعة متنوعة من الرجال سموا « بخيالة الحدود الخفيفة » . وكانوا مؤلفين من البريطانيين والبويريين ، والاجانب . وقـد بلغت هذه القوة المتنافرة في اقصى حدودها (٩٠٠) رجل ، وكان مظهرهـا مظهرا غير عسكري بصورة ملموسة ، وكانت تكتيكانها مرتجلة ، ترافقها عملية على الاقدام ذات دور هـام . وفي السنة التالية ، وقد رقي بوللر الى رتبـة ليفتانت كولونيل ، قاد ١٤٠٠ خيالا غير نظامي في رتل السـير ايفلـين وودز « الطائر » في الجناح الايسر في حرب « الزولو » . وقد وضع بوللر ثقتـه في البندقية القصيرة ولم يستخدم السيف قائلا انه « متأكد لو ان رجاله كانـوا مسلحين على هذا الوجه في « انلو هبانا » (التي اخرج منها البريطانيون في ٢٨ اذار ؟ لما وصلوا قط الى التل ولو فعلوا لما عادوا منها احياء » . وقد استخدمت المشاة الراكبة في عام ١٨٨١ ضد البويريين ومرة ثانية في عام ١٨٨٢ انشأ السير « غارنيت ولزلي » رتل مشاة راكب في مصر منتقيا مجموعة من الرجال المتميزين من كل كتيبة من المشاة . وقد اصبح الميجر (فيما بعد ميجر جنرال) السير ادوارد هوتون في السنيين العشر التي تلت ، على رأس المؤيدين للمشاة الراكبة كي تضاف للخيالة النظامية .

ان انجازات الخيالة غير النظامية الفعلية بالنسبة للاسلحة الاخرى فـي

تلك الحروب الصغيرة يجب عدم المبالغة فيها . انها على الارجح كانت ذات اهمية كظاهرة عملية اذ ان رجال الخيالة يتدربون في بعض الاحوال على الاعتماد بصورة رئيسية على البندقية القصيرة . ولقد كان القتال على الاقدام اكثر نفعا من اغراق الخيالة في تكتيكات **السلاح الابيض** وفضلا عن ذلك لم تكن هذه المستحدثات عمل عسكريين من الهواة – اي نوع العبارات المهنية المستعملة احيانا للحط من قدر القوات الراكبة في الحرب الاهلية الامريكية – بل عمل عسكريين شهيرين من الذين كانوا مسيطرين على الجيش البريطاني في اواخر اعوام ١٨٨٠ و ١٨٩٠ كروبرت ، وولزلي ، ودود ، وبوللر .

وهكذا حيثما بقيت عقيدة الخيالة الرسمية داخل البلاد تعكس طريقة اوربا في اعطاء المكانة الرئيسية لتكتيك الصدمة كانت التجربة الواقعية تشكل مدرسة فكرية اعتبرت ان تدريب الخيالة الراكبة يجب اعطاؤه اهمية اكبر في زمن السلم . وان تلك القضية الخاصة بالاصلاح يجب افراغها في صيغة تعجيل في التطور نحو ذهنية مهنية جديدة في الجيش بدءا من اواخر ١٨٨٠ متمثلة في عزل الباقين من جنرالات « القوس والنبلة » لعهد حرب القرم وذلك من قبل « مجموعة ولزلي » الاصلاحية .

ومن سخرية القدر ان مجيء هؤلاء المصلحين تطابق مع رد فعل بارز تجاه مثالية تكتيك الصدمة للخيالة في اوربا الغربية . ومع مرور السنين نسيت هجمات الخيالة الدموية الفرنسية والبروسية غير الفعالة والحروب التي سبقتها نسيانا مجديا واعيد احياء تقاليد الخيالة . وقد ساعدتها ولا شك حقيقة ان الرشاش – خصم الفرسان المميت – كان قد استخدم على نحو سيء كسلاح مدفعية . الا ان هناك سببا ملموسا اكثر هو ارتقاء المخلص لزي الفرسان المحبب ، ويلهيلم الثاني ، عرش الامبراطورية الالمانية عام ١٨٨٨ ، كما ان اتجاها مماثلا كان قائما باعتراف الجميع . وفي عام ١٨٩٠ امر امبراطور المانيا كل افواجه الثلاثة والتسعين بان تتجهز بالحراب وقد وقعت منذ ذلك هجمات جماعية متواصلة في المناورات الالمانية من الخيالة . ثم تبعتها بريطانيا بادخالها الحربة في الصف الاول من كل فوج من افواج الخيالة ما عدا الخيالة الخفيفة .

وكان اتجاه الجيش البريطاني في ذلك الوقت في اتباع الطرق الالمانية دون تمييز قد قابله ، فيما يخص نظرية الخيالة ، احياء الاهتمام بالحرب الاهلية الامريكية التي كانت في البدء مستلهمة من كتابات وتعاليم رجل فرد (في كلية الاركان) هو الكولونيل « ج. ف. ر. هندرسون » الذي كان لا يزال على اية حال معارضا لاستعمال الخيالة الحربة والسيف – وفي ظروف ملائمة – وخلال سني ١٨٩٠ اقنع هندرسون من الدراسات التي قام بها بصورة متزايدة بان قوة النار هي التي كونت مفتاح تكتيك الخيالة (غير المدرسي) في الحرب الاهلية ، فالقى لذلك بثقله الهائل لتشجيع لجوء الخيالة البريطانية الى القتال المترجل وقوة النار .

وفي هذا الجو المتخبط من الراي ثار جدل بشأن موضوع المشاة الراكبة وهو الاقتراح بان المشاة الراكبة يجب ان تدرب في بريطانيا في زمن السلم لا ان تؤخذ ارتجالا من المشاة النظاميين او اشتات غير النظاميين ابان الحرب . وقد تلقى اكثر المؤيدين لهذه الفكرة ، الميجر هوتون ، مساعدة « السير غارنيت ولزلي » الذي كان رأيه ان على الخيالة مع استعمالها تكتيك الصدمة الذي لا يزال لا غنى عنه نظرا لعددها الضئيل وتدريبها الخاص ، ان تستفيد من مساندة قوة لها على الرغم من كونها ولا شك منافسة لها . وكذلك فقد حبذ « ولزلي » تحول الحرس الوطني الى مشاة راكبة . وكلا الرجلين انتقد بشدة العادة البريطانية لاتباعها بخضوع الاساليب العسكرية الاوروبية .

وعلى الرغم من مساندة « ولزلي » ، خطا تدريب المشاة الراكبة في ذلك الحين خطوات بطيئة خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب في جنوبي افريقيا . وصدر في عام ١٨٩٨ كتيب في **تدريب المشاة الراكبة** ذكر فيه ان على كتيبة المشاة الراكبة ان تتضمن اربع سرايا وجماعة بنادق ، وانه بالنسبة للعمل في الخارج يجب ان توجد سرية مشاة راكبة في كل كتيبة مشاة ، وسريتان في كل لواء خيالة . وكما يحدث في غالب الاحيان سبق وجود التنظيم على الورق وجود القوات . فقد اشتركت كتيبة مشاة راكبة واحدة في مناورات عام ١٨٩٨ وكانت اثنتان فقط في حالة استعداد عند اندلاع الحرب . ولحسن الحظ يمكن

ان يضاف الى هذا العدد ما يقرب من ٢٠٠٠ متطوع يعود الفضل في تدريبهم لبعض الضباط القادة المتحمسين كاللورد « وانتج » في بيركشاير ، والسير « توماس اكلاند » في ديفونشاير ، والكولونيل « بوير » في هامبشاير . وعلى الرغم من ان هذه المفارز المتطوعة تشكل فقط « أجزاء معزولة عديمة الارتباط » فقط كانت ، على كل حال ، انجازا ممتازا في نظر رأي عسكري محترف معاد . وكان تقدم المشاة الراكبة النظامين بطيئا بصورة مؤلمة اذا علمنا انه منذ عام ١٨٨٦ كان « السير ردفرز بولر » قد تنبأ بان « قيمة المشاة الراكبة ستكون اهم عمل بارز في الحرب الكبرى المقبلة » .

ظاهريا ، شكل الهجوم الذي شنته مجموعة الرماحة ٢١ في ام درمان عام ١٨٩٨ ، والذي خلده ونستون تشرشل الذي كان موجودا كملازم في فرقة فرسان الملكة الرابعة الخفيفة ، الذروة الملائمة لحقبة السنوات العشر التي تبوأ فيها تكتيك الصدمة مكان الصدارة في كتب التدريب البريطانية وكذلك الاوروبية . ولكن اذا ما تفحصنا الامور عن كثب من خلال ردود فعل تشرشل نفسه ، يتبين لنا ان ام درمان تعطي دليلا واضحا ان تكتيك السلاح الابيض اصبح آيلا الى الزوال .

وبحركة من الجناح لمنع الدراويش المنسحبين من دخول ام درمان التقى الرماحون بصورة غير منتظرة بكتلة كبيرة من العدو كانت قد اختبأت سابقا في منحدر قليل العمق . ولم يكن هناك اي خيار سوى الهجوم . وقد ذكر تشرشل انه بعد هذا الشيء المثير الذي حصل كان « كثير التشوق لكي يقوم الفوج بهجوم مقابل اذ ان ذلك قد يكون انجازا ممتازا جدا ويتمكن الرجال والضباط بسهولة من القيام به عندما يكونون منفعلين . الا ان **النار في حالة الترجل كانت اكثر نجاعة** مع انني كنت ارغب في الهجوم — من اجل المجد — ولرفع معنويات الخيالة البريطانية » . وخلال الدقيقتين اللتين اقتضاهما الهجوم البريطاني بلغت الخسائر خمسة ضباط وخمسة وستين رجلا و ١١٩ حصانا من مجموع لا يقل عن ٤٠٠ . وحتى بعد هزيمة العدو في المعركة الرئيسية كان الهاربون المسلحون بالبنادق لا يزالون قادرين على ايقاف الخيالة المطاردة .

واذا توسعنا في البحث فاننا نجد ان الحقبة ما بين ١٨٧٠ — ١٨٩٩ كانت احدى حقبات اعادة التجميع والتوطيد للخطوط التقليدية للخيالة البريطانية . وباستثناء ام درمان لم تحدث هجمات مشهدية مثيرة تعوض عن المذابح المريعة في الحرب الفرنسية البروسية ، الا ان تفصيلاتها الدقيقة كانت تسير نحـو الغموض وكانت على اية حال تحظى باهتمام غير مباشرة من قبل الخيالـــة البريطانية التي كانت ثقتها بنفسها ثابتة . وكانت التطورات السريعة المشؤومة لقوة النار منذ ١٨٧٠ المتضمنة الرشاشات ، ومخازن البنادق ، والبارود الخالي من الدخان اما مهملة او تعاكسها الحجة القائلة بان كل تحسين في قوة النـــار سيزيد بالتبعية في « احتدام » المعركة وبالتالي يقضي على معنويات المشـــاة وحاملي الرشاشات وان احتمال « مهاجمة الوطن » بالفولاذ البارد لا تزال قائمة . وفي عشية حرب البوير حيث كانت الخيالة لا تزال مهتمة الى حد بعيد بالتوسع الكبير بهجوم تقوم به كتل كبيرة في نظام منضم ، اظهر تاريخ كل الحروب التي وقعت حديثا انه « لعبة قديمة » الا في الظروف الملائمة بصورة استثنائية .

وقد لاقى البريطانيون في جنوبي افريقيا عدوا كان كله بصورة متناقضة من الرجال الراكبين ولم يكن لديه بعد خيالة مطلقا بالمفهوم الاوروبي مسلحة بالحربـــة والسيف ومتطلعة على الدوام لفرصة ملائمة للهجوم . فقد كان أهل البوير رجالا خبراء باصابة الهدف ببنادق الموزر وبوصفهم صيادين كانـــوا معتادين على استخدام الارض على احسن وجه ، فهم اما انهم يخفون أنفسهم او يقومون بمفاجأة البريطانيين . وكانت خيولهم تستخدم اغلب الاحيـــان للتحرك فحسب . وقد قام اهل البوير بهجمات قليلة في المرحلة الاخيرة مـــن الحرب ، ولكن حتى في ذلك الوقت ، حلت الرمية من السرج محل الصدمـــة الطبيعية حيث كانت جيادهم النحيلة والصغيرة الجسم لا تتلاءم معها كلية . ولذلك كان تكتيك الصدمة ضد مثل هذا الخصم مستحيلا عمليـــا . وحتى الكولونيل « دوغلاس هيغ » ، وهو المدافع المتحمس عن **السلاح الابيض** نفسه ، قد اعترف اخيرا بأنه ليس هناك عمليا تمييز حقيقي بين استخدام «المشاة الراكبة» وحملة البنادق الراكبة » ، وانه في المرحلة الاخيرة من الحرب كانت الخيالة

مسلحة واستعملت كثيرا الطريقة نفسها واصبحت الحربة منبوذة وكذلك السيف بعد السنة الاولى من الحرب .

وكان « الدرس » الذي يقبل الجدل والواضح منذ بداية الحرب هو ان الخيالة النظامية كانت ضعيفة جدا عدديا لتنفيذ الواجبات التي تجابهها في المروج قليل الاشجار ، وان تدريب المشاة الراكبة والوحدات المساعدة الراكبة لحرب ماوراء البحار قد اهمل بصورة جدية . وقد تضمنت برقية الجنرال « بولر » الشهيرة غداة ارتداده في « كولنسو » اشارة الى نقطة الضعف هذه . فقد طالب بثمانية الاف غير نظامي .. قادرين على التصويت كيفما كان الحال والركوب بصورة مرضية كي يدمجوا مع متطوعي المستعمرات . وكانت المنظمه العسكرية الوحيدة القابلة لتنفيذ هذا المطلب هي جماعة فرسان الحرس الوطني البريطاني التي تضمنت في عام ١٨٩٩ ثمانية وثلاثين فوجا وما يقارب ١٠٠٠٠ رجل . الا ان التنظيم والتدريب معا كانا قد عززا عام ١٨٩٠ غير ان نواقص جدية كانت لا تزال بادية . وقد حاكت هذه القوة مجندي القرون الوسطى بارتباطها بقادة مستقلين وبسلطات محلية ، وكانت تدرب ثمانية ايام فقط في السنة ، وكانت تنقصها البنية الادارية الاساسية في الحرب . واسوأ من ذلك كله انه مع وجود مطلب « بولر » الخاص ، انحاز فرسان الحرس الوطني بافتخار الى جانب اخلص عقيدة للسلاح الابيض . وعلى الرغم من تسلحهم بالبنادق القصيرة من نوع « مارتيني » فقد كان سلاحهم الرئيسي السيف (او في حالات قليلة الحربة) .

ان تحول فرسان الحرس الوطني الى نوع من « حملة البنادق الراكبين » الذين تحتاجهم افريقيا الغربية كان انجازا حققته لجنة من كولونيلات الحرس الوطني ، ولكن يعود معظم الفضل في الواقع الى رجل واحد هو « ايرل داندنالد » ، الذي عارض الاكثرية القائلة بان على القوة ان تحافظ اما على « الخيالة » العالمية بلقبها البطولي واما على مميزات ذلك السلاح . وكان « داندولاند » ، الذي ادرك بعمق اكثر من اي رجل آخر في ذلك الوقت بأن التدريب النظري في كلا السلاحين **السلاح الابيض** وسلاح البنادق يمكن ان

يعني بالواقع تخليد الاول ، قد ربح الى جانبه وزير الحربية بحججه وهكذا نشأ فرسان الحرس الوطني الامبراطوري . وقد تأكدت مميزات المشاة الراكبة منذ البداية بتشكيل من السرايا والكتائب ، وباعتبار البندقية الطويلة « لي انفيلد » كسلاح رئيسي . وكانت اول فرقة عسكرية مؤلفة من ۱۰۰۰۰ من فرسان الحرس الوطني الامبراطوري قد سيرت بوقت مبكر عام ۱۹۰۰ وكانت اكثريتهم من المتطوعين المدنيين ، وخلال سير الحرب غادر بريطانية ما مجموعه ٣٤١٢٤ رجلا .

وبواسطة مثل هذه الارتجالات اللامعة فقط كما تمثلت في حالة فرسان الحرس الوطني الامبراطوري وفي الارتفاع المفاجيء للشعور الوطني والمساعدة التي لا تقدر الصادرة عن الامبراطورية والموالين من جنوبي أفريقيا قد نجمع الكفاية من الرجال الراكبين لكبح جماح اهل البوير واحتمال حملهم على الاستسلام .

وكانت الخيالة النظامية اكثر تعرضا للنقد خلال الحرب ، وكان النقاش الذي يدور حول قوة النار المقابلة معروضا على الملأ بصورة كاملة في التحقيقات المضنية التي قامت بها اللجنة الملكية التي دعت بسرعة الى أجتماع للمداولة في عقد الصلح . وتضمن تقريرها مثلا رائعا جدا على صعوبة الاستفادة من عبر التاريخ ، وكيف ان كل جهة عندما تجابه الحقائق والوثائق نفسها تفسرها تفسيرا مختلفا يتوافق مع ارائها ومواقفها المتبناة مسبقا .

وكان اميز شاهد يقف الى جانب السلاح الابيض الليفتانت جنرال « السير جون فرانش » الذي كان يعارض معارضة شديدة البندقية التي جعلت سلاح الخيالة الرئيسي اذ انه « اذا كان رجل الخيالة قد درب على ان يعتمد بصورة رئيسية على بندقيته فان روحه المعنوية ستنتزع منه ، واذا ما تم ذلك فان قوته ستنهار . وكانت ثقة « هيغ » التامة بمستقبل **السلاح الابيض** مدعاة اكثر للعجب . فقد ركز منذ تشرين الثاني ۱۸۹۹ في احد شروحه التكتيكية على اهمية قوة النار وعلى عملية ترجل الخيالة بما فيها الرماحون وقد دون : انه لسؤال يتبادر الى الذهن ما اذا كان الخيال حامل البندقية القصيرة

خطيئه ! فان رمحه يعيقه الا انه لدى ايراد ادلته أفاد بأنه ليس هناك اية منفعة في تدريب اي سلاح مشاة راكبة في زمن السلم ما لم نتمكن الخيالة من القيام بجميع واجباتها وعلى وجه اكثر فاعلية . لقد كان من الخطأ اخراج الرماح والسيوف من الخيالة في افريقيا الجنوبية لان استعمالها كان آنذاك قليلا اذ ان اثرها المعنوي على البوير كان هائلا . وتابع في كتابته بانه يعتقد « بان ضرورة تدريب الخيالة على الهجوم لا يزال عظيما كما كان شانه في عهد نابوليون » . وان « هيغ » في محاكمته التي ضاقت بسبب نمط ثابت في النظر الى مستقبل الحرب الاوروبية كان واضحا في اعتقاده بان « الفرسان المسلحين باسلحة نارية فقط (حتى عندما يكونون مدربين تدريبا عاليا كخيالة) لا يمكنهم ان يقفوا بنجاح امام الخيالة سواء بالهجوم ام بالدفاع . الا ان فرسان البوير قد قاموا بصورة معقولة بعمل مرموق ضد الخيالة مع انهم لم يحملوا رمحا او سيفا . وفي الواقع ان اغرب « درس » استفاده من الحرب عدة ابطال مدافعين عن السلاح الابيض هو ان اهل البوير كانوا يستطيعون القيام بعمل افضل لو انهم كانوا يملكون **السلاح الابيض** » .

ومن جهة اخرى ، عارض السير « ايان هملتون » معارضة كلية « هيغ » في قوله ان **السلاح الابيض** قد كان له تأثير نفسي على اهل البوير واضاف بانه اذا قيس بالبندقية الحديثة يمكن ان ينظر الى السيف والرمح بانهما لعبتان من العاب القرون الوسطى » واذا احتفظت الخيالة بالسيف فلصالح معنوياتها هي نفسها الا انهما يجب الا يسلما الى المشاة الراكبة او الى فرسان الحرس الوطني . وقد دفعت اللورد روبرتز تجربته الكبرى كما دفعته مطالعته ايضا الى النتيجة المعاكسة لـ « هيغ » وهي ان تكتيك الصدمة قد قام بانجاز ضئيل منذ زمن نابوليون وانه قد يقوم باقل من ذلك في المستقبل .

ومن هذا المزيج من الآراء المتفرقة استطاعت اللجنة ان تضع حلا وسطا من التوصيات لمستقبل الخيالة فقط ، مع انها اعترفت على الاقل بالاهمية المتزايدة لقوة النار والحاجة من الان فصاعدا الى نسبة اعلى كثيرا من الرجال الراكبين في الجيش . وبالاختصار يجب ان يقسم التدريب بين قوة النار وتكتيك الصدمة ، مع نتيجة عملية كان « داندونالد » قد تنبأ بها سلفا .

وفي الفوضى التي تلي الحرب عادة عانت الخيالة بشده من عدم وجود اي توجيه واضح لدورها المقبل . وفي عام ١٩٠٤ افضى المفتش العام للقوات الدوق كانوت آسفا بتقرير الى مجلس الجيش مفاده انه على « الرغم من حصول تقدم فان الجيش البريطاني في وطنه بعيد عن ان يكون مستعدا وكفؤا في الحرب » . ومن بين اسباب عدم الكفاءة التي عددها الدوق ، كان العديد منها يتناول الخيالة مثل « شكوك تتعلق بفعالية تسلح الخيالة » . والخيالة ما عدا بالنسبة لالدرشوت وايرلندا غير منظمة بقيادات ، وعدم ملاءمة اراضي التدريب والنقص في الخيول وتجنيد اعداد من العسكريين التابعين اثناء الحرب . وفي عام ١٩٠٥ افضى المفتش العام للخيالة بتقرير يفيد ان دور الخيالة النظامية والمشاة الراكبة كان لا يزال في حالة اضطراب ، سواء من حيث واجبانهما الخاصة ام ارتباطها بالاسلحة الاخرى .

والرجل الوحيد الذي كان مقتنعا بان حرب جنوبي افريقيا يجب الا تنسى بوصفها دليلا على الصفة العامة التي ستتخذها الحرب الاوروبية المقبلة ، والذي كان ايضا ، باختصار ، في وضع يمكنه فيه تحقيق وجهات نظره ، هو الفيلدمارشال « اللورد روبرتس » ، الذي كان عمله الطويل في الهند ونجاحه الواضح في جنوبي افريقيا قد حققا له منصب القائد العام للجيش البريطاني من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٠٤ . ولعل افكاره بالنسبة لمستقبل السلاح الابيض قد تأثرت بـ هندرسون الذي انتقاه « روبرتس » كمدير للاستخبارات عندما ابحر الى جنوبي افريقيا في عام ١٩٠٠ . وقد حل الغموض الحذر المكتنف كتابة هندرسون الاولى عن فضائل قدرة النار وتكتيك الصدمة النسبية بعد تجربته في جنوبي افريقيا . « انه لمن الواضح وضوح الشمس » ، كما كتب في عام ١٩٠١ ، بان القوة الراكبة متحركة تحرك اهل البوير ستكون سلاحا امضى كثيرا حتى على مسرح حرب اوروبي في يد احد الاستراتيجيين الذي يقبض على امكانياتها » . وقد شكا بان القلائل من النقاد قد تحققوا بان البندقية الضيقة والبارود دون دخان قد حطما آخر اثار دور الخيالة التقليدي .

واللورد « روبرتس » ، كقائد عام ، شأنه شأن سابقه اللورد ولسلي ،

لم يقر الادارة العليا في الامتناع عن التعبير عن آرائها الخاصة علانية . وفي مقال عن « تسلح الخيالة » عام ١٩٠٣ شرح نظرية توسيع قدرة النار كعامل مؤثر ضد الاسلحة الفولاذية . وفي النزاعات بين خيالة وخيالة ، كما اشار ، حدثت تطورات هائلة في الرشاشات النارية السريعة الخ ... التي وجدت منذ عام ١٨٧٠ ، في حين انه ليس هناك اية تغييرات مماثلة ممكنة بالنسبة للحصان والرمح والسيف . واستنتج بأن : الخيالة متأكدة من استعمال الخيالة لنيران مساعدة حتى ضد الخيالة ، وان تقدم كتل الخيالة وانتشارها سيصبحان صعبين بصورة متزايدة . وفي توقعات الخيالة ضد المشاة والمدفعية كان اكثر تشاؤما . وان الخطوط الهشة للمناوشين يمكن الا توجد في اوروبا كما في جنوبي افريقيا ، وعلى العموم ، « ان محاولة الخيالة القيام بتكتيك الصدمة ستلقى مصيرا اسوأ مما لقيه الفرنسيون في ورث ، وفيونفيل ، وسيدان » . ويجب التأكد بان « روبرتس » لم يكن متطرفا : مع انه اكد بان البندقية يجب ان تكون السلاح الرئيسي للخيالة فقد حبذ حمل السيف وكان كارها حتى الغاء الرمح .

وبمرور الوقت نشر هذا المقال وقد حدثت اول هيئة ضد **السلاح الابيض**. وقد نبه امر الجيش رقم ٣٩ الصادر في اذار ١٩٠٣ بان على الخيالة في المستقبل ان تتسلح ببندقية قصيرة (او بندقية) وسيف وتكون اولاهما السلاح الرئيسي . ويحمل الرماحون ، وفرقة حرس الفرسان ، وسلاح الفرسان الرمح « ولكنه يحمل فقط في واجبات المواكبة ، وفي الاستعراضات ، والاستعراضات الاخرى الاحتفالية ، ولكن ليس في اثناء الحراسة او في الميدان ، وفي المناورات ، او في الخدمة العاملة » .

وكان آخر عمل قام به اللورد « روبرتس » ، واكثره عرضة للاخذ والرد، قد رافق بشكل عام تماما انسحابه من الادارة باكرا عام ١٩٠٤ نتيجة تقرير لجنة « ايشير » التي اقترحت الغاء المنصب . وخطا السير « روبرتس » خطوة غير اعتيادية هي كتابة مقدمة قصيرة موقعة لطبعة جديدة لكتاب **تدريب الخيالة** في شباط ١٩٠٤ . وكرر النقاط الرئيسية من عريضته بلهجة هادئة وقد قال روبرتس بالفعل بانه لما كان ليس معاديا لتكتيك الصدمة فان تزايد قدرة

النار قد اقتضت انه « بدلا من ان يكون السلاح الناري مضافا الى السيف يجب من الان فصاعدا ان يكون السيف مضافا الى البندقية » .

وهذا هو بالضبط الترتيب الذي كانت الخيالة تخشاه . فان اعطاء البندقية الافضلية يجر وراءه ترجلات متكررة ورجل الخيالة الذي ينزل عن حصانه لا يعود يدعى طويلا رجل خيالة . وتوجهت آنئذ قوى المعارضة الى العلانية وحتى شهرة اللورد « روبرتس » العظيمة لم تستطع حمايته من نقاش كان على الارجح دنيئا . وفي شباط عام ١٩٠٤ ارجأ مؤتمر الجيش نشر الكتاب الجديد نظرا للمقدمة المثيرة للجدل . وقد احتج « روبرتس » الى « اللورد لانسدون » واخبر « السير ايان هملتون بانه يرغب في الاستقالة من لجنة الدفاع اذا لم ينشر على الفور . وكان للاهانة وقعها الخاص لان « روبرتس » كان قد اذعن دون تذمر لحكم لجنة ايشير التي لم تستشره . وبعد ذلك صدر الكتاب مؤقتا لمدة ستة اشهر ثم حذفت المقدمة بعد ذلك على الرغم من احتجاج « روبرتس » الى وزير الحربية « ارنولد فورستر » . وكما لاحظ احدث مؤرخ لسيرة حياة اللورد روبرتس « ان القضية كامنة بالاعتقاد بان سلاح الفولاذ كان تصوفا دينيا بالنسبة لاقدم مدرسة لرجال الخيالة .

ولا بد أنهم كانوا ينظرون دائما الى الحرب الروسية ـ اليابانية في عام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ نظرتهم الى « آلة انزل بآلة » لتسوية النقاش اللاذع حول دور الخيالة البريطانية . وكان هذا بالحقيقة حربا رئيسية تدخلت فيها اعظم قوة عسكرية اوروبية على الاقل عدديا واقوى امة شرقية كانت انئذ في حالة انشاء . وعلاوة على هذه الناحية كان منتظرا من الحرب ان تكون حكما بين نظريات متنافسة للصدمة وقوة النار منذ ان كان الجيش الياباني الذي دربه الضباط الالمان بصورة واسعة قد وسع عبادة **السلاح الابيض** (السيف : اذ ان اليابانيين لم يستخدموا الرمح) في حين ان الروس منذ عام ١٨٧٠ كانوا الامة الاوروبية الوحيدة التي اتبعت بصورة متناسقة مبادىء قوة النار والعمل المترجل التي اكتنفتها الشكوك في الحرب الاهلية الاميركية .

ولسوء الحظ كانت النقطة الوحيدة المتفق عليها هي انه لم تلعب اية

خيالة دورا هاما في الحرب ، وكان لهذا ثلاثة أسباب عليا . اولا : كانت فئة عدد الرجال الراكبين لدى اليابانيين النسبية بارزة الى درجة ان بعض الواجبات الرئيسية للسلاح كالاستخبارات الاستراتيجية والعمل المستقل على اجنحة العدو كانت ادنى من المطلوب . ثانيا : مع ان الخيالة الروسية تتمتع بتفوق عددي مخيف قامت بانجاز ضعيف للغاية في كل المحاولات تقريبا ، واذا اخذنا المشاة الراكبة كمثال فليس هناك اية مقارنة مع الاميركيين ام اهل البوير . وقد قامت بعض الافواج الرسمية القليلة جدا بانجاز مشرف ، الا ان القوزاق بمجملها بدت ذات قيمة قليلة لاغراض الحرب . واخيرا كان في المسرح المنشوري بر مكشوف قليلا ملائم كلية لتجربة تكتيك الخيالة تجربة جيدة .

واذا كانت تقارير المراقبين البريطانيين تفيد بان عملية الخيالة الصغيرة كانت منحازة الى جهة قوة النار ضد السلاح الابيض ، فان سبب ذلك نوعا ما هو شخص الليفتنانت جنرال « السير ايان هملتون » صاحب الشخصية النابضة بالحيوية الحازمة والذي رافق هيئة اركان جيش كوروكي الثالث . وكانت انطباعات هملتون التي احتواها فيما بعد كتاب ممتع ، قد قوت آراء روبرتس عن حرب جنوبي افريقيا القائلة بان السلاح الابيض لا يمكن استعماله ببساطة ضد عدو ليس له رغبة . واذا كانت احدى الجهات غير قادرة على الترجل والاطلاق فعلى الجهة المقابلة ان تفعل بالتبعية او ان تتلقى الرصاص . وكان هملتون قد رأى مثل « داندونالد » بان القضية هي احدى التضخيمات ، ولم تكن حجته موجهة الى السيف بوصفه سيفا بل فقط ضد اولئك الذين يرغبون في جر الخيالة على نحو تدخل فيه الى ساحة المعركة وتفكر على الاصح من اي محل يمكنها ان تقوم بهجوم لا استخدام قابليتها للتحرك لتكون قادرة على استخدام البنادق على افضل وجه فعال .

ومن ناحية اخرى استطاع المؤيدون **السلاح الابيض** ، كالكولونيل « . هـ . بيركبيك » ، الذي اصبح فيما بعد ناشرا لجريدة الخيالة ، ان يبرهنوا على الانجاز السيء للخيالة الروسية في غارة ميشنكو ، وفي معركة موكدن ، وفي الاستطلاع عموما كان سببه بالتأكيد تدريب مشاتها الراكبة . ولو كان مثل

هذا التدريب بالواقع قد اضعف فرسانها ؟كان نشأ وضع قوي يهدف الى تحقيق طاقة اكبر لتكتيك الصدمة .

وقليل من الذين راقبوا الحرب في منشوريا او تدارسوها يستطيعون انكار ان قوة الرشاشات والمدفعية المدمرة قد ثبتت حتى بصورة اوضح مما جرى في جنوبي افريقيا . ولكن اثار هذه الاسلحة المحتملة الحقيقية والمحتمة على اهداف الحصان الضعيفة والمدعومة بالاستعمال المتزايد للخنادق والاسلاك الشائكة كانت مسلما بها فقط من قبل الاقلية ممن يتمتعون حقيقة بتفكير منفتح . وفي المناقشات التي تلت الحرب شغلت الخيالة البريطانية نفسها بمواضيع صغيرة اذا ما قورنت بغيرها كالفروسية لدى الطرفين والفرص المؤاتية التي اضاعها اليابانيون نظرا لنقص الخيالة والتأكيد دون تمييز بان التدريب في تكتيك المشاة الراكبة « يقتل روح الخيالة » .

وعلى الرغم من ان اللورد روبرتس حذر بمحافظته على السيف وبآرائه في امكانية عمل صدمة الخيالة في الحروب المقبلة كان قد حول قوة النظرية البريطانية والتدريب بحزم نحو استعمال البندقية والقتال المترجل . وفي السنوات التي تلت مباشرة رافق رحيله عن وزارة الحرب انبعاث مثير للاعجاب لنظرة الخيالة التقليدية التي نجحت في قلب اصلاحات روبرتس وباعادة **السلاح الابيض** على مستوى واحد على الاقل مع قوة النار .

وكانت اعادة الرمح هدفا حقيقيا ورمزا ممتازا معا . وقد ادرك اللورد روبرتس ذلك وكتب مبكرا في نيسان ١٩٠٤ الى « كتشنر » لمساعدته في منع احيائه . فوافق كتشنر وجرى ضغط على المجلس العسكري من خلال التقارير السنوية للمفتش العام للخيالة الذي استرعى الانتباه الى حقيقة ان الخيالة كانت بحاجة الى التجهيز بالسلاح الفولاذي لكي تقف في وجهه عدو بري. وعندما ضرب لواء الخيالة الاول في الدرشوت (كل افواج الرماحين ؟ بانظمة الجيش عام ١٩٠٧ عرض الحائط بحمل الرماح في التمرين ، حبذ مفتش الخيالة العام الميجر جنرال « هـ. سكوبل » عملها واخيرا تقرر بالامر العسكري رقم ١٥٨ المؤرخ في حزيران ١٩٠٩ ان افواجا من الرماحين ستحمل في المستقبل الرمح

ليس فقط في واجبات المواكبة [الخ] بل ايضا في الحراسة اثناء التدريب وفي المناورات وعند تلقي الاوامر وفي الخدمة في الميدان .

وهناك خطوة اخرى فعالة في اتجاه الدفاع عن نظرية **السـلاح الابيض** ونشرها هي تأسيس صحيفة الخيالة عام ١٩٠٦ المستلهمة منذ انطلاقها مـن مدافعين متحمسين عن الرمح والسيف كالسير « جون فرنش » ، و « ك. س غولدمان » . وقد اصبح صدورها من واجبات مدرسة اركان الخيالة عام ١٨٠٩؛

وبعد ذلك بثلاث سنوات خصص النشر بصورة آلية بقائد مدرسة الخيالـة . وتكشف لنا نتائج ما قبل الحرب عن الداب الذي كانت الكتابات العسكريـة الدولية تبذله لايجاد افكار مؤاتية **للسلاح الابيض** وللنظر ايضا في المجال غـير المناسب المعطى لاعمال الخيالة في الحقبة السابقة لحرب القرم .

وفي السنوات التالية صدرت طبعة جديدة عن « تدريب الخيالة » وكانت هذه المرة دون مقدمة ولكن من المعروف انها احتوت آراء السـير «جون فرنش» الذي كان آنئذ قائد المنطقة « الدرشوت » . واستبدل بالاعتماد السابـق على البندقية والعمل المترجل ، السيف والرمح ، وفي الفرع المتعلق بهجـوم الخيالة ضد الخيالة اعطيت تعليمات مكتومة من اجل « الهجمة » يرجع اليهـا بوصفها « الذروة في تعليمات الخيالة الراكبة » .

وخلال عام ١٩٠٧ قوى الجنرال السير « جون فرنش » والميجر جنرال « دوغلاس هيغ » الشهرة التي اكسبتهما اياها قيادتهما الجريئة في جنوبـي افريقيا . وقد عرفا آنئذ في الجيش بانهما من ثقاة القادة في نظرية الخيالـة والتدريب وقد اكد الاول منهما دعمه لنظريات الخيالة الاوروبية بكتابته مقدمة لكتاب « برنهاردي » ذي الاثر القوي « الخيالة في الحروب المقبلة » في حين ان الثاني منهما بسط اراء مماثلة (ولئن كانت غير متطابقة) في دراساته عـن الخيالة المنشورة عام ١٩٠٧ . وقد ابدى « هيغ » في مقدمته تنازلات هائلـة لاهمية قوة النار حتى في وصفه خيالة الحرب الاهلية بانها « المادة الحقيقية » ولكنه اجمالا مناصر **للسلاح الابيض** . ولذلك فهو يعتقد بان صفة القيادة تؤثر على انجاز الخيالة اكثر من تأثير التغيير بالاسلحة ، وان الاحصائيات التي ترينا

الخسائر النسبية المتسببة عن الرصاصة والسيف في المعركة لا قيمة لها: لان ماله وزن انما هو تأثير الروح المعنوية الاخير . وانه (مع الاخذ بعين الاعتبار ازدياد استعمال البندقية) لا يكتسب اي نجاح عظيم سوى بقوة الخيالة التي دربت لتقوية معنوياتها وللهجوم داخل ارض الوطن .

وعلى الرغم من ان مدرسة **السلاح الابيض** قد اصبحت مسيطرة آنئذ في بريطانيا ، لم يكن كل شيء لديها جاريا في مجراه الطبيعي . وعلى الرغم من سن اللورد روبرتز واتساع تورطه في الحمنة لادخال التدريب العسكري الاجباري اعاد نزوله الى الحلبة باضافة وزنه الى كتاب جدلي قيم كتبه « ارسكن شلدرز » . وعلى الرغم من ان هذا الاخير لم يكن عسكريا فقد شاهد بعض القتال في افريقيا الجنوبية وكتب آخر جزء من التاريخ الرسمي لتلك الحرب . وكان « شيلدرز » ناقدا متطرفا **للسلاح الابيض** ولهذا طلب الالغاء للرمح والسيف على السواء والاعتماد الكلي على قوة النار . ومع انه كان حادا قليلا باعترافه بمنجزات الخيالة الاخيرة وبدا وقحا على الاصح بتأكيده بان السلاح الابيض لا ينجز شيئا في الحروب المقبلة فقد كانت كتبه لا تضاهي بمنطقها الهدام الذي حلل بموجبه بعض الكلمات المثيرة « كتكتيك الصدمة » و « السلاح الشخصي » ، وبالطريقة المتسمة بالجهد التي تحرى بموجبها وضوح الحروب الحديثة والتي كان الباحثون الاخرون يكتفون بانتقاء احداث ملائمة منها . وكان تأثير « شلدرز » على التفكير الرسمي محدودا بوضعه مدنيا (كذلك بسبب قلمه اللاذع) وكذلك بحقيقة ان اللورد « روبرتس » لا يمكن ان يقطع الطريق بكاملها ويدعو الى الغاء السيف وكذلك الرمح . ومع انه كان على شلدرز وعلى انبياء آخرين دقيقين ان يتريثوا حتى عام ١٩١٤ للحصول على الدليل المؤسف لخلافاتهم ، وكذلك تبين ان موقعهم الثابت قد اثر على الاقل على مصنفي الطبعة الجديدة لكتاب **تدريب الخيالة** في عام ١٩١٢ لتحقيق توازن اكثر عدلا من المعالجات السابقة بين فضائل السيف والبندقية وفضائل المهمات الراكبة والمترجلة .

وقد تأثر تدريب الخيالة في الميدان بعد حرب جنوبي افريقيا بصورة غير ملائمة ، ليس فقط بالجدل الطويل من حيث سلاحه ومهامه ، بل ايضا باستمرار العاملين اللذين كانا زودا مناورات ما قبل عام ١٨٩٩ بعنصر سخيف اي النقص في المال وفي اراضي التدريب . اما فيما يخص العامل الثاني فقد قدم المفتش العام للخيالة في عام ١٩٠٤ تقريرا بان « اطلاق النار في الميدان يشبه قليلا ظروف الحرب » . فالخيول لا يسمح لها غالبا بدخول مجال الرمي ونظرا لتحديد مساحة الارض الخ .. فان السرايا تنفذ هجوم المشاة العادي على الاقدام . اما نقص المال فكان ضارا بصورة خاصة بتأخيره مناورات الجيش على مستوى الفرق اذ ان تدريب الالوية هو الحد الاعلى في عامي ١٩٠٥ — ١٩٠٦ على السواء . وفي السنة التالية كان جواب الطلب بتعيين ضابط قائدا عاما لفرقة الخيالة (التي كانت آنئذ موجودة على الورق) وتعيين اركانه ، ان اعادة مجلس الجيش بالرفض البسيط التالي « ستبلغ التكلفة ٢٣٠٠ جنيه استرليني في العام » .

ويمكننا ان نسجل حقبة جديدة في تدريب الخيالة منذ تعيين الجنرال السير « جون فرنش » مفتشا عاما للقوات في كانون الاول عام ١٩٠٧ . ونظرا لحقيقة انه ينتظر من المفتشين العثور على اخطاء فقد كان تقرير الجنرال « فرنش » عن فرقة الخيالة عام ١٩٠٨ شبيها بانفجار قنبلة . وبين انتقادات قائد الفرقة القاسية جدا كتب فرنش « ان عددا كبيرا من حركاته كان يمكن ان يؤدي الى فشل ذريع . وقد كان تطبيق العمل المترجل سيئا للغاية : فقد ترجل الرجال بعيدا جدا من ميدان المعركة واستخدموا كالمشاة وتركت الجيادة المتقدمة معرضة للنار وبدات الرشاشات بالعمل في الغالب في مواقع صعبة جدا . وتحت اشراف فرنش القوي كان هناك تحسن عظيم في الفصلين التاليين للتدريب . واخيرا فقد نفذ تدريب على مستوى الفرقة ومناورات على مستوى الجيش . وفي عام ١٩١١ ، وهي آخر سنة لفرنش في الادارة ، وتتويج الملك جورج الخامس ، والذي تلته ازمة اغادير ، وسلسلة من الاضرابات ؛ كل ذلك قطع تدريب الالوية وحال دون مناورات الفرق .

وفي آخر فصلي تدريب كاملين قبل الحرب كانت معظم انتقادات خلف فرنش الجنرال « دوغلاس » موجهة الى استمرار عدم كفاءة القيادة العليا في المناورات المتسببة ، وهذا امر لا يدعو للدهشة ، عن نقص في التجربة لدى الكثير من الرجال ، وكذلك عن تمسك قادة الخيالة تمسكا لا يمكن تصوره بتطبيق تكتيك الصدمة . ففي عام ١٩١٢ مثلا قال الجنرال « دوغلاس » أن قادة خيالتنا ميالون لاستخدام قتال الصدمة عندما يكون ذلك ممكنا دون الرجوع الى ظروف الحالات الخاصة ... وقد اوضحت عدة مناورات عدم الاهتمام باثر النار مما لا يمكن تبريره بانظمتنا وان محاولات مزج الصدمة مع عمل النار قلما تلاقي نجاحا » . وكان هناك مجالات للتخوف من « ان تدريب الخيالة الحالي يكشف عن اتجاهات قد تقود الى تضحية لا طائل تحتها من قبل خيالتنا اثناء الحرب وانه من الحكمة الضغط على قادة خيالتنا لاقناعهم بانه مع أن الهجمة الراكبة هي احسن طريقة فعالة للحصول على نتائج حاسمة ... الا ان الهجمات التي من هذا النوع التي لا ينتظر منها شيء بل تشكل تضحية لا فائدة منها لا يمكن الطعن فيها بصورة قوية » .

ومنذ ان تعرض اعلى القادة للنقد للمرة الثانية في عام ١٩١٣ ، وبما أن فرقة الخيالة لم تجتمع خلال العام ، يمكننا القول بصراحة تامة انه لم يحصل اي تحسين جذري قبل اندلاع الحرب . وبناء على وضوح تلك التقارير الرسمية فقد كان يبدو وكأن « روح الخيالة » قد انتصرت ، وذلك على الرغم من المزيج الماهر للنار وتكتيك الصدمة الذي تضمنته الكتب وتقارير المفتشين ، اما قادة الالوية والسرايا فقد ظلوا متعلقين بمثالية الهجوم المفاجيء .

ان دراسة نظرية الخيالة البريطانية والتدريب في الحقبة التي سبقت ١٩١٤ تظهر بدقة كم هو صعب اخذ العبرة من الحرب ، ومن تحليلات الآثار المحتملة للاختراعات الحديثة ، وهي « دروس » تبدو بدهية بذاتها للاجيال التالية . وهذا صحيح بصورة خاصة فيما يخص الاسلحة الشخصية ذات التاريخ الطويل المتميز . ان الخيالة في هذه الحالة لا يمكن مطلقا ان تقتنع بالاحصائيات بعد ان اصبحت مقتنعة بعمق بانها تؤثر على الحالة المعنوية . والدفاع الاكثر واقعية والادعى للقبول هو القول بانه لا يمكن مطلقا لاية حربين

ان تكونا متشابهتين ولا يمكن لاي رجل ان يكون متاكدا اين وضمن اية شروط سيقاتل في الحرب المقبلة . ولهذا نجد اللورد « روبرتس » مترددا في الغاء الرمح لانه كان قد شاهد فاعليته ضد المتوحشين . وقد اخذت الدروس على نطاق واسع بدون شك ، وتحسن تنظيم الخيالة وتدريبها بصورة هائلة في زمن السلم بين ١٨٧٠ – ١٩١٤ والناحية الثانية في نقاش **السلاح الابيض** هي حقيقة ان اكثر المفكرين المتقدمين (وفي هذه الحالة المتنبئين) – كما هي الحال عادة بالنسبة للتاريخ العسكري – ولا نقصد العالي الشأن من العسكريين النظاميين بل بالتالي الرجال مثل « هافيلوك » ، و « دينيسون » ، و « شيلدرز » قد كان لإرائهم تأثير ضعيف على النظرية الرسمية وعلى اقل تعديل في بريطانيا . ومن الناحية الاخرى ان المفكرين المتطرفين الذين بلغوا رتبة عالية ومركزا اداريا مرموقا كانوا في ذلك الوقت متقدمين جدا في السن او خائبي الامل كي يقاوموا بنجاح الجمود والمحافظة أو العداء الحالي للمصالح المختلفة ضمن الجيش . وكانت انجازات « حلقة ولزلي » بكل تأكيد محدودة بهذه العوامل بالمعارضة القوية التي لقيها اللورد ردبرتس . لذلك فقد نوقشت اصلاحات متواضعة نسبيا .

ومع ذلك يجب ان نسلم بان تقليد **السلاح الابيض** في الخيالة البريطانية قد برهن عن « قدرة على استمرار الحياة بلغت حد الاعجوبة . فهو لم يقاوم فقط هجمات النقاد في زمن السلم والمصلحين بل انه ادى الى عودة في فترة ما بين ١٩٠٤ – ١٩١٤ بعد حربين (قصرت في احداهما الخيالة البريطانية عن أن تبلى بلاء حسنا) . وطرحت لجنة ملكية اسئلة عن فعاليته وحاول قائد قام مصلح محاولة جدية أن يعدل نظريته وتدريبه وكثير من هذا النجاح مرده للسحر الذي مارسه هذا السلاح على الرجال حتى من غير الخيالة . وحتى ذهن الكولونيل هندرسون المتعمق والعلمي بقي ولا شك لسنوات مأخوذا بسحر **السلاح الابيض** .

الا ان ما كان اقل سهولة في ادراكه هو التوسع المدهش الذي كانت الخيالة البريطانية مستمرة فيه متبعة نظريات اوروبا على الرغم من علمها بالانجازات الهزيلة في الحروب الاخيرة ومن تجربتها الاكثر تنوعا بما لا يقاس في الحرب

١

الاستعمارية . وبقيت ايضا العقيدة بان الحرب الاوروبية العظمى المقبلة يجب ان تقرر نظريا بمصادمة كبرى مكشوفة للخيالة . وان الخيالة المسلحة بالرمح والسيف وحدها يمكنها ان تهزم خيالة مسلحة بصورة مماثلة وهذه دائـرة خبيثة كانت الخيالة البريطانية في وضع ملائم لكسرها الى حين ادت المعالجة الغامضة نفسها على مدى اوسع ، الى قيام قوة الحملة البريطانية بالقتال في القارة الاوروبية سنوات عديدة قبل اندلاع حرب ١٩١٤ .

وانصافا لاولئك الذين ظلوا واضعين ايمانهم في السلاح الابيض . والذين ثبت خطاءهم في الحرب العالمية الاولى ، يجب ان نسلم بأن لا مفكر بريطاني . حتى ولا ارسكين شلدرز ، قد استبق معرفة مدى التأثير الكامل لاستخـدام أدوات معارك القرن العشرين التي كانت انئذ قد بدأ ظهورها في السنوات ما بين ١٨٧٠ و ١٩١٤ على الخيالة . وكان مكتوبا على تطور بندقيـة « ماكسيـم » والانواع الاخرى من الرشاشات ، والمدفعية سريعة الاطلاق ، والتحصينات ، وانتاج الاسلاك الشائكة الكبير ، والطائرات ، ان تطرد الحصان من ساحـات المعارك الاوروبية باستثناء بقائه كواسطة نقل .

وقامت محاولات بعد عام ١٩١٨ مدعية بان السلاح الابيض لم ينته أجله وغالبا في الوقت نفسه لتلقي بالقسط الاكبر من مسؤولية فظائـع الحـرب الحديثة على التجديدات الميكانيكية ، كالذبابة المصنوعة للمطالعات الحزينة والتاريخ السيء . الا انه قبل عام ١٩١٤ ومن مقاومة الخيالة التي لا طائـل تحتها للتطور المحتوم للمعركة المتوقعة يمكن استنتاج روح مثيرة للشفقـة حقيقية . وكذلك لعل الدواعي كانت في اللاشعور كحادثة عبادة الحصان ويمكن الآن النظر الى السلاح الابيض انه آخر جهد بائس للصمود في وجـه ازالـة تجسيد الحرب ، والشعور نفسه بالحنين الى حقبة من الفروسية اطول كالذي الهم في عام ١٩٣٧ الميجر جنرال « ج. ف. س. فولـر » ـ ليس منـاصرا للسلاح الابيض ـ في اعطاء عنوان لذكرياته عن حملة جنوبي افريقيا : **آخـر حروب الجنتلمان** .

القِسم الثّاني

ليدل هارت والجيش الفرنسي

١٩١٩ ــ ١٩٣٩

بقلم الجنرال اندريه بوفــر

(٦)

ولد اندريه بوفر عام ١٩٠٢ واصبح ضابطا في فرقة القناصة الجزائرية عام ١٩٢١ ، وخدم معها في حملات الريف المراكشي ومراكش . وفي عام ١٩٤٢ لعب دورا هاما في الجزائر بتحضيره لنزول الحلفاء في افريقيا الشمالية الفرنسية، وخدم فيما بعد في حملات تونس وايطاليا لعامي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ وحملات الجيش الفرنسي في فرنسا ، وفي الالزاس ، وجنوبي المانيا في عامي ١٩٤٤ – ١٩٤٥ . وبعد الحرب شغل مناصب قيادة واركان عليا في الجيش الفرنسي في الهند الصينية ، واوروبا ، والجزائر . وفي عام ١٩٥٦ كان قائدا عاما للقوات الفرنسية التي استخدمت في التدخل العسكري في قناة السويس . وبعد خدمات اطول في القيادة العليا للقوات الحليفة في اوروبا ، وكرئيس للبعثة الفرنسية للمجموعة الدائمة في واشنطن وضع في قائمة الاحتياط عام ١٩٦١ . وكان بصورة دائمة مديرا للمعهد الفرنسي للدراسات الاستراتيجية وهو ضابط كبير يحمل وسام جوقة الشرف ، ووسام الصليب الحربي ، ووسام التقدير العسكري ووسام المقاومة . وهو عضو في جماعة الباث . وتتضمن منشوراته المدخل في الاستراتيجية ، والردع والاستراتيجية .

ظهر اسم « ليدل هارت » في الكتابات العسكرية الفرنسية بعد عام ١٩١٨ بوقت قصير . ولكن اعتمادا على ما علق بذاكرتي اصبح شخصية ويثار حولها جدل كبير وذلك فقط بسبب تقييمه للجنرالات الفرنسية في الحرب العالمية الاولى في كتابه : « المشاهير » . وكان من غير المعقول بالنسبة للجيش الفرنسي الظافر ان يجروء نقيب بريطاني شاب على اصدار احكام ضد رجال امثال « جوفر » ، و « فوش » ، اللذين تحيط بهما هالة من المجد نتيجة الدعاية الحربية وكذلك بسبب عرفان الجميل المتوجب نحو رجلين استحقا كل رعاية

من الوطن الام . وكانت الفضيحة اعظم بسبب أن هذين البطلين كانا قد اظهرا على نحو لا يقبل الشك انهما يتمتعان بصفات جد حقيقيقة .

ومع ذلك فان ليدل هارت انطلاقا من هذه الطريق قام بدور ـ وكان دورا استثنائيا في ذلك الحين ـ بطل من الابطال الذين لا يتفيدون بالاعراف ، وهو عدم تقيد ادى الى اثارة بعض ردود الفعل لدى هؤلاء الذين كان لديهم سبب للتساؤل عن الطريقة التي اديرت بموجبها الحرب .

وكان رد فعل ليدل هارت بالنسبة للحرب ـ حسب ما يتراءى لي ـ غريزيا ، اثاره المشهد المنافي للعقل لتلك المناورات الجماعية التي نجمت عن المذبحة الهائلة في اعوام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ ، البعيدة كل البعد عن التقاليد البريطانية العسكرية . وقادته ثورته ليس فقط للنقد ولم يكن ذلك دائما ولا شك بكياسه مطلقه بل ليفهم انه يجب ان يكون ممكنا مواجهة مشكلة الحرب بطريقة مختلفة . وكان هذا الاعتقاد الذي اضرم النار في بحثه الحماسي عن حلول جديدة سواء في مجال المكننة ام في اعادة العثور على استراتيجية كمفتاح وحيد لتفهم حقيقي للحرب .

وقد حركت اهتماماته البعيدة كل البعد عن تلك الدوائر العسكرية الفرنسية الرسمية في ذلك الحين كالتي كانت منشغلة في اقامة تطابق عقيم ، صدى اهتمام اولئك الضباط الفرنسيين كثيري العدد بصورة خاصة بين الشبان والذين لم يكونوا على استعداد لقبول الرأي القائل بان معركتي « ماليزون » ، و « مونتديديه » قد حددتا للمرة الاولى والاخيرة شكل الحرب في المستقبل .

ان اهتمامهم الذي اثاره كتاب : « المشاهير » قد ظل منذ ذلك الوقت محولا نحو هذا الكاتب البريطاني الشاب .

وكان الجيش الفرنسي في ذلك الحين يجتاز مرحلة دقيقة للغاية مع ان ذلك كان لا يزال غير معترف به بصورة وافية . وكان السؤال الحرج هو الاستنتاجات التي يجب استخراجها من احداث الحرب العظمى .

في ذلك الوقت برزت من الحرب شخصيتان عظيمتان : « فوش » ،

و « بيتان » . الاول منهما ، وهو جنوبي من اصحاب الدم الحار ومـن جماعة جوفر ، يصنف الى جانب التقليد العظيم الذي سبق الحرب من حيث محبته للمناورة وتفضيله الطبيعي للهجوم وايمانه بما كانوا يسمونه «الاستراتيجية» ـ وهي الخلاصة الدقيقة لفكرته طوال حياته والمشروحة شرحا ممتازا فـي المدرسة الحربية التي كان يديرها . واما « بيتان » ، من جهة اخرى ، وهو الشمالي البارد صاحب الارادة ذات الميول اللاذعة ، فقد كان زعيما لمدرسة فكرية جديدة ومختلفة جدا . وبعد سلخه زمنا طويلا في مهنته التي تميز بهـا بوصفه ضابط فوج ، فقد افتخر بنزوله الى مستوى الواقع الحقيقي . وقد عين في المدرسة الحربية كمحاضر في موضوع المشاة ، وعلم على الرغم من النظرية الرسمية ، بان الاعتماد الكلي على الحربة خطأ ، وانه فوق كل ذلك من الضروري قيام عمليات منهجية وترابط منتظم بين المشاة والمدفعية . ووضع ثقة قليلة في اظهار البراعة والاندفاع وحتى ثقة اقل في « الاستراتيجية » ومفضلا الوثوق بتكتيك يحده الفكر بعناية ويقوم به جيش من القروييين‌الصناديد ، وتدعمه تقنية ومعدات رفيعة . وقد جلبت له نظراته الثاقبة ، يضاف اليها نجاحـه العملي ، تقدما هائلا وسريعا بلغ الذروة بالظفر السلبي في فيردان . ونتيجة لذلك ، ادى عدم نجاح هجوم « نيفيل » في عام ١٩١٧ الى السقوط الاخير لقيمة المعالجة الخيالية القديمة للحرب ، وكان هذا الواقعي العظيم ، الخصم التقليدي لكـل مغامرة ، هو الذي تولى مقاليد القيادة العليا في الجيش الفرنسي .

وطبقا لوجهة نظره ، فان كل تفكيرنا السابق لعام ١٩١٤ كان خاطئا . كما ان عبادة الهجوم ، « والاستراتيجية » ، والموقف التقليدي تجاه مهنـة الجندية كل ذلك قد طواه النسيان . وان الاسلوب الجديد للحرب هو في « المعدات » التي جعلت كل القواعد القديمة غير مقبولة والذي يجب أن يؤسس بثبات على الحقائق التجريبية التي كان قد ادركها والتي يبدو أن تجربتـه قد اكدتها . وعلى الرغم من أن روسيا التي مزقتها الثورة كانت على أهبـة التفاوض للسلم مع المانيا وكنتيجة لذلك كان تفوقنا في الجبهة الغربيـة مهددا بسرعة بالزوال مع تحول القوات الالمانية المتحررة من الجبهة الشرقية ، فقد تمسك بقاعدته (والتي يجب ان تبدو لنا اليوم متواضعة) المتعلقة بالهجـوم

مع اهداف محدودة بدقة . ومعركة « ماليزون » التي منحها اهتمامه الخاص هو ورئيس اركانه الجنرال « ديبيني » تظل النموذج لهذا النوع من المعارك . الا انه عندما تحرر العدو اخيرا من اشتباكاته في الجبهة الشرقية في عام ١٩١٨ ، وشن هجمات رئيسية نشبت على امتداد خطوط الحلفاء ، فقد سبب ذلك قلقا مؤقتا لـ بتيان . ولكن بفضل صلابة « فوش » ، فقد امكن سد الخرق وأثبتت الجبهة أنها متماسكة ومع انها كانت مرنة فقد كانت فعالة . وبذلك كان « بيتان » قادرا على الاستنتاج بانه كان على حق وان كل محاولة تسلل من الان فصاعدا كانت غير مجدية وفوق ذلك قد تكون خطرة . اما بشأن هجمات فوش المتواصلة التي تم شنها اثناء معركة فرنسا ، فقد لاحظ « بتيان » بانها قد فشلت في اتمام الخرق في العمق . وان كل ما تحقق بالواقع كان سلسلة من اشتباكات هجومية مع اهداف محدودة . وهذا يعود لطاقة عالية من الرجال والمعدات . ونتيجة لذلك ، اعتقد بأن نظريته قد تحققت نهائيا بتجربة عملية وان تكتيكه هو الذي ربح الحرب .

وبدهي لاي دارس للحرب العظمى ان النصر العسكري كان نتيجة اتحاد استراتيجية فوش القوية وتكتيك بتيان الحذر . ولكن بعد الحرب كان على فوش وبتيان ان يعملا في ميادين مختلفة جدا وهذا الطلاق كان له اكثر النتائج خطورة بالنسبة لفرنسا .

وكان لـ فوش في لجنة الحلفاء نوع من النفوذ البعيد ، على الجيش الفرنسي . فقد كان مهتما بتنظيم احتلال الراين ، وبناء جيوش بولونيا ، والحلف الصغير ، التي اعطت صيغة استراتيجية لاذلال ألمانيا ضمن اطار معاهدة فرساي . وهذه الاستراتيجية المدونة في المعاهدات اسبغت علينا لمدة طويلة مظهر سلطة ـ سلطة قبلنا بها بموجب دبلوماسيتنا باعتبارها اساسية وقابلة للتطبيق حتى عام ١٩٣٦ . الا ان هذه الاستراتيجية كانت غير قابلة للتطبيق لان فرنسا لم تملك جيشا قادرا على تنفيذها ذلك لان « فوش » لم يكن هو المكلف بتنظيم الجيش الفرنسي بل كان « بتيان » .

والواقع ان « بتيان » استمر بوصفه القائد العام للجيش الفرنسي

وهو الذي اعطاه شكله الجديد في زمن السلم . والجيش الذي نظمه لم يكن الجيش نفسه الذي سبق لفوش ان تصوره ، أي القادر على القيام بعمليات هجوميه في المانيا . يساندها حلفاؤنا في وسط وشرق اوروبا انه الجيش الذي كانت تتطلبه مكانتنا فيعصبة الامم . وكان على الاصح جيش معركة « ماليزون » التجنيد الكثيف . والتفوق الدفاعي مع هيمنة كبيرء معطاة للمدفعية ، معتقدمها المحدود بشكل صلب بحدود متتابعة ، ووحداته مندمجة بشدة في جبهة دفاعية غير متصدعة . وكان تنظيم الجيش الفرنسي ، متجاهلا تعهداته الاوروبية ، قد ارتكز بصورة ثابتة على مفاهيم تجعل سياستنا العسكرية لا تأثير لها كليه وتمسخها حتى نداء اليقظة في عام ١٩٤٠ .

ولم يحدث هذا التطور المحفوف بالكارثة دون معارضة صاخبة لم يهدئها سوى الاهتمام بالانضباط وكان في فرنسا مدرسة فكرية كانت قد اعترفت بالدور الرئيسي الذي ستلعبه الدبابة في المستقبل . وكان زعيم هؤلاء المنشقين الجنرال « استيين » المعروف بأنه « أب الدبابات » ، لانه هو الذي اكمل صيغة عام ١٩١٦ الاولى وهو الذي نظم ما كان آنئذ يدعى بـ «مدفعيةالهجوم» .

ويجب ان لا يساء فهم هذا الاسم المتصف بالتضييق على الارجح . وكان للمفهوم الاساسي في الحقيقة تطبيقات اوسع من ذلك كثيرا . ففي عام ١٩٢٢ جاء « استيين » الى « سان سير » لالقاء محاضرة ، كان قد توقع فيها معركة كبرى معتمدة على هجمات عميقة تقوم بها الدبابات . ويمكن ان يكون واضحا اليوم ان فكرة هذه الهجمات كانت فقط من اجل اتمام خرق عميق لمراكز العدو المحصنة وان اختراقا اكبر في العمق كان غير مدرك بصورة كاملة . ولكن ذلك كان متسببا قبل كل شيء عن فشل في تقييم مشكلة المعنى الاستراتيجي لمثل تلك المعركة . وكان الموضوع الرئيسي الجدير بالاعتبار هو مشكلة الخرق في العمق وهي اولى المشكلات واهمها في العودة الى الحرب المتحركة . ويجب ايضا ان نقول ان اعتقاد « بتيان » بضرورة الحرب الكثيفة على جبهة متواصلة قد صبغ بصورة حتمية تفكير المجددين ، الذين لم يعتبروا انهم يستطيعون تجاهل مثل تلك الصيغة . ولكن ايمانهم بالدبابات كان كبيرا لدرجة ان التقرير المقدم الى الوزير والذي وضع شروطا لمناورات المشاة في عام ١٩٢١ كان

مستخلصا من امكانية تطور جماعة المشاة الى طاقم مدرع تحمله مركبة عبر الاراضي غير المعبدة .

اما الآن فتحت تأثير « بتيان » ، و « وديبيني » (والاخير منهما كان قد كلف بادارة المدرسة الحربية) ، اصبحت هذه الافكار مخنوقة تدريجيا . ولم يحدث تقدم ابعد من استخدام دبابة المشاة . وفي ذلك الوقت في عام ١٩٢٧ وتحت تأثير « ليدل هارت » ، « وفولر » وفي وجه المعارضة الرسمية قررت بريطانيا ان تجرب « اللواء الميكانيكي » ، وهو الجد الاول للتشكيلات المدرعة الحديثة .

واثارت هذه التجربة في الحال اهتماما بالغا في الرأي العام الفرنسي المطلع . وتحت تأثير البريطاني تطورت فكرة استخدام الدبابات من دعم المشاة البسيط الى المناورة المتحركة ــ وبتعبير آخر ، الى دور الخيالة . ومن عام ١٩٢٤ الى عام ١٩٣٢ كسبت فكرة « فيلق المعركة » الميكانيكي امتدادا الى حد اننا بدورنا بدأنا تدريجيا بمكننة خيالتنا . وفي عام ١٩٣٠ ، اثناء مناورات اللورين ، قمنا بتجربة مع مفرزة مختلطة كانت ناجحة الى درجة انه بعد ثلاث سنوات انشئت اول فرقة ميكانيكية خفيفة ، وهي خليط من السيارات المصفحة ، والدبابات ، ووحدات دراجات نارية ، وخيالة راكبة . وبدا اننا كنا في طريقنا نحو اعادة نظر هامة في تفكيرنا العسكري . واخيرا صرف انتباه جدي في المدرسة الحربية لامكانيات هذه الوحدات الجديدة وفوق كل ذلك للاخطار الهائلة التي تمثلها السيارات المصفحة لتشكيلات الوحدات التقليدية . وفي مناورات عام ١٩٣٤ ، وعلى الرغم من اتخاذ قرار فاصل وعلى الارجح منحرف ، أدت غارة بالسيارات المصفحة الى زرع الفوضى التامة في حركات الجانب المعادي .

وفي تلك الاثناء نشر الكومندان « ديغول » كتابه : « نحو جيش محترف »، شرح فيه وجهة نظره بانه يمكن لفرنسا ، لاسباب جغرافية ، وسياسية ، واستراتيجية ، وتكتيكية ، ان لا تكمل دورها ما لم تملك جيشا من نوع جديد مجهز بالتصفيح وباختصاصيين من ذوي الخدمة الطويلة . وهذه النظرية

هي التي اصبحت اساسا للتشريع الذي اقترحه « بول رينو » في عام ١٩٣٥ . وكذلك في المانيا حيث نشر الكولونيل « غودريان » كتابه : المدرعات ، وفيه صياغة نظرية تقل في صفتها عن الحلول المقترحة من قبل « ليدل هارت » وقد اقرت العناصر التقدمية في جيش الرايخ هذا الخط من التفكير الذي كان قد بدأ في بريطانيا واعلن انشاء عدة فرق من دبابات البانزر . وبدا في الواقع ان المدرسة الفكرية الجديدة كانت على وشك الظفر وان الجيش الفرنسي في نهاية الامر كان يرغب في اعادة تجديد حياته .

وكانت الحقيقة ، كما كان « ليدل هارت » قد تنبأ بها منذ البداية ، ان جزئيا في الجيش دخلنا الحرب (في عام ١٩٣٩ ؟ بفرقتين ميكانيكيتين صغيرتين، و ٣٠٠٠ مدفع مضاد للدبابات من عيار صغير و ٢٠٠٠ دبابة من طراز جديد ، ولكنها كانت على العموم بطيئة جدا ، ومدى عملها محدود جدا) ولكن تفكيرنا الاستراتيجي والتكتيكي كان لا يزال مستندا بصورة تامة تقريبا على تجربة عام ١٩١٨ . واستمر كل شيء وكأن التخمر الفكري الذي كان سبب انتشاره في جيشنا بين ١٩٢٨ و ١٩٣٠ المثل البريطاني المستوحى من ليدل هارت ، لم يكن .

وكانت الحقيقة ، كما كان « ليدل هارت » قد تنبأ بها منذ البداية ، ان الحل للحرب الحديثة يجب ان لا يبحث عنه في التكتيك بل في الاستراتيجية . ولما كانت استراتيجيتنا قد ظلت بدون تغيير جوهري لذلك لم يكن بامكاننا ان نرى اية حاجة لتغيير تكتيكنا . اما اليوم فقد كان على « ليدل هارت » ان يضع في حقل الاستراتيجية اغلب مساهمته المبتكرة ويمهد الطريق لاعادة نظر كلية في الفكر العسكري التي لو انها اتبعت في فرنسا لكانت تجنبت كارثة عام ١٩٤٠ ونتائجها وهي النتائج التي لم يشف منها الغرب الى الان . وقد ظهر كتابة اللامع « الحروب الحاسمة في التاريخ » في عام ١٩٢٩ وعلى الفور تقريبا نشرت ترجمة له في فرنسا وبدت الافكار التي تضمنها كنفحة في هواء عليل .

وبالواقع ان نتيجة اللعبة لم تكن شيئا يتجاوز اعادة اكتشاف الاستراتيجية

بمعنى فني هو اكمال النصر بأضمن طريقة وأقلها كلفة . وفي ايام يجب ان يبدو مثل هذا الهــدف سهلا ولكنــه لم يكن كذلك في فرنسا في عــام ١٩٣٠ لان الاستراتيجية في ذلك الوقت كانت مقدرة جديا تقديرا يقل كثير عن قيمتها . وكان هذا الكسوف نتيجة آثار مختلطة ناجمة عن خطيئتين متعاقبتين :

كانت الخطيئة الاولى نتيجة بعيدة لهزيمتنا عام ١٨٧٠ ، التي دفعت بالجيش الفرنسي لتبني نظريات القيادة العليا البروسية المتولدة عن عمل كتاب « كلوزويتس » الجبار الذي اصبح كتاب الاستراتيجيين المقدس في اواخر القرن التاسع عشر . ويتضمن هذا المؤلف المنشور بعد الوفاة ، والذي لم يكن كاملا عند نشره ، عددا من التناقضات الداخلية ، وكانت النتيجة هي اننا يمكن ، اذا انتقينا بعض المقاطع ، ان نجد فيها تبريرا للعمليات المحدودة كما نرى فيها نظرية متطرفة عن الحرب الشاملة . اما الآن فنحن بعيدون عن تدوين هــذه التناقضات والاشارة اليها بعد ان توصلت المدرســة البروسية الى اتبــاع استراتيجية نظامية « كلوزويتسية » متطرفة تركز على ضرورة المعركة الفاصلة التي تتم من خلال « تضحيات دموية » . ان جمال هذا المفهوم « الواغنري » المشؤوم كان ولا شك متوافقا مع المفهوم النفسي للمعلقين عليه وبالتالي لتجربة « كلوزويتس » نفسها التي هي اكثر تعقيدا . ولكن بما ان **فوم كريج**(١) هو كتاب ليس من السهل قراءته ، فقد اتجه الرأي للتبلور في اغلب الاحيان حول التعليقات اكثر مما حول النص نفسه . ومن تحريف واحد جاء آخر وانتهى الامر بالموافقة على ان معظم الاستراتيجية الحديثة المبنية على المثل « النابوليوني » يمكن فقط ان تكون استراتيجية مفكر فرد يتحرى بعد « معركة فاصلة » مواجهة قوات كثيفة مسلحة في مسرح الحرب الرئيسي .

وهذه الفرضية التي كانت قد تبنتها القيادة العليا الالمانية تبنتها بدورها مدرستنا الحربية . وقد كان عرض « فوش » للنظريــة مدهشــا لوضوحه الديكارتي(٢) الذي أسبغ على بعض الظواهر دقة ممتازة كانت قد تركت غامضة من قبل الالمان . واذا كان من الضروري انئذ الحصول على قرار فان هذه المعركة

---

(١) منسوب الى رينيه ديكارت .

الفاصلة يجب ان تخاض بأسرع ما يمكن مع اقصى قوة مندمجة على خط التقدم الذي يشكل اكبر تهديد للعدو مع هدف خرق دفاعه . تلك كانت صورة « الخطة السابعة عشرة » الشهيرة التي كان مصيرها الفشل الكلي في الاسابيع الاولى من حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ . أما خطة « شليفن » المتناسقة مع « الخطة السابعة عشرة » « وهي كلوزويستيه كما هي فوشية » فقد توخت المعركة الفاصلة بحركة التفاف واسعة تكمل ايضا بقوات مركزة .

وهنا يمكننا ان نشير الى ان هاتين الخطتين قد اخطأتا كليا في حساب طاقة عمل الوسائل التي كانت متوفرة لهما في ذلك الوقت . فالاولى ارتكبت خطيئة مصيرية بتقديرها لكفاءة هجوم الفرق تحت النيران الحديثة . والثانية لم تحسب حسابا لحقيقة ان الحركة الالتفافية على هذا المستوى كان يمكن أن تنجح فقط لو ان سرعة تقدم الجناح المتحرك كانت اكبر بمقدار الضعفين او الثلاثة . وعوضا عن المعركة الفاصلة نجمت عن هاتين الخطيئتين العقدة المستعصية لحرب الخنادق التي فاجأت الرأي العام المعاصر وصدمته . لذا جرت محاولة لاعادة الاستراتيجية الحاسمة بهجمات رئيسية اصبحت مكلفة اكثر فأكثر بالارواح والمعدات ولكن دون جدوى . وعند هذه النقطة قامت مدرسة « بيتان » بعد ان واجهت هذا الانقلاب المذهل بحركة تقدم ظافرة استنادا لنظرية ان الاستراتيجية كانت غير ملائمة للمعارك الحديثة وانه من الآن فصاعدا يجب ان يبنى تفكيرنا على اساس التكتيكات والمعدات .

وعلى كل حال ، اذا كان هناك من يشك في صحة الاستراتيجية فلا يمكنه ان يتجنب تبنيه لاستراتيجية ما . وان الاستراتيجية الضمنية الى حد ما في موقف « بيتان » والتي سادت تفكير الجيش الفرنسي في « الثلاثينات » لم تكن كما قد نفكر ، رفضا لتلك النظريات التي كانت قد استمدت من كتاب كلوزويتس . بل على العكس كانت مجرد ترجمة لها قد ضخمت خطر اخطائها الاساسية بصورة رهيبة . وكانت المعركة لا تزال هي التي يمكنها ان تأتي بالقرار وذلك دائما بتجنيد قوات اكبر واكثر قدرة . واصبح فن الحرب مقتصرا على التعبئة الكاملة لهذه الموارد وثم على اشتباكها في عمليات كثيفة تصمم وتقاد بالاستناد لحسابات المهندسين .

وكان في هذا الجو الخانق الذي يقتضي ان يقال عنه انه لم ينل موافقة اجماعية من قبل الجيش الفرنسي النظامي ، قد ظهر كتاب « ليدل هارت » الجديد . ويمكننا ان نطالع فيه بلغة واضحة وصريحة سلسلة من الحقائق تسبندها سوابق تاريخية عديدة بدت في تلك الحقبة مدهشة تماما .

١ ــ ان نهاية الحرب ليست معركة بل هزيمة العدو .

٢ ــ ان المعركة ليست سوى وسيلة من بين الوسائل الاخرى لتلك الهزيمة .

٣ ــ يجب توخي النجاح الى ابعد الحدود الممكنة بسلسلة من الاجراءات التي تؤدي الى تضليل العدو .

٤ ــ وفي سبيل خداع العدو فان مواجهته بمعضلة يعتبر امرا اساسيا .

٥ ــ ولا يتم النصر بمجرد التدمير المادي للعدو بل بايقاع الفوضى في صفوفه وهذا يمكن بلوغه بالمناورة .

٦ ــ يجب التحري دائما عن اكثر الوسائل توفيرا وتجنب الجهد العسكري الكامل البالغ الحد ... الخ ...

وأنا لست راغبا في تحليل نظرية « ليدل هارث » تفصيلا ، بل أود فقط ان أبين مقدار التعارض بين آرائه والنظرية الرسمية في فرنسا . وكان هذا اكتشافا مدهشا يشبه في وقعه اعادة الكشف عن العصور القديمة بالنسبة لرجال عصر النهضة بعد العقم العائد لتقاليد القرون الوسطى . وأما خبرتي الخاصة بعد قراءة كتابه (وكنت آنئذ في المدرسة الحربية) فقد كانت بمثابة كشف كنت في انتظاره ــ أي الصيغة المنتظمة والكاملة لكل شيء كنت اتلمس طريقه . واخيرا استطاع فن الحرب ان يتحرر من العقم الذي كان قد نشأ عن التفسير الخاطيء لافكار كلوزويتس ودروس اعوام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ وقد احدث الكتاب وقعا عميقا في جيلي في الجيش وفي سابقينا المباشرين . فقد كان « دي لاتر » ، و « جوان » ، مثلا ، متأثرين كثيرا به وقاما فيما بعد بتطبيق دروسه . الا ان هذين الجيلين كانا آنئذ لايزالون يمثلان قسما من طبقة التسلسل العسكري الدنيا وكان ينقصهما النفوذ الحقيقي .

وعلى مستوى أعلى ، على العكس من ذلك ، كـانت التحاملات علـى « ليدل هارت » بوصفه مؤلف كتاب : « المشاهير » عائقا أساسيا . واكثر من ذلك كان « ليدل هارث » قد سمى كتاته الجديد « الطريقة الانكليزيـة في المعارك الحربية » وكان هذا تعبيرا بهدف تطوير استراتيجية يقتضي ان تكـون ملائمة لدولة في جزيرة ولا تطبق على القارة الاوروبيـة التي لهـا مشـاكلهـا المختلفة بشكل جوهري . واذا كانت فرضية « ليدل هارت » مفيدة فهـي لاتعنينا مباشرة طالما ان لدينا « خط ماجينو » وجيشا معينا قوامه مائة فرقة . ومع ذلك فان حركة الرأي العام التي اشرنا اليها اعلاه مع التنويه باستعمال الدبابات قد نمت قوتها ، ووقع « الجنرال غاملان » في عام ١٩٣٥ منشورا دوريا يذكرنا بأن القيادة العليا وحدها ذات صلاحية لتحديد النظريةالعسكرية وان على الضباط ان يكتفوا في جميع المناسبات عن عرض اية آراء شخصيـة في هـذه القضية . وكان هذا القرار الذي يصعب تصديقه قد اقترن لســوء الحظ بالنجاح التـام ، اذ ان الانضباط قد كان قويا جدا في ذلك الحـين . وقـد أصبحت المجلات العسكرية ، والمحاضرات ، والكتب ولا شيء سـوى صياغة جديدة للنظرية الرسمية . وكان اهتمام الجيش الذي كان قد اثـير لمـدة وجيزة قد هدأ مرة ثانية بالرجوع الى الانزام . وكانت مسيرة الحرب العالمية الثانية قد رسمت بتفصيل . لذلك الوقت ولما بعد . اذ ان الآلهـة قد قضت بذلك ...

كان ذلك في عام ١٩٣٥ عندما التقيت بـ « ليدل هارت » حينما اسنـدت الي مهمة الترحيب به في قيادة الجيش العليا والاجابة على اي سؤال يرغب في توجيهــه .

* وكنت قد قرات عن كل كتبه تقريبا واصبحت في غبطة عظيمة لاسنـاد هذه المهمة الي . وفي المكتب الصغير الذي وضع تحت تصرفنا واجهت رجـلا لطيفـا حسن التصرف طويلا ونحيلا باشر بقذف وابل كامل من الاسئلة الاسئلة وكان على الرغم من سرعة حديثه يبدو وكأنه يتحدى ببطء عن كلمات يلهب بها سرعة تفكيره . وكان يمتص غليونا دائم الخروج تقريبا أو مائلا الى الخروج لينفث نفثتين مزدوجتين مراكما أمامه كومة من عيدان الكبريت المحترقـة .

وقد بدأ نقاشنا تقريبا في الساعة العاشرة صباحا . وفي الواحدة اشرت بتردد الى وجبة الغداء — التي كنا سنتناولها سوية . وعدنا بعد الظهر الى المكتب وطفقنا نتحدث حتى الساعة السابعة ، ولكن بما اننا لم نكن قد انتهينا ، بقينا سوية حتى وقت متأخر من الليل . ولا استطيع ان اتذكر ما اذا كانت نقاشاتنا قد استؤنفت في الغداة . . . وكان علينا ان نظل على اتصال دائم في اية حادثة بعد حرارة ذلك اللقاء الاول .

وان ما أثر علي بشكل كبير في ذلك اللقاء هو سرعة البديهة والحدة غير البريطانية اللتين كان يتحلى بهما ذلك الرجل غير الملتزم . وكنت متأثر ايضا بفضوله المفعم بالحياة الى حد بعيد ، وبتجرده عندما يطرق بحث قضية وببعده عن التحيز . ولكنني في الوقت نفسه لاحظت شيئا كان واضحا بشكل مسبق في كتبه ولكنني لم اكن حتى ذلك الوقت قد اعطيته حق قدره ، وان ذلك ولا شك كان بسبب عدم استساغتي للنظرية الرسمية الفرنسية .

ومن نقد « ليدل هارت » للحرب العالمية الاولى وربما بسبب بعض التقاليد البريطانية ايضا (توريس موراس ، واترلو) ، فقد اظهر تفضيلا معينا للدفاع ، الذي يرى فيه (شأنه في ذلك شأن كلوزوبتس) طريقة لاستثمار ميزات قوة النار الحديثة الى اعلى حد . وكان عرضي لوجهة النظر الفرنسية — المجملة ولا شك على قدر قليل — اثارت لديه بعض ردود الفعل المحبذة تماما حيثما كنت انتظر منه تقديم اعتراضات خاصة . ويبدو شيء من هذا الموقف الفكري في كتابه المنشور بعد ثلاث سنوات : « الدفاع عن بريطانيا » .

واذا ما أشرت الآن الى مثل هذه الفوارق الدقيقة فلأنه يبدو انه يجدر بنا ان نظهر كل صورة من العبقرية الاستثنائية التي كانت المبادهة في نهضة نظرية الاستراتيجية . في أيامنا . وبوصفه غير ملتزم ، فقد رسم الطريق نحو حرب المناورة المبنية على التصفيح والمكتشفة من جديد ، في عبارته « التقرب غير المباشر » ، اساس الاستراتيجية الحاسمة في تاريخ الجنرالات العظام . ومن سوء الحظ ان ماكان يريد الافصاح عنه كان مفهوما لدى المنهزمين اكثر من المنتصرين في عام ١٩١٨ ، الا انه من الطبيعي ان يكون

كذلك . وبوصفه ذرائعيا وغير ملتزم فقد اعترف بالاهمية الثـابتة للدفاع والطريقة الاساسية للعمل لاستكمال المناورة الفاصلة سواء عن طريق الاقتصاد في القوة التي تصبح ممكنة بالتحضير للهجوم او عن طريق مناورة هجوم معاكس فعـال . وليس من احد اقل استعدادا للترتيب المنهجي من ليدل هارت . ولكـن هنـا ايضا كـان من سوء الحظ ان المفهـوم الفرنسي للدفـاع قـد بلغ نقطـة ليست اكثر من السلبيـة التامة التي ازدادت عدم ملاءمتها بتكتيكات غـير مدروسـة .

وانـه من المستبعد ان نشك في ان تاثير ايدل هارت كان هائلا . امـا بالنسبة لي فقد حاولت ببساطة ان اوضح هنا كيف ان هذا التأثير الـذي كان يمكنه ان ينقذنا من كارثة ١٩٣٩ ــ ١٩٤٠ ، غير كاف لتغيير مجرى التاريخ وعلى الاقل في جميع مايخص الجيش الفرنسي .

(ان الذين يرغب جوتبر في هلاكهم يبتليهم بالجنون) .

* * *

- ٧ -

العقيدة والتدريب في الجيش الالماني

١٩١٩ ـ ١٩٣٩

بقلم : الكابتين روبرت ج . اونيل

كان الكابتن روبرت اونيل ضابطا في الجيش النظامي الاوسترالي ، وقد عين فيه بعد دراسته في الكلية الملكية العسكرية في اوستراليا ، في دانترون ، من عـام ١٩٥٥ حتى ١٩٥٨ . ونال شهادة في الهندسة الكهربائية والالكترونية من جامعة مليورن في عام ١٩٦٠ وشهادة اخرى في الفلسفة ، والاقتصاد فـي اوكسفورد (التي واظب فيها كطالب من رودس) في عام ١٩٦٣ . وهو يقـوم الآن بتحضير اطروحـة لشهادة الدكتوراه في الفلسفـة من جامعة اوكسفورد بموضوع « العلاقات بين الجيش الالماني والحزب النازي ١٩٣٣ - ١٩٣٩ » . وقد اكسبته أبحاثه هذه معرفة شخصية بأكثر الزعماء النازيين في الحـرب العالمية الثانية ممن بقوا على قيد الحياة .

ان مايجعل هذه القصة جديرة بالرواية هو تطور فكرة واحـدة : هـي الحرب الخاطفة . فلقد كانت جيوش كثيرة بين الحربين تقوم بتجارب لتحسين طرقهـا القتالية . وفيما عدا المانيا كانت جهودها تميل الى التردد والتقطـع وكانت القيادات العليا والزعامات السياسية تدفع من قبل مجموعات صغـيرة من الافراد واحيانا من مؤسسات عسكرية خارجية لتجربة افكار جديدة . وعندما تقوم بتجربتها كانت تصدر استنتاجات خاطئة على الغالب . امـا الجيش الالماني ، من جهة اخرى ، فقد كان تمسكه اشد بآثار التكنولوجيـا في ميدان المعركة ، وسار قدما في تطوير شكل جديد للمعركة الحربية كـان بموجبهـا منافسوه ، عند تجربتها ، قد تم تجاوزهم بصورة لا أمل لهم فيها . وكان الجيش الالماني من جهة ثانية وحيدا ولا شك بتفهمـه لقوة الوحـدات الميكانيكية للتغلب على المأزق الناجم عن تحكم الدفاع ـ والواقع ان احسن افكاره قد وردت من الخارج ـ وكذلك فانه لم يكن بحاجة الى جماعة ذات وزن من المحافظين يتعلقون بمفاهيم خيالة الحرب العظمى . وقـام التفوق الالماني بصورة وافيـة ، وحتى انها كانت بالجهد وافية ، على مزيج من العوامل بعضها عشوائي والبعض الآخر نتيجة محاكمة لتمكين الفكرة من اعطاء ثمارها .

تحضير الارض ١٩١٩ – ١٩٢٢ :

ان الهزيمة اكبر قاتل للرضى الذاتي . ولم تكن عقول المفكرين العسكريين الالمان الباحثة بحاجة لدليل مدرك يوحد طاقاتهم المتولدة حديثا في مجرى واحد ويوجهها نحو الانتاجية . وقد كان لدى الجنرال « هانس فون سيخت » هلع من معركة الخنادق وكان مصمما على اتمام السيطرة على قوتها . وكان قد حارب معظم الحرب الكبرى في الجبهة الشرقية ، وبوصفه رئيسا لاركان جيش فون ماكنزن المؤلف من الفرق الالمانية والنمساوية – الهنغارية ، لعب دورا رئيسيا في الثغرة التي احدثها « ماكنزن » في ايار ١٩١٥ ، في « غورليس – تارنوف » في شمالي جبال الالب بالضبط وهي التي اخرجت الروس من غاليسيا .

وكان الوضع الاستراتيجي الالماني قد اوجد املا ضئيلا في استطاعة المانيا ان تعيش بعد حرب رئيسية اخرى في المستقبل القريب . وهكذا اصبح من المسموح به وجود جو من عدم الاكتراث . وأتاحت الاضطرابات الداخلية المبكرة في عام ١٩٢٠ بعض الوقت للتدريب التكتيكي ، في حين ان الجيش باعتباره مؤلفا من نخبة من المحاربين القدماء المحنكين كان قد اصبح كفؤا تماما من حيث العناصر الاساسية في مهنة الجندية . ويبدو ان العقيدة التي قامت في السنوات المبكرة بعد الحرب كانت قائمة بصورة واسعة على التمتع بذهنية متفتحة للبحث الى ان يكتشف الجواب السديد لحرب الواقع . وقد قدم « سيخت » اقتراحا باجراء فحص كامل لجميع الادوار والقضايا الرئيسية للحرب العظمى . ولم يكن مقتنعا بأن هزيمة المانيا قد ادى اليها أي عامل واضح ولكن اذا كان هناك حقيقة خفية مندسة في التعقيد المدهش للتجربة التي جنتها المانيا من سنوات الحرب فان عليه أن يكتشفها .

وانه لمن السهل الآن ، بعد حرب ثانية وانقضاء خمسة واربعين عاما ، رؤية الابرة البراقة التي كانت قد بهرت انظار جماعة « سيخت » في كومة القش لدى محفوظات الريخ ، ولكن « سيخت » لم يبقها ابدا في قبضته

في الواقع . انه ولا شك لعب بها وادارها في يديه مرة او اخرى ونظر اليهـا بدقـة ولكنه طرحها جانبا الا ان ذلك كان بذهنية منفتحة . وبدت رغبته في قابلية التحرك في ذلك الوقت معتمدة على مفاهيم الخيالة ولكن ذلك لم يكـن عقيدة . وتبين لنا كتاباته في تلك الحقبة انه رمى الى انشاء وحدات كبيرة من الفرق الميكانيكية عندما يحين الوقت . وكتب قائلا « لن يستطاع مطلقا فيما بعد استخدام الخيالة في كتل كبيرة للقيام بهجوم جبهوي صاعق . وكـانت شكوكه المتعلقة باستخدام الوحدات المدرعة الميكانيكية مركزة على الناحيـة العملية لا على المبدأ . فهو لم يكن يعتقد ببساطة ان بدعة الميكانيك تضـاهي الانجاز عبر الحقول ، وسرعة الخيالة ، وتكيفها ومناعتها وقوتها الناريـة وهي تعمل مع الدعم التكتيكي القريب للطائرات . اما تصوره للجمع بين الدبابات والطائرات كمشكوك فيه ، وان اوراقه ولا شك لا تنم عن ذلك . الا انـه من المؤكد انه نشط مناقشة هذه الافكار جاعلا الضباط الشبان متقبلين لما كـان قد طرأ على التفكير في الامكنة الاخرى تواقين لان يكونوا اكثر اقترابا من الحل . ولعل اعظم ماخلفه لحقل النظرية كان رفضه لان يكون نظريا .

وكان « سيخت » يقود تدريب أعلى القادة بنفسه ، وقد استهزأ بالرأي القائل « لم يعد لدى القيادة العليا أي شيء لتقلمه » . وفي أوائل تشرين الاول عام ١٩٢١ نشأت أولى رحلات الادلاء في « بادكيسيجن » . وقد توطد هذا التقليد الى حد انه استمر وطوره خلفاء « سيخت » تطويرا كبيرا . وكـان « سيخت » منزعجا بصورة خاصة بالمتنافضات التي كشف عنها الماضي بـين الاركان العامـة المدربة تدريبا موحـد الشكل والنظرة التي لا ارتباط فيهـا لـدى مختلف اعلى القادة ، ومن خلال هذا الموضوع كان باستطاعته ان يهـزم ما كان متزامنا معه في نظام « فرساي » . وابقى جنرالاته متيقظين ومدركـين للزمن الآتي عندما سيكون في حوزة المانيا مرة اخرى جيش كفوء . وقد ادت هذه التماريـن للمرة الاولى أيضـا الى تطوير نظرية موحدة لادارة تشكيلات اوسع . واعيدت ايضا رحلات الاركان العامة المعتادة ، وسارت دون تصـدع خـلال كامل الحقبة . وبصورة خاصة قام شكل قيم من التدريب هو ادخال معركة الهـاتف بالنسبة للقادة وللاركان . وينبغي الا ننسى ان الجيش كان

ايضـــا مسؤولا عن كل تدريب جوي وتكتيك الى ان تشكلت سلاح قيادة للطيران ووضعت تحت امرة غورنغ .

زرع البذور (١٩٢٢ ـ ١٩٢٨) :

في الاول من نيسان ١٩٢٢ تلقى « هوبتمان هنز غودريان » تعيينا مـذهلا على نحو ما كضابط اركان في هيئة اركان مفتش النقل ، المستخدم في ادارة النقل الآلي . وكان غودريان مختصا بالاشارة ولا يفقه شيئا عن المركبـات الآليـة . ومع ذلك ، كما هي الحال في كثير من الجيوش ، كـان عليـه ان ينصرف الى العمل وينطلق في التعليم . وكان مفتش النقل الجنرال « فـون تشيزويتز » ، هو نفسه مفكرا مبدعا وكان قائما بدراسة موسعة عن موضوع تحرك الفرق العسكرية في عربات ذات محركات . وكان « غودريان » مدفوعا الى الخدمة وكان هناك بعض التمرينات الصغيرة جارية في براري « الهارتز » الجميلة والصعبة . وعندما انصرف غودريان الى التفكير الجدي بالنسبـة للمشكلة بـدأت نظراته الخاصة تتبلور وخصص تشيزوتيز وقتا طويـلا لنقد مساعـدة الشاب وتشجيعه . واعتقد « غودريان » بأن حقيقة ضعف المانيا حالت دون تكرار الحرب الثابتة التي يمكن ان تندلع في المستقبل المتوقع .

واذا وجدت المانيا نفسها في حالة حرب ، فان صغر قواتها النسبي يتطلب حركة عالية واستثمارا لمبادىء المفاجأة والتحشد المحلي للتعويض الكلي عـن التفوق العددي الذي قد يتمتع به احد الخصوم . وكمـا هي الحال في اغلب الاحيان مع الضباط الشبان ، شعر « غودريان » بشدة بأنه يـدرك الحاجـة لتطوير احد اشكال التقنية الدفاعية التي يمكن ان تحبط اية غايات عدائية من البلاد المجاورة . ولم يكن قابلا لتبني وجهة نظر « سيخت » الاقل تشددا . وعلم ان احسن الطرق التي تستطيع بها المانيا حماية نفسها في ذلك الـوقت هي بتحريك الوحـدات بسرعـة فائقة لسحق انـدفاعات العدو ومنعه مـن اتمـام اختراق عميق . وهذا مما اثار بسرعة قضية حماية القوات اثناء الحركة وبالتالي فان استعمال العربات المصفحة قد فرض نفسه .

وبينما كان يسعى في كل مكان للحصول على اية معلومات عـن التجارب

التي كانت قد اجريت في استخدامها ، تعرف على الملازم « فولكهيم » ، الذي كان منهمكا بدراسة استعمال التصفيح في الحرب العظمى لادارة اخرى من ادارات الاركان العامة . وكان « فولكهيم » مصدرا غنيا بالمعلومات وبصفة خاصة فيما يتعلق بما عمله الافرنسيون والبريطانيون . وكقسم من النهضة الكبرى في التفكير التي كانت قائمة ضمن القيادة العليا الالمانية انشئت مجلة دورية خاصة باسم افكار البلاد الاجنبية عن الجيش لتغطي المجال العسكري في الخارج تغطية كاملة . ومما له مغزاه ان توزيع هذه المجلة السرية لم يكن مقتصرا على العسكريين ، اذ ان بعض الادمغة المدنية قد دب فيها النشاط بواسطتها .

وخلال دراسة هذه المصادر فان مدرسة فولر البريطانية وليدل هارت ومارتل قد اصطدمت سريعا بغودريان . فقد زودته بالقوة الدافعة اللازمة له لتجاوز استعمال التصفيح كدفاع متحرك واستخدامه في الهجوم . واعترف بعقم استخدام التصفيح فقط كسلاح يدعم المشاة أو لمهمة « الخيالة » الخفيفة. وقد عممت نتائج افكاره على الجيش كله في الصحيفة العسكرية الاسبوعية . واثارت هذه المقالات الاهتمام وشجعه رؤساؤه على الاكثار من الكتابة . وعزا غودريان نجاحه للمثل القديم : « في مملكة العميان ، الاعور ملك » . وخلال شتاء ١٩٢٣ – ١٩٢٤ ، ساعد غودريان الشخص الذي كان آنئذ برتبة « اوبرست بوتنان » وهو فون بروشيتش ، في ادارة التمرينات بالتعاون بين القوات الآلية وبين الطيران . واستحق عن جدارة التعيين في المنطقة العسكرية الثانية في ستيتن ، كمدرس للتكتيك والتاريخ العسكري وهنا توسع غودريان في تطوير افكاره في سياق محاضراته وهذا مما ينم بشكل واسع عن النباهة داخل الجيش الالماني الذي خصه بهذا العمل بدلا من تزويده بمنهج دراسي والايعاز اليه بتدريسه دون أي شيء آخر . وبالاضافة الى ذلك كان مستوى الضباط الذين يتلقون الدرس على وجه كان بدفع بغودريان دائما الى اعلى مستوى من النشاط الفكري فلم يجرؤ ان يضع خلال ذلك اي شيء كانت الاحاطة به ضعيفة . وقادته ثقافته التاريخية الى مدى ابعد في دراسة قابلية التحرك عبر تكتيك الخيالة في المراحل الاولى من الحرب العظمى .

وبينما كان غودريان يتسارع عبر الخط المؤدي الى الحرب الخاطفة كان الهير يلتنغ منشغلا بانشاء الجيش السيكتي « جيش القـادة » . وكان احد اقسام عمله الاكثر مغزى اخراج كتيب التدريب : « قيادة وقتال » ، بادارة « اوبرست هيرغوت » من فرع تدريب الاركان العامة . وقبيل عام ١٩١٤ ، كان لكـل سلاح نشراته الخاصـة بالقيادة الحاكمة وتكتيكه وقد ظهر قدر اكبـر من التشتت . فوحد كتيب « قيادة وقتال » كل ذلك في مجموعة واحدة مـن المبادىء للجيش بقيت مطبقة دون تغيير حتى وقت مبكر من عـام ١٩٣٠ ، وادت فوضى مختلف دروس التدريب الى اعتراضات هي ان تدريب الفوج في الجيش كان مهملا ، لان الضباط كانوا في كثير من المرات بعيدين عن وحداتهم . وحالت الظروف الداخليـة المضطربة في ذلك الحين بصورة فعلية دون كـل مستوى واسع من المناورات وكان الجيش بأسره يعتمد على تمرينات السرية والكتيبـة وكان ذلك من التجديد النادر ، ولكن الشعار الرسمي الذي كـان يردد « اطرد الضجر بالنشـاط » . ولم يكن في الجيش الالماني في تلك الايام جنود عديدون غير قادرين جسديا .

وفي عام ١٩٢٥ ، اجريت اولى المناورات الواسعة . وقد تم التغلب على قلة القوات في الرجال من اجل التمرينات باستخدام (المتطوعين لفترة قصيرة) الذين كانوا يخدمون بضعة اسابيع في كل مرة . ونشط التدريب بمنافسـة عـدة انواع بين مناطق الجيش . وفي ذلك الوقت كانت اهمية الدبابة قد حظيت بانطباع اشـد لدى « سيخت » الذي بدأ يرى فيهـا سلاحا ذا دور متميز خاص بها ، منفصل عن المشـاة ، والخيالة ، والمدفعية ، الا انه لم يكن بعـد قد علق عليهـا اهمية حيوية . وكنتيجة للمفاوضات السرية مع الروس كـان يجب اقامة مراكز تدريب للطيران العسكري ولحرب الدبابات ، وكذلك مصانع لانتاج الطائرات ، والذخيرة ، والغاز السام . وقد عين مركز الدبابات قـرب قازان على نهر كاما . ولكن الروس كانوا مع ذلك بطيئين ، وعلى الرغم مـن الحاح الالمان ، فلم يتم العمل فيه قبل عام ١٩٢٩ .

وكانت مناورات عام ١٩٢٧ اول من رات استخدام الدبابات الوهميـة على نطاق كبير ، ولكن لم يبذل اي جهد لشرح تكتيك الدبـابات للاسلحـة

الاخرى . وفي هذه المرحلة كان غودريان في مركزه التدريبي لمدة ثلاث سنوات وقد لقي ترحيبا من رؤسائه وحصل على تقارير جيدة . وقد ادى نزوعه للتكتيك ولخدع الحرب الى تعيينه في فرع العمليات في الاركان العامة في قسم النقل . وكانت وظيفته قد احدثت بهدف وضع التكتيك للقوات المتحركة بواسطة سيارات النقل . وكانت خططه طموحة ولاقت مقاومة سريعة من قبل اولئك الذين اشتكوا من صعوبة وضع خيول جر المدافع في سيارات النقل .

وكانت فرصته التالية للعمل بالدبابات قد سنحت عام ١٩٢٨ ، عندما طلب اليه القاء محاضرات دراسية عن تكتيك الدبابات للهيئة التدريسية في قسم النقل الآلي . وكان هنا مبتكرا اذ لم يقم احد قبلا بمثل ما قام به في الجيش الالماني . ولحسن الحظ كان متوفرا لديه اداة مهيأة : اذ بما انه انشأ ادارة ترجمة خاصة به فلم يكن بحاجة لانتظار التوزيع الرسمي لكي يطالع الكتب الانكليزية والمقالات الجديدة وينشرها بين معاونيه ، وكان لديه ايضا ترجمات لبعض الكتب الانكليزية التي تبناها كأساس للتدريب الميكانيكي الالماني لسنوات عدة ، الى ان تم تأليف كتب بالالمانية في اواخر الثلاثينات . ولكن مهما اتسعت التجربة العملية للدبابات فقد كان لدى غودريان فقط تلك التجارب المستقاة من التمارين بدبابات الدمى المصنوعة من الخشب والخيش والتي كان الجنود يدفعونها وهم على الاقدام . ولم تكتب له رؤية اول دبابة « حية » حتى ذهب الى السويد لمدة اربعة اسابيع عام ١٩٢٩ .

ظهور النبيات (١٩٢٩ ــ ١٩٣٥) :

ولئن كان غودريان زعيم مناصري الحرب المدرعة في الجيش الالماني فقد كان دون ريب وحيدا في هذا المجال . وفي الفترة التي كان فيها في « ستيتين » كان قسم النقل الآلي يعمل بالاتصال مع مصلحة المعدات في الجيش وكانت قد صنعت عشر دبابات تجربة ــ اثنتان من كل من النماذج الخمسة . وكانت بدائية جدا بسرعة اقصاها ١٢ ميلا في الساعة ، محمية حماية خفيفة بصفائح الفولاذ ومسلحة بمدفع قطره سبعة وثلاثون مليمترا وخمسة وسبعون

مليمترا للنموذجين الخفيف والمتوسط . وكانت محمية ضد الغاز وترمي في كل الاتجاهات ، ولكن دون لاسلكي من أي نوع كان ويجلس فيها القائد الى جانب السائق داخلها الجسم . وفي عام ١٩٢٩ شحنت هذه الدبابات مجزاة الى قازان ، حيث جمعت ووضعت تحت التجربة . وكان يرافقها مدرب واحد وعشرة متدربين . ولكن الدبابات التي استخدمت في التدريب هي السوفييتية.

وكان لمركز الدبابات ثلاثة اهداف رئيسية : تمرين الضباط على ادارة الدبابات ووحداتها ، وتجربة النماذج الالمانية ، والقيام بتجارب مقارنة بينها وبين النماذج الاجنبية على الارض الخاصة بالتجارب . وكانت مناهج الدراسة التدريبية للطلاب السوفييت والالمان معا توضع من قبل مفتشية الوحدات الآلية في برلين . وسرعان ما اصبحت هيئة التدريس المانية بتشكيلها وفي النظرية التي تدرس ، وفي العمل الميكانيكي والتقني ، وفي رمي المدفعية والاتصالات . وكان رئيس الاركان العامة الالماني يزور المدرسة في كل سنة من عام ١٩٢٨ وما بعد . وفي ١٥ ايلول ١٩٢٩ ارسل رئيس غودريان «اوبرست هالم » الى روسيا كضابط رئيسي مرتبط بأركان الجيش الاحمر برتبة جنرال ماجور . وكان بين الزائرين الآخرين لقازان « اوبرست لوتز » (القائد الاول للوحدات الآلية ١٩٣٤) والميجر « بيرنر » الذي كان مسؤولا عن صنع نماذج دبابات التجربة . وفي وقت مبكر من عام ١٩٣٠ ابتاعت الحكومة السوفييتية ستين دبابة من بريطانيا ــ من الفيكرز المتوسطة ، التي تزن ستة اطنان ومن نوع « كاردن لويد » ــ شكلت قسما من برنامج تبادل المعدات بين الجيش الاحمر والجيش الالماني .

واثناء السنوات الاولى من « الثلاثينات » ، شغل غودريان مختلف المراكز في برلين وبدأ يعمل بفاعلية في موضوع استعمال الدبابة من جميع وجوهه النظرية . وكان ليدل هارت خلال عامي ١٩٢٩ و ١٩٣٠ وكنتيجة لتحضيره لمؤلفه العظيم عن دبابات شيرمان قد طور مفهوم دور المدرعات في الخرق العميق والذي شكل اول تعريف لما يسمى اليوم « بالحرب الخاطفة » . وكان محتوى هذه المعلومات مقسوما الى فئتين : التكتيكية والاستراتيجية . وكانت النواحي التكتيكية مرتبطة بانتقاء نقطة الخرق في جبهة العدو . ويمكن استخدام تنوع

نقطـة الهجوم لالزام الخصم على البقاء في موقف دفاع ولهزيمته عن طـريق المفاجأة . وكذلك يمكن استثمار القوة الجوية بترابط وثيق مع الدبابات لاكمال السيطرة التكتيكية . وكانت المظاهر الاستراتيجية مقترنة بالهجوم نفســه . واكثر الاعتبارات الحيوية كانت المحافظة على القوة الدافعــة . وبعد استثمار المفاجأة التكتيكية الى اعلى درجة ، يمكن الحصول على المفاجأة الاستراتيجيـة اذ ان العدو يكون عرضة للعديد من الهجمات المجهولة التي تقطع مواصلاتـه وتصدع هجماته المعاكسة قبل قيامها . وفي أي وقت يحرك فيه احتياطيـة فسيصل هذا الاحتياطي متأخرا للحيلولة دون انهيار المقاومة . الا ان الشرط الاساسي لاتمام هذا الاثر الصاعق هو المحافظة على السرعة . فان سيـلاً من الدبابات يجب ان يتدفق عبر الثغرة بسرعة كلية لكي يحول دون أن يصبح راس حربة الهجوم ضعيفا اثناء تقدمه السريع خلالها للنفاذ الى الجهة القابلة والامتداد . ويجب ان تجمع دبابات كافية في انبداية لتأمين المخزون . وفي سبيل الخرق الاستراتيجي مئات الاميال لاتجنى فائدة من تجميع بضع فرق ماعدا اذا كان ذلك ضد اضعف الاعداء . وينبغي ان تبقى تحت الطلب جميع جيوش الدبابات . وعلى القادة الا ينتظروا الاوامر . بل يجب ان يطلعوا على الهدف العام ويترك لهم لبلوغه اختيار افضل طريقة مستقلة ومرنة ممكنــة . ويجب الا يقف الاندفاع ابدا . وعلى الهجوم ان يدور حول المقاومة او ان يندفع الى الامام عبر نقطة ضعيفة . وعند اتمام سير الارتال يجب زيادة السرعـة كلما اصبحت جبهة الهجوم اضيق . ويجب ان يستمر السيل بالتدفق مـن البداية الى النهاية بسير سريع .

ويجب ان يتحرك الهجوم في الليل كما في النهار . ويقتضي ان تؤمن المؤن لعدة أيام من العمليات وتسير مع السيل كجزء لايتجزأ منه وينبغي ان يكـون لدى القادة ذلك الشعور الذي يمكنهم من اكتشاف الوقت الذي تشتد فيه المقاومة ، كي يلجأوا باستمرار الى تنفيذ التقرب غير المباشر قبل ان يضطـروا الى ابطاء سرعة الهجوم .

وفي عامي ١٩٣١ و ١٩٣٢ كان غودريان في المرحلة الصحيحة من التطـور كي يستوعب هذه الافكار وانطلق محولا اياها الى عمل واقعي . وكانت هــذه

نظريات توريه ، ولا يمكن أن توضع موضع التنفيذ ، كما تحقق غودريان ، مالم تكن الدبابات مفصولة عن المشاة المترجلة . ويمكن الحصول على أحسن نتيجة فقط اذا كانت الدبابات مفصولة عن المشاة المترجلة . ويمكن الحصول على احسن نتيجة فقط اذا كانت الدبابات مصحوبة بوحدات معززة لها يمكنها ان تساويها في السير عبر مختلف الاراضي وفي السرعة . ويجب تشكيل فرق دبابات خاصة تحتوي على وحدات مشاة ، ومدفعية ، ومهندسين ، واشارة وتكون متحركة تحركا كاملا . وكان هذا هو المستوى الذي قرر غودريان ان يكون عمله فيه خلق فرق البانزر ، وهي القوة المقبلة للجيش الالماني .

وكانت جميع هذه التطورات الكبرى لاسترجاع قوة الهجوم مصحوبة بمحاولات لتحسين الدفاع . واما عقيدة الدفاع التأخيري فقد عبر عنها الجنرال « بيك » في وقت مبكر من عام ١٩٢٠ وأصبحت راسخة الاركان . وفي حين ان النظرية مكنت المدافعين من الصمود في وجه هجوم اقوى من نسبة الدفاع ، كانت العقيدة خرقاء وخطرة في أيدي غير الخبراء .

وزالت من التطبيق خلال عام ١٩٣٤ . وكانت بداية الثلاثينات بالنسبة للجنرال بيك سنوات مليئة بالعمل . وكان منذ عام ١٩٣٠ — ١٩٣٢ مشغولا بأعظم مؤلفاته :

« قيادة القطعات » ، الذي أصبح خلفا لكتاب هيرغوت : **« قيادة وقتال »** ويشكل أحد الكتب الكلاسيكية العظيمة من المؤلفات الالمانية العسكرية .

وحدثت مشادة بشأن طبيعة خطوط الدفاع والمواقع المحصنة . فان احدى المدارس اقترحت نموذجا كثيفا لانشاءات « خط ماجينو » وكان رخيصا من حيث الطاقة البشرية الا أنه مكلف بصورة هائلة . وصعب الانشاء وينقصه اي شكل من أشكال الدفاع في العمق . وكان الاقتراح المعاكس طريقة « المجرة » المؤلفة من معاقل صغيرة يدعم بعضها البعض الآخر بالتبادل وبعمق كبير . وقد نجحت الفكرة الاولى ، الا انه عندما حان الوقت لبناء « خط سيغفريد » ، كان الراي العام قد تراجع ، وصرف رئيس أركان ادارة التحصينات من الخدمة .

وقد اصبح واضحا في ذلك الحين ان التقرب « بالتصفيح الرقيق والصلب » ادنى كثيرا من العمق الذي توقره طريقة «المحرة » .

وكانت المنطقة العسكرية الاولى في شرق بروسيا احد المراكز الرئيسية للنشاط . فلقد كانت شرقي بروسيا في مركز معرض للخطر بسبب انشاء « الممر البولوني » وخطط بلودسكي من اجل حرب وقائية قبل ان تستعيد المانيا قوتها .

ونتيجة لذلك كان الاتجاه نحو تجميع الرجال الهامين في المنطقة العسكرية الاولى . ومن عام ١٩٢٩ الى عام ١٩٣٢ كان الجنرال « بلومبرغ » (الذي أصبح فيما بعد وزيرا للحربية) القائد العام ، و « اوبرست فون ريشنو » رئيسا للاركان . وكان هذان الرجلان صاحبي ذهنية مغامرة يتطلعان دائما الى الافكار الجديدة ويقومان بتجاربها الخاصة . وكان كل منهما مدركا للجو الخارجي.

وكانا يتكلمان الانكليزية بطلاقة ويقرآن بتوسع في مؤلفات المدرسة البريطانية . وكذلك فقد أنشأ ادارة ترجمة وتوزيع وضعت في حالة عمل دائب عندما ذهب كلاهما الى وزارة الحربية بعد تسلم هتلر للسلطة . وقد بلغ التدريب القصير المدى للمتطوعين ذروة بالغة حتى ان المجيدين قد استطاعوا اتقان اطلاق النار بمدافع الميدان خلال ثلاثة أسابيع . وكانت المدفعية الثقيلة أحد الاسلحة الممنوعة في المانيا ، لذلك . اين يجب ان تكون مدرسة المدفعية الثقيلة السرية ان لم تكن في كونفيرغ ؟ كذلك فقد كان موجودا في ذلك الوقت في شرقي بروسيا « اويرست ليوتنان » هيزيشي (الذي أصبح فيما بعد الجنرال اوبيرست وقائدا للجيش الرابع في روسيا) ، الذي باشر بتكوين نظرية « المدى بهدف الاتصال عنوة » التي كان عليه ان يطبقها في « اورشا » عام ١٩٤٣ ، حيث صمد لهجمات ثلاثين فرقة روسية على جبهة تحتوي على ثلاث فرق المانيا ونصف أثناء خمس معارك متتابعة . وعندما تم تطوير طرائق هنريشي في أوائل الاربعينات تطويرا كاملا تطلبت نسبة الهجوم ستة او سبعة الى واحد، في حين انه اعتياديا كان يتطلب لنفسه نسبة أحد عشر الى واحد .

وفي عام ١٩٣١ سلم غودريان قيادة أولى وحداته المدرعة — وهي كتيبة مؤلفة من وحدة استطلاع ، وسرية من الدبابات الزائفة ، وسرية من المدافع

المضادة للدبابات المزيفة . وكانت تلك بداية متواضعة ، الا أن كل ذلك كان بالنسبة لـ غودريان يشكل مجموعة من أحجار البناء مسلمة لصبي ذكي . وفي الربيع ، استبدل بالجنرال ميجر « اوتوفون سنولناجيل » مفتش الوحـدات الآلية ، الجنرال ماجور « لوتز » .

ان قيادة غودريان القوية وألمعيته خلال تلك الحقبة تجلبان النظر ، وكذلك حقيقة تقدير جدارته حق قدرها . وهو لم يكن يتمتع بنفوذ شخصي في القيادة العليا ، ولكن يبدو أنها كانت راضية عنه . وقد كسب دائما فرصا ثمينة وكان ينال بنجاح تقدما سريعا في مهنته ، على الرغم من اصطداماته الحادة التي كانت شخصيته الخشنة تسببها له مع رؤسائه .

ولم يكن مجبولا على تضحية توقعاته في سبيل أفكاره وبالعكس . وكان الرجال المسؤولون يعتبرون هذه القرارات بعيدة الاثر كتجارب الدبابات في روسيا ، وتمرينات الدبابات الميدانية ، وتغييرات نظامية في الوحدات الآلية . ولا شك انه كانت هناك نواح كثيرة للتحسين ، كما ظهر في عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٠، ولكن نظرا لكون الاركان العامة الالمانية لم تكن تخطط لامتلاك قوة كاملة قبل عام ١٩٤٤ ، ولبطء تقدم الجيوش الاخرى ، فان الثقة يجب ان تمنح حيثما يكون منحها متوجبا .

واتخذ « لوتز » سريعا غودريان سـاعده الايمن ورئيسـا للاركان في المفتشية . وعمل الاثنان معا لجعل سلاح البانزر سلاحا ذا قوة حاسمـة . وكان أول أهدافهما انشاء فرق البانزر ، ومن ثم فيالقها . وكان عليهما التغلب على مقاومة شديدة من قبل مفتشية الخيالة ، في حين ان المشاة رفضت أن ترى في الدبابات الزائفة الغريبة المصنوعة من « خشب وخيش » سوى أسلاف باهتة سخيفة لسلاح يدعم المشاة . واقنع بعض البارعين مفتشية الخيالة بأن تتنازل عن مهامها الاستطلاعيـة لمصلحـة البانزر . وحاول مفتش جديد أن يستعيد هذه الارض المفقودة باغراق كتائب الاستطلاع من البانزر بضباط صغار من الخيالة ، ولكن غودريان ولوتز استحوذا على اخيلة هؤلاء المتسللين وانقلبت الاحوال راسا على عقب .

وقد استخدمت نتائج اختبارات الميدان ، في « قازان » لتخطيط الدبابة التي ستكون قادرة على القيام بالضربة الحاسمة ـ أي فتح الثغرة والخرق الاستراتيجي . ولم يقلق غودريان لقضية الوقت ولكنه صمم ماكان يعرف انه بحاجة اليه .

وكان صاحب حظ لكونه قد تحرر من المخزون الكبير للتجهيزات المهملة التي أعاقت جيوشا اخرى . وكان مطلبه نوعين من نماذج الدبابات : خفيفة ومتوسطة . ويجب ان تحمل الاثنتان مدفعا مصفحا خارقا ، ورشاشات ، واتصالات لاسلكيه وسرعة بمقدار خمسة وعشرين ميلا بالساعة . وقد قامت مشاكل متعددة مع مصلحة المعدات الحربية من أجل تجهيز الدبابة بمدافع كبيرة . وكان يجب ايجاد حل وسط .

وهذه الدبابات قد أصبحت فعليا دبابات البانزرز طراز ٣ و ٤ ، ولم تصنع حتى عام ١٩٣٨ و ١٩٣٩ على التوالي . ومن اجل حملة بولونيا كان لدى الجيش كتيبة واحدة منها . وكانت هي التي شكلت معظم السلاح المدرع الالماني طوال معظم مدة الحرب ، لان النماذج الاحدث وهي البانزر ، والتايغر ، لم تظهرا في المعركة بكميات محسوسة قبل عام ١٩٤٣ .

وكان واضحا ان الحاجة تدعو الى فترة تريث من أجل أغراض التدريب اذ لم يكن هناك أحد يعلم متى ستظهر الدبابة المناسبة . وطبقا لذلك صممت دبابة صغيرة تزن خمسة أطنان على أساس انها يمكن ان تبنى على هيكل دبابة كاردن ـ لويد البريطانية . وكانت هذه الدبابة الصغيرة مسلحة برشاشين وتسير بسرعة اثني عشر ميلا في الساعة . وكان على كروب أن يصنعها ، ولكن صعوبات الانتاج هددت بتأخير ظهورها الى مابعد ١٩٣٤ . وهي السنة التي كان مرغوبا في ظهورها فيها . وأما النموذج الثاني المتأخر صنعه فقد صمم لحمل مدفع من عيار عشرين مليمترا ورشاش .

وكانت زنته (٨ ـ ٩) أطنان وقام بصنعه معمل « ماشينفابريك » في اوغسبورغ ـ نورمبرغ أ.ج. وهكذا ظهرت البانزر رقم (١ و ٢) . ولم يتحقق

منشئوها كثيرا من أنهم سيذهبون بهما الى الحرب خلف تصفيح تصل سماكته الى (١٥) مليمترا من صفائح الفولاذ كأقصى حد .

وعلى غرار كل شيء في المانيا ، فقد تأثرت فكرة البانزر تأثرا كبيرا بتسلم هتلر مقاليد السلطة . والى جانب حصوله على مثل هؤلاء الرجال من أصحاب البصيرة كالجنرال « فون بلومبرغ » ، والجنرال « فون ريشنو » في المراكز الحساسة في وزارة حرب الريخ ، فان الرئيس الجديد نفسه كان مهتما بالحرب الآلية . وقد شاهد عرض غودريان لعربات الاستكشاف من طراز بانزر رقم(١)، ووحدات الدراجات النارية ، والمدافع المضادة للدبابات ، وأصبح متحمسا . وهذا ما أعطى غودريان تأكيدا بأن رأس الحكومة كان له اذن صاغية محبذة .

وكل ماكان عليه عمله هو ان يكون قادرا على شق طريقه عبر الادغال التي كانت تكتنف الفوهرر. ومع ذلك،فان هتلر كان حتى منذ البداية مباركا ومشجعا للبانزر . وسبب موقفه من روسيا اغلاق كل المنشآت العسكرية الالمانية هناك، وبذلك تهددت سرية التدريب الالماني المدرع .

وفي خريف ١٩٣٣ حدث أول اختبار لطريقة زيادة الجيش الى ثلاثة أضعاف كما كان مخططا ابان ادارة « سيخت » في أوائل العشرينات . وقد وسعت كتيبة المشاة رقم ٣ من الفوج التاسع (بروسي) الى حجم فوج وأجرت تمارين ضد الكتيبتين الاخريين من الفوج التاسع تحت امرة الجنرال ميجر « فون ويكس » في سباندو . وكانت النتائج جيدة بصورة مدهشة . واقنعت مناورات ١٩٣٣ غودريان الى حد أبعد من الاولى بان على الدبابات ان تستخدم كسلاح الجيش الرئيسي وان تجهز بدعامة آلية كاملة . وفي مطلع شباط ١٩٣٤ حل جنرال المدفعية « فريهرفون فريتش » محل جنرال المشاة « فون هامرشتين » كقائد أعلى للجيش . ولم يكن فريتش ذا ذهنية تقنية ولكنه لم يكن معارضا لافكار غودريان . فوجده غودريان على الارجح محافظا ولكن انصافا لفريتش علينا ان نتذكر انه كان ينبغي أن يوازن بين مطالب الجيش بأسره ومطالب غودريان العاجلة والثورية . وكانت هذه القضايا تتعقد غالبا أكثر باخلاص بلومبرغ ، وزير الحربية ، الخانع لهتلر .

وكان الرئيس الجديد للاركان العامة « بيك » رجلا صعب المراس جدا الى درجة لايمكن التعامل معه . وكان مفرطا في محافظته على التقاليد ، ونظرا لمركزه ، فقد كانت خطط غودريان تحال اليه في أغلب الاحيان . ويروي مانشتين ان « بيك » كان يود أحيانا ان يضيف « قليلا من الماء الـى نبيذ غودريان » لتهدئته . وان غودريان ولا شك لم يكن يرى الامور على هذا الضوء وينظر الى بيك بوصفه « مركزا للرجعية تماما في وسط الجيش » .

ولم ينوه « بيك » في كل كتاباته بأنه قبض حقيقة علـى جوهر الحرب المدرعة ، ولكن ادارة تمريناته توحي بأنه كان متعاطفا مع انشاء البانزر . وفي تمرين الاركان العامة في شهر أيار ١٩٣٥ في « باد إيلستر » ، قبل خمسة أشهر من تشكيل أولى فرق البانزر ، تمت دراسة استخدام فيالق البانزر بكاملها. وفي التمرينات التالية عام ١٩٣٦ في « باد نوهايم » ، درســت عمليات تتضمن استخدام جيوش البانزر .

وفي تشرين الاول ١٩٣٤ ، بدىء بتوسيع الجيش الى ثلاثة أضعافه وهو ماكان منتظرا من مدة طويلة . وقد تشكلت احدى وعشرون فرقة مشاة المعتبرة العمود الفقري مع الغرق الثلاث للخيالة من الجيش القديم التي ظلت كما هي. وكانت أولى الخطى في محاولة تطوير كتلة السلاح المدرع قد اتخذت مع ظهور لواء البانزر الاول .

وكان هذا مشكلا من ثلاثة أفواج ويتألف كل منها من كتيبتين ، وتمركز أحد الافواج في « زوسين » (الفوج رقم ١) ، والآخر من اوهر دروف (الفوج الثاني) ، والثالث في درسدن وكافز (فوج رقم ٣) . وقد جهزت هذه الوحدات تدريجيا بالبانزر رقم (١) عندما اصبحت مستكملة .

وفي عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥ ، كان لواء الدبابات البريطاني الاول تحت قيادة « هوبارت » ، مشغولا باجراء تجارب في فنون الخرق الاستراتيجي العميق. ومن قراءة مقالات ليدل هارت ، اكتشفت غودريان تفصيلات هذه التمارين وقد استفاد منها في مجال تدريبه الخاص لعام ١٩٣٥ عند اجريت في تموز في « مونستر لاجير » أول مناورات لفرقة بانزر كاملة من قبل الجنرال«لوتز».

وهذه الفرقة قد انشئت من عناصر مختلفة ، وبصورة رئيسية ـ الفرقةالثالثة خيالة ولواء البانزر الاول ، وكان يقودها الجنرال « فون فيخ » . وكانتأهداف التمارين لاترمي الى تعليم عناصر الفرقة بقدر ماكانت ترمي للدلالة على ان حركة الكتل الكبيرة من الدبابات والسيطرة عليها في المعركة يمكن القيام بها . وكانت التمارين ناجحة نجاحا باهرا ـ الى درجة ان بعضهم قد أبدى ملاحظة الى « فيخ » بان الدبابات يجب ان توضع تحت تصرف الوزير للرعاية . وكان بلوميرغ ، وفريتش ، وخاصة الاول منهما مقتنعين بان الوقت قد حان لولادة السلاح الجديد بطريقة مناسبة وحاسمة .

النمو (١٩٣٥ ـ ١٩٣٩) :

بتاريخ ١٥ تشرين الاول ١٩٣٥ ، شكلت الفرق الثلاث الاولى الكاملة من البانزرز ، مع ثلاث فرق مشاة اضافية . وقد نظمت فرق البانزر على أساس مبدأ الاندفاع الاستراتيجي . وكانت كل واحدة منها تتألف من لواء بانزر ، ولواء بنادق آلي (او لواء قاذف رمانات) .

كقوة ضاربة رئيسية ، ولاجل الاستطلاع ، كان هناك كتيبة مؤلفة من عربات مصفحة خاصة ودراجات نارية . وكانت وحدات المدفعية ، والمهندسين، والاشارة ، والمضادة للدبابات كلها آلية ، ولكنها كانت قادرة جزئيا فقط على متابعة الدبابات في مختلف الاراضي . وقد تطلبت الاركان العامة كما تطلب ضباط البانزر حرية حركة كاملة لهذه الوحدات ، الا ان الصناعة الالمانية للاسلحة لم يكن لديها قوة كامنة للاندفاع الى ابعد . اذ كانت كتيبة واحدة من المشاة وسرية مهندسين فقط تستطيع الركوب على مركبات نصف مجنزرة .

وكان هذا الوضع غير المرضي سيستمر ، في بعض الحالات ، خلال الحرب . وحتى احسن الفرق تجهيزاً قد وصلت الى مرحلة . فقط كان فيها فوج نانزر بكامله (أي نصف اللواء .) من حملة القنابل اليدوية ، وبعض المدفعية المضادة للطائرات وبعض مدفعية الميدان وقسم من معدات الاشارة ووحدات الدعم الهندسية بعربات نصف مجنزرة . وكان معظم الدبابات الرئيسية من البانزر رقم (١) الصغيرة التي تبرد بواسطة الهواء ، الا ان دبابات البانزر رقم (٢)

الكبيرة والتي تبرد بالماء فقد كانت تدخل في الاستخدام ببطء . وفي البداية ، كان لدى كل لواء ٥٦١ دبابة ، كلها من البانزر رقم (١) .

وكانت فرقة البانزر الثانية تحت قيادة غودريان الذي كان في ذلك الحين لايزال برتبة قائد فوج (اوبرست) . وقد خطا مرحلة أكبر بتفكيره في كيفية معالجة جيوب دفاعية منيعة دون اضعاف حدة اندفاع الهجوم . وهنا طبق مفهوم « ليدل هارت » عن البحرية المدرعة أي هجوم مشاة ، محمول في عربات مصفحة ، يمكن ان يرافق اندفاع الدبابات الرئيسي لمعالجة نقاط دفاعية مزعجة بوجه خاص . وقد أجريت تمارين مطولة تغطي تعاون المشاة والدبابات،بهدف تطوير التكتيك الضروري تطويرا كاملا .

وقد درس الهجوم الليلي وكذلك تناسق الهجمات الجوية مع الدبابات. وكل ذلك كان ينشيء قوة يمكنها ان تحرز ميزة المفاجأة في أي ظرف وتحافظ عليها بسرعة الحركة المدعومة التي يمكنها ان تتجاوز توقعات العدو على الدوام. وان الاستخدام الاستراتيجي للكتل الهائلة من المدرعات قد درس بواسطة تمرينات على الخريطة ، تخطط لاكتشاف حدود مايمكن استخدامه في الميدان لفتح ثغرات على نطاق كبير ومعرفة كيفية توسيع هذه الحدود .

وبمحاولة تطوير مبدأ تحرير الدبابات من تأثير المشاة المعيق ، برزت صعوبات مع بعض ضباط المشاة الذين شعروا بانهم حرموا من السلاح اللازم الذي يدعمهم . وحاول ضباط الاركان في مصلحتي التموين والمعدات صرف النظر عن المفهوم بكامله بوصفه نزوة غير ممكن تطبيقها وأرادوا التركيز على افكار جديدة أخرى ، كمدفع هجوم المشاة الذي وضعه في كتيب ، الجنرال ماجور فون مانشتين ، وكيل رئيس الاركان ورئيس شعبة العمليات . وقد عارض غودريان نفسه هذا المشروع عندما شعر بانه قد يعرقل تطور الدبابات ولكن معارضته لم تؤد الى نتيجة وقد تم تبني أفكار « مانشتين » بكاملها وبرهنت على انها كانت ناجحة نجاحا باهرا أثناء الحرب .

وفي ٢١ ايلول ١٩٣٦ ابتدات في « فوجلزبرغ » أكبر مناورات منذ ١٩١٣ . وكانت تلك تجربة السنة الاولى للجيش الالزامي وقد انشئت الوحدات بعناية

من اجلها . وقام كل آمر منطقة شخصيا بادارة تمارينه صعودا حتى مستوى الفرقــة .

واشترك في ذلك ثمانون ألف جندي . وحارب فيلق مؤلف مــن ثلاث فرق فيلقا آخر مؤلفا من فرقتين . وكان هذا بالدرجة الاولى تمرين مشــاة وبهذا الوصف اتضــح كيف ان المشــاة الالمان لم يتغيروا تغييرا ذا شأن منذ عام ١٩١٨ . وكانت نسب المدفعية للمشاة هي نفسها ، والمدافع والنقل كانا لايزالون تجرهما الخيول. وقد استخدمت كتيبة من الدبابات (١١٢ بانزر رقم ١)، ولكن فقط دعما لهجوم المشاة . وكان من الواضح لو أن الدبابات قامت بهذا الدور لكان قد وقع ضحايا كثيرة من جراء الاسلحة الجديدة المضادة للدبابات. واستنتجت مدرسة الخيالة من ذلك بأن الدبابة عديمة الفائدة كليا .

واكثر مايسترعي الانتباه مــن أشكال المناورات كان استخــدام سرايا استطلاع بمركبات مصفحة ودراجات نارية . وكان من الرائع أيضا السيطرة على النار الجوية ، واستطلاع القيادة ويتضح المستوى الجسدي للجنود من سير كتيبة قطعت واحدا وخمسين ميلا بمدة أربع وثلاثين ســاعة دون ان يتخلف منها رجل واحد .

الا ان الدبابة لم تكن قد اهملت بتخطيط العاملين في الاركان . وعلى أثر امر هتلر ، في الرابع والعشرين من حزيران عام ١٩٣٧ ، بتهيئة هجوم مفاجيء على تشيكوسلوفاكيا تضمنت الخطط الموضوعة استخدام جيش بانزر كامل، الا ان هذا كان شيئا لاتملكه المانيا . واسترعى كتاب ديغول «نحو جيش ممهتن» انتباه القلائل في الجيش الالماني عام ١٩٣٧ . وكان ذلك متأخرا قليلا كي يحدث انطباعا لديهم وحاولوا اعتباره نظريا للغاية . ومع ذلك فقد قريء بتشــوق لاكتشاف ماذا سيعمل الفرنسيون في حال قبولهم لافكار ديغول . ولسوء الحظ لم يحتج الالمان للقلق .

وكان التثقيف لدى القيادة العليا لايزال بعيدا عن ان يكون مثاليــا ، ففي تشرين الاول ١٩٣٧ ، انشيء اللواء البانزر الرابع لتأمين دعم قريب للمشاة . وكان هذا اللواء مؤلفا من فوجي ــ البانزر السابع الثامن ، اللذين كانا قد شكلا

قبل اثني عشر شهرا ووضعا تحت اشراف الفرقتين الاولى والثالثة على الترتيب لتلقي تدريبهما الاولي ، وهكذا كان التحرك ثمرة سياسة بنيت على تفكير طويل مارسته رئاسة الاركان العامة .

وجرت تمارين عام ١٩٣٧ في طقس ممتاز في اواخر ايلول على سهول « ميكلنبورغ » الواسعة المملوءة بالبحيرات . وتناولت هذه التمارين القوى البرية والبحرية والجوية بالتعاون معا . واشترك فيها نحو ٣٠٠٠٠٠ رجل شكلوا جيشين من اربع فرق ومن خمس فرق على التوالي ، قاتلت من اجل احتلال المنطقة بين « ستريليتز » و « شويرين » . وكان جيش « رندستيد الازرق » يمتاز بحيازته فرقة البانزر الثالثة تحت امرته . وفي اليوم الاخير قام بهجوم كثيف على « الجيش الاحمر » ، ملتفا حول الجناح الجنوبي على نحو كان له تأثير هائل على هتلر وموسوليني المشاهدين له . وقد اثار اتساع هدف هذه التمارين افكارا مضطربة في اذهان عدة ضباط افواج . فقد فكروا بأن المنتظر من جماعة المجندين كان اكثر مما ينبغي وبسرعة مبالغ فيها . على انه على الرغم من قدر من السير المضن فقد كان الانضباط سائدا وتعلم المشتركون الشيء الكثير . واما من حيث المدرعات فان كثيرا من التقصير في أساليب التموين والتصليح كان واضحا . وعلى الرغم من التوصيات الجدية من قائد فيلق البانزر ، فان هذا التقصير لم يعالج حتى اصبحت مكشوفة على مرأى من الدعاية العالمية بعد ستة اشهر من ذلك الوقت .

وفي أثناء ذلك ، كانت الدبابات الالمانية الاولى تواجه امتحانا كاملا في الحرب الاهلية الاسبانية . فقد ارسل فوج ونصف من البانزر . الا ان عدد الدبابات كان ١٨٠ دبابة فقط ، بقيادة « أويرست فون توما » . وفيما عدا تكتيك الوحدات الصغرى الفرعية ، لم يكتسب الشيء الكثير من التجارب الاسبانية ، اذ لم يجر استخدام الدبابات باعداد ذات أهمية . وكان على «توما» بصورة مستديمة ان يصمد لميل « فرانكو » الى نشر الدبابات اكثر مما ينبغي . وكانت القوات الجمهورية مجهزة بدبابات روسية ، حوالي الثلاثين دبابة كان قد تم اسرها وفحصها بدقة متناهية واستخدامها من قبل سائقين المان ضد مالكيها السابقين .

وقد اثارت عمليات قوات البانزر الالمانية خلال الاتحاد النمساوي قـدرا كبيرا من النقد وكان البعض منه في محله ولكن يجب ان يتبادر الى الذهن انه خلال ٤٨ ساعة غطت فرقة البانزر الثانية ٤٢٠ ميلا ، في حين ان فرقـة « الوافن س.س ليستاندارت » « أدولف هتلر » غطت ٥٩٨ ميلا دون اقل تحضـير للوقود والمؤونة لتسهيـلات الاصلاح قبل ذلك . وكان الكثير من الفرق قد دعي في تشرين الاول السابق .

وقد سبب الهجوم على النمسا تحويل الانتباه الـى قضيـة البانزر المساعدة في تشكيل فرقتين اخريتين من البانزر ، الرابعة والخامسة ، خـلال الاشهر التالية . ولكن القيادة العليا شعرب بأنها لاتزال غير قادرة ان تـأخذ على عاتقها المغامرة الكبرى بتخصيصها كل الدبابات للقيام بضربة عميقـة ذات اثر مشهدي . وبرز لواء بانزر آخر مستقل ، هو اللواء السادس ، بهدف دعم التشكيـلات ، في حين ان ثلاث فرق جديدة خفيفة قد أضيفت في شهر تشرين الثـاني الى التي كانت قد ادمجت من الجيش النمسوي . وكـانت الفـرق الخفيفة مشكلة من مشاة آلية مع كتيبة دبابات وفوج استطلاع في كل منها . وكان ذلك انعكاسا أبعد لمستوجبات مهنة الخيالة بالاستكشـاف والمناوشة . وتضمن ايضا هزيمة لمبدأ الحشد وزاد في تأجيل اضافة فرق بانزر اخرى . وظهرت الفرق الخفيفـة في حملة بولونيـا اقل قيمة وتـم التخلي عنهـا في عـــام ١٩٤٠ .

وخلال عام ١٩٣٨ ، ظهرت اولى دبابات البانزر رقم (٣) ورقم (٤) . وكانت تلك السنة رسميا « سنة تمارين قليلة » ، مـع تمارين على مستوى الفرق فقط نظرا لان تجربة السنة السابقة دلت على ان التدعيم الاكبر للاسس التي لاغنى عنهـا اصبح ضروريا . وسارت التمارين في مجراها في أواخـر الصيف وبداية الخريف عندمـا ورد أمـر بالتحضير للـدخول الـى اراضي « السوديت » . وحينئذ سارت العملية الى الامام ببطء شديد على الرغـم من انه لم يطلب الشيء الكثير من فرق مشاة وفرق البانزر التي ساهمت فيها . وكانت العملية مثالا مدرسيا للتحضير الكامل . وكانت القوات تزود حـين ارسالها « بكتاب دليل » للعمليات يحتوي من بين امور اخرى على نسخـة

طبق الاصل مفصلة عن كل جسر في المنطقة ، وعى تعليمات من أجل هدمه ، ومعلومات طوبوغرافية ، وتزود وحدات الخيالة بملحق يتضمن جميع عناوين الزرائب الالمانية والتشيكية للذبح او لشراء الخيول الهزيلة ذات العلاقة وارقام هواتفها . وكل وحدة مشتركة حضرت دروسا بعنوان « توقعات النجاح » ، كانت بأساسها تقديرات للموقف . وقد تضمنت دراسة احد الافواج خمسين الف كلمة . وتضمنت الخرائط التي رسمت جميع المراكز التشيكوسلوفاكية مع كل قطعة سلاح نزولا حتى الرشاشات الخفيفة . ومع ذلك كان من المنتظر ان تكون معركة دامية جدا لانه كان على الالمان ان يحاربوا لفتح طريق لهم في الداخل . وكانت امكنة دفاع التشيك ذات مواقع جيدة تحميها احراش وكانت محصنة تحصينا قويا ومعبأة برجال كثيرين .

وفي تشرين الثاني عام ١٩٣٨ أحدثت وظيفة قائد القوات المتحركة . وبطبيعة الحال كان « غودريان » اول المكلفين بها . وكان احداث هذا المركز بناء على فكرة هتلر نفسه واستلمه غودريان بأمر منه . ولمس هتلر الصعوبة التي سيجابهها القائد الجديد بتعامله عن كثب مع القيادة العليا للجيش فأعطى غودريان حق الدخول عليه مباشرة عندما يشعر انه امام قضية لاحل لها . واصبح على عاتق غودريان آنئذ تطوير كل الخيالة المتبقية وتدريبها وكذلك الوحدات الآلية . فباشر عمله بنشاطه المعتاد . وأولى القضايا كانت عدم وجود كراسات تدريبية للبانزر خاصة باللغة الالمانية . وقد تم تقويم ذلك بتشغيله مساعده تشغيلا اضافيا . وأراد هو الآخر ان يعيد تنظيم الخيالة وتجهيزها تجهيزا كاملا مؤلفا الفرق التي يمكن ان تكون اسهل مراسا وادارة ولكنه لم يحرز أي تقدم في هذا المجال . وعلى الرغم من القدر الكبير من الرواج الذي اكتسبته فكرة الحرب الخاطفة كان لايزال هناك قسم ذو اهمية من ردود الفعل واللامبالاة داخل الجيش الالماني كما تنم عليه كتابات كثيرين من ضباط الرتب المتوسطة في تلك الحقبة . الا ان شكوكهم لم تكن لتبقى الى امد أطول .

وقد تمت تجربة المشاكل لدى تموين الدبابات واضحى من الضروري

تخفيض عددها في السرية من اثنتين وثلاثين الى اثنتين وعشرين . وهـذا ما سبب تخفيض عدد الدبابات المتوفرة للقتال . في الفرقة من ٤٣٣ الى ٢٩٩ . وحتى عند مهاجمة فرنسا كان مجموع عدد الدبابات والعربات المصفحة الملحقة بفرق البانزر يبلغ فقط ٢٥٧٤ . ولكن مفعول عقيدة الحرب الخاطفة كان على قدر بالغ حتى انه انجز بموجبه في ستة اسابيع مافشل الجيش الالماني بانجازه في اربع سنوات معتمدا على عضلات الحصان والانسان .

الخـــلاصـــة :

وهكذا فان فن الحرب الخاطفة كان قد تطور وقد أتاحت السنوات الاولى بعد الحرب العالمية الاولى جوا ملائما لاكتشاف الافكار الجديدة وعندما تم الاعتراف بقيمة هذه القدرة طورت هذه الافكار وطبقت . وكان على كل فكرة ان تتنافس مع خصوم ، بينما يتمنى مؤيدوها ان تجتذب انتباه القيادة العليا. وقـد اختصت الحرب الخاطفة بمريدين اكدوا ان التقنية لم تمس بمنافسيها. ويحتمـل ان القيادة العليـا قد ادركت قوتهـا وتحول تطويرها الى مسـيرة سريعـة متصاعدة .

وتتشكل عناصر هذه القصة من ثلاثة اشياء : الفكرة ، والرجل ، والبيئة. والبيئة هي تلك العمل المضني والتطبيق الذكي الذي كان خلال العصور أهـم ميزة رائعة يتصف بها الجيش الالماني . الا انه ، بينما ساهم ذلك في نجاح هذا الجيش ، فانه لم يكن قويا بالقدر الكافي للوقوف في وجه تأثير هتلر المدمر .

أما الرجل فقد كتب « الفيلد مارشال مانشتين » عنه :

على العموم ان في اعادة انشاء الجيش وادخال الاسلحة التي كانت ممنوعة سابقا حتى ذلك التاريخ ، برزت قضية سلاح البانزر الى المقام الاول ... ولا يمكن لاحد ممن كانوا يألفون هـذا الموضوع ان ينكر ان الجيش الالماني لم يكن ليملـك سلاح البانزر دون دأب غودريان ومزاجه المكافح .

أما بالنسبة للفكرة فان كلمات غودريان نفسه بليغة بلاغة كافية :

لقد كانت بشكل رئيسي مؤلفات الرجال الانكليز ومقالاتهم كفوللر ، وليدل

هارت ، ومارتل ، هي التي أثارت اهتمامي وزودتني بالغذاء للتفكير . ان هؤلاء العسكريين الموهوبين كانوا حتى آنئذ يحاولون ان يجعلوا من الدبابة شيئـا اكثر من سلاح دعم فقط للمشاة فقد نظروا اليه مع علاقته بالتجهيز الآلـي النامي الـذي هو سمة عصرنا وبذلك اصبحوا رواد نموذج جـديد للحرب على اوسع مدى .

انني تعلمت منهم حشد المدرعات ، كما استخدمت في معركة « كامبريه ». واكثر من ذلك كان ليدل هارت هو الذي وسع استخـدام القوات المدرعـة لضربات بعيدة المدى مفاجئة ولعمليات ضد مواصلات الجيوش المقابلة ، وهـو ايضا الذي اقترح نموذجا من فرقة بانزر مدرعة مختلطة تضم وحدات بانزر ومشاة . وقد تأثرت بعمق بهذه الافكار فسعيت الى تطويرها على نحو تطبيقي بالنسبة لجيشنا . وهكذا فانني مدين بالعديد من الايحاءات لتوسيع تطورنا الى الكابتن ليدل هارت .

ولحض ذلك ، بكرم متميز ، في اعترافه في معجم اندر غروس بروكسوس: « ليدل هارت ــ موجد نظرية ادارة الحرب الميكانيكية » .

* * *

- ٨ -

ليـــدل هــارت

والجيش البريطانـــي

١٩١٩ – ١٩٣٩

بقلم الجنرال السير فريدريك بايل

ولد الجنرال السير فريدريك بايل الحائز على شهـادات عـام ١٨٨٤ وكان ضابطا في المدفعية الملكية في عام ١٩٠٤ . وخدم خلال الحرب العالميـة الاولى واصبح مساعد مدير المكننة في وزارة الحرب من عام ١٩٢٨ الى عـام ١٩٣٢ ، وذهب بعـد ذلك الى مصر لقيادة « لواء القناة » من عام ١٩٣٢ الى ١٩٣٦ . وفي عام ١٩٣٧ وضع في قيادة أول فرقة مضادة للطائرات في الجيش البري ، وفي عام ١٩٣٩ اصبح ضابطا جنرالا قائدا عاما في القيـادة المضادة للطائرات . وبهذه الكفاءة اصبح مسؤولا عن الدفاع عن بريطانيا العظمى ضـد الغارات الجوية خـلال الحرب العالمية الثانية ـ وهي مهمة كان قد وصفها في قصة حياته بخط يده .

ان اول اجتماع لي بالكابتين ب.هـ. ليدل هارت كان أثناء مناورات سهل ساليزبوري عام ١٩٢٧ وكنت قد شاهدته بمناسبات أخرى عديدة لكن هذه المرة كانت الفرصة الاولى التي تحدثنا فيها مليا وبصراحة . وكنت آنئذ قائدا لمـا كان معروفا « بالمجموعة الخفيفة » . وكانت على الاصح قوة مختلطة قوامها عربات مصفحـة ودبابات خفيفة من طراز « كاردن لويد » . وكانت أوامري تقضي بالتقدم نحو خط معين والتمسك به وتعزيزه . ولم اعتقد قط انه يمكن ان يكون التعزيز عمليا بالعربات المصفحة ، وبهذه المناسبة عندما اقتربت مـن الخط المفروض انني سأعززه لم اجد أي عدو في أي مكان يمكن رؤيته . وبعثت بواسطة عرباتي المصفحة من يرى فيما اذا كانت هنـاك ايـة اشارة منهم وعندمـا عادوا توصلت الى نتيجة هي « كلما اسرعت بالذهاب مرة اخرى يكون ذلك أفضـل » .

وهكذا فقد تقدمت في الاتجاه الذي كان العدو آتيا منه . وفي تلك الحالـة تمت ملاقاة قوة العدو على الطريق البعيدة عن سهل سالزبوري وهـذا مـا اوقف تماما المناورات وادى الى اقرار عدم الاستمرار بها . فعدت حينئـذ الى موعدي في السهل وهناك كان الكابتن ليدل هارت يقود عربته . وسـألني عمـا حدث وماذا كنت عازما ان افعل . وتناقشنا في الحرب المدرعة وتمسك كما تمسكت انا الآخر بأنه لمن الجنون محاولة التعزيز بعربات مصفحة ، اذ من

المتوجب التريث عن الاستمرار الى ان يصادف انعدو وحينئذ يجب ان يكون هناك شكل ما من المشاة الآلية من الخلف لتستولى على المواقع .

وكانت تلك اولى المحادثات التي جرت مع الكابتن « ليدل هارت » عن الحرب المدرعــة واود ان اقول الآن في مطلع هذا المقال ، بأنه اثر علي تأثيرا كبيرا جدا . ولم تبد افكاره واقعية فقط ولكنها كانت صائبة جدا ، وكان دائما يعرض امامي أفكارا جديدة كنت أشعر في ذلك الوقت انها كانت صعبة القبول ولكن بعدما اجلس وافكر بهــا اجد هناك كل أمكانية لان تكلل بالنجــاح ، وكمــا برهن لنا التاريــخ في ذلــك الوقت ثــم فيما بعــد ، بأن تلك الافكار كانت صائبــة .

وحصلت نتيجة من مهاجمة العدو من سهل سالزبوري . ففي المؤتمر الذي اقيم في اليوم التالي قال الجنرال « السيرجون بنيث ستوارت » الــذي كان مسؤولا عن المناورات : « انني اعرف ان كثيرين منكم لــن يستبسيغوا التكتيك الذي رايتم تطبيقه من قبل « المجموعة الخفيفة » في تلك المناورات . وستعتبرونه مخاطرة . ولكنني اؤكد لكم ان هذه الامور في الحرب المدرعــة ستوضع في التجربة ، ولعلها قد تتوقف الا انه سيكون هناك دائما انــاس سيجربون سلاحهم على هذا الشكل وعليكم ان تكونوا مستعدين للقائهم عندما يفعلون ذلك » . وكان من حسن حظ بريطانيا ان « السير بيرنت ستيوارت » . كان مكلفا بهذه المناورات ذات الصفة الخاصة . وبعد سنوات قليلة فيما بعد ، كمــا سنرى ، كان قائدا في مصــر عندمــا كــان الليوتنان كولونيــل ب.ل « مونتغوميري » (فيما بعد الفيلد مارشال فيكونت مونتغوميري بطل العلمين . يقود الكتيبة الاولى من « فوج ووروبكشايار » . وكان مونتغوميري رجــل مشــاة نموذجي وكان التأثير لمثل ذلــك القائد ذي التفكير التقدمي عظيما جدا .

وأتاحت السنوات بين الحروب الوقت للتفكير المتطرف . وكانت الاركان العامة لم تقبل الدبابات كقوة رئيسية في ساحة المعركة ، وعلى الرغم من الكارثة التي حلت بالخيالة في « آراس » كان هناك قسم كبير من الراي العام يتمسك

بأن الخيالة مازالت السلاح المثالي لفتح ثغرة وبأن المشاة هم ملوك ميـدان المعركة . ويجب استخدام كل مصدر لمساندة هذين السلاحين . وزيادة على ذلـك ، كانت الدبابات للكثيرين من هؤلاء الناس لغزا . وكان مدير المكننـة في ذلك الوقت الميجر جنرال س.سي . « بيك » ، قد اصبح مشبعا بفكرة المركبات الآلية السريعة . واوصى على ثلاثة دبابات من معامل « فيكرز » زنة ستة عشر طنا وكان لهذه الدبابات سرعة مذهلة ـ مايقرب من خمسة وعشرين ميـلا في الساعة على ارض جيدة . وكانت مصفحة تصفيحا خفيفا وتحمل مدفعا يطلق قذيفة زنتها ثلاثة ارطال انكليزية . ومع ان هذا السلاح ، كـان خطوة كبرى الى الامام ، الا أنه كان ملائما فقط للوقوف في وجه دبابة مماثلة. وكان غير صالح للنفاذ من خلال كثافة التصفيح الذي كانت الدبابات المقبلة ستتصف به بكل تأكيد .

وبالاضافة الى ذلك ، فان السير « جون كارون » قد أثر على مديـر المكننة بأفكاره عن دبابة خفيفة وسريعة تحمل رشاشا وطاقمـا مؤلفا مـن شخصين . وكانت هذه الآلية تصنع في معمل صغير في « شيرتزي » وفي اثناء العمل تطورت الى الدبابة الخفيفة التي كانت مستخدمة في الحرب . ولسـوء الحظ ، قتل « كارون » في حادث طائرة ، وكان من الممكن ان ينتج شيئـا مذهلا بالنسبة للدبابات المتوسطـة . وقبل وفاته كان يقوم بدراسة سريعـة ذات زنة اكبر . وقد اصبح « كارون » صديقا حميما لي وفي مناسبات عديدة اطلعني كم كان ليدل هارت مصدر ايحاء له . كما افضى بأنه « مهما ـان تفكير الاركان العامة فان السرعة والتصفيح كما يتراءيان لـ ليدل هارت يجب ان يكونا السلاح الارضي البارز في الحرب المقبلة » .

ولكننا كنا لانزال في العشرينات ولن تحدث حرب ونحن احيـاء . وقـد كان المال قليلا ، والبحث في المركبات القاتلة المصفحة يتطلب مالا ، وكـانت قوة الطيران الملكية ترفع صوتها لتأخذ مكانا لها في ذلك المعترك . وهكذا تـرك لـ ليدل هارت ، الذي كان في غالب الاحيان وحيدا بين مؤرخي الحروب والمعلقين العسكريين ، الامر لكي يبشر بحرب من نوع جديد هي الحرب المدرعة . ولكنه لم يصبح مقربا الى الاركان العامة بدفاعه عن هذه الافكار ، الا ان التـاريخ

والجنرال غودريان الالماني الذي قرأ كل كلمـة كتبها « ليدل هارت » وتشبع فيها ، برهنا في عام ١٩٤٠ كم كان مصيبا . ولا حاجة لان نسهب في ذكـر الحرب الخاطفة الرائعة عـام ١٩٤٠ ، التي انتهت باعادة ابحار الجيش البريطاني من دانكرك اضطراريا واستسلام فرنسا لكي نبرهن على ان غودريان قد حفظ الدرس الذي لقنه اياه ليدل هارت .

وبعـد عام ١٩٣٢ تحركت الاركان العامة تحركا تجاوز اية فكرة عن دبابات تعمـل مستقلة . وحدت دبابة ذات تصفيح سميك مجهزة فقط برشـاش . وقد عرض خبير بالمشاة رايه بأن الدبابة يجب الا تكون قادرة على السـير اسرع من المشاة ، والفكرة تقوم على ان السلاحين يجب ان يتقدما جنبا الـى جنب لمهاجمة العدو . وعمليا سارت هذه الدبابة عندما تم صنعهـا بسرعـة من ثمانية الى عشرة اميال في الساعة ولكنها كانت تحمل فقط مدفعا بقذيفـة تزن رطلين انكليزيين . وكانت كما ينبغي مصفحة تصفيحا اثقل ولكنها ولا شك كانت غير ملائمة . فهي لم تكن مصفحة تصفيحا كافيا لمقاومة المدفع مـن عيـار ٨٨ مليمترا الذي كان الالمان قد حضروه ليعمل ضدها ، وهي لـم تكن مجهزة بمدفع قادر على خرق التصفيح الالماني ، وكانت سرعتها لاتمكنها من ان تكمل دور الخرق الذي كانت الخيالة في اوجها لايبزها فيه احد . على اننا اذا اخذنا بوجهه نظر الاركان العامة في ذلك الحين . فانها كانت ذات نفع . اذ ان نظريات ليدل هارت بالنسبة لحرب الدبابة قد توقعت دبابة تحدث خرقا وقد وجـدت دبابة لاتستطيع حقـا ان تتحمل هذا الدور . وهكـذا بقي الخـرق من اختصاص الخيال ، وبقيت المشاة ملكة ميدان المعركة في حين انها عززت بالقوة الهجومية المضافة من دبابة بطيئة الحركة .

وانه لمن الحكمة عند هذه النقطة ان نعطي وصفا اوفى لرؤيا ليدل هارت للحرب الخاطفـة والخرق العميق الحاسم وفي اثنـاء عرضـه لطريقة « السيل المنتشـر » قـال :

ان قسما من السر يكمن في التركيب التكتيكي للدبابات والطائـرات ، والقسم الآخر في الضربة غير المتوقعة من حيث اتجاهها وزمانهـا . ولكـن

فوق كل شيء لدى الملاحقة للانجاز ـ يكون استثمار الخرق (التغلغل التكتيكي للجبهـة) **حتى التغلغل العميق الاستراتيجي** الذي تقوم به قوات مدرعة مسرعة على راس الجيش الرئيسي **تعمل بصورة مستقلة** .

ان سرعة مثل هذه القوى يؤمل ان تؤدي الى تغلغل عميق **طالما** امكـن الابقاء عليها . ويكون ذلك ممكنا بطريقة تقدم كالسيل او الالتفاف حول المقاومة او اختراقها في نقطة ضعيفة ـ وفي مثل هذه الحالة يضيق سيل الدبابـات عند انصبابه في ثغرة ضيقة وحينئـذ ينتشر ثانية باتساعة السابق .

ان **السرعة المتواصلة** التي يصاحبها **تنـوع** نقطة الاندفاع هو الذي يحطم المقاوم . اذ انه لدى كل مرحلة بعد الثغرة الاولى تحمل مسيرة القوات المصفحة المرنـة **احتمـالات** تهديدات متنوعة في الوقت نفسه . بينمـا يكون التهديـد الذي يتطور آنئذ الى اندفاعة تأخذ مجراها بسرعة كبيرة نحو احتياط العـدو لبلوغ النقطة في الوقت المعين لعرقلة المقاومة هناك قبل ان تنهار . وبالواقع يجب ان يحافظ **على المفاجأتين التكتيكية والاستراتيجيـة معا** منذ نقطة الانطلاق وحتى النهاية . وهذه سرعة عالية « **والتحام غير مباشر** » . في مناطق مؤخـرة العدو ـ حيث تكون اجهزة سيطرته الحيوية وتموينه معرضة للخطر .

كان ذلك هو الوصف الاصلي لطريقة ليدل هارت وهي التي دعاها الالمان « الحرب الخاطفة » وهي التسمية التي كتب عنها الجنرال غودريان مصرحـا بأنه يوافق عليها . وقد لخصها بأنها مزيج من خفة الحركة ، والسرعة ، والتقرب غير المبـاشر .

وقد استنتج ليدل هارت قدرة هذه الطريقة في التغلغل العميق وامكانيتها التطبيقية برفقة القوى الآلية ، بصورة رئيسية من اندفاعات المغول في القـرن الثالث عشر بالاضافة الى تحليل مقارن لمسيرات شيرمان وغارات الاحـراش القاضية على الفعالية لحملات عامي ١٨٦٤ ـ ١٨٦٥ في الحرب الاهليةالاميركية. وقـد وسع نظريته بالتبني الاستراتيجي للسيل التكتيكي التوسعي للهجـوم الذي كان قد اخرجه عام ١٩٢٠ .

وقد طور ليدل هارت ، بالاضافــة لنظرياته المتعلقة بدرجة سرعة جديدة للعملية بالنسبة للدبابة وبتقنية جديــدة للاستثمار ، استخدام الظلام خاصــة باللجوء الى العمل الليلي ، وهو تطور لعب مؤخرا دوره في المعارك الكبرى في الصحراء الغربية . وقد طور ايضا استخدام المشاة المدرعة العاملة بمصاحبة الدبابات ، واخيرا ، انه كان المسؤول اكثر من أي شخص آخر عن تطويــر البحث العمليــاتي .

ويشير غودريان في مذكراته الى تأثير ليدل هارت على تفكيره ويذكر كم كان متأثرا بعمق بأفكاره . والامر الذي لاحظه بصورة رئيسية هو ان ليــدل هارت قد وسع استخدام القوات المدرعة لضربات بعيدة المدى ، والعمليات الحربية ضد مواصلات العدو المقابلة ، وكذلك اقتراحه لفرقة مدرعة مــن نموذج يحتوي على دبابات بانزرز ووحدات مشاة آلية .

ومن المفيد التوقف لحظة لنرى بماذا كان ليدل هارت يفكر في ذلــك الحين (١٩٢٢ ــ ١٩٢٤) ، فهو قبل كل شيء تصور الفرقة من النمــوذج الجديد مؤلفة من ثلاثة الوية مختلطة يكون كل منها مؤلفا من كتيبتين مــن دبابات سريعة ، وثلاث كتائب صغيرة من المشاة الميكانيكية المحمولة في ناقــلات مدرعة ، وسرية اشارة ميكانيكية ، وقسم ورشة آلية وثلاث بطاريات ميــدان آليــة وبطارية متوسطة ذاتية الحركة . وتكون احدى كتيبتي الدبابات مجهزة بدبابات ثقيلــة تحمل قذائف زنة ثمانية عشر رطلا انكليزيا او سلاحا معادلا على وجه يكون فيه لدى اللواء قوة هجومية . وتكون الثانية كتيبــة دبابات متوسطة . ويجب ان يكون نموذجا الدبابتين مزودين بسرعة عالية اذا لم تكــن سرعتاهما متماثلتين . وينتظر من هذا اللواء المختلط ان يكون قادرا على العمل باستقلال لاحتوائه على وحدات قتالية ذات اكتفاء ذاتي .

اما الميجر جنرال ج. فسي . فولر وهو مؤيد كبير للافكار الجديدة في الحرب ، في الوقت نفسه الذي ابدى فيه ليدل هارت فكرته عن نموذج جديد للفرقة ، احدث هو الآخر « نموذج فرقة فولر » . وفي كتابه « اصلاح الحرب »، الذي نشر في عام ١٩٢٣ ، رسم صورة تجلب النظر عن الحرب الميكانيكية .

وقد قال « سيكون هناك نوعان من الدبابات : دبابة استطلاع خفيفة سرعتها ٢٥ ميلا في الساعة ودبابة ذات تصفيح اسمك وسرعتها ١٥ ميلا في الساعــة . واضاف انه في المستقبل القريب ستستمر المشاة اذا بقيت ، لتعمــل فقط كشرطي في الدفاع عن موقع ما ، او عن رؤوس الخطوط الحديدية ، او رؤوس الجسور الخ .. وستصبح المدفعية ذات اهمية مزدوجة وبما ان السرعـة ستضاف الى هذا السلاح فان المعركة البحرية القديمة بين المدفع والتصفيح ستجد ما يوازيها على البر . واضاف « حينئذ فان دبابة المشاة كما نعرفهــا اليوم ستختفي ويحل محلها السفينة الحربية الارضية المصفحة تصفيحا قويــا والمزودة بالمدافع الثقيلة ــ اي مدفعية المستقبل . وحينئذ سنصبح دبابــة الاستطلاع التي ستعتمد على تصفيح اقل وسرعة اكثر طراد المعركــة » . واعتقد انه على هذين النموذجين سيبنى قتال المستقبل . وفي كتاب آخــر اخرجه في عام ١٩٢٦ ابرز في الفصل الاخير رايه المطول عن الجيش المثــالي الذي سماه « عصر المدفعية » . وان الفرقة الثقيلة ستتضمن لوائي دبابات ولوائي مدفعية ذاتية الحركة وفوج خيالة على الاحصنة . ولن يكون هنــاك وحدات مشاة فيها ولكن يقتضي ان يكون لكل دبابة ثلاثة طواقم اضافيــة ويجب ان يدرب هؤلاء على القتال وكأنهم مشاة . وكل من كتيبتي الدبابات يجب ان تتألف من كتيبة دبابات استطلاع وكتيبة دبابات هجوم ويكون هنــاك كتيبتا دبابات مدمرة بما مجموعه ٣٢٠ دبابة في الفرقة . ويقتضي أن تقــوم الفرقة الخفيفة بدور الخيالة وان تتألف من لوائي دبابات يضم كل منها كتيبة دبابات استطلاع وثلاث كتائب دبابات مدمرة . والفرقة المطاردة يجب ان تتألف من لوائين كل منهما من ثلاث كتائب دبابات مطاردة وكتيبة دبابات مــدمرة بما مجموعه ٢٨٠ دبابة . وقد اضاف بأن المدفع المقبل قد يكون من عيار صغير نسبيا مع سرعــة عالية ودقة في الرمي . « وبــرايي » ، كما اضاف ، « يحتمل تطوير نموذجــين رئيسيين . مدفــع متفوق من النوع الموجود من عيار ثلاثة الى خمسة ارطال انكليزيــة ورشاش ثقيل يقصف ½ قذيفة الى قذيفــة واحدة في الثانيــة » .

ويبدو لاول وهلة . ان افكار « فولر » ، و « ليدل هارت » متضاربــة

تضاربا اساسيا في ناحية رئيسية . فبينما رأى ليدل هارت استخدام المشاة ضرورة على الرغم من انه وضع لها ترتيبات يتقضي بموجبها اخذها الى ميدان المعركة على نحو تكون فيه محمية . كان فولر رأى انها تفيد فقط التمسك ببعض الامكنة ذات الطابع الخاص .

وفي عام ١٩٢٩ اصدر المكتب الحربي اول كتاب رسمي عن الحرب المدرعة ، وقد سمي باسم متعارف عليه هو « الكتاب التمهيدي الارجواني » . وقد كتبه الكولونيل (فيما بعد السير الليفتنانت جنرال) « شارلز بورد » . وقد ارسى هذا الكتيب التنظيم الاعلى للجيش . قوات متحركة ، وفرق خيالة او الوية وفرق مدرعة خفيفة او الوية ، قوات قتالية ، وفرق مع قوات غير فرقية والوية متوسطة . ويجب ان تتضمن الوية الفرق المدرعة الخفيفة كتيبتين او ثلاث كتائب من الدبابات الخفيفة ، وبطارية مدفعية للدعم القريب ، وبطارية مضادة للطائرات مصفحة . وتتضمن الالوية المدرعة المتوسطة كتيبة دبابات متوسطة وكتيبتي دبابات خفيفة ، وبطاريتي مدفعية للدعم القريب وبطارية مدفعية مضادة للطائرات مصلحة . ومثل هذه الالوية يجب أن تستخدم للتعاون مع فرق المشاة . وقد وضع الكتيب ايضا تعريفا مفصلا لما يتطلبه شكل الدبابات ولكنه اكتفى فقط بتخصيص مدفع صغير للدبابة المتوسطة ولم يوصى بأن يطلب آلية ذات زنة اكبر بصورة محسوسة من الموجودة التي زنتها ثلاثة عشر طنا وهي دبابة الفيكرز .

وفي عام ١٩٣١ صدر كتيب معاد النظر فيه بعنوان **التشكيلات الحديثة** . وقد ورد فيه وجوب تنظيم الجيش في فرق متحركة ، وفرق مشاة . والاولى يجب ان تكون من ثلاثة نماذج : الوية خيالة على الاحصنة ، ولوائي دبابات ولواء مشاة محمولة في مركبات ، والوية دبابات كاملة . اما الوية الدبابات فيجب أن تكون على نموذجين : لواء دبابات خفيفة ولواء دبابات مختلطة . والاخير يجب أن يحتوي على ثلاث كتائب دبابات مختلطة وكتيبة دبابات خفيفة وجماعة خفيفة مضادة للطائرات .

ويبدو من هذه الطبعة المعدلة لعام ١٩٣١ ان الاركان العامة كانت لاتزال

مقتنعة بمكانة الخيول واستخدامها في الحرب . الا ان ليدل هارت قد ابتعد مسافة طويلة عن فكرة فولر كما ابتعد عن فكرة الاركان العامة . فهو لم يستطع أن يتصور حربا تكون فيها خيالة الاحصنة يمكن اقتراحها من الناحية العملية . كما انه لم يساند فولر في فكرته بأن المشاة لايزالون من الممكن اعتبارهم ذوي نفع في ساحة المعركة .

وقد اصبح هذا الاتجاه للخيالة الخفيفة اكثر بروزا عندما قررت وزارة الحربية في عام ١٩٣٥ المضي في مكننة الخيالة مفضلة ذلك على توسيع فيلق الدبابات الملكي . وقد اعيد تخطيط الفرقة الخفيفة بجعلها تتضمن نسق استطلاع يتألف من فوجي عربات مصفحة ، ونسقا محاربا يتألف من لوائي خيالة آلية ولواء دبابات ولوائي جرارات مدفعية . وكان لواء الخيالة الآلية يتضمن فوجين في مركبات خفيفة وواحدا في دبابات خفيفة . الا انه في عام ١٩٣٧ ، بعد ان اصبح « ليسلي هور بيليشا » وزيرا للحربية ، تألفت اخيرا فرقة آلية . وكان هناك تحسين في تركيبها لان كل الخيالة قد حولت الى افواج دبابات خفيفة وتضمنت كتيبتي بنادق آلية . وقد لعب ليدل هارت في اعادة التنظيم هذا دورا رئيسيا . وكان قد أصبح مستشارا لـ هور بيليشيا وكما وصف ذلك بنفسه : « اننا نجحنا في اسقاط اقتراح يصطبغ بصبغة الخيالة وهو فصل لواء الخيالة عن الفرقة مما كان سيجعلنا دون أي شيء سوى الدبابات الخفيفة . وحتى في الحالة الراهنة للفرقة فان سبعة اثمان آلياتها كانت صالحة فقط للاستطلاع . وفي السنة التالية اضطرت الاركان للموافقة على ان الفرقة يجب ان يعاد تكييفها على شكل اصغر الا انه أقوى وان أحد لوائي دبابات الخيالة الخفيفة يجب ان يسحب . الا أنه كان من سوء الحظ ان احدى كتيبتي البنادق الآلية كانت قد سحبت بالتخفيض وهذا كان منافيا لاقتراح ليدل هارث .

وقد مثلت هذه التغييرات لاعوام ١٩٣٧ – ١٩٣٩ انحرافا عن فكرة الخيالة الخفيفة وهي ان مثل هذه الفرق الآلية يجب أن تأخذ فقط دون فرق الخيالة السابقة .

وعندما أعيدت تسمية الفرقة المتحركة بالفرقة المدرعة لتقوية دورها

القتالي ، فقد اتخذ الاتجاه نحو الخيالة بعدا بالغا جدا وقد جاء التحول متأخرا الى درجة انه كان من المستحيل التعويض عن الوقت الضائع قبل الحرب — وبصورة خاصة ان انتاج الدبابات المتوسطة كان ايضا قد ارجيء الى وقت غاية في البعد .

وهنا يمكننا ان نترك لفترة تأثير ليدل هارت الذي كان له على تشكيل فرقة مدرعة وتعود للامور الاخرى التي أوصى بها . ولعل أهم شيء ولئن كان لم يعمل به حتى وقت طويل أثناء الحرب ، كان الجهد لخلق جهاز للبحث العملياتي . واذا عدنا الى الماضي الى عام ١٩٢١ نجد في احدى الاوراق عنوانا بعبارة « نموذج جديد للجيش » ، وكانت احدى النتائج التي توصل اليها هي : « يبدو انه لامناص من انشاء قسم لاجراء بحوث تكتيكية لتعمل بالتعاون الوثيق مع فرع التقنية . وفي الوقت نفسه اننا بحاجة لان نحافظ على تشكيل للتجارب ليجري اختبارا عمليا من أجل تطبيق القوات للتكتيك الجديد والافكار التقنية » . وقد نشرت هذه الورقة في **مجلة الجيش الفصلية** لعام ١٩٢٤ . وقد اجتذبت اهتماما أكبر في الخارج وبصورة خاصة لدى الجيش الالماني .

وعندما أصبح « الفيلد مارشال السير جورج ميلن » رئيسا للاركان العامة في عام ١٩٢٥ ، أعلن عن موافقته بصورة عامة على مبدأ انشاء جهاز للبحث العملياتي . ولكنه شكا من عدم توفر المال لذلك . وهكذا لم يتحقق شيء بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٧ عندما أصبح انسيد « هوربيليشا » وزيرا للحربية واستدعى ليدل هارت للعمل كمستشار شخصي ليخطط برنامجا لتحديث الجيش . وفي ذلك الوقت نفسه اقترح ليدل هارت تعيين مدير للبحث العسكري يعمل تحت امرة الاركان العامة فرحب انسيد «هوربيليشا» بالمشروع ووافق عليه ايضا الجنرال الفيكونت « غورت » الذي كان آنئذ رئيسا للاركان العامة الامبراطورية . ولكن لم يجد أي تطبيق كامل له ،. والواقع انني أرجح الشك في ان اللوردغورت كان محبذا له جدا وكل ما احتمل حدوثه كان قسم صغير لدراسة التطبيق في الحرب الحالية وعبرها . وفي الوقت نفسه اقتضى ان يتم الترابط بين العلماء العاملين في وزارة الحربية بواسطة مدير للبحث العلمي .

ويشكل هذا القرار أول قبول رسمي للاحتياج للابحاث العملياتية والولادة الاولى لجهاز ينشأ لهذه الغاية . وقد خففت آثاره بتخفيض مستواه وبفصل العلماء عنه .

وفي نهاية نيسان ١٩٣٨ وصل الى بريطانيا رئيس الاركان العامة في الهند والمستشار المالي لوزارة الدفاع « السير ارشيبالد رولندز » للمناقشة في تحديث القوات الامبراطورية . وكان السير ب.ج « غريغ » الذي كان حينئذ عضوا ماليا في حكومة الهند قد كتب مقدما قبل مجيئها طالبا وجوب اجتماع ليدل هارت ب رولندز الذي كان امينا خاصا للسر لثلاثة وزراء حربية متعاقبين سابقين للسيد « هوربيليشا » والذي كان أيضا خريج كلية الدفاع الامبراطورية. وبعد اجتماعات متعددة اصبح رولندز مقتنعا قناعة تامة بضرورة وجود مؤسسة للبحث العلمي . وفي الوقت نفسه أصبح الاستاذ « ب.م.س بلاكيت » مهتما بالموضوع كما أرسل الاستاذ « ج.د برنال » الى ليدل هارت مذكرة كان قد نظمها بعد التشاور مع الاستاذ « جوليان هوكسلي » والاستاذ « سولي زوكرمان » بشأن الاستخدامات المكنة للبحث العلمي المتعلق بالاستعداد للحرب . وانه لمن الاهمية بمكان ان هؤلاء الرجال « رولندز » ، و « بلاكيت »، و « برنال » ، و « هوكسلي » ، و « زوكرمان » ــ قد أصبح لهم شأن يذكر في مجهود حرب ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ .

وكان حوالي شباط ١٩٤٠ عندما جاءني « السيرهنري تيزار » في « ستانمور » وكنت آنئذ ضابطا قائدا في القيادة المضادة للطائرات ، وسألني فيما اذا كنت أرغب في مستشار علمي . وكنت واقعا حينئذ في صعوبات كبيرة بشأن الرادار وتدريب الجنود على أفضل استخدام له . وقد خصص لي الاستاذ بلاكيت كأول مستشار علمي ومن مجموعة العلماء التي شكلها كانت فروع البحث العملياتي قد تطورت لتشمل جميع المجالات الاخرى في الجيش. وقد أحدثت في القيادة المضادة للطائرات أيضا ادارة بحوث من الدرجة الاولى. وفي ربيع عام ١٩٤١ تركني بلاكيت للالتحاق بالقيادة الساحلية حيث باشر تطورات مماثلة ، وفي نهاية العام التحق بالاميرالية كمدير للبحث العملياتي البحري .

وقد كانت القوة الجوية الملكية على الدوام متصفة بالذهنية العلمية أكثر من من الجيش . فقد كان لدى وزير الطيران قبل الحرب عالم مع موظفين اكفاء . وقد قامت هذه المصلحة خير قيام بالدور والواجبات التي دافع عنها ليدل هارت بالنسبة للجيش . فقد ابقي على العلماء في جميع القيادات العليا للاركان وفضلا عن ذلك كانت تطلب نصيحتهم ويعمل بها . وفيما عدا القيادة المضادة للطائرات حيث كان العلماء يستخدمون بكثرة في حين أن الجيش في الميدان لم يكن ينظر اليهم النظرة التي يستحقونها . وصحيح أنه كان للجيش الثامن على الارجح عالمه ولكنه لم يكن مطلقا معاملا بالطريقة نفسها التي كانت القيادة الحربية تستخدم بموجبها مثلا علماءها لتحليل النجاح . وفي الوقت نفسه ، يرجع الفضل لنصيحة ليدل هارن وعمله اذ أوجد لدى وزارة الحربية قبل نهاية الحرب ادارة بحث عملياتي ممتازة جدا ، مع أنه من المحتمل أنها ربما كانت أكثر فعالية لو أنها وجدت عام ١٩٣٩ . وليس هناك من شك في أنه بفضل العلماء الممتازين جدا الذين عينوا جرى العديد من الاصلاحات التي كانت الحاجة ماسة اليها .

ومن المفيد القاء نظرة على مقتطفات من دفاعه عن البحث العملياتي الذي حث عليه ليدل هارث قبيل الحرب . فأولا كان هناك موضوع أعمار القادة لمختلف الرتب في مختلف انواع القيادات . وهذا هو البحث الذي دافع عنه في عام ١٩٢٣ وبصورة أتم في عام ١٩٣٧ . وقد بدأ بجني الثمار مع اعادة النظر في حدود السن القصوى التي تقررت في عام ١٩٣٨ ، وبلغت ذروتها خلال الحرب عندما كانت سن القادة متقدمة جدا بالنسبة للعمل الذي كانوا قائمين به . وثانيا فقد اهتم بنسبة تجميع المدفعية المطلوبة للسيطرة على نار الرشاشات المعادية وجعل تقدم المشاة ممكنا على الجبهات المحددة . وثالثا انه أخذ بعين الاعتبار اثر مختلف اشكال الحركة الممكنة وعلاقتها بعنصري الزمان والمكان . وفي ذلك الوقت ثابرت الاركان العامة كما ثابر معظم القادة على تحريك ارتال آلية مغلقة اغلاقا تاما مثل الارتال الزاحفة الى أن اصبحت فوائد نموذج الحركة الاكثر ليونة واضحة للعيان بتحاليل إحصائية . رابعا انه أخذ بعين الاعتبار الاثر النسبي للعمل على خط يهدد أهدافا متعاقبة تقاس مع خط واحد متجه

بوضوح نحو هدف واحد . وقد اوصل هذا التحليل الى توسع هام في نظرية الاستراتيجية . خامسا ان الاثر النسبي للهجوم في ظروف الظلام كان يقارن بالاثر الذي يحدث عندما لايوجد مثل هذا الغطاء .

وهذا ماكان معترفا به في عام ۱۹۳۰ وبلغ مداه الكامل في حرب الصحراء.

وكان هناك مواضيع أكثر عددا جديرة بالاهتمام : كالاثر الاستراتيجي والفني في التفوق بالحركة والنسبة الاكثر ملاءمة بين القوى المتحركة والمشاة في جيش ميداني ، والاثر النسبي لقطع مواصلات العدو قرب قواته أو قاعدته: ونسبة القوات الى المكان واثرها على فرص نجاح الهجوم او الدفاع .

ان ليدل هارث قد يكون أول من سلم بان التحليل لايزال غير كامل الا ان عددا من الجنرالات الالمان القادة قد ضخموا أهميته كثيرا منذ الحرب .

وفي عام ۱۹۳۲ عندما كان الجدل المتعلق بنـوع الدبابـة الاكثر ملاءمة لجيشنا ، وأشد من ذلك ، التساؤل عما اذا كانت الدبابات ستتبع بصـورة كاملة الاسلحة القديمة قد بلغ ذروته ، كنت قد عينت قائدا « للواء القتال » في مصر . وقد بلغني تأثير ليدل هارت بسرعة كلية . وكان لبعض الوقت يكتب عن اهمية الاختفاء في الهجوم – في الليل او بغطاء من الدخان . وكان في مصر في ذلك الزمن قائد عام لامع لم يلبث ان شاع ذكره هو السير « جون بيرنيث ستوارث » . ومن بين جميع الرجال الذين خدمت تحت قيادتهم كان أكثرهم نفاذ بصيرة . فقد أعلن في اول تدريب لنا بأنه علينا ان نحيل الصحراء الـى صديقة لنا وان نحاول تجربة اية خطة ممكنة . وكانت الدبابات ينقصها التموين الا ان الامر كان يتطلب ايجاد طرق أحدث لإستخدام المشاة والخيالة .

ولما كانت قد أصبحت مشبعا اشباعا كليا بافكار ليدل هارث ، ركزت تدريب لوائي بالانسجام معها . وكان الضابط الرئيسي في اللواء الكابتن (وقد أصبح فيما بعد اللفتنانت جنرال السير) « اليكسندر غالووي » . وكان مأخوذا بفكرة المفاجأة خلال الاختفاء التي أوصى بها ليدل هارث . وقد اكتشف غالووي بسرعة انه مع احسن ارادة في العالم ، لا تستطيع وحداتنا الاهتداء الى طريقها في الصحراء ليلا . وكذلك فان القيام بذلك ليس سهلا في النهار مهما كانت

الوسيلة . وهكذا فقد انطلق في تمارين ليلية لقادة الفصائل . وقد تطور ذلك الى تمارين لمجموعات صغيرة من القوات . وأخيرا أصبح منتظرا ان تقــوم الكتائب ليلا بكل تمرين عسكري يمكن اجراؤه نهارا . ولم يكن من السهل اقناع القادة الذين كانوا قد خاضوا حرب ١٩١٤ ــ ١٩١٨ والذين كانوا قد شاهدوا كيف أنه من السهل حتى في وضح النهار ان تصبح الامور غير منتظمة ، ولكن تدريجيا قدر أكثرهم ان الحركة في الليل ممكنة . وظلوا مع ذلك يعتبرون أنها يجب ان تأخذ شكل مسيرة تقرب يتبعها استطلاع نهاري وهجوم في رابعــة النهار . أما الهجوم الليلي نفســه فقد شعروا بانه مخاطرة . وأثناء منــاورات شمالي القاهرة في عام ١٩٣٤ أرسل لواء القنال للاستيلاء على المدينة ، التي كان يدافع عنها لواء القاهرة . وكانت القوتان على بعد سبعة أميال احداهما عن الاخرى . واعطيت الاوامر الى احد الضباط القادة للتقدم بالسرعة الكاملة والهجوم على العدو في الظلام دون اجراء استطلاع مسبق . وكان خط دفاع العدو العام محددا جيدا باستطلاع جوي . وقد قدم الضابط القائد فيما بعد وكان اكثر جميع قوادنا العاملين نجاحا كل عذر يؤدي الى تأخير الهجوم حتى امكان اجراء الاستطلاع النهاري . ولعله كان مقتنعا بأنه اذا كان اللواء بكامله متجمعا ومتحفزا على اقدامه فلا ضرر يمكن ان يحصل حتى ولو كان هجومه باتجاه خاطيء . وهذا الضابط نفسه كتب لي بعد الحرب ليخبرني بأن احداث الصحراء الغربية كانت متأثرة تأثرا كبيرا بهذا التدريب. وتلقيت برقية بالمناسبة « لقد سر جيش القاهرة مع كتيبة كاملة من المشاة » .

وفيما بعد جرى تمرين آخر منير للغاية وضعــه « السيرجون بيرنيت ستوارث » رحت انا ضحيته . فقد أعطى جميع الدبابات والمركبات المصفحة الى خصمي وطلب الي الدفاع عن القاهرة بقدر ما استطيع بواسطة الخيالة وبعض المشاة المحمولين في عربات نقل واذا ما تعرضت لخطر السيطرة علي فيقتضي ان اتحرك خارجا الى اقرب واحة على بعد خمسين ميلا . وكان ليدل هارث دائما يضخم صعوبة حركة الدبابات في برمتقاطع بالاقنية . ولهذا كان « لواء القناة » موزعا خلف عائق مائي مناسب وكانت كل الجسور قد هدمت. وبقينا هناك لمدة يومين الى ان قال « بيرنيت ستيوارث ان المناورات قد انهارت ثم تريث كي يرى ماذا جرى عندما غادرنا الواحة .

وهكذا في ظلمة ليل اليوم الثالث قمت بهجوم جنوني على ميسرة موقع العدو مع مشاتي المحملة بالعربات وفررت من يمين الموقع مع جميع الخيالة. وقطعنا مسيرة خمسين ميلا في تلك الليلة عبر الصحراء الى ملاذ آخر ، التي واحة نستطيع ان نستلقي فيها ، وانتظرنا هناك ان تتبعنا مشاتنا في العربات وان يهاجمنا العدو . ومضى بعض الوقت ؛ وعلى التقريب أربع وعشرون ساعة، قبل أن تدق بابنا مركبات العدو المصفحة فهي لم تلحق بنا حتى بزوغ الفجر . وعندئذ لم يحتاجوا لاكثر من ست ساعات ليأخذوا دباباتهم ويلاحقونا . وللمرة الثانية بدت فكرة ليدل هارت صحيحة تماما . فلا يمكننا المحافظة على مراكز المشاة اذا ماهوجمت بكتل من الدبابات مالم يكن لدينا عائق ما في جبهتنا ولم يكن لدينا شيء من ذلك .

وكان ليدل هارت على الدوام يحث على استخدام قوات المظلات وهنا أيضا لقي معارضة شديدة من قبل رئاسة الاركان . وحتى كان يقال كذلك ان رجالنا لايرغبون في القفز بالمظلات ، الا انه عرف فيما بعد أثناء الحرب ان عدد المتطوعين للواء المظلات كان كبيرا جدا . وفي ذلك الحين كان الروس يجرون تجارب مع قوات المظلات وكانوا قد نجحوا بسهولة في الحصول على نجاح كبير في مناوراتهم . وقد دلل ليدل هارث على انه يقتضي على جيشنا ان يتضمن مثل هذه القوات لكي تحتل مراكز في مؤخرة العدو . وفي ذلك الزمن لم يحصل سوى على نجاح ضئيل ولكن فيما بعد أصبح استخدام قوات المظلات امرا مألوفا .

ولا أظن ان أحدا ماينسى معركة « أرنهايم » التي كانت بكاملها عملية مظليين ، وعلى الرغم من انها من وجهة نظرنا لم تتكلل بالنجاح الذي كان يجب ان تحصل عليه ، فانها اظهرت ماذا يمكن عمله بقوات مظليين مدربين تدريبا حسنا . ولو ان ذلك الهبوط بالمظلات كان قد دعم تدعيما مناسبا بالدبابات السريعة لكانت النتيجة نجاحا باهرا .

ولعل معارك الصحراء هي أحسن عرض لكل أعمال ليدل هارث . فقد كان الجنرال مونتغوميري مدربا على التكتيك والاستراتيجية من النمط القديم.

وبفضل تعاليم ليدل هارث فقد ابتدا برؤية النور وكان استخدامه لساعات الظلمة في بداية معركة العلمين وسائر المعارك بعد العلمين تماما كما علم هارث وفيما بعد استخدم مونتغومري الاضاءة الاصطناعية . وقبل بالمستشارين العلماء واستخدم دباباته لفتح الثغرة وعلى اثرها واصلت مشاته العمل وحينئذ استخدم مرة ثانية الدبابات كرأس حربة لكي يزرع الفوضى على نطاق واسع خلف خطوط العدو .

ان تأثير ليدل هارث على افكار الجيش الالماني معروف جيدا الا ان تأثيره على الجيش البريطاني كان اكبر بما يضاهي عشرة اضعاف . اننا على الدوام كنا مجموعة من شعب شديد المحافظة جدا ، نحن العسكريين النظاميين . ومع ذلك ، مامن ضابط الآن ، كما أنه مامن تدريب في كلية الاركان ، لايوصي باستخدام الهجمات الليلية ، اي استخدام الاخفاء ، والهجوم بطرق غير مباشرة، والاستثمار بعيدا وراء خطوط العدو ، واستخدام العلماء ليرونا طرفا افضل لكسب المعارك . ان كل هذه الامور هي نتيجة مباشرة لتعاليم ليدل هارث .

ولعله يكون من الافضل وصف التغييرات في تكتيك الجيش البريطاني حتى نهاية الحرب كما يلي : اولا وبالدرجة الاولى ، استخدام الدبابات المكثف . ثانيا دعم الدبابات بالمشاة بدلا من العكس . ثالثا الاستغناء الكلي عن خيالة الاحصنة. رابعا التخفي كسلاح رئيسي في الهجوم — وهذا التخفي يكون بالضباب أو الدخان او بالهجوم الليلي . خامسا استخدام الاضاءة الاصطناعية . واخيرا تبؤل العلماء لتحليل نتائجنا وفشلنا . وهذا ليس انجازا يستهان به . لقد كان ليدل هارت في اكثر الاوقات بين الحربين النبي الاوحد .

* * *

العقيدة الاستراتيجية البريطانية

١٩١٨ ـــ ١٩٣٩

بقلـــم

نورمـــان جيبس

ولد نورمان هنري جيبس عام ١٩١٠ ودرس في كلية ماغدالين بجامعة اوكسفورد . وبعد تدريسه سنتين في كلية جامعة لندن اصبح عضوا ثم مدرسا للتاريخ الحديث في كلية ميرتون باوكسفورد عام ١٩٣٦ ثم استاذا في ستيشيل لتاريخ الحرب في عام ١٩٥٣ . واثناء الحرب خدم في فرقة حرس الفرسان الملكية ، وفي عام ١٩٤٥ اصبح عضوا في قسم التاريخ في مكتب مجلس الوزراء . وتتضمن مؤلفاته « اصل لجنة الدفاع الامبراطوري » ، وكان دائما منهمكا في « الاستراتيجية الكبرى » ، المجلد الاول ، ١٩٣٣ — ١٩٣٩ ، وفي تاريخ المملكة المتحدة في الحرب العالمية الثانية .

يجب ان نشير الى نقطتين في مستهل تقييمنا للنظرية الاستراتيجية البريطانية في السنوات ما بين الحربين . اولاهما ان اهتمام الجمهور النشيط ومساهمته في الافصاح عن مثل تلك النظرية كان محدودا اذا ما قورن بالسنوات التالية للحرب . وكان هناك بدون شك بعض الكتاب ممن احدثوا تأثيرا الا ان اهمهم كان ليدل هارت نفسه . وكانت تلك المجموعة صغيرة . وكنتيجة لذلك وهو ما يصح آنئذ اكثر مما يصح اليوم كان اتجاه العقيدة الاستراتيجية ان تبني على آراء الوزراء الذين كانوا يتلقون النصح من رؤساء الاركان . وانه لمن الصعوبة بمكان في وضع البحث التاريخي الحالي معرفة كم من الوزراء كانوا متأثرين بآراء غير رسمية . فان وضوح الكتابات المنشورة والمعتمد عليها حتى الآن يوحي بان التأثير كان محدودا . الا ان هذا الفصل سيركز بصورة رئيسية على الطرح الرسمي للقضايا الاستراتيجية بقدر ما يصبح هذا الطرح عاما . ثانيا ان مثل هذه النظرية الاستراتيجية كما شرحت في تلك الفترة قد تأثرت تأثرا عميقا سواء أكان ذلك بصورة واعية ام لا ، بآراء ابديت حول الحرب العالمية الاولى . واذا ما كان الجمهور باوسعه منقادا بصورة رئيسية بعواطفه برفضه تلك الشدة البالغة فكرة اية حرب خنادق اكثر مما جرى ، فان آخرين دللوا بحجج قوية على ان قتال اعوام ١٩١٤ — ١٩١٨ كان خطأ من وجهة نظر بريطانيا لانها في سياقه قد اقلعت عن استراتيجيتها التقليدية . وقد لخص ليدل هارت في كتابه « الطريقة البريطانية في الحرب » هذه المعالجة قائلا « انني لا اجد اي سبب مقنع لتركنا (استراتيجية تقليدية) اثبتتها ثلاثة عصور من الحروب . ويبدو ان الحكومات ، ولعل ذلك ناجم عن خطأ لم تبن حججها

بصراحة على مثل هذه المعالجة التاريخية . الا انه في منتصف الثلاثينات ، عندما جرى بالتفصيل التخطيط لحرب مقبلة ، رفضت كذلك بشدة الرأي القائل ان بريطانيا اما ان تريد او انه يتوجب عليها ان تقوم بحرب عظمى اخرى برية على البر الاوربي الرئيسي » .

ويسبب ردود الفعل هذه تجاه الحرب العالمية الاولى بوصفها خيانة للاستراتيجية البريطانية التقليدية وآثار هذه الردود على تكوين الآراء بعد الحرب ، من المهم محاولة تلخيص الامور الاساسية للاستراتيجية وعلاقتها بظروف القرن العشرين . واذا نظرنا الى الاستراتيجية البريطانية في الزمن الحديث من وجهة النظر القومية فقط (منذ تشكل اوربا في دول قومية ذات سيادة وتوسع هذه الدول في مناطق استعمارية ' نجد أنها كانت تهدف الى السيطرة على البحار . وقد بنيت تلك السيطرة الناجحة على اتحاد عاملين هامين : الابقاء على بحرية قوية مطابقة « لقوتين قياسيتين » ، وانتشار تلك القوة البحرية في مواقع تراقب فيها الطرق البحرية في داخل اوربا وخارجها . وقد اصبح هذا ممكنا بسبب موقع بريطانيا الجغرافي المتاز . وبهذا الانتشار استطاعت البحرية الملكية ان تحمي بريطانيا نفسها من الغزو وتحافظ على تجارة ما وراء البحار وتراقب كذلك استخدام البحار من قبل اعدائها . ونتيجة لكل ذلك وبخاصة اثناء حروب القرن الثامن عشر تم نمو الامبراطورية وتوطدت دعائم بريطانيا كأعظم امة تجارية في العالم .

ولكن اذا نظرنا الى الامور التفصيلية لهذه الاستراتيجية القومية الواسعة فان الصورة تصبح اكثر تعقيدا . هل قادت بريطانيا هذه الاستراتيجية وحيدة ضد أعدائها واذا لم يكن ذلك كيف أدارت الحلف الحربي مع حلفائها ؟ ان اول سؤال يبرز بوضوح مسألة العزلة . واحسن حجة عامة لبريطانيا ضد استراتيجية التحالف ربما كانت تلك التي ادلى بها اللورد سالزبوري عندما قاوم محاولة المانيا اقناع بريطانيا بالانضمام الى التحالف الثلاثي عام ١٩٠١ . فاثناء تلك المفاوضات ابان الكونت هاتزفيلد سفير المانيا في لندن لحكومة صاحب الجلالة خطر البقاء في عزلة في عالم الاحلاف .

لقد تحدث الكونت هاتزفيلد (كتب سالزبوري) عن **عزلتنا** بانها تشكل خطرا جديا لنا **فهل شعرنا يوما ما بهذا الخطر عمليا؟** ولو اننا كنا سقطنا في الحرب الثورية فان سقوطنا ما كان ليعزى لعزلتنا . فقد كان لنا عدة حلفاء ولكنهم ماكانوا لينقذوننا لو ان الامبراطور الفرنسي كان قادرا على السيطرة على القناة. وباستثناء خلال عهده فاننا ما كنا قط في زمن ما في خطر . ومع ذلك انه لمن المستحيل لنا ان نحكم ما اذا كانت « العزلة » المفروض ان نتألم ونحن فيها تحتوي او لاتحتوي ضمنها اي عنصر من عناصر الخطر . ويكون من الحكمة بمكان ان نتعرض لوجائب جديدة واكثر كلفة في سبيل الاحتراس **من خطر ليس لدينا اي سبب تاريخي يدفعنا للايمان بوجوده** .

ويقتني عدم تفسير ملاحظات سالزبوري بتوسع خارج محتواها الخاص. ومع ذلك هناك أسباب تاريخية تدعو لعدم التفكير كثيرا بانه حاليا كان على خطأ كما اعتقد العديد من سابقيه ومن معاصريه بوضوح تام بانه كان كذلك . وقد اتخذت الحكومات البريطانية على مدى عدة اجيال وجهة نظر بان نشوء سلطة ما ارضية على البر الاوربي تنجح في الاخلال بميزان القوة هناك وتستطيع اذا كانت مسيطرة على البلدان المنخفضة ومرافيء القنال ان تكون في وضع تهدد به تجارة بريطانيا في أطراف مناطقها ولربما تهدد أيضا أمن بريطانيا نفسه . وقد كتبت الملكة اليزابيت الاولى : « اذا كانت الامة الاسبانية ستغزو هذه البلاد... ففي ذلك خطر علينا وكذلك على بلداننا وشعبنا. وتبع ذلك قولها وقد كان المقصود هي ووزراءها ، انه كان من الامور الحيوية ان نحول دون دخول القوة الاسبانية العظمى الى مقربة من بلداننا وتمركزها » .

وهذا الباعث قد اثر تأثيرا قويا على سياسة بريطانية الخارجية والدفاعية على الدوام . وقد بدا بطبيعة الحال ان مما لا يمكن تجنبه اذا كان ميزان القوة الاوربي على وجه خاص يؤثر في البلاد المنخفضة ويقتضي ايضا المحافظة عليه . حينئذ على بريطانيا ان تجد حلفاء لمساعدتها في هذا المضمار . والى هذا المدى كان دائما ينظر الى الدفاع عن هذا البلد كجزء من دفاع مشترك . ومن ذلك الحلف الدفاعي الكبير الذي عقده « وليم الثالث » ، و « مالبورو » . ومن ذلك أيضا جهود « بت » الصغير وزملائه وخلفائه لانشاء اربعة احلاف ضد

فرنسا . وفي هذه الاحلاف وغيرها مما يماثلها كان على الطرف البريطاني اذا تكلمنا بوضوح ان يستخدم قواته البحرية ضد السفن والمستعمرات الفرنسية، ويؤمن المال والادوات لتمكين حلفائه من القتال ضد فرنسا في البر . وقـد تضمن هـذا السير قدرا من التخصص الوظيفي الذي كان له قيمتـه بالنسبة لجميع الاطراف الواقفة ضد فرنسا . وفي النهاية حافظ حلفاء بريطانيا عـلى استقلالهم وربحت بريطانيا نفسها امبراطوريـة وأصبحت مركـز التجـاره العالميـة .

وقد اعلنت حكومة الاحرار عام ١٩١٤ الحرب على المانيا وقاتلت الـى جانب بلجيكا وفرنسا وروسيا وبصورة رئيسية تثبيتا للتقليد الطويل بان خلل توازن الدول في اوربا يمكن ان يهدد التفوق البريطاني البحري . وقد تكهـن السير « ادوارد غراي » بهذا الوضع بصراحة تامة عندما خاطب زملاءه ممثلي الدومينيون في اجتماع معزز للجنة الدفاع الامبراطورية في ٢٦ ايار ١٩١١ . فقد قال « ليس هناك اي خطر يؤبه له اذا تورطنا في اي اضطراب كبير في اوربا ما لم يكن هناك دولة او مجموعة دول اوربية تطمح الى انجاز ما ارى تسميته بالسياسة النابوليونية » . فاذا بقيت بريطانيا خارج تلك المسيرة مع مشاهدتها الدول الاخرى تخضع الواحدة تلو الاخرى دون ان تبادر الىمساعدتها فستكون النتيجة حينئذ تجمع اوربي كبير في الخارج تقف فيه بريطانيا موقفا لا صديق لها فيه واستطرد :

« اذا كانت النتيجة كذلك حينئذ سيكون الوضع البحري على النحـو التالي : اذا كنا نود الاحتفاظ بالسيادة البحرية فعلينا ان نقدر احتمال قيام اتحاد ضدنا من الاساطيل في أوربا ليس فقط من دولتين بل من خمس دول . اما والحالة كما ذكرت فان هذا هو السبب الذي يدعوني الى القول ، مع انني لا أعتقد ان هناك أي توقع يمكن للمرء ان يراه بصورة معقولة حاليا ونحن متورطون في اضطراب جدي في اوربا ، انه من الممكن في مثل هذه الظـروف البالغة الحد التي وصفتها ان يطالعنا سؤال ما اذا كان علينا ان نشترك بالقوة في الشؤون الاوربية.واذا قمنا بذلك فسيكون فقط لان القوة البحريةوضرورة الاحتفاظ بسيادة البحر هما السبب الضمني والدافع لتصرفنا » .

وكرر السيد « غراي في خطابه لمجلس العموم في الثالث من آب ١٩١٤ تأكيده بان مصلحة بريطانيا تكمن في المحافظة على ميزان القوى وان الامن ، وكذلك الشرف ، قد تأثر بهما قرار الدفاع عن بلجيكا . وكان ذلك مبدئيا تنكرا لوجهة النظر التي بينها سابقا » « ج. ا. سباندر » من بين وجهات نظر اخرى بان على سياسة بريطانيا ان تكون « دفاعية وسلمية » تتجنب « بقدر المستطاع ... التورط في الخصومات الاوربية » وكان ذلك توكيدا للراي القائل بان تجنب التورطات الاوربية يمكنه ان عاجلا ام اجلا ان يعرض بريطانيا نفسها للخطر . ومسبقا يجب ان يقال هنا ان الحكومات البريطانية ، بين الحروب ، استهدفت في اغلب الاحيان نسيان هذا الوجه للاستراتيجية البريطانية التقليدية .

الا اننا اذا سلمنا بأن عضوية التحالف كانت صورة طبيعية للاستراتيجية البريطانية فسيبقى دائما استخراج ماهو الدور الذي لعبته بريطانيا في استراتيجية الاحلاف ككل . ان بعض الامور واضحة . ففي حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر استنفذت هجمات بريطانيا على الاساطيل الهولندية والفرنسية والاسبانية ، قسطا كبيرا من مجهودها الحربي وكانت لمصلحتها بصورة قوية ، ولكن ليس واضحا فيما اذا كانت تلك الهجمات قد افادت مباشرة أصدقاءها بالمعنى العسكري الضيق . واذا كانت فعلت ذلك فالى أي مدى . ومن الناحية الاخرى كانت قدرة بريطانيا على تمويل حلفائها النابعة من سيادتها للبحار شرطا أساسيا لنجاح التحالف الذي كانت في عداد أعضائه ويضاف — وهذا ما سيناقش بصورة اكثر تفصيلا فيما بعد — ان مساهمة بريطانيا المباشرة في بعض الاحيان في البر اثبتت قيمتها الكبيرة . ومما يؤيد ذلك حياة مالبورو المهنية . واخيرا لقد كان حضور الاسطول البريطاني او اقترابه في بعض الاحيان شرطا هاما لعمل الحلفاء سواء اكان عملا سياسيا ام عسكريا كما حصل في في البحر المتوسط اثناء قيام التحالف الثاني في ١٧٩٨ — ١٧٩٩ .

بالاضافة الى ذلك ليس من السهل كما يبدو التعميم فيما يتعلق بقيمة المساهمة البريطانية ، ولئن كانت سيادتها البحرية كاملة اذ ان اثر الضغط

الاقتصادي الآتي من البحر سواء اكان على لويس الرابع عشر أم على نابليون من الصعب جدا تعيينه بدقة ، وليس على الاقل بسبب عدم وجود نظرية معاصرة مقبولة بصورة عامة تتعلق بالشروط الحقيقية للحرب الاقتصادية . وسيكون من الخطر الاكيد ان ندلل بانه في كلا العهدين انهزمت فرنسا لان قوة بريطانيا البحرية كانت مطبقة بهذه الطريقة الخاصة . وكذلك من الصعب تحديد قيمة مساهمة بريطانيا على البر وظروفها الخاصة في مجهود حلفائها على البر الاوربي . فهل هي ساعدت اكثر بانضمامها الى جيوش حلفائها كما حصل لمدة طويلة في عهد مارلبورو . وفي معركة واترلو ام كان تدخلها اكثر فعالية عندما استخدمت قواها البحرية مختارة اياها للهجوم على اطراف مركز العدو في اصعب مكان واكثره كلفة لهذا الاخير اذا ما قرر الرد ؟ ان الآراء في هذا الموضوع تختلف جدا وهنا ليس مجال تحليل الامثلة الا ان شيئا واحدا واضح . في ذلك الوقت كنا نرى ان على حلفاء بريطانيا ان يهاجموا بطبيعة الحال ارض العدو في معظم حملاتهم . اذ ان مهاجمة المستعمرات والسفن والمناطق البعيدة بغارات بحرية ، هامة الا انها بمفردها غير كافية . ولقد كتب ونستون تشرشل بعد مناقشته هذه المسألة العامة على ضوء احداث حرب الخلافة الاسبانية « ان موارد القوتين البحريتين (هولندا وبريطانيا) بالسفن الكبيرة نسبيا على الرغم من انها تؤمن راحة موانئها وارصفتها فهي لم تكن قط كافية لجعل غزو فرنسا ممكنا باي جيش بحري يحتمل ان يخضع مثل هذه الدولة القوية والمحبة للحرب . ان الغارات والهجمات المضللة من كل الانواع يمكن اعتبارها في محلها الا ان اجدادنا لم يؤمنوا قط بان ضربة كبيرة حاسمة يمكن ان تشن على فرنسا من البحر .

ان اختلاف ظروف الحروب خلال حقبة ٢٠٠ سنة يجعل التعميم العقائدي خطيرا بالنسبة لها الا ان رأي الكاتب الحالي ان التجمع البريطاني الذي نجح نجاحا باهرا في الحرب البحرية حتى القرن العشرين كان ممكنا بقسم منه لانه كان يعارضه أعداء كان يمكن مهاجمتهم بنجاح على ذلك النحو وبقسم آخر لان هؤلاء الاعداء انفسهم كان يمكن تحويلهم عن الدفاع عن مصالحهم البحرية الذاتية باللجوء الى القيام بمعظم الحملات البرية في أوربا . وبكلمة أخرى ان

الحرب في البر والحرب في البحر تتممان احداهما الاخرى الا انه اذا كان هذا هكذا فهل صحيح ان نسمي الاستراتيجية البحرية « صوابا » والاستراتيجية البريـة « خطأ » .

لقد ادخل القرن العشرون بعض الاشكال ادت الى تعقيد تفاصيـل الاستراتيجية البريطانية دون ان تغير مبادئها الاساسية . اولا ، في البحر . والى وقت متأخر من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا بتحكمها بالطرق البحرية داخل اوربا وخارجها قادرة على استخدام سيطرتها على البحر لضمان امـن الجزر البريطانية نفسها وحرية تجارتها وسلامة مستعمراتها . وفي استطاعة بريطانيا ممارسة سيطرتها البحرية بعيدا خارج الوطن كالباسيفيكي اذ انهـا في جميع الظروف الطبيعية هناك لن ياتيها تحد لسلطتها سوى من الاساطيل الاوربية . الا انه حوالي ١٩٠٠ تبدل ذلك الوضع فقد ظهرت قوى بحريـة جديدة واتخذت القوات البحرية القائمة مركزا دائما لها في الشرق الاقصـى على وجه جعل استراتيجية بريطانية البحرية التقليدية غير صحيحة لاكثـر من ذلك الوقت . واذا كان عليها حماية مصالحها في الباسفيك فهي اما عليها ان تبني بحريتها بقصد الحصول على اسطول حربي دائم في تلك المنطقة وامـا ايضا ان تجد حليفا لها هناك يوافق على حماية تلك المصالح . وقد حال المال والحاجة الاكثر الحاحا للتركيز في البحر المتوسط والمياه الوطنية دون تحقيـق الحالة الاولى . وقد انتفت الحالة الثانية مع ذلك واكدت المعاهدة الانكليزيـة ـ اليابانية لعام ١٩٠٢ بصورة بارزة تلك القضية الاستراتيجية الاساسية التي واجهتها بريطانيا على الدوام : فكيف ، بوصفها دولة جزيرة صغيرة نسبيا ، يجب ان تعمل لحماية نفسها وامبراطوريتها دون حلفاء ؟ .

وفي اوربا كان يسود الصورة صعود المانيا الى مصاف الدول . ان قضية المانيا كما وصفها « غراي » للجنة الدفاع الامبراطوري في ٢٦ ايار ١٩١١ في حديث له من نواح عديدة هي قضية تقليدية . وفي حال وجود المانيا سائدة على البر في اوربا وعازمة لى بناء اسطول بحري كبير ، فستشكل تهديدا لامـن بريطانيا نفسه . الا انه كان هناك بعض الامور التي حاول « غراي » في تطمينه

ممثلي الامبراطورية عن توقعات الصلح ، الا يسهب فيها . اولها هل استطاعت المانيا – وهي دولة نامية ولكنها ليست بالتأكيد دولة استعمارية كبرى – أن تكون قد الهيت بصورة مفيدة ، بمهاجمة مستعمراتها كما جرى لفرنسا بالمناسبة نفسها ؟ وعلى كل حال هل كانت بريطانيا نفسها لاتزال تواقة للحصول على مناطق استعمارية جديدة كما كان حالها قبل مائتي عام ؟ ثانيا الى اي مدى ستقوض قوة المانيا بالعمل البحري سواء ضد اسطولها ام ضد تجارتها ؟ ثم حيثما يكون صلة للتجارة هل يمكن في الظروف العصرية مراقبة العلاقات التجارية لدولة كبيرة كالولايات المتحدة ؟ وايضا كما كانت الحال دائما في الماضي اذا كان على الدولة المعتدية في اوربا أن تقاتل في البر فهل كانت فرنسا وروسيا قادرتين على القيام بمفردهما بذلك دون معاونة بريطانيا ؟ وايضا لو ان بريطانيا عاونت على البر فهل كان من الممكن ان يوجد مسرح خارجي بعيد عن المركز – كما جرى في حرب شبه الجزيرة ضد نابوليون – عندما اضطرت القوى المركزية ان تقاتل لغير مصلحتها بصورة كبيرة في حين ان الحلفاء في الوقت ذاته استخدموا مواردهم على شكل اقتصادي ، ومن المفيد التذكر بانه من المقتضى الاجابة على هذه التساؤلات في حقبة على الرغم من كتابات «ماهان» قد بدأ فيها الناس يشعرون بان اهمية الدولة البرية شرعت تتوطد مقابل السيادة البحرية في القرن التاسع عشر .

ان هذه المواضيع لم تعرض بقصد تبرير اي مظهر خاص من مظاهر ادارة الحرب العالمية الاولى ومن المؤكد انها ليست محاولة ضمنية لتبرير حرب الخنادق القائمة حاليا او مساندة « نظرية غربية ضد نظرية شرقية » انما قدمت لان خلافات ما بعد الحرب في وجهات النظر حول كيفية ادارة القتال حاليا قد اتجهت حتى ولئن كان ذلك عن غير قصد ، لتعمية صحة الاسباب الاساسية التي دفعت بريطانيا الى تلك الحرب بالدرجة الاولى . ان تورطها كان استمرارا وليس قطعا لتقليدها الخاص بمصلحتها . واذا ذهبنا الى ابعد من ذلك كان كل سبب يدعو للاعتقاد ، اعتمادا على امثلة الماضي ، بان المانيا ترغب في ان تقاتل على البر وانه في مثل هذه الحال ، يمكن للغارات البحرية بوصفها منفصلة عن معظم الحملات الاتية من البحر ، ان تلهي لا ان تدمر . وفضلا عن ذلك كان

هناك بعض الاسباب للتفكير بانه لم يعد باستطاعة بريطانيا حتى وان كـان لمصلحتها الخاصة ، بان تورط نفسها في حلف حربي فيما يسمى بشروط مفضلة كانت تتميز جهودها بها في الماضي . فان التقاليد بحد ذاتها ليست صـوابا ولا خطأ . بل أن مايجعلها هكذا انما هي تبعيتها للظروف المتحولة .

لقد كانت العقيدة الاستراتيجية البريطانية الرسمية عبر العشرينات في جوهرها عقيدة سلبية . وقد اصبح مفهوما بعد حرب مكلفة بصورة لا مثيل لها في السابق من حيث الرجال والمال ، ان التوفير هو موضوع الساعة ويجب الاهتمام به بصورة رئيسية في مجال الانفاق على الدفاع . وعلى كل حال ان هزيمة المانيا وحلفائها وتأسيس عصبة الامم والوصول الى تسوية بحرية وسلمية في ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ . ان كل ذلك اوحى بفترة ، ان لم تكن فترة سلام دولي ، هي على الاقل فترة لا يكون محتملا فيها نشوء خصومات رئيسية مزعجة . اي عشر سنوات نظامية .

وعليه فقد بدا في صيف ١٩١٩ ان وزارة « لويد جورج » المؤتلفة قـد اصدرت تعليمات للوزارات مبنية على افتراض أن بريطانيا لن تتوورط في حرب رئيسية خلال السنوات العشر المقبلة ، وان الامر لن يتطلب اية قوة تخصص لهذه الغاية . ان « فرضية السلام هذه » قد اصبحت من وقت لآخر مثبتـة من اجل فصل برامج الخدمة التي كانت دائما تؤجل التاريخ المقترح لاكمـال اية خطة موضوعة على بساط البحث . وهكذا فان خطة « الاثنين والخمسين سربا » للقوة الملكية الجوية ، المقدمة في عام ١٩٢٣ والتي والتي هي بالاصـل واجبة الاتمام في عام ١٩٢٨ ، كانت مقيدة بتلك الفرضية التخطيطية السلبيـة الى حد انه حوالي عام ١٩٣٤ كانت قوة الطيران الملكية البريطانية لا تزال تعاني من نقص قدرة عشرة أسراب عن الحد الادنى المخصص لها . وكما اشار الاستاذ « بوستان » ، لقد كان الجيش الضحية الاولى لذلك الضيق المالي . وقـد بلغت المخصصات من اجل شراء الاسلحة والمحافظة عليها وعلى المخازن الحربية في السنوات ما بين ١٩٢٣ ــ ١٩٣٣ ما يقرب من مليوني جنيه استرليني فقط في السنة او اقل من عشرة بالمائة من المبالغ الصغيرة المصروفة على التسلح .

وفي عام ١٩٢٨ عندما كان تشرشل وزيراً للمالية تمت اعادة تثبيت قاعدة السنوات العشر على نحو اشد كثيرا من اي وقت مضى . واعتبرت هذه القاعدة مطبقة على اساس مستمر في حال عدم حدوث اي رفض صريح في اية جهة معينة ، وبعبارة اخرى فيما اذا لم يتم الغاء القاعدة في عام ١٩٣١ ، تصبح قاعدة التخطيط حينئذ انه لا ينتظر وقوع حرب رئيسية قبل عام ١٩٤١ ، وهكذا دواليك . والحقيقة انه كان يخصص احتياطي في الوقت نفسه لاعادة النظر النظامية ، ولكن كما اظهرت التجربة لا يطلب الالغاء ويصادق عليه الا في حال وجود ازمة ، وفي وقت تكون فيه نتائج قاعدة السنوات العشر تحتاج بالضبط لاتخاذ اجراء مضاد لها باسرع وقت . وفضلا عن ذلك ومن وجهة نظر العقيدة الاستراتيجية كان ذا اهمية بالغة مثلما كان صعبا للغاية (وبالواقع مستحيلا) بالنسبة لرؤساء الاركان اسداء أية نصيحة واقعية أو اعطاء أي تقدير مفصل يتعلق بالحرب التي ستنشب طالما أن قاعدة السنوات العشر مستولية على كامل افكارهم . وفي مختلف اعادة النظر في السياسة الاستراتيجية منذ عام ١٩٢٨ وما بعد عبروا عن قلقهم بالنسبة للقاعدة ، وفي عام ١٩٣١ دعمهم رأي وزارة الخارجية المتضمن ان القاعدة قد أصبحت تدريجيا « بحثا نظريا مع أمل لايزال مسيطرا ، الا انه يخالطه شك يظل التوقع المنتظر » . واخيرا وبعد انجرار الى ما فوق طاقة الاحتمال سببته اخطار الازمة في منشوريا وثم في شنغاي ، « انفجر رؤساء الاركان في شباط ١٩٣٢ » ، على حد قول «هانكوك»، « بشكوى ملء اشداقهم ضد القاعدة محتجين بانها قد ادت الى نقصان هائل في كل متطلبات القوات المسلحة وادت الى تقهقر صناعة التسلح البريطانية ونجمت عنها حالة عدم قدرة عسكرية جعلت المملكة المتحدة في حالة يستحيل معها ان تفي بتعهداتها في ظل معاهدات « لوكارنو » وميثاق عصبة الامم او ان تقوم بمسؤولياتها في الدفاع الامبراطوري » .

وفي هذا الوضع ليس من المستغرب الا يكون هناك عقيدة استراتيجية ايجابية رسمية لبريطانيا وامبراطوريتها قبل وصول هتلر للحكم . الا انه كانت هناك عقيدة ذات تفاصيل اكثر وضوحاً في مواضيع خاصة ، ومن المناسب ان نجمعها تحت كنف سياسات ذات علة باوربا وسياسات تتعلق بالشرق الاقصى .

ففي اوربا ، واثناء مفاوضات فرساي من اجل التسوية ، كانت فرنسا قد سحبت طلبها الاصلي لاحتلال دائم لارض الرين على شرط ان تقبل الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى المبادرة الفورية لمساعدتها في حال وقوع عمل عدائي ضدها من قبل المانيا ، لا يكون لها يد في اثارته . ولكن هذه المعاهدات لم تصدق مطلقا كما ان احد الوزراء فيما بعد افاد بان بريطانيا كانت فعلت حسنا لو انها ابقت ضمانها حتى ولو ان الولايات المتحدة « قد انسحبت » . وكانت النتيجة ان فرنسا قد تركت ينتابها شعور بعدم الامن تجاه المانيا تبين انه من المستحيل تبديده . وفي منتصف العشرينات وضعت عدة مخططات لملء الفراغ . الا ان مقترحات معاهدة المساعدة المتبادلة وكذلك بروتوكول جنيف لعام ١٩٢٤ عارضتهما بنجاح حكومة صاحب الجلالة ، التي خشيت تهديد السيادة القومية بتوريطها بتحكيم الزامي واعترضت على وضع القوات البريطانية المقاتلة تحت تصرف هيئة اركان عصبة الامم . وقد كتب « ل.س. اميري » فيما بعد ان مقترحات بروتوكول جنيف قد عارضها بشدة رؤساء الاركان ، وكانت حتى أكثر تعارضا مع وجهات نظرا الدومينيون الذي كان بأجمعه معارضا للارتباطات الاوربية الاضافية ، سواء أكانت تحت حماية العصبة أم بشكل آخر . وان ماقاله « أميري » عن الدومينيون يمكن بكل تأكيد اعتباره حقيقة الرأيالعام في المملكة المتحدة نفسها في ذلك الحين . ومن جهة اخرى ،انه لمنالصعب الاعتقاد نظرا لالحاح رؤساء الاركان مؤخرا على الاستراتيجية التقليدية بالحيلولة مسبقا دون احتلال القنال بأجمعه وموانيء بحر الشمال من قبل قوة معادية محتملة وكان جميع رؤساء الاركان في عام ١٩٢٥ غير محبذين لمخاوف فرنسا او غير راغبين تماما في الدفاع اجمالا عن طريقة أكثر تقيبدا لضمان أمن فرنسا . وفي الواقع ، ان السرعة التي تبعث فيها مقترحات « لوكارنو » رفض بروتوكول جنيف عام ١٩٢٥ توحي بان هذا ماكان قد حصل .

وقد وقعت « معاهدات لوكارنو » في ١٦ تشرين الاول ١٩٢٥ ، وتضمنت بعض الاتفاقات بالنسبة لحدود المانيا الشرقية ولم يكن لبريطانيا اي دخل فيها . الا ان المعاهدة الرئيسية كانت احدى الضمانات المتبادلة ، للحدود الفرنسية ــ الالمانية ، والحدود البلجيكية ــ الالمانية الموقعة من قبل بلجيكا

وفرنسا والمانيا وبريطانيا العظمى وايطاليا . وقد اعلنت المادة الاولى من المعاهدة ان الاطراف الموقعة تضمن بصورة جماعية وافرادية ... الابقاء على الاراضي بالوضع الراهن الناجم عن الحدود بين المانيا وبلجيكا وبين المانيا وفرنسا وعدم المساس بالحدود المذكورة كما حددتها معاهدة الصلح الموقعة في فرساي في ٢٨ حزيران ١٩١٩ ، او انسجاما مع تلك المعاهدة وكذلك المحافظة على نصوص المادتين ٤٢ و ٤٣ من المعاهدة المذكورة المتعلقتين بالمنطقة منزوعة السلاح .

وفيما بعد اعلن « السير اوستن تشامبرلين » بان « لوكارنو » قد رسمت « الخط الفاصل الحقيقي بين سنوات الحرب وسنوات السلم » . وكانت من الناحية السياسية انجاز في فن الحكم . واما من الناحية العاطفية فقد اقامت بكل تأكيد في بريطانيا على الاقل مقياس ارتفاع لذلك الشعور بغفران ما بعد الحرب وبالصداقة التي رحبت بعودة المانيا الى اسرة الامم . الا انهـا لم يكن لها شأن من الناحية العسكرية . فانها لم تعني بالنسبة للحكومةالبريطانية او للشعب البريطاني تصميما اكيدا على الدفاع عن تلك المصالح الاستراتيجية وهو التهديد الذي كثيرا ما ورط بريطانيا في حروب اوربا . وكنتيجة لذلك يبدو واضحا من الثلاثينات انه لم يكن هناك من جانبه بريطانيا خطط او استعدادات على اي مستوى لوضع « العراقيل » في وجه « لوكارنو » . وفي الواقع ، انه ليس من التشدق البالغ الحد مهما كانت البواعث الوجيهة التي تدفع بالمرء لكي يرى في « لوكارنو » تسوية لمعظم القضايا الاوربية ، التدليل على ان هذه الاسباب نفسها لم تكن لتخلو تماما من تطلع اقل اهمية يحدو الى القول انه نظرا لحل القضايا الاوربية فان بريطانيا تستطيع ان تدعي بان دورها هناك قد تم بنجاح .

ان هذا القسم من الرواية ، تحت خطر استباق احداث متأخرة ، كان يمكن ان يستمر طويلا حتى عام ١٩٣٦ . وكان احد نصوص معاهدة فرساي الموضوعة لضمان امن فرنسا هو ذلك النص الذي يقضي بتجريد دائم للارض الالمانية على الضفة اليسرى من نهر الراين من السلاح وكذلك لمنطقة عرضها خمسون كيلو مترا على الضفة اليمنى . واي خرق لشروط التجريد هذا ينظر

اليه كعمل عدائي موجه ضد موقعي المعاهدة . وقد اصبحت شروط نـزع التسلح فيما بعد كما شاهدنا مضمونة من قبل معاهدة « لوكارنو » . وفي ٧ اذار ١٩٣٦ قام الجنود الالمان باحتلال المنطقة .

ان المنطقة منزوعة السلاح ولا شك ، كما ابان منذ ذلك الحين الوزراء السابقون ، كانت بالدرجة الاولى مشكلة تخص فرنسا وبلجيكا . فاذا رأتا امنهما مهددا بعمل من اعمال هتلر حينئذ تصبحان لاول وهلة مسؤولتين عـن الرد بالقوة . ومع ذلك اذا كان امن فرنسا جزءا من أمن بريطانيا نفسها فلهذه الاخيرة اسباب وجيهة ذات صلة بمصلحتها القومية للتدخل . وقد كانـت المنطقة المجردة من السلاح قد حددت بشكل خاص لحماية فرنسا من الغزو . فأصبح لذلك واضحا الآن ان الوزراء البريطانيين قد سلموا لوقت مضى في قرارة نفوسهم بعدم امكانهم الموافقة على حماية المنطقة بالقوة ــ وقد بحـث الموضوع بكامله في « ستريا » بشكل ميكانيكي للغاية ــ وعندما أعاد هتلر تسلحها كان جواب الرأي العام البريطاني هو النظر الى ذلك الامر بوصفه بالواقع مسألة المانية داخلية . وبذلك تم البرهان التام على فراغ « لوكارنو » عسكريا ، وعلى الاقل الى ذلك المدى . وصحيح ان المنطقة والحدود لم تكن متطابقة ولكن بعيد كل البعد عن ان يكون بدهيا تورط « ايدن » فيما بعد بالتأكيد ان حرمةالحدود الفرنسية البلجيكية لا تزال « مصلحة حيوية للبلاد » ، وان تكون كذلك محادثات الرسميين المرافقين لا تزال بالواقع منظورا اليها نظرة جدية اكثر من معاهــدة لوكارنو سواء من قبل زملائه ام من قبل البلاد باسرها . فقد كان لا يزال هناك ثغرة بين ارساء المبادىء وبين تطبيق هذه المبادىء واقعيا .

ثانيا ــ الشرق الاقصى والدفاع البحري . لقد كان ينظر في السنــوات مابين الحروب الى البحرية الملكية كما كان ينظر اليها دائما ، بأنها الخط الاول للدفاع القومي . وقد عبرت عن ذلك بوضوح الفقرات الوسطى من بيان عام ١٩٣٥ المتعلق بالدفاع . واستطرد ايضا البيان نفسه القول : « ان الاسطول الرئيسي هو الاساس الذي تبنى عليه استراتيجيتنا البحرية ، وفي الاسطول الرئيسي تظل السفينة الرئيسية العنصر الاساسي الذي تتوقف عليه كل بنيتنا الاستراتيجية البحرية » .

وعلى كل حال كان هناك مبررات عديدة في العشرينات لتفسير لماذا كـان يجب مناقشة الآراء المتعلقة بالاستراتيجية البحرية على مدى اوسع وتكوينها بصورة أكمل من الآراء المتعلقة سواء بالجيش ام بالقوة الجوية الملكية . وفـي السنوات المباشرة التي تلت الحرب واجهت حكومة صاحب الجلالة قضايـا ذات علاقة متبادلة خاصة يحظر سباق تسلح بحري ومستقبـل التحالف البريطاني الياباني . وقد حلت هذه القضايا على أية حال بصورة مؤقتةبمعاهدة واشنطن لعام ١٩٢٢ . ولكن بما ان اليابان نفسها كانت الموقعة الرئيسية على تلك المعاهدة فقد كان من الطبيعي ان تقوم الامبريالية على افتراض ان الحـرب ضد الولايات المتحدة احتمال مستحيل ـ بتطوير خططها الواسعة حينئذ . من اجـل ادارة دفة حرب رئيسية على اسـاس ان اليابان تشكل العـدو المحتمل . وخلال العشرينات ظل الخطر نظريا بقدر كبير وبعد عـام ١٩٣١ تضمنت الخطط قسطا اكبر من الحقيقة .

وبعد واشنطن كانت القوة البحرية القياسية المطلوبة قد حددتها الامبرالية بوصفها « معيار القوة الوحيد » . وقد قيل ان هذا المعيار سيتحقق ، اذا كان الاسطول البريطاني أنى كان موقعه مساويا لاي اسطول دولة اخرى انى كـان موقعه ، على شرط ان تجري ترتيبات في مختلف الجهات من العالم مع وجـود احتياطي محلي يبقي الوضع تحت المراقبة الى حين مجيء الاسطول الرئيسي ، ويزود هذا الاسطول عند وصوله بخفة حركة كافية . واذا اعطي النسبـة التي حددتها واشنطن وهي (٥ : ٥ : ٣) اذن على البحرية الملكية ان تكـون قادرة على مواجهة البحرية اليابانية في الشرق الاقصى في انسب لحظة بالنسبة لهـا تاركة خلفها في المياه الوطنية اسطولا قادرا على مواجهة اقوى قوة بحرية اوربيـة . وما هو هام هنا ان الاسطول يحتاج عند وصوله للشرق الاقصى لقاعدة ملائمة للصيانة والاصـلاح لذلك تقرر في حزيران ١٩٢١ ان تطـور سنغافورة لهذه الغاية .

وكذلك فان نسبة السفن الرئيسية الموافق عليها في واشنطن سـدت حاجة بريطانية الاستراتيجية كما تم تحديدها بموجب مقياس الدولة الواحدة، ومع ذلك فان عيد العشر سنوات للسفينة الحربية الرئيسية الموافق عليه

كان في الوقت نفسه معترضا عليه من قبل الاميرالية . وكان ذلك النص مؤتلفا روحيا على الاقل ، مع صيغة قاعدة السنوات العشر ، ولكنه كان يعاني من اوضح عيب سابق : فلقد كان محتما عليه ايجاد الحاجة . لوضع برنامج بناء واسع جدا عندما يتوقف عن عمله ، وبخاصة لقوة كبريطانيا العظمى كانت سفنها عرضة لنسبة عالية غير اعتيادية من الاهتراء والتمزق أثناء القيام بالواجب . وان عيوب معاهدة واشنطن ، حسب وجهة نظر الاميرالية ، قد ساءت بصورة كبيرة بسبب نصوص معاهدة لندن البحرية عام ١٩٣٠ . فان الاتفاق الاخير لم يؤجل استبدال السفن الحربية الرئيسية حتى الى مابعد عام ١٩٣٦ فحسب ، بل هو ايضا قد فرض على بريطانيا معادلة بالطرادات والمدمرات وفقا لشروط الولايات المتحدة وتضمن ايضا قبول بريطانيا لخمسين طرادا كحد أدنى على حين ان الاميرالية صرحت بأن الحد الادنى للاحتياج سبعون سفينة . وكان ذلك كله بالاحرى جديا الى ان رفضت فرنسا وايطاليا التحديدات نفسها . وكان محتما ان يشتد قلق السنوات الاخيرة في حال تصبح فيه الآمال السياسية التي بنيت عليها هذه الحجج مرتكزة على اساس واه . وفي النهاية تركت الاميرالية دون امكانية القيام بمناورة في ظروف تسير من سيء الى اسوأ في منتصف الثلاثينات واواخرها .

ان تجمع هذه القيود المعتبرة خطيرة في المجال العسكري الصرف يحتمل ان يفسر رغبة الاميرالية في الوصول الى اتفاق مع المانيا المستعيدة تسلحها في عام ١٩٣٥ . وقد حدد الاتفاق البريطاني ــ الالماني البحري المعقود في تلك السنة . على المانيا النسبة الى خمسة وثلاثين بالمائة لكل صنف من السفن الحربية باستثناء الغواصات . ويعتبر ذلك من الوجهة السياسية تحركا بريطانيا غير ملائم . فهو لم يات بشيء لنوال الحظوة لدى ايطاليا وفرنسا على السواء . ومن جهة اخرى لم يكن من غير المعقول التدليل على انه كان من الافضل الوصول الى تفاهم مع المانيا طالما ان هتلر مازال راغبا فيه بأمل تجنب سباق تسلح بحري آخر مماثل لذلك الذي سبق الحرب العالمية الاولى . ومع ذلك انه لمن الصعب ادراك تلك الموافقة القوية من الاميرالية لمعاهدة لم تلحظ هامشا ملائما ــ كما كانت فعلت واشنطن ــ للاحتياجات العادية . وكان قسما

هاما من بحث الامبرالية التقليدي المتعلق بمثل تلك القضايا هو ان معيار القوة المطلوب يجب ان يشمل عنصرا « زائدا » عن معيار الدولة ــ الواحدة او الدولتين المذكور نصا . حتى ولئن اخذت بريطانيا على عاتقها الاستمرار على نسب واشنطن وهي (٥ : ٥ : ٣) بعد عام ١٩٣٦ ــ وفي منتصف ١٩٣٥ فان هذا كان مشكوكا فيه الى اقصى حد ــ اذ بدأ آنئذ وكأن على بريطانيا أن تخطط على احسن وجه على اساس المساواة مع المانيا واليابان مجتمعين وعلى مسرحين مهما كان بعد الفاصل الذي يفصل بينهما .

ان انتقاء المسائل المتعلقة بالحرب والتي نوقشت طويلا لم يحصل بقصد اقتراح نموذج عام للعقيدة الاستراتيجية الرسمية . ولم يكن هناك ، وفي الواقع يحتمل الا يكون هناك ، مثل ذلك النموذج على الرغم من رؤساء اللجان الذين شغلوا مراكزهم حديثا طالما ان قاعدة السنوات العشر مازالت مستمرة في ممارسة نفوذها السلبي . الا انه في السنوات الاولى من الثلاثينات ابتدأ التغيير . وكما قد عرفنا ، عبر رؤساء الاركان عن قلقهم بشأن عملية القاعدة في كل من تقاريرهم السنوية بعد عام ١٩٢٨ حتى عام ١٩٣٢ ، اذ اصبحوا وقد وخزتهم احداث الشرق الاقصى يحكمون عليها بصورة صريحة . فقبلت الوزارة نصيحتهم ، وفي آذار ١٩٣٢ الغيت القاعدة . الا انه لم يتبع ذلك أي عمل ايجابي وقد يعزى ذلك ولا شك بصورة كبيرة الى ان رأي الحكومات ان القضية الملحة والضاغطة التي يجب معالجتها هي الانتعاش الاقتصادي . ولم تلجأ الوزارة الا بعد ثمانية عشر شهرا الى تعيين لجنة لمتطلبات الدفاع مع تعليمات لتحضير برنامج لمجابهة أسوأ « نواقصنا » .

الا ان برنامج النواقص ، المقبول على اسسه المعاد النظر فيها من قبل الحكومة في صيف ١٩٣٤ ، لايزيد عن كونه محاولة اولى لتصحيح الاثر التضييقي لقاعدة السنوات العشر او تطبيق برامج مصدقة بأصلها في السنوات الاولى او المتوسطة من العشرينات . وله صلة ضعيفة بالظروف المتطورة في الثلاثينات ، وبصورة خاصة للمظهر الخشن المزامن للخطط العدوانية لالمانيا واليابان معا والتهديد الاشد للسلم من قبل ايطاليا المعتبرة حتى ذلك الحين صديقة . ولم تكن مفاجأة مع ذلك ان الحكومة حددت سياسة دفاعية وعينت

« لجنة متطلبات » في تموز ١٩٣٥ اعطيت لها تعليمات ان تتوسع أكثر من سابقتها وان تحافظ دائما على الوضع الدفاعي ككل تحت اشرافها وذلك لتتأكد من ان ترتيباتنا الدفاعية وسياستنا الخارجية تسيران معا في خط واحد .

وفي تشرين الثاني ١٩٣٥ قبلت الوزارة تقريرا جديدا كانت قد لجأت فيه الى ارساء اسس اول تسلح رئيسي لها بوصفه منفصلا عن برنامج النواقص وهو برنامج خطط تضمنها الاعلان المتعلق بالدفاع عام ١٩٣٦ . ومنذ ذلك الوقت اصبح التطوير النظامي لبرامج التسلح اسميا موضوعا تحت اشراف وزير تنسيق الدفاع في وزارة محدثة هو السير « توماس انسكيب ». وتجاه الحاجة والتكاليف المتزايدة باستمرار ، انشأ « انسكيب » في خريف ١٩٣٧ ابحاثا متخصصة لبرامج اعادة التسلح كلفت وضع نموذج استراتيجي يجمع المصالح الثلاث ضمن الحدود التي املتها موارد الامة . وهذا النموذج الذي تمت الموافقة عليه في ربيع ١٩٣٨ قد عدل في الواقع في بعض نواحيه الهامة التي استبعدت كلية تحت ضغط « ميونيخ » واعتداءات المحور الاوسع في ربيع عام ١٩٣٩ . ويمكن للمراقب ، بعد ثلاثين سنة اعقبت ذلك ، ان يجد في كل ذلك صورة عن التخبط . الا انه كان هناك عقائد استراتيجية واردة ، ولو انها كانت عقائد متغيرة .

ان الفرضيات السياسية المشيرة الى النقص وبرامج اعادة التسلح كانت ككل اكثر بساطة واكثر ثباتا من الفرضيات العسكرية . فان الحرب سواء ضد الولايات المتحدة ام ضد فرنسا بدت وكأن لاجدوى من البحث فيها منذ البداية . ومنذ البداية ايضا اعتبرت اليابان والمانيا من الاعداء المحتملين. وتكمن الصعوبة هنا في تحديد من اية جهة سيأتي اخطر تهديد ومتى سيكون ذلك . وفي عام ١٩٣٣ بدت اليابان انها أكبر مصدر آني للاضطراب . وعندما تسلحت المانيا اصبحت هي الاخطر . وحتى عندئذ او على اية حال بعد ذلك بقليل وضح ان « نيفيل تشامبرلين » كان الى جانب الراي القائل « باننا لانستطيع ان نواجه في آن واحد اعمالا عدائية مع اليابان والمانيا ، وان هذه الاخيرة هي المشكلة التي علينا الآن ان نعد انفسنا نحوها . وقد اصبح راي

« تشامبرلين » مقبولا بصورة عامة عمليا عندما اضحى واضحا ان المانيا تريد ان تكون جاهزة الحرب ليس في عام ١٩٤٢ ، كما كان متوقعا اساسا ، بل على الارجح في عام ١٩٣٩ . وفي ربيع ١٩٣٩ كانت محادثات الاركان البريطانية - الفرنسية قد جرت بوضوح على اساس افتراض ان المانيا كانت العدو الرئيسي اما اليابان فمهما كان الخطر الآتي من جانبها فهي عدو سيؤجل عمله العدواني الى وقت آخر » .

أما في كل مايتعلق بايطاليا فقد وضعت في وقت مبكر خطط على افتراض صداقتها . ولكن الحبشة قد غيرت ذلك : ففي عام ١٩٣٧ شعرت الوزارة باضطرارها لاعطاء تعليمات للاركان العامة « بضم ايطاليا الى صف المانيا واليابان في قائمة الاعداء المحتملين ، وبتخطيط استعداداتهم الدفاعية بموجب ذلك » . وكنتيجة لذلك ، لم تتضمن الخطط المفصلة التي وضعتها الاركان الفرنسية والبريطانية عام ١٩٣٩ فقط ايطاليا بل تضمنت ايضا افتراض انه في حال دخولها الحرب سيكون اول هجوم عام للخلفاء ضدها . ولكن رؤساء الاركان لم يساورهم قط أي شك في انه في الوقت الذي يحكم بأنه مناسب سيكون من المستحيل على بريطانيا ان تقوم باستعدادات مناسبة لحرب على ثلاث جبهات . ولكن هناك وضوحا كبيرا في انه ليس الوزراء فقط بل مستشاروهم المختصين ايضا ظلوا تواقين لنوع من التفاهم مع ايطاليا مما يشجعها على البقاء محايدة . ولم يكن الخلاف بين « تشامبرلين » و « ايدن » مبنيا على هذا الاساس من الحاجة بل على الاصح كان حول الطريقة التي يجب ان توفى الحاجة بموجبها .

وبنمو تهديد المانيا والتهديد غير المؤكد - على الاقل من حيث الدرجة - من ايطاليا واليابان ، لانرى من الامور المفاجئة ان تتغير الخطط الاستراتيجية في الحقبة الممتدة بين ١٩٣٤ - ١٩٣٩ . وستجري محاولة لتحليل هذه الخطط والعقيدة التي بنيت عليها بفحص برامج المصالح الثلاث لكل منها على حده وحينئذ سنقف على المدى الذي سيكمل فيه كل منها الآخر .

وعلى الرغم من التقليد ، كانت هناك حالة هامة تدعو لمعالجة موضوع

القوة الجوية الملكية اولا . ففي ربيع ١٩٢٢ قررت حكومة التحالف رسميا ان على وزارة الطيران ان تكون مسؤولة عن الدفاع الجوي للملكة المتحدة ، وهذا يعطي المصلحة الجديدة مكانا خاصا في الاستراتيجية القومية . وفي حزيران ١٩٢٣ قطعت حكومة المحافظين شوطا ابعد ووافقت على الخطط الخاصة بتشكيل قوة جوية مؤلفة من اثنين وخمسين سربا لتأمين مساواة عددية تقريبية مع القوة الجوية الفرنسية الضاربة . ونفذ ذلك في وقت ساد فيه توتر سياسي بين بريطانيا وفرنسا وكن الاشارة الاولى الواضحة الى ذلك المبدأ وهو « المساواة » الذي كان يلمح اليه احيانا كثيرة في الثلاثينات. وفي آذار ١٩٣٤ اكد المستر « بولدوين » لمجلس العموم ان الحكومة راغبة في عدم قبولها بالنسبة للقوى الجوية « مركزا ادنى من اي قطر ضمن حدود المسافة الضاربة من شواطئنا » .

لقد عانت القوة الجوية الملكية لمدة عشر سنوات من قيود اقتصادية متعاقبة . الا انه مع أول تقرير للجنة الاحتياجات الدفاعية ، وعمل الحكومة المتعلق به الذي تلاه ، صعدت القوة الجوية الملكية الى ذروة لم تفقدها ابدا في السنوات التي سبقت الحرب . والسبب في ذلك هو ان أكثر الوزراء اعتقدوا (وفكروا انهم يمثلون بصدق الرأي العام باعتقادهم هذا) ان الخطر الاكثر جدية ويحتمل ان يكون الاشد الذي تواجهه بريطانيا في حرب كبرى مقبلة ، الهجوم الجوي المباشر على مدنها . ومنذ ذلك الحين وما بعده اصبح من المستحسن القول ان القوة الجوية البريطانية قد احيطت « بمعاملة تفضيلية ». وكان أول تقرير للجنة الاحتياجات الدفاعية يتضمن برنامجا للقوى المسلحة الثلاث ، مبنيا على العقيدة الاستراتيجية ، زيادة عما اعلنه مرة رؤساء الاركان في تلك السنوات ، بأنه اذا اعلنت الحرب فيجب خوضها بالقوى المسلحة الثلاث جميعها . اما الوزراء في عام ١٩٣٤ فقد كان لهم رأي آخر . فهم لم يقتطعوا من برنامج النواقص مقدار الثلث فقط ، بل انهم ايضا اقتطعوا من حصة الجيش مقدار النصف وقرروا « الاعتماد الواسع على الاثر المعيق لقوة جوية اكبر من القوة المقترحة » . وهذا التركيز الفكري نفسه قد كشف عنه في ايار ١٩٣٥ عندما كانت القوة الجوية الملكية مرة اخرى قد توسعت من طرف واحد وخلال تلك السنوات وما بعدها حتى ربيع ١٩٣٩ .

ان برامج القوة الجوية الملكية لتلك السنوات تكشف عنه بعض الحجج والافتراضات ذات الاهمية البالغة . اولا : لقد خططت اركان الطيران بتوسع شديد على فرضية الحرب ضد المانيا . وخططت برامج توسع متتابعة على ذلك الاساس وتحت ضغط طلب الشعب للتعادل مع قوة المانيا الجوية المتوسعة بسرعة . وكنتيجة لذلك عندما اصبحت القيود المالية لايمكن تجنبها ضحي بالتوسع لاعمال ما وراء البحار لصالح القوة الجوية . ثانيا ، منذ الحرب العالمية الاولى بلور تفكير القوة الجوية « ترانشارد » وفاقا لعقيدة هجوم قاذفة القنابل. فالدفاع الجوي يعني بالدرجة الاولى الهجوم الجوي .

ومع ذلك ، فان برامج التوسع الجوي ، كانت حتى ربيع عام ١٩٣٨ ، مقدرة لصالح قاذفات القنابل . وفي الاشهر الثمانية عشر السلمية فرضت مخاوف الوزراء وشكوكهم مع ذلك بالنسبة لحكمة ذلك السباق ، بعض اللوم على رجال الجو واقعيا ان لم يكن نظريا . وكان لهذا التشديد على استقلال وظيفة قوات قاذفات القنابل واستراتيجيتها نتيجة واحدة هي قيادة عدة رجال جويين لرؤية مكانهم الخاص في الاستراتيجية القومية بوصفه منافسا لاهتمام لمن كانوا في القوى المسلحة الاخرى . وكانت القوة الجوية الملكية كما كاوا يصرحون في بعض الاحيان الوسيلة « التي تستطيع وحدها ان تؤمن الرادع الحقيقي الضروري ضد الحرب او الوسيلة التي يمكن بواسطتها نوال الظفر اذا ما وقعت الحرب » . ثالثا ، ان من المضلل ، بنظر الكتاب الحاليين من بعض النواحي على الاقل ، ان نوازن بين هذا البحث الاستراتيجي الخاص برجال الجو قبل عام ١٩٣٩ وبين تقليد القارة الاوروبية بوصفه معارضا لمدرسة الفكر « البحرية » . ومهما كانت الظروف الخاصة قبل اندلاع الحرب في عام ١٩١٤ فان هذا الفارق في العقيدة الاستراتيجية كان مرتكزا تقليديا على الحجج السياسية والاقتصادية وكذلك على الحجج العسكرية . ولم يكن ، بأي معنى جدي ، انعكاسا لمنافسة مهنية بين بحارة وجنود . فلقد كان رجال الجو بين الحروب مهتمين اهتماما كبيرا بالحجج العسكرية وحدها . وكان عنصر التنافس بين القوى المسلحة قويا . الا انه ، من وجهة نظر الوزراء ، فان المقارنة هي اكثر صحة . اذ ان التركيز ، بالنسبة اليهم ، على الجو والبحر كان كافيا

لامتصاص القسم الاعظم من موارد بريطانيا وكان تبريرا سياسيا كما كان تبريرا عسكريا لرفضها التفكير بجيش كبير لحرب برية رئيسية .

واخيرا يظل هناك موضوع ذو مغزى هو تطور برامج التوسع الجوي . ومنذ زمن برنامج النقص الاول ، صرح الوزراء بوضوح بأن برامج الدفاع ليس من شأنها على اية حال التدخل في سير التجارة الطبيعي وفي الاعمال . ان ذراع البلاد الرابع الدفاع هو الاستقرار المالي الذي بدوره يتوقف على الازدهار الصناعي وتجارة التصدير . وفي اكثر من مرة نوه رؤساء الاركان بأن التأجيلات في تنفيذ البرامج المصادق عليها كانت بالدرجة الاولى نتيجة القرار بقبول مبدأ « العمل كالمعتاد » . واخيرا في آذار ١٩٣٨ ، دلل وزير الطيران على ان العامل المقيد لتوسيع البرامج الجوية هو الكفاءة الانتاجية للصناعة الجوية ، والتي هي نفسها تتوقف على مهارة الصناعة في توفير الموارد الضرورية من اليد العاملة والمعدات ، مما دفع بالحكومة الى الغاء قاعدتها المستقرة زمنا طويلا . ومنذ ذلك الوقت يجب ان تتسارع الخطط مهما كلف الامر . الا ان « الرجال والمعدات ستطلب ، وعمل التسلح يجب ان تكون له الافضلية الاولى في المجهود القومي . والتجهيز الكامل والسريع للامة الدفاع عن النفس يجب ان يكون الهدف الاول » . والخطوة الاولى الرئيسية لتبني اقتصاد الحرب قد اتخذت ولم تكن دون اهمية طلبات البرامج الجوية التي كانت السبب الرئيسي لهذا التغيير الجوهري في السياسة .

وخلال تلك الحقبة والى زمن ازمتي الحبشة . وأرض الراين في ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ ، ادعت الاميرالية ان الخطر البحري الجدي الوحيد يكمن في الشرق الاقصى . والحقيقة انهم دائما كانوا يذكرون ان المعاهدة الانكليزية الالمانية يجب ان ينظر اليها على اية حال في قسم منها كنتيجة لتفكير مقصود بني على تلك الفرضية . وعلى اساس هذا الادعاء بدا ان معيار دولة بحرية واحدة كاف . الا انه في ربيع ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦ تطلب الموقف اعادة نظر . فقد اتضح آنئذ بصورة متزايدة ان الخطر في المياه الاوروبية لم يكن ذلك الخطر الذي يمكن ، لاغراض التخطيط ، ان يحال الى المرتبة الثانية . فقد كانت بريطانيا آنئذ تواجه امكانية حرب ضد دولتين بحريتين من الدرجة الاولى ان لم يكن

ثلاث دول . وفي تلك الظروف كانت مطاليب الدفاع للجنة الفرعية المنبثقة عن لجنة الدفاع الامبراطوري في تقريرها الثالث المرفوع في تشرين الثاني ١٩٣٥ التوصية بما سمي معيار للقوة البحرية الذي خطط على اساس « قوة كافية لردع اقوى قوة اوروبية بحرية عن اشرافها على مراكز اطراف بريطانيا الحيوية في حين تكون البحرية قائمة باتخاذ تدابير لحرب في الشرق الاقصى » . وقد تضمن هذا المعيار الجديد اضافات الى قوة الطرادات والمدمرات والسفن المرافقة .

الا أنه خلال السنة التالية اضطرت الامبرالية البريطانية ، بسبب تسارع تطور التسلح الالماني ، لاعتبار الخطر الاوربي ، الخطر الاول رسميا وكذلك لطلب اضافات كبيرة لجميع اصناف السفن الحربية وهكذا يمكن اكمال معيار « الدولتين » . وقد اصبح هذا المعيار منذ ذلك الحين وفيما بعد « مفهوم القاعدة الاستراتيجي » وقد وصفت القوة البحرية بمثل هذا المعيار بأنها كافية: اولا ، لتمكننا من وضع اسطول في الشرق الاقصى قادر بصورة تامة على العمل الدفاعي ولاستخدامه كمعوق ضد أي تهديد لمصالحنا في ذلك القسم من العالم . ثانيا ، للحفاظ في كل الظروف في المياه الوطنية على قوة قادرة على مواجهة متطلبات الحرب ضد المانيا في الوقت ذاته .

اما الحكومة فقد رفضت على الصعيد المالي ان توافق على هذا المعيار عندما اقترح للمرة الاولى (على الرغم من مناقشات حادة) الا ان برامج الانشاء لعامي ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ أمنت المعيار بصورة فعلية ان لم تكن مبدئية . الا انه بعد « ميونيخ » وفي زمن برنامج الطوارىء لعام ١٩٣٩ ، بدأت الامبرالية ان تسير في طريقها . ولكن افضلية بناء السفن الصغيرة التي كانت مقررة حينئذ ، قوت بصورة اوسع فكرة اعتبار المانيا العدو الرئيسي المحتمل .

وما هي الحسابات بالنسبة لايطاليا في تلك الاستراتيجية البحرية المتطورة ؟ لم يخطط للحرب على ثلاث جبهات بشكل تفصيلي وكانت برامج التوسع البحري في السنوات السابقة للحرب ممنوعة بموجب قيود مالية

هائلة حالت دون مواجهة مثل هذه الامكانية . وكانت النتيجة الواقعة وكذلك السببية الاحتجاج بأن علاقات الصداقة مع بريطانيا مازالت اساسية . وكانت اليابان والمانيا العدوين المتوقعين اللذين يجب ان تقام ضدهما الاستعدادات وهي ممكنة . ومع ذلك اوضح رؤساء الاركان في تقدير الموقف الاستراتيجي الرئيسي المعد عام ١٩٣٧ انهم « يرون وضع اليابان بالمرتبة الثانية بعد المانيا كعدو محتمل ، ووضع ايطاليا بالمرتبة الثالثة . ويقتضي قبول المخاطر في البحر المتوسط بقصد تأمين قوة بحرية ملائمة في المياه الوطنية وفي الشرق الاقصى . ولكن نتيجة للضغط الهائل للاحداث ابان اقتراب الحرب ، نوقش تغيير استراتيجي رئيسي يحقق عودة لتلك الاستراتيجية القائمة على الحشد في الوطن ، وفي البحر المتوسط والتي كانت تتميز بها سياسة الامبرالية قبل عام ١٩١٤ . وفي شباط عام ١٩٣٩ نصح رؤساء الاركان بأن تكون قوة الاسطول المرسلة الى الشرق الاقصى « متفوقة على احتياطينا وعلى الوضع الحربي في المسرح الاوروبي » . وفي ايار ذهبت مصلحة الاستخبارات الى نقطة ابعد وقررت انه ليس ممكنا القول متى يستطاع ارسال اسطول الى الشرق الاقصى بعد اندلاع الحرب ولا كم يجب ان يكون حجمه . وقد حلت ايطاليا محل اليابان في ترتيب الافضلية ، ولم يكن من الهين اسداء هذه النصيحة ولا يمكن ان يقبل ذلك على علاته اخيرا قبل بداية الحرب . وكانت اعتراضات « الكومونولث » منتظرة وقد تمت . ولكن الاشارة كانت واضحة لذلك الترتيب للافضلية الذي كان فيه اضطرار لوضع الوطن والدفاع القريب بالدرجةالاولى عندما تكون الموارد غير كافية لجميع الاشياء التي يمكن ان يطلب عملها .

وفي الثلاثينات ، ان لم نقل قبل ذلك ، استحق الجيش لقب « ادارة ساندريلا » . وقد نص تقرير لجنة المتطلبات الدفاعية الاول ، الذي أمن اسس برنامج النواقص لعام ١٩٣٤ على انه بالاضافة الى الانجازات الامبراطورية العادية ، على الجيش ان يجهز قوة لحملة برية لدى اندلاع حرب أوروبية . وكانت العقيدة الاستراتيجية الرسمية المعروفة ... « ان اهمية سلامة بعض الاراضي في الجهة المقابلة للقنال وبحر الشمال ، التي كانت لعصور خلت ولا تزال ، ذات مصلحة حيوية لهذه البلاد من وجهة النظر البحرية ، تلوح في

الافق اكثر من أي وقت مضى عندما يؤخذ بعين الاعتبار ايضا الدفاع الجوي ».

وفي هذه المرحلة لم يكن الحل ما اذا كان يجب وجود مثل قوة تلك الحملة بل فقط كم يجب أن يكون حجمها بالنسبة لمفهوم الدعم بعد ان تكون قوة الميدان النظاميــة الاصلية قد تشكلت . ولكن بما انه بوشر بمناقشة نصوص الدعم ، وبخاصة خلال شتاء ١٩٣٦ ــ ١٩٣٧ ، ابتدات عقيدة استراتيجية جديدة ومختلفة بالتبلور . وخلال الاشهر القليلة الاخيرة التي أمضاهـا وزير الحربية السيد « دوف كوبر » في مركزه ، حاول اقناع زملائه الوزراء بتأمـين تجهيز للجيش ليس فقط لمساندة قوة حملة مؤلفة من خمس فرق نظاميـة بـل ايضا لدعم أثنتي عشـرة فرقة من الجيش البري . وحـوالي نهاية عـام ١٩٣٦ اعطت الحكومـة تعليمات لرؤساء الاركان لبحث هـذا الموضوع مـع انتباه خاص « للمزايا النسبية بوصفها عائقا للقوة الارضية والقوة الجوية في تجهيزهما بنفقة متساوية » .

وقد عاد رؤساء الاركان كما هو شأنهم في اغلب الاحيان سابقا ولاحقا ، مصحوبين بتوصيات لمصلحـة برنامج متوازن . فاذا مانشبت حرب كبـرى ، يتوجب على القوى المسلحة الثلاث القتال متعاونة . ولكن الحاجة لملاحظـة القيود المالية قد ضغطت على الوزارة عن طريق الوزير ومن قبل وزير تنسيق الدفاع ، وكان الدفاع الجوي يحتل مكانا بارزا في تخطيط الحكومة للامور . الا انه في شتاء ١٩٣٧ ــ ١٩٣٨ قبلت نظرة جديدة لمسؤوليات الجيش مبنية على العقيدة الاستراتيجية « المسؤولية القانونية المحدودة » . وجوهر هـذه العقيدة هو انه على بريطانيا تركيز جهودها على التسليحين البحري والجوي . وهذا ، كما كان شأنه في اغلب الاحيان في الماضي ، يلقي بثقل القتال الارضي على عاتق حلفائها . ويدخل في عداد مسؤوليات الجيش تجهيز الدفاع المضاد للطائرات والمناطيد الذي يجب ان يأتي بالدرجة الاولى ، والتعهدات الامبراطورية بالدرجة الثانية ، وتأتي اخيرا قوة حملة الغزو . وكان رفض « الفرضيـة البرية » « جوهر سياسة » « المسؤولية المحدودة » . وكان يقتضي تخطيط تجهيز القوة الميـدانية بحسب مفهوم الحـرب الاستعماريـة في عمليات تجري على المسرح الشرقي .

وصحيح انه على الاقل قبل « ميونيخ » لم يكن واضحا وجود ضغط افرنسي على بريطانيا لتجهيز قوة غزو كبيرة . واكثر من ذلك ، ان ليدل هارت سواء أكان آنئذ ام فيما بعد أوضح ان معالجة بريطانيا المعروفة لهذا الموضوع كانت تحضير قوة صغيرة مدرعة مختصة لتدعم المقاومة الفرنسية ولتجابه طرق الحرب الخاطفة الالمانية . وهذا ما كان يمكن ان يشكل الحل الصحيح ولكنه يمكن ان يكون ناجحا فقط في حال افتراض وجود تعهد ثابت بري . وكان ذلك الافتراض بالضبط هو الذي جرى نفيه .

لكن هذا قد تغير في ربيع ١٩٣٩ . وبعد « ميونيخ » مهما كان وضع الافرنسيين السابق فقد شرعوا بالضغط طلبا لمساعدة قوية برية من المملكة المتحدة . واذا وقعت في الحرب التي بدت آنئذ محتومة ، ضحايا كثيرة لن يستطيع الافرنسيون عندها قبول فكرة انها وحدها هي التي تبرر تحملهم . وفي ربيع ١٩٣٩ قبل الالتزام الاوروبي بكامله ووضعت الخطط من اجل جيش مؤلف من اثنتين وثلاثين فرقة . وانطلاقا من هذا بدأ ازدياد حجم الجيش البري وادخال التجنيد في زمن السلم للمرة الاولى في تاريخ بريطانيا . وبالاستناد الى العقيدة الاستراتيجية كانت حكومة المحافظين في زمن محادثات الاركان البريطانية الفرنسية في ربيع وصيف ١٩٣٩ قد رجعت الى حيث كان سلفاؤها الاحرار قبل ثماني سنوات من اندلاع الحرب العالمية الاولى .

وانه من الصعب لدى تلخيص الاتجاهات الفكرية خلال عشرين عاما ألا يكون المرء غير عادل في بعض الاوقات بالنسبة للافراد والحكومات . الا أن هناك نقطتين يجب ايرادهما في الخلاصة اولاهما ان العقيدة الاستراتيجية في بريطانيا بين الحربين العالميتين كانت مبنية بقدر كبير على العودة الى مفهوم الاستقلال او العزلة ضمنيا حسب تعبير « سالزبوري » الذي اوردناه في بداية هذا البحث . فالوزراء والشعب على السواء كانوا في احيان كثيرة منقادين بضلال لتشويش الطرق التي بموجبها جرى خوض الحرب مع الاسباب الاستراتيجية التي دفعت ببريطانيا الى الدخول فيها بالدرجة الاولى . الا انه كان هناك استثناءات هامة : « ايدن » وثم بعد ١٩٣٣ تشرشل . ثانيا مع ان نصيحة رؤساء الاركان حذرت الوزراء في اغلب الاحيان من اخطار ذلك الادراك الخاطىء

فان القوى المسلحة الثلاث بقيت مدة طويلة تفكر وتخطط لحروبها المنفصلة بدلا من الحرب الواحدة المشتركة . فكانت انظار رجال البحر مركزة على اليابان وعلى الحاجة لوجود اسطول سفن كبيرة . أما رجال الجو فقد اتجهوا بانظارهم نحو اوروبا الا ان تفكيرهم لم يكن في اغلب الاحيان ضمن العقيدة السائدة بين القوى المسلحة ولا بين الحلفاء . وكان الجنود مهتمين لمدة طويلة اكثر باحتياجات القتال البري في المناطق « التقليدية » كمصر والهند . والصعوبة هنا هي في تقرير ما اذا كانت هذه الاختلافات في الابحاث هي نتيجة ام سبب لعدم وجود عقيدة استراتيجية قومية .

ولكن مع فائدة الادراك المتأخر ، يبدو شيء واحد على الاقل واضحا . أن الشعب البريطاني بأسره قصر قبل عام ١٩٣٩ عن ادراك تورطات استراتيجيته القومية في تلك التغييرات في ميزان القوى العالمي التي كانت تتطور خلال الجيلين الماضيين . ولعل التقدير الصحيح لصور الاستراتيجية البريطانية التقليدية الخفية وقليلة الوضوح قد ساعده على تجنب الخطأ وعلى اعتبار التكليف ليس رفضا للاستفادة من عبر الماضي بل ارادة في تطبيق تلك العبر على ظروف منتصف القرن العشرين .

* * *

- ١٠ -

المدخـل الامريكي لدراسة الحرب

١٩١٩ ـ ١٩٤٥

بقلم موريس ماتلوف

تعلم موريس ماتلوف في كلية كولومبيا وفي جامعة « هارفارد » حيث نال شهادتي الماجستر والدكتوراه . وخلال خدمته في الجيش في الحرب العالمية الثانية درس الروسية في جامعة « يال » وخدم كمدرب في مخابرات القوات الجوية . ومنذ ذلك الوقت علم التاريخ في كلية بروكلين ، وجامعة ميريلاند ، والجامعة الاميركية ، وهو الآن مستشار تاريخي ورئيس فرع التاريخ المعاصر في دائرة التاريخ العسكري التابعة لمكتب الجيش . وتتضمن مؤلفاته : « التخطيط الاستراتيجي لحرب التحالف ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ » (مع ادوين . م سنيل) ، و « التخطيط الاستراتيجي لحرب التحالف ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ » . وقد ساهم في مؤلفات : « قرارات القيادة » ، و « الحرب الشاملة » ، و «الحرب الباردة » ، و « قراءات في التاريخ الروسي » ، ونشر كذلك مقالات عديدة عن الاستراتيجية وفن الحكم .

وفي العشرين سنة التي تلت الحرب العالمية الاولى ، قليل من الاميركيين شغلوا انفسهم بالحرب . ولم تكن هناك سوى حفنة من الضباط في واشنطن وفي المدارس العسكرية ، مهتمة بخطط الحرب ، والنظرية العسكرية ، والعقيدة الاستراتيجية . الا ان الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية قامت ، خلافا لدورها المحدود في الحرب العالمية الاولى ، بدور قيادي بصياغتها لاستراتيجية الحلفاء . فما الذي سبب التغيير الكبير ؟ وما هي الاسس الفكرية لذلك التحول، وكيف تطورت ؟ هل دخل الاميركيون الحرب العالمية الثانية باستراتيجية متماسكة) وهل اتبعت استراتيجية اميركا اثناء الحرب نظرية زمن السلم ؟ كيف تحملت عقائد ما قبل الحرب ومفاهيمه تجربة الحرب الحالية ؟ ان وراء الاستراتيجية الاميركية في الحرب العالمية الثانية التي اثارت ذلك المقدار من النقاش بعد الحرب تكمن قصة تغيير المجاري الفكرية والتخطيطية التي نحن في بداية الكشف عنها فقط .

لقد كانت الحرب العالمية الاولى امرا شاذا بالنسبة للاستراتيجيين الاميركيين وبالنسبة للوطن بأسره . ومنذ انعطاف القرن كان يحكم التخطيط الاميركي العسكري موضوعان مسيطران ، الدفاع الاوروبي وحماية الممتلكات في الباسفيك . والاهتمام الاول كان تقليديا ، أما الثاني فقد برز الى المقدمة

مع بروز اميركا الى دولة عالمية وحصولها على امبراطورية فيما وراء البحار في عام ١٨٩٨ . والدفاع عن بر الولايات المتحدة كان هدف الجيش الاساسي وكانت خطط وزارة الحربية مبنية بالدرجة الاولى على ذلك الهدف ، وفيما عدا ذلك ، فقد كانت مهمته غامضة ولا يمكن التكهن بها . وقد ادى التآلف مع الاتجاه نحو الحرب البرية لا العقيدة الاستراتيجية الى تحديد معظم سياساته لما قبل الحرب . اما الاسطول وهو خط الدفاع الاول التقليدي فقد كان مشغولا بالباسفيك وكانت تسود تفكيره عقيدة « الفريد تاير ماهان » الاستراتيجية ومفادها بناء دولة بحرية تعتمد على اسطول كبير وسفن كبيرة وسيادة بحرية وقواعد فيما وراء البحار . وكان تخطيط الجيش والبحرية المشترك الذي لايزال في بدايته مركزا على الباسفيك .

ولم تكن مساهمة اميركا في الحرب العالمية الاولى قد حققت تجربة صحيحة للعقيدة الاستراتيجية الاميركية . وبما ان الاميركيين قد اشتركوا متأخرين وغير مستعدين كالعادة فقد كان لهم تاثير محدود على مجرى الحرب . وقد اتخذت قرارات فورية بالقضايا الهامة من هو العدو الذي يجب هزيمته أولا واين وكيف تتحقق ؟

ولهذا فان المساهمة قد اوجدت سابقات واعطت التخطيط الاميركي اتجاها جديدا . الا ان قسما كبيرا من الراي العام وكذلك السياسة القومية في السنوات الاولى التي تلت الحرب كان راغبا في التراجع عن التدخل في اوربا في المستقبل ، وقد رسخت الحرب في اللاوعي لدى المخططين العسكريين فكرة توجيه معظم الجهد الاميركي عبر الاطلسي . وقد برهن الاميركيون على انهم يستطيعون بمساعدة الحلفاء ارسال قوة من مليوني رجل الى اوربا لدعمها . وبهذا المفهوم كانت ترتبط اهمية الاشراف الاميركي على الاطلسي بقصد ربط العالم الجديد بالعالم القديم بمجهود حربي مشترك . اما فكرة أن خلل التوازن في القوى على القارة الاوروبية من شأنه ان يهدد الامن القومي طويل الامد للولايات المتحدة ويتطلب عمليات معارك برية فيما وراء البحار في اوروبا فقد كان مبدأ ثوريا . وهذا الدور الاضافي للقوات البرية الاميركية في اوروبا تجاوز كثيرا المفاهيم السابقة البسيطة المختصة بالدفاع عن الوطن الام التي

كانت تسود التفكير الاستراتيجي العسكري حتى ذلك الوقت . وبهذا المعنى كانت الحرب العالمية الاولى نذيرا بنهوض الجيش في مراحله الاستراتيجية كما فعلت حرب ١٨٩٨ التي دفعت بالاسطوال الى النهوض . اما امكانية وجوب اعتماد الامة على استراتيجية جديدة ، مبنية على قوات برية كبيرة مستعدة لتقاتل في سبيل الامن القومي في الخارج وعندما في حال وجود تهديد مباشر القارة الاميركية ، فلم تجابه بصورة فورية وقوية . الا ان مذكرة اوروبية رفعت الى الادارة الاستراتيجيه الاميركية اتخذت كأساس فيما بعد .

وقد اقامت الحرب العالمية الاولى معالم اخرى هامة للاستراتيجية الاميركية المقبلة . فسجلت مساهمة الولايات المتحدة في حرب حلفاء وقد عرضها ذلك لاعظم تجاربها الاولى في حرب تحالف في القرن العشرين . وعلى الرغم من عدم تهيئة الخطوط الرئيسية لاستراتيجية حليفة وعدم حيازتها لخطة حسنة التنظيم لحسابها فانها تمسكت منذ البداية ببعض المبادىء : سلامة القوات الاميركية ووحدتها في المعركة ، ووحدة القيادة ، والجهد المركز ، والروح الهجومية . وعندما الح الجنرال « بيرشنغ » منذ البداية بأن على جيوش الولايات المتحدة ان تتدرب على المعركة الهجومية في معركة مفتوحة بقصد الاسراع في فتح ثغرة في الجبهة الغربية المرتبكة ، فقد كان يعبر عن نفاذ صبر اميركا لاستطاعة الحروب ، وكان يستعيد الرغبة التقليدية من اجل « حروب حادة وحاسمة » . وقد حذر الزعماء الاميركيون من « المشاهد الجانبية » ودعوا الى حرب جماعية ومركزة ، كما ان السياسة القومية باستثناء حملتي « سيبيريا » و « مورمانسك » ، ساندت العسكريين . وكما حدث في حروب الامم السابقة ، كان الهدف العسكري منذ البداية النصر الكامل ، واما سلم الرئيس « ولسون » « سلم بلا نصر » فقد ظل شعارا لم يتحول الى جزء من العقيدة العسكرية .

ومع ان الجيش لم يطور عقيدة استراتيجية لكي ينافس عقيدة الاسطول (القائمة على توسع كبير في القوة البحرية واستراتيجية قومية حسب مفهوم ماهان) ، فقد نجح الجيش في نهاية الحرب العالمية الاولى في تنفيذ ما سمي

فيما بعد « استراتيجية المسرح » . وقد زودت تجربة اوربا في الحرب العالمية الاولى الزعماء العسكريين المقبلين في الحرب العالمية الثانية ، كالجنرال « جورج س. مارشال » ، بقسم هام من الثقافة الاستراتيجية . وكثير من المبادىء الاستراتيجية ، التي تم بموجبها انتشار الجيوش الاميركية في اوربا ، قد ثبتها القادة الاميركيون في محيط المسارح المتعددة للحرب العالمية الثانية ولقيت تطبيقا اجماليا . ومن تجربة المعركة الاميركية في ساحات المعارك الاوروبية اتخذت الاسس لعقيدة المستقبل الاستراتيجية .

١٩١٩ ــ ١٩٣٨ التراجع عن الواقع :

بعد الهدنة عاد رقاص الساعة الى مكانه . وفي ردة الفعل النموذجية الاميركية ضد الحرب ، هب الوطن لاعادة اولاده الى البلاد ونسيان الانحراف . والاهم من ذلك ان الولايات المتحدة رفضت دورا عالميا ناشطا . ولم يكن هناك أي سبب واضح وفوري بعد الحرب يدفع بالولايات المتحدة لان تشعر باختلال امنها . وبصورة احتمالية اعيد توازن في القوى في الخارج واعيد معه قسط من الحالة الطبيعية . وفي السنوات العشرين التي تلت انتهاء الاعمال العدوانية ــ والى ميثاق ميونيخ في ايلول ١٩٣٨ ــ حاولت الولايات المتحدة ، ان تحمي امنها القومي بطرق غير عسكرية . وبعد زوال اوهامها بحصيلة الحرب العالمية الاولى ، وضعت آمالها في الحواجز الجغرافية وفي الاتفاقات الدولية لتحريم الحرب وتحديد الاسلحة البحرية ، وفي العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية لعدم تشجيع العدوان ، وفي التشريع للمحافظة على الولايات المتحدة بعيدة عن الحروب الاجنبية .

وخلال هذه السنوات كانت السياسة القومية متأثرة تأثرا عميقا بالاعتقاد الشعبي بأن على الولايات المتحدة الا تدخل في احلاف عسكرية ولا ان تحتفظ بقوات عسكرية قادرة على عمل هجومي . وتحت وطأة هذه الظروف وفي سبيل مصلحة الاقتصاد القومي عارضت السياسة القومية المنشأة العسكرية الكبيرة باهظة التكاليف . وقد نسفت سنوات التوفير العشرون العقيمة اثناء السلم بين الحرب العالمية الاولى والحرب العالمية الثانية قوة المنشأة العسكرية .

وحوالي عـام ١٩٣٩ كان الجيش قد خفض ، كما جعله الجنرال « مارشال » ، الى مستـوى « قوة من المرتبـة الثالثـة » . امـا سلاح الجو كما صـرح فيما بعـد الجنرال « هنري . هـ . آرنولد » فقد كان لديه « خطط ولكـن ليس طائرات » . وحتى الخط التقليدي الاول للدفاع فقد كان لايزال اسطولا لاوقياتوس واحـد .

ولما كان حجم المنشأة العسكرية وقوتها قد تخلفا الى ادنى مما يماثلهما في الدول الكبرى فان الخطط الحربيـة الاميركية ايضا قد بعدت عن الواقع . اما التخطيط في اعوام ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ فقد ركز حول ماسمي بالخطط الملونة الموضوعـة من قبل مخططين في ادارات الحربية والبحرية . ومن بين الخطط الاثنتي عشرة أو مايماثلها والتي كان كل لون فيها يشكل اسما اصطلاحيا يدل على وضع طارىء او بلد خاص ينظر اليه كعدو في احدى الحالات ، لم تكـن كلها اكثر من تمرينات اكاديمية مجردة . وهذه الخطط الحربية المبكرة منطبقة على الفلسفة المستوحاة من المثل الاعلى الكلاسيكي للاركان العامة وهو وجود حالة تهيؤ للعمل لدى اي طارىء يمكن تصوره . الا ان جو زمن السلم الـذي جهزت فيه ، جعل من الصعب ان تتصف بالعملية . ولم يكن هنـاك توقع لاعمال عدائيـة . وكانت حالة الطوارىء المتخيلة مع ذلك غير محتملة بشكل قـوي او انها كانت نسبيا ذات أهمية اقل . وبما ان الخطط كانت محدودة الهدف فانها لم تتوقع حربا عالمية ولا جماعية . ولكنها بـدلا من ذلك ، مثلت نماذج حرب اعتقد المخططون ان الكونغرس والرأي العام يتحملانها . ان الفكـرة الرئيسيـة لجميع المخطط الملون حتى عـام ١٩٣٩ كـانت المفهوم الاستراتيجي الـذي فرضته السياسة القومية وهو الـدفاع ضـد أي تهـديد خارجـي عن بر الولايـات المتحدة ومصالحها من قبـل الولايات المتحدة وحـدها . وباستثناء « خطة اورانج » ، التي تشير الى اليابان ، فان تلك الخطط كان لهـا صلة ضعيفـة بالانحيازات السيـاسية والعسكرية المعاصرة . وممـا له مغزى كبير انـه لم يكن هناك خطـة ملونة متطورة ضد المانيا العدوة في الحرب العالميـة الاولى .

واذا عدنا الى الماضي نجد ان التخطيط الحربي الاميركي قبل عام ١٩٣٩

يمثل انقلابا بالراي بعد الفترة الفاصلة للحرب العالمية الاولى : نحو اهتمام بالدفاع عن القارة والباسفيكي . وقد وضعت السياسة القومية والنفسية العامة والميزانيات الفقيرة قيودا في وجه التخطيط الاستراتيجي واعادته الى مجراه السابق . وقد وزد في خطط الالوان بصورة ضمنية مفهوم لحرب محدودة ـ محدودة بالمشتركين فيها وبالمناطق والقوات ـ ولكن لم تتطور من أجلها اية نظرية .

الا انه تحت سطح التخطيط الهادىء بين ١٩١٩ و ١٩٣٨ كانت تطفو نظرية استراتيجية . كما ان الاسلحة الحديثة التي ادخلت في الحرب العالمية الاولى قد طورت بصورة اوسع وادق في حين ان النظريين الاوروبيين قد ناقشوا طاقتهم وغاية الحرب . وفيما يختص بنمو تجربة الحرب العالمية الاولى ، فان الاستراتيجية في اوربا ، كما في الولايات المتحدة ، اصبحت تعني الدفاع بشكل كبير . وفي الحقيقة ، كان احد الدروس الاستراتيجية الرئيسية المأخوذة من تلك الحرب هو الاهمية الكبرى للدفاع وتفوقه على قوة الهجوم في ميدان المعركة . ولكن اتجاهات معاكسة للنظرية الاوروبية قاومت بسرعة هذا التأكيد السائد . وقام تحد قوي صادر عن المدرسة الفكرية الجديدة ـ وكان المعارضون للقوة الجوية بقيادة « جيوليودوهية » . كما صدر تحد آخر من كبار مؤيدي المكننة والآليات ومن بينهم « ج.ف.س فولر » ، و « ب.هـ ليدل هارت » في بريطانيا ، و « شارل ديغول » في فرنسا .

وكان النقاش في اوربا حول الاستراتيجية اكثر حدة نظرا لكون نظريتها الاستراتيجية اكثر قدما وقوة . الا ان انعكاس الاصداء قد دوى بسرعة بين النظريين الاميركيين ، وليس فقط بين اولئك الموجودين في اعلى المدارس العسكرية بل بين اولئك المفكرين المنفردين بصورة نسبية . وبالتدريج شرع الهجوم المتوافق مع النظرية الاوروبية بالظهور داعما التجربة الاميركية وبدأ يتسرب عبر التقييدات المفروضة على التخطيط الحربي وعلى الكتابات العقائدية الرسمية . وفي حين تقدمت كل قوة من القوى المسلحة بشرح قضيتها الاستراتيجية بلغة الدفاع وبمطلب سنوات العشرينات والثلاثينات ،

فقد خالطت روح الهجوم الفكر الاستراتيجي واصبحت مندمجة في التخطيط .

ولم يبد تفضيل الهجوم اكثر وضوحا منه في وضع الاسطول وفي تخطيطه من اجل حرب ضد اليابان . لان الحرب العالمية الاولى غيرت تغييرا جذريا وضع الولايات المتحدة في اقصى الباسفيك ، واقد كان فكر الولايات المتحدة الاستراتيجي من عام ١٩١٩ — ١٩٣٨ موجها توجيها واسعا نحو الباسفيك والقضايا المتسببة عن عدوان ياباني محتمل ضد المصالح الاميركية واراضيها هناك . وعندما استأنف المخططون المهتمون اهتماما بالغا بالدفاع عن المنطقة موضوع استراتيجية الباسفيك بعد الحرب كانوا محظوظين لاعتمادهم على الاسس النظرية التي كان يتزعمها « ماهان » في فترة ما قبل الحرب ، وقد فكروا بتكييف ارثه الاستراتيجي وفاقا للتكنولوجيا والتكتيك الحديثين ، وللوضع العالمي المتغير ، وللحاجة للوصول الى حل وسط مع القوة المسلحة الشقيقة اي جيش الولايات المتحدة .

وكان سلاح البحرية حتى قبل الحرب العالمية الاولى قد اكد بالاتفاق مع « ماهان » بان الدفاع عن مركز جزيري يرتكز على قوة بحرية والدفاع عن الارض محكوم عليه بالفشل دون سيادة بحرية . وان تفوق اسطول الولايات المتحدة هو مركز حماية المصالح الامريكية في الباسفيك . وكان ماهان نظرا لاعتقاده بان التهديد الوحيد في الاطلسي يمكن ان يأتي من الاسطول البريطاني وان بريطانيا اصلح للمحافظة على أمن الولايات المتحدة في ذلك الاوقيانوس ، قد افضى بان ممتلكات امريكا من الجزر في الباسفيك يجب تحويلها الى قواعد بحرية بهدف تأمين تفوق الاسطول الامريكي الذي يمكن استبقاؤه في البحر الكاريبي وارساله الى الباسفيك . وهذا ما نبه الى وجوب قيام الجيش بدور رئيسي في الفلبين الى ان يصل الاسطول . ولكن المواقع المحددة والدفاع عن القواعد الحيوية في الباسفيك هي مسائل ظلت قيد المناقشة الطويلة من قبل الجيش والبحرية .

ومنذ اوائل العشرينات ، اعطى مخططو الجيش والبحرية في واشنطن

افضلية لدراسة العمليات ضد اليابان على غيرها من تمارين التخطيط الاخرى المدمجة في خطة اورانج . وبين ١٩٢٤ و ١٩٣٨ اعادوا النظر في خطة اورانج التي توقعت في باديء الامر حربا بحرية مرارا عديدة . وعدا هذه التغييرات برزت مفاهيم استراتيجية اساسية لقيادة القوات الامريكية في حرب ضد اليابان . وفي منتصف الثلاثينات استخلص المخططون العسكريون الامريكيون بانه يمكن قهر اليابان فقط بعد حرب طويلة ومكلفة تفقد فيها الفيلبين باكرا . ومنذ ذلك الحين دعا المخططون البحريون لعمليات هجومية امريكية تتخذ شكل تقدم عبر الباسفيك داخل الجزر الواقعة تحت الانتداب ، ابتداء من جزر مارشال وكارولين ، ولانشاء خط امين من المواصلات الى الباسفيك الغربي . وهذا المفهوم البحري الجديد لحركة تدريجية عبر الجزر تحت الانتداب ، رسخ في التفكير البحري .

وكان لدى الدوائر الحربية شكوك جدية فيما اذا كان على الولايات المتحدة ان تعرض نفسها لخطر قتال اليابانيين في الباسفيك الغربي . وفي خريف ١٩٣٥ اتخذ مخططو الجيش موقفا بان على الولايات المتحدة الا تبقى لوقت اطول عرضة لتجربة غير مثمرة هي الدفاع عن الفلبين وتخليصها ولتجربة مكلفة هي العودة لاستعادتها . ان الاعتماد على قاعدة غير مدافع عنها بصورة ملائمة يؤدي الى كارثة . وقد الح « البريغادير جنرال ستانلي . د. امبيك » ، رئيس تخطيط الجيش ، بأن تكون استراتيجية الولايات المتحدة في الباسفيك مركزه بدلا من التمسك بما كان يسمى « المثلث الاستراتيجي » : الاسكا — هاواي — باناما . ولكن مخططي البحرية رفضوا وجهة النظر هذه ، لان جميع قواعد التخطيط للبحرية في زمن السلم بنيت على الزعم بان على البحرية ان تكون مستعدة للمبادرة الى الهجوم في الباسفيك في حالة اندلاع حرب . وكان التخلي عن التخطيط لاستخدام الاسطول في عمليات هجومية غربي هاواي خارجا عن الموضوع بالنسبة للمخططين البحريين .

وظل مخططو الجيش والبحرية لمدة سنتين عاجزين عن حل خلافاتهم حول استراتيجية الباسفيك . وفي وقت مبكر من عام ١٩٣٨ توصلوا اخيرا الى

اتفاق . وقد انتهوا الى ذلك بتجنبهم الحلول المختلف عليها . فبالنسبة « الخطة اورانج » المعدلة لعام ١٩٣٨ قبل مخططو البحرية ان يحذفوا الاشارة الى حرب هجومية والقضاء على القوات اليابانية والحركة المبكرة للاسطول في الباسفيك الغربي . وبالمقابل قبل مخططو الجيش ان يلغوا الفقرة الشرطية بان العمليات غربي جزر هاواي تتطلب موافقة الرئاسة . ولم تشر الخطة المعدلة الى كم من الوقت يحتاج الاسطول للتقدم غربي الباسفيك . واعترفت بصورة ضمنية بموقف القوات الاميركية اليائس في الفلبين وهي التي عليها ان تحتفظ بمهمتها بالتمسك بمدخل خليج « مانيلا » ولكن بأمل ضعيف من الدعم .

وعلى الرغم من ان القوى المسلحة البرية والبحرية لم تظفر بكل ماتريد الا ان كلا منها نال الاعتراف بالمبادىء المعتبرة عامة . وكان الجيش قد سجل في الخطة الاهمية الاولى للمثلث الاستراتيجي : الآسكا — هاواي — باناما للدفاع عن الولايات المتحدة . اما البحرية فقد امنت مبدأ حرب هجومية الامر الذي كان موجودا بصورة ضمنية في مفهوم تقدم متدرج عبر الباسفيك وتجنب توريط نفسها في تحديد المدة التي يستغرقها التحرك — وهو عنصر اساسي في أية خطة دفاع عن الفلبين . اما « خطة اورانج » لعام ١٩٣٨ وهي حل وسط بين الاستراتيجية الهجومية والاستراتيجية الدفاعية فقد عكست التناقضات والقيود في السياسة القومية والرأي العام اللذين عمل في كنفهما المخططون . والامة لم تكن راغبة في التنازل عن الفلبين ولا تأمين الوسائل لضمان الدفاع عنها ولا تحصين « غوام » كقاعدة تبادلية .

وفي غضون ذلك ، وعلى الرغم من القيود في الميزانية في حقبة ما بين الحربين ، فقد استكملت البحرية التقنية والتكتيك والتجهيز والعقيدة لدعم الهجوم . فقد بدات بتطوير حاملة الطائرات باعتبارها سلاحا ضاربا . وكان على المتحمسين لسلاح الطيران البحري لكي يضموا الطيران الى الإسطول ، ان يتغلبوا على مقاومة ادميرالات السفن الحربية والمؤيدين لقوة جوية واحدة . وفي الوقت نفسه ، حسنت البحرية الغواصات ، وعمل ضباط مجموعات الاسطول والبحرية مع أصحاب معامل مدنيين لتطوير نماذج جديدة من سفن الانزال

وعربات من أجل معارك برمائية. وقد غدت قاعدة المجموعة البحرية «كوانتيكو». في فرجينيا ، المركز النشط لتطوير فن عمليات الانزال . وحوالي منتصف الثلاثينات ، وبعد سنوات من الدراسة والتجارب ، وضعت المجموعة البحرية صيغة جديدة لعقيدة برمائية كان من شأنها ان توصل الى احد أشهر التجديدات في التكتيكات بعيدة المنال في الحرب العالمية الثانية . وفي نهاية ١٩٣٠ كانت البحرية قد طورت طرقا فنية لاعادة تزويد الاسطول بالوقود في البحر ونجحت باحراز تقدم في مهمة الناقلات السريعة بلغ ذروته بعد « بيرل هاربر » . اما قبل بيرل هاربر فقد كانت البحرية تفكر آنئذ بمفاهيم متقدمة للقوة البحرية فيما يتعلق بحرب الباسفيك .

وفي حين كانت البحرية تركز على قضايا حرب ماوراء الاوقيانوس في الباسفيك ، كان الجيش مشغولا بالحرب البرية والدفاع عن القارة . وبلغة الدفاع ،تكلم الجيش بصيغ منع الدول الاوروبية من الحصول على موطيء قدم في القارة . وقد أطلق « الجنرال بيتــون س. مارش » ، رئيس الاركان عام ١٩١٩ ، الفكرة الرئيسية فكتب : « من المتفق عليه انه من الدروس الهامة جدا المستمدة من هذه الحرب بان توقعا مسبقا مسؤولا وسياسة عسكريــة حازمة تتطلبان ان يوجد في كل زمان قوة كافية مدربة ومنظمة لاستخدام فوري لتضمن بالاتصال مع دفاعاتنا الساحلية الثانية عدم استطاعة أي عدو محتمل او ممكن الاستيلاء على أية قاعدة استراتيجية في ساحلنا » .

الا انه الى جانب مجال اهتمام الجيش من أجل الدفاع البري كــانت التطلعات الهجومية أيضا مستثارة ردا على الانطباع الذي خلفته الحرب العالمية الاولى علــى فكر الجيش الاستراتيجي وعلى العقيــدة . وبدت انتصارات « الجنرال بيرشنغ » في فرنسا انها تثبت المبادىء التقليدية لاستكمال النصر في ساحة المعركة بالتوافق مع فكرة « كلوزويتس » . ولكن التعاليم الرسمية لما بعد الحرب لم تتضمن اشارة للحلفاء . وكان هذا واضحا بالعقيدة الآمرة المفرغة في انظمة خدمة الميدان العسكرية والمعدلة من قبل رئاسة الاركان عام ١٩٢٣ والتي صاغت مجددا حقيقة بدهية مأخوذة عن « كلوزويتس » : « ان الهدف النهائي لجميع العمليات العسكرية هو تدمير قوات العــدو المسلحــة

بالمعركة . وان الهزيمة الحاسمة في المعركة تحطم ارادة العدو للحرب وتجبره على التماس السلم » . والهجوم وحده يستطيع الحصول على نتائج حاسمة . ولكي يظفر الهجوم بالنجاح فانه لايتطلب فقط تركيز قوات متفوقة في المكان والزمان الحاسمين ولكن أيضا تعاون القوات الارضية والقوات الجوية . « لايستطيع أي سلاح بمفرده ان يكسب المعارك » ، هكذا نصت التعليمات ، الا ان مبدأ التنسيق الذي يرسخ استعمال الاسلحة المشتركة هو ان مهمةالمشاة هي المهمة العامة لجميع القوى . والمهمات الخاصة بالاسلحة الاخرى منبثقة عن قدرتها على المساهمة في تنفيذ مهمة المشاة . وبموجب هذا التفسير بقي المشاة أسياد المعارك » .

وهذه النظرية عن الحرب ، المستقاة بصورة واسعة من النظرين الاوروبيين ومن تجربة الحرب العالمية الاولى في القارة الاوروبية ، ظلت بصورة جوهرية مدخل الجيش الامريكي لدراسة الحرب . أين وكيف ستشتبك القوتان الارضية والجوية مع عدو ما ، لم تكن واضحة . وكانت التعديلات في عقيدة الجيش قبل الحرب العالمية الثانية علامات باتجاه تيارات جديدة تؤثر على الحرب المدرعة . والحرب الجوية . وباحتمال الوقوع في حظر المبالغة بالتبسط في الحقبة مابين الحربين ، كان على العقيدة العسكرية ان تمتثل بصورة مصفرة كما فعل كلوزويتس بدقة .

واثناء ذلك تركت تجربة الحرب العالمية الاولى طابعها في اقسام أخرى من تفكير مابعد الحرب العسكري وبخاصة في التنظيم والتكتيك ومتطلبات القوى البشرية وتجهيزاتها . وبما ان الحرب قد وقعت بالنسبة للجيش الاميركي بصورة رئيسية في محيط عمليات منفرد ، هو المسرح الاوروبي ، فقد كان الجيش مهتما بصورة خاصة بمفهوم القيادة العامة وفرضيتها عن الحرب في الخارج . وكان في ذهن الجنرال « بيرشنغ » ومستشاريه ان الحرب أثبتت الفكرة القائلة بان التخطيط الاستراتيجي في واشنطن وقيادة العمليات في الميدان يجب ان يزداد ترابطهما الوثيق . والآلة التنظيمية لاعلاء شأن القوة ونشرها لمجهود رئيسي فيما وراء البحار يجب تقويتها . ولما كان غير ممكن في العشرينات والثلاثينات دفع مثل تلك الفكرة الى الامام بصيغ الاستراتيجية

الهجومية وحدها ـ وقد أصبح حينئذ التكلم عن الحلفاء والقوات المرسلة الى الخارج ضربا من السياسة ـ فان مفكري الجيش مالوا الى دفع مفاهيم « ايليهوروت » ، الذي اوصل فكرة الاركان العامة في عام ١٩٠٢ الى النضوج . ولما كانوا قد بنوا على مفهوم الاركان العامة فقد انشأوا جزءا من فكرتهم الاستراتيجية في صيغ تنظيمية . وهذا ما وجد تعبيرا عنه في خطة القيادة العامة التي دعا اليها الجنرال « بيرشنغ » . ومستشاروه أثر عودتهم الى الولايات المتحدة . واقترحوا ان يكون في الاركان العامة مجموعة خاصة من الضباط عليها رسم الخطط الاستراتيجية في زمن السلم وتطبيقها في الميدان في زمن الحرب . وهذه المجموعة تقوم بمساعدة رئيس الاركان في حال تحركه الى مسرح الحرب بوصفه الجنرال الآمر لقوات الميدان . وبناء على ذلك ، أسس قسم التخطيط الحربي في عام ١٩٢١ باعتباره القسم الخامس للاركان العامة وكلف بمهمة التخطيط الاستراتيجي وتجهيز مركز القيادة العامة في حالة الحرب . وقد تحمل مفهوم القيادة العامة لعام ١٩٢١ استنادا لتذكر تجربة قوات الحملة الاميركية في الحرب العالمية الاولى المجهود الاكبر على مسرح رئيسي ـ جبهة واحدة ـ فيما وراء البحار . ومما له دلالته انهم لم يفكروا بقوات هائلة تنتشر فيما وراء البحار في حرب عالمية ناشبة في مسارح متعددة . وعندما اندلعت الحرب في أوروبا عام ١٩٣٩ ، كان مفهوم القيادة العامة لايزال هو قبول عقيدة عسكرية نظامية .

وكما كان الجيش بالضرورة في غموض فيما يتعلق بالعدو المحتمل أو مسرح ماوراء البحار الذي عليه يوما ما ان يقاتل فيه ، كان قادته ومخططوه يتأملون في معضلة السياسة القومية التي تتطلب جيشا صغيرا في زمن السلم والعادة القومية التي تتطلب هجوما « عنيفا وحاسما » لدى اندلاع الحرب . ومع ان احتكاكات أركان الجيش في الخارج محدودة فقد حاول الجيش ايضا ان يحافظ على اتجاهات الحرب البرية والتكنولوجيا . وقد كافح بطرق جديدة للتغلب على المأزق الاستراتيجي الذي أخر الحرب العالمية الاولى تلك المدة الطويلة .

وقد تكهن المحاضرون في كلية الحرب وفي مدارس أخرى للجيش بوقوع حرب حركة مقبلة وحبذوا المكننة والآليه وهي اتجاهات كانت منارة في النظرية

الاوربية للمعركة . وقد شددوا على ان عوامل الزمان والمجال قد تغيرت بالطيران والمركبات الآلية وبالتجديدات والتجارب الجارية على الدبابات . وفي هداة مدارس القوى المسلحة ومراكز الحاميات ، كان الضباط يقومون بدراسة النظريين الكلاسيكيين الاوروبيين وحملات « الحرب الاهلية » والحرب العالمية الاولى . واثناء ذلك ، وفي مراكز معزولة ، كان القادة الذين سيديرون فيما بعد القوات الحليفة الهائلة في الحرب العالمية الثانية ـ كايزنهاور وكلارك ، وبرادلي، وباتون ـ قادة كتائب على الاكثر .

وفي نهاية فتره مابين الحربين كانت هناك دلائل على تزايد القلق في الفكر العسكري . الا ان الجيش الذي كان لايزال يعاني من الحرمان لم يطور أية نظرية عن الاستراتيجية الكبرى ـ ولم ينشىء أي مخطط متماسك بالنسبة للقوة الارضية بوصفها سياسة قومية ـ لكي ياهب البحرية أو اولئك الرسل المروجين للقوة الجوية . ولم يحظ الجيش بمثل « ماهان » او « كلوزويتس » ولا على رجل يضاهي « دوهيه » بالنسبة لهذا الموضوع .

وفي حين كانت دوائر البحرية والحربية في فترة مابين الحربين تصوغ مفاهيم عن الحرب في البحر وللقوات الارضية معا، تقدم المفكرون داخل الجيش وخارجه من سلاح الطيران ببحث ثالث أكثر ثورية عن الحرب الجوية . وهذا المفهوم الجديد للحرب والعقيدة التي نمت معه قد بني على اساس السلاح الجوي والقصف الاستراتيجي . والقصة التفصيلية لتطور عقيدة القصف الاستراتيجي وللمعارك المتعلقة بها في سبيل استقلال القوة الجوية وفي سبيل قاذفة القنابل الثقيلة بعيدة المدى ، قد رويت بصورة جيدة في كل مكان . وما من حاجة للاعتماد على المناقشات الجماهيرية والمجادلات الناشئة عن الحملة العنيفة بالنسبة للقوة الجوية التي شنها « بيلي ميتشيل » النابض بالحياة ، والذي أجبر على الاستقالة من الجيش في عام ١٩٢٦ . وما تجدر الاشارة اليه ، التأثيرات التي لعبت دورا في تفكير هؤلاء الرواد من رجال الطيران الاميركي والانطباع الذي خلفته على نظرية الطيران الاميركية المتطورة في مدرسة القوات التكتيكية الجوية .

وقد استمد « ميتشيل » قسما من أفكاره من التأثيرات الخارجية . وقسما آخر من أيام تجربته الحربية في فرنسا ؛ وقسما ثالثا من الوسط الاميركي بعد عودته . وكانت آراء السير « هيوترانشارد » قائد مجموعةالطيران الملكية في فرنسا الذي التقى به عام ١٩١٧ قد اثرت عليه بوجه خاص . فان « ترانشارد » ، وقد كان على علم بذلك ، كان تبني الطائرة بوصفها بالاساس سلاحا هجوميا وقدم برنامجا للقصف الجوي – وهي مبادىء قد تبناها هو بنفسه . ولكن « ميتشيل » ايضا اعتقد بأن كل امة ، نتيجة للنماذج المختلفة من الجغرافية وطرق التفكير في الدفاع القومي ، تتطلب سياسة جوية مختلفة. الا انه قام بعد الحرب بتطوير افكاره وبدفعها نحو مضمون اميركي .

وعند عودة « ميتشيل » الى الولايات المتحدة وجد ان الاسطول لايزال ينظر اليه كخط أول للدفاع . أما دور القوة الجوية بالاستناد الى المفهوم السائد والمقبول آنئذ لدى الجيش ، كان الدعم الوثيق للمشاة . وبالواقع ان الاركان العامة ، التي راقبت نشوء العقيدة في الجيش ، دونت هذه الفرضية في أنظمة الميدان لعام ١٩٢٣ . وعندما طور « ميتشيل » فرضياته المضادة بدأ بمعارضته لاعتبار البحرية خط الدفاع الاول وانتهى بخصومته لاعتبار المشاة أسياد المعارك .

وقد لخص « ميتشيل » في كتابه الاخير : « طرق السماء » ، المنشور عام ١٩٣٠ ، نظريته عن الحرب بايجاز كلي معلنا « ان الحرب » ، وذلك بصيغة كلوزويتس المألوفة ، « ماهي الا محاولة أحد الامم ان تفرض ارادتها على أمة اخرى بالقوة بعد فشل كافة الوسائل الاخرى .

الا ان محاولة الخصم هي التحكم بالمراكز الحيوية لخصم آخر أصبح فاقد القوة للدفاع عن نفسه . وقد وصف المناطق الحيوية بانها المدن ، ومراكز الانتاج ، وخطوط المواصلات . الا أنه هنا انحرف بخشونة عن استاذه القديم . فقد أكد بان الجيوش والاساطيل قد نظمت لمنع العدو من مهاجمة تلك المناطق الاستراتيجية . وقد اصبحت الحرب اراقة للدماء بين قوات عسكرية متخاصمة حيث ان الاسلحة الجديدة قد رجحت الافضلية للدفاع . الا ان نقطته الاساسية

وهي « بروز القوة الجوية التي يمكنها أن تقصد المراكز الحيوية وتسكتها اسكاتا كاملا او تدمرها قد احدثت مظهرا جديدا كاملا للطريقة الحربية القديمة . وقد تحقق الآن ان معظم الجيش المعادي في الميدان هو هدف خاطيء وان الاهداف الحقيقية هي المراكز الحيوية . أما النظرية القديمة القائلة بان الظفر يعني تدمير معظم الجيش المعادي فلا يمكن الدفاع عنها اذ ان الجيوش نفسها يمكن ان يزدرى بها من قبل القوة الجوية اذا وجهت ضربة سريعة ضد المراكز المعادية».

وفي أوائل الثلاثينات تسربت أفكار « ميتشيل » الى تفكير مدربي القوات الجوية في معظم المدارس المتقدمة ، وفي مدرسة القوات الجوية التكتيكية في ماكسويل فيلد ، في ولاية الاباما . وقد ضمت هذه الكلية نسبة عالية من الضباط معظمهم من النقباء والرواد الذين تبوأو فيما بعد مناصب هامة في مراتب القوات الجوية في الحرب العالمية الثانية . وبالاضافة الى « ميتشيل » التفت المدربون الى غيره من النظر بين الكتاب الذين استطاعوا ايجادهم وكان البعض منهم تقليديين والبعض معاصرين:أمثال « كلوزويتس » و «ليدل‌هارث»، و « غورنغ » ، و « دوهية » . وقد ركز المحاضرون على نموذج معركة هجومية هدفها شل ارادة العدو وقوة مقاومته . وكان على القوى المسلحة الثلاث — الجوية والبرية والبحرية — ان تتعاون الا انه كان لكل منها وظيفتها الخاصة. وكان دور القوة الجوية مهاجمة بنية العدو القومية بصورة كاملة . والهدف الحقيقي كان العقدة الصناعية الهامة للغاية بالنسبة للحرب الحديثة وللقوة الوطنية . وفي مجالين هامين على الاقل ذهب المحاضرون مذهبا ابعد من « ميتشيل » فقد تحدث عن الاستيلاء على قواعد بعيدة عن السواحل مؤلفة من جزر تقود بعيدا عن الولايات المتحدة لتوسيع مدى القوة الجوية . وكان المدربون في مدرسة القوات الجوية التكتيكية ازاء الصيغة الدولية المتغيرة ، وحتى في منتصف الثلاثينات ، يتطلعون نحو الحلفاء لتأمين القواعد في حالة نشوب حرب رئيسية . وكانوا مدركين أيضا أكثر من ميتشيل للحاجة في زمن السلم الى دراسة نظامية لاهداف مفيدة ممكنة في ارض العدو المحتمل للقصف الجوي في الحرب . وقد ظهر بالواقع خارجا عن تعاليم مدرسة القوات الجوية التكتيكية مفهوم عن الحرب الجماعية بطابع اميركي .

وكانت نظرية الحرب التي درست في مدرســة طيران الجيش المتقدمة والمرتبطة ارتباطا وثيقا بميتشيل ودوهيه تختلف اختلافا واضحا عـن عقيدة الجيش الرسمية التي أشرف عليها خلال سنوات الحرب ضباط قوات برية في الاركان العامة . وحتى في القوة الجوية مثلت هذه التعاليم تفكير «المتطرفين» لان العقيدة الجوية قد مثلت في الواقع ثورة في التفكير وسيشعرون بتأثيرهـا الكامل فيما بعد لدى القوات الجوية ، وفي الادارة ، وفي المستويات القومية . وفي نهاية فترة مابين الحربين كان المتحمسون للطيران من الاميركيين لايزالون بعيدين عن اتمام مقالات أخرى متعلقة بالعقيدة الاستراتيجية : كالتنظيمات والاسلحة التي يجب ان تطبقها تلك العقيدة . وكذلك لم يحققوا هدف انشاء قوة جوية منفصلة ولكنهم سجلوا مكاسب في قرار القوات الجوية لعام ١٩٢٦ وفي تشكيل القيادة العامة للقوى الجوية في عام ١٩٣٥ . ان القيادة العامــة للقوات الجوية ، التي هي عبارة عن قيادة لعدة وحدات جوية تكتيكية ، مثلت إحداث قوة ضاربة . وكانت محددة بعقيدة الجيش وعقيدة الجيش والبحرية المشتركة في وظائف دفاعية واسعة شبه مستقلة كان فيها القصف الاستراتيجي تابعا للعمليات المضادة للجو وكذلك للعمليات البحرية . وفي أثناء ذلك طور سلاح الجو أكثر قاذفة قنابل تقدما في العالم : ب ــ ١٧ ، المسلمة في عام١٩٣٧ وكانت كلية الحرب وكذلك المجلس المشترك لايزالان ميالين لاعتبار مهمة الطيران الرئيسية هي الدعم القوي للقوات البرية والبحرية . ولكن مع مرور الوقت اندلعت الحرب عام ١٩٣٩ وكان لدى مجموعات الجيش الجوية عقيدة محددة تحديدا دقيقا مصوغة حول قاذفة القنابل كسلاح هجومي بعيد المدى في الحرب. وقد أصبحت هرطقة ١٩١٩ ــ ١٩٣٨ عقيدة بسرعة .

وهكذا فان النظرية الاستراتيجية الاميركية ، وكذلك التخطيط ، في أعوام ١٩١٩ ــ ١٩٣٨ تطورت بصورة أساسية من خلال خطوط المبادرات الفردية. ولم تقم أية محاولة جدية من قبل اي رئيس في تلك الحقبة لتطوير عقيدة قومية استراتيجية . وان خيبة الامل بالحرب ، والتقهقر نحو العزلة ، والفتــور الاقتصادي الكبير كل ذلك قد أدى الى تحويل أنظار القادة نحو القضايا الداخلية. لذلك فان الرؤساء حافظوا علــى الفصــل التقليدي بين المجالين السياسي

والعسكري ولم يبذلوا اي جهد حقيقي لربط السياسة الخارجيـة بالتخطيط العسكري . وكذلك لم يكن هناك نظام عمل مشترك يستطيع تطوير هيئـة متماسكة وذات سلطة للعقيدة الاستراتيجية . أما المجلس المشترك أداة سيطرة فعالة بكل مافي الكلمة مـن معنى ، فقد اختار ان يتخذ مواقف ملتبسة مـن القضايا الاستراتيجية بين المصالح . وكثير من الخطط التي تطورت على يد مخططي الخدمة المشتركة كانت عبارة عن تمرينات أكاديمية .

وكنتيجة لفقدان التوجيه من الاعلى وفقدان الترابط القوي بين المصالح التي كانت لاتزال تتمتع بسيادة متساوية فقد كان لابد من قيام سياسة « ترك الامور تجري في مجراها » من قبل كل مصلحة تجاه الاخرى .

وعلى الرغم من تشديد السياسة الرسمية على الدفاع ، فان ملاحظات هجومية تسربت الى تفكير الادارة الاستراتيجية . وفي عشية مؤتمر «ميونيخ» في أواخر ١٩٣٨ بنى الجيش نظريته عن الحرب على المشاة وعلى تركيز كثيف للقوات البرية ضد عدو ما ، وقد وضعت البحرية ثقتها بالسفينـة الكبيرة وبهجوم بحري قوي ، وبخاصة في الباسفيك . وقد توقعت مجموعة من النظريين الصاعدين في القوة الجوية الناشئة ان يكون مستقبل هذه القوة في مقابل خلفية قصف جوي استراتيجي . الا انه اعتبارا من أواخر ١٩٣٨ والى مابعد ، بدأت رياح الحرب الوشيكة بالتأثير على سياسة أميركا العسكرية وعلى تخطيطها . وبغض النظر عن المواقع الجديدة والقديمة فانه في السنوات الثلاث السلميـة التي كانت متبقية للولايات المتحدة ظهرت مفاهيم جديدة ونماذج من الفكـر الاميركي الاستراتيجي .

الجو المتسارع : ١٩٣٩ ــ ١٩٤١ :

مابين « ميونيـخ » و « بيرل هاربر » تغير جو التخطيط الاستراتيجي الاميركي وتسارعت الخطى . وبقيادة الرئيس روزفلت استيقظت البلاد تدريجيا تجاه الاخطار الخارجية وبدات بالتعبئة . وفي عام ١٩٤٠ صدر قرار الخدمة الانتقائية وأصبحت مساعدة بريطانيا سياسة قومية رسمية . وبدات الاعارة

والتأجير الى بريطانيا والى الدول الاخرى الصديقة في عام ١٩٤١ . وطرح المخططون الاستراتيجيون في واشنطن جانبا تمارينهم السابقة الاكاديمية ووسعوا آفاقهم وشرعوا في التفكير بصيغ الحرب العالمية وحرب التحالف ليأخذوا بعين الاعتبار ليس فقط خطر الحرب المتصاعد مع اليابان بل ايضا اعادة تثبيت اهداف المانيا الامبريالية .

وفي فترة الانتقال الصعبة بين السلم والحرب ـ ولعلها اصعب الفترات بالنسبة لمخططي الاستراتيجية ـ كان عناصر هيئة التخطيط في واشنطن يواجهون أشياء كثيرة في عالم الغيب . ولم يكن باستطاعتهم التثبت من أوضاع الدول الخارجية ـ سواء من اعداء محتملين ام من دول صديقة . وفي عشية « بيرل هاير » مثلا ساور المسؤولين الامريكيين الشك في تمكن الروس من متابعة القتال بفاعلية ضد المانيا ، وكذلك لم يكن هؤلاء الرسميون متأكدين من سير السياسة الامريكية القومية ومن مزاج الشعب الامريكي المقبل ازاء الحرب. وانسجاما معالتقاليد بقي الرسميونبعيدين عن المجادلات في السياساتالقومية. واما بالنسبة الى الرئيس فانه وسع معرفته بقضايا الادارة اذ ضمنها خطط الجيش والطيران ، كما ضمنها الاستراتيجية البحرية التي كانت مألوفة اكثر لديه في الماضي الا انه لم يورط نفسه بصورة نهائية بخططها الحربية كما انه لم يحاول فورا ان يؤثر على افكارها الاستراتيجية . وكنتيجة لذلك كانت الخطط الحربية الامريكية منفصلة عن السياسة القومية . الا ان العلاقة الوثيقة بين الرئيس والعسكريين كان لها حصيلة ثانية فقد اتاحت للمخططين العسكريين الامريكيين قسطا وافرا من الحرية ليناقشوا مع الضباط البريطانيين استخدام القوات الامريكية في التحالف الاستراتيجي دون توريط الادارة بصورة جدية .. وفي ذلك الوقت وخلافا لزمن ما قبل الحرب العالمية الاولى كان للموظفين الامريكيين فرصة كلما تقدمت الحرب للمقارنة بين النظريات والخطط المتفق عليها مع حليف محتمل والتخطيط لهيكل استراتيجية لحلف عالمي .

وفي ذلك الوسط المتغير لاعوام ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ عمل المخططون لجعل نظرياتهم مسايرة للعصر ولدمجها بشكل ملموس وحقيقي بادارة جديدة كرابطة (بين الادارات) وحتى كمحاولة لوضع خطط بريطانية امريكية . ولما كانت غيوم

الحرب تتلبد فوق اوربا وآسيا ، فقد ظهرت اتجاهات جديدة في العقيدة الاستراتيجية والتخطيط الامريكية وبدات طبيعة الفكر الاستراتيجي الامريكي ومحتواه بالتحول . وكان لاربعة تطورات معنى خاص : الاول ، الانتقال من خطط اللون الى « خطط قوس قزح » ، والثاني ، التحول من مفهوم اوربي للدفاع الى مفهوم نصف كروي ، الثالث ، تبني « مبدأ اوربا اولا » ، والرابع ، ظهور نظريات حول كيفية دحر المانيا .

وقد نشأ التدرج من اللون الى « قوس قزح » في التخطيط من الاتجاه نحو التفكير الاستراتيجي الذي بدأ بحلول ١٩٣٨ عندما شرع القادة العسكريون والمدنيون في بادىء الامر بالعمل مفترضين ان اعتداء المحور يعرض الامن الامريكي للخطر . وقد سمح مجرى الاحداث في الخارج واهتمام الرئيس ، للمخططين بدراسة وقع عمل المانيا وايطاليا واليابان المبيت . وفي صيف ١٩٣٩ سمح المجلس المشترك الذي قربه الرئيس اليه بتحضير خمس خطط جديدة اساسية . وخلافا « الخطط اللون » التي استهدفت دولة واحدة او دولة اخرى بمفرديهما فان هذه الخطط الخمس الجديدة توقعت الحرب ضد اكثر من عدو واحد وعلى اكثر من مسرح واحد . وقد اطلق عليها اسماء اصطلاحية مناسبة هي قوس قزح رقم (١) و (٢) و (٣) و(٤) و (٥) ، وكانت اولى الخطط بين الادارات التي توقعت حرب تحالف كروي — وخطوة هامة لاعادة الاحتكاك بالواقع في التخطيط الحربي . كما ان مخططي الجيش والبحرية عملوا على خمسة اسس للاحتمالات وطوروا على السواء الادارة الوسيطة والخطط الادارية بعد صيف ١٩٣٩ فقد ادمجوا للمرة الاولى فكرة وجوب محاربة الولايات المتحدة الى جانب حلفاء .

وتمشيا مع تغيير طبيعة التخطيط الحربي بعد « ميونيخ » فقد كان مفهوم الدفاع عن القارة الاوربية قد توسع الى دفاع عن نصف الكرة . وبعد الانتصارات الالمانية الخاطفة وسقوط فرنسا في ربيع عام ١٩٤٠ ، توسع الاهتمام الامريكي حتى شمل توقع تهديد محوري ممكن لشرقي البرازيل ومنطقة الولايات المتحدة « الضعيفة الواقعة تحت وسطها » . واصبح الرئيس مقتنعا ، بالاضافة الى ذلك ، بان بقاء بريطانيا « على قيد الحياة » كان اساسيا لامن نصف الكرة وللامن القومي . وقبل دخول الولايات المتحدة الحرب كانت

محيطات الدفاع عن القارة الاوربية وعن نصف الكرة تمدد تدريجيا . وقد الزمت الولايات المتحدة نفسها بالدفاع عن كامل نصف الكرة الغربي بالقوة ضد هجوم خارجي . وفي سبيل اهداف التخطيط ، حدد نصف الكرة الغربي بانه يتضمن اراضي امريكا الشمالية والجنوبية ، « وغرنيلاند » ، « وبرمودا » ، و « الفولكلاند » في منطقة الاطلسي ، وجزر الباسفيك شرقي خط الطول ١٨٠ ، متضمنا جزر « اليوشيان » . وقد مثل هذا التعهد الواسع امتدادا جذريا للمهمة التاريخية للقوات المسلحة من اجل الدفاع عن الوطن الام . ونجم عن ذلك دخول الولايات المتحدة في علاقات عسكرية وثيقة مع اغلبية البلدان الاخرى من نصف الكرة الغربي ــ وكذلك فهو انطلاق جذري عبر تاريخ الولايات المتحدة . وهذا المفهوم الجديد عن نصف الكرة كان له تأثير كبير على التخطيط العسكري الامريكي في احتمالات حقبة ١٩٣٩ ــ ١٩٤١ وقد عبر عنه «بقوس قزح» رقم (١) ورقم (٤)، الا انه ادمج ايضا بقوس‌قزح رقم(٥). وكان الدور الاولي للطيران تحت هذا المفهوم قد تم تصوره بوصفه دفاعا ضد عمل عدائي من القواعد الجوية المقامة في الامريكيتين اي قوة جوية مضادة لا مهمة قصف استراتيجي . وان ربط امن نصف الكرة الغربي ببقاء بريطانيا « على قيد الحياة » قد دفع باسطول الولايات المتحدة الى عمل اطلسي ، اشهرا عديدة قبل « بيرل هاربر » .

وفي حين كان مفهوم الدفاع القومي يتوسع ليشمل كامل نصف الكرة ، مال رقاص الساعة مرة اخرى بعد فترة عشرين سنة من الباسفيك الى الاطلسي ومن انشغال مع اليابان الى اهتمام بألمانيا . وفي « خطة اورانج » لعام ١٩٣٨ المعدلة كان الجيش مباشرا التطلع بتلهف نحو اوربا . وبعد عام ١٩٣٨ اشغل الاطلسي الاستراتيجيين الامريكيين بصورة متزايدة . وفي حزيران ١٩٤٠ اهتم الجنرال « مارشال » بالضياع المحتمل للبحرية الفرنسية واثار موضوع اعادة صياغة السياسة البحرية للولايات المتحدة في قالب « عملية دفاعية بحتة في الباسفيك ، مع جهد رئيسي في اتجاه الاطلسي » . وفي صيف ١٩٤٠ توصلت الاستراتيجية الامريكية وامن نصف الكرة للارتباط بمصير بريطانيا واسطولها. وهناك وثيقتان هامتان تشيران الى التحول نحو الاطلسي .

وكانت احداهما دراسة قام بها « الاميرال هارولد . ر. ستارك » ، رئيس العمليات البحرية ، وهي « مذكرة خطة دوغ » لتشرين الثاني ١٩٤٠ ــ نقطة تحول في تطور الاستراتيجية الامريكية للحرب العالمية الثانية . وفي تلك الدراسة أكد الاميرال ستارك الصلة الوثيقة بين الامن الاميركي ومصائر بريطانيا في الاطلسي واوربا ... « فاذا ما ظفرت بريطانيا بصورة حاسمة ضد المانيا يمكننا الظفر في كل مكان ، ولكننا في حالة خسارتها سنواجه مشكلة كبيرة جدا ، وطالما اننا يجب الا **نخسر في اي مكان** ، فانه من المحتمل لنا الا نربح في اي مكان » . وانتهى مستخلصا بان على الولايات المتحدة ان تحضر في حال وقوع حرب لعمليات ارضية كبيرة عبر الاطلسي . وان الدفاع عن نصف الكرة الغربي وبقاء الامبراطورية البريطانية « على قيد الحياة » يتطلبان استمرار الولايات المتحدة في الدفاع « الصرف » في الباسفيك . ورفض فكرة تورط غير محدود فيه واعتقد بان ذلك سيبرهن على انه من الصعب جدا منع حرب محدودة ضد اليابان من التحول الى حرب غير محدودة . وقد توقع مسبقا بان على القوات البرية والجوية الامريكية ان ترسل عبر الاطلسي للمشاركة في الهجوم البري .

وكانت « خطة دوغ » اولى المحاولات للتداول في الاستراتيجية العسكرية الامريكية ككل على افتراض القيام بعمليات بريطانية امريكية مشتركة . وانه لمن المدهش حقا ان البحرية وليس اركان الجيش هي التي حاولت اولا ان تفكر عبر العلاقة بين الخطط البريطانية والامريكية وان تتحدث بمواضيع عن قوات حملة كبيرة وعمليات برية على مدى واسع . وكان ذلك طبيعيا بكل تأكيد . فلقد كان للاركان البحرية اتصالات اكثر مع البريطانيين ، الذين كانت مواقع اسطولهم على العموم متممة لمواقع الاسطول الامريكي . علاوة على ذلك ، استطاعت البحرية ان ترى بتجرد الحلول التي كان على الجيش ان يجابهها باقامته قوات هائلة من المتطوعين واستخدامها . الا انه كان من الملائم جدا للبحرية ان تظل القوة « الاستراتيجية » المعترف بها والمشهورة في زمن ما قبل الحرب ممسكة بيدها بزمام القيادة ولم يكن أيضا غير طبيعي بالنسبة للجيش ان ينضم الى جانب مقترحات « ستارك » وقد ورد وعد في « خطة دوغ » هو الاستجابة لتمركز القوة البدهي في اتجاه واحد .

وفي اوائل عام ١٩٤١ كانت افضلية الاطلسي من ضمن وثيقة اخرى هامة من استراتيجية ما قبل الحرب اي التقرير البريطاني الامريكي المعروف ب أب ج ـ ١ آ ـ ب ـ ج . وهذا التقرير الصادر عن محاثات الاركان البريطانية ـ الامريكية (محادثات ا ب ج) التي جرت في واشنطن من ٢٩ كانون الثاني الى ٢٩ آذار ١٩٤١ . وان محادثات ا ب ج لم تمثل أي التزام من قبل الولايات المتحدة يورطها بدخول الحرب . الا انها اقرت مبادىء التعاون الانكلو ـ امريكي في حال لجوء الولايات المتحدة للحرب . وفي احتمال كون المانيا هي العضو المسيطر في حلف عدائي فان المجهود الاكبر الانكلو ـ امريكي يجب ان يبذل في الاطلسي وفي المنطقة الاوربية . واذا ما دخلت اليابان الحرب فان الاستراتيجية العسكرية في الشرق الاقصى يجب ان تكون دفاعية . والمبدأ القائم على ان الهدف الاول وهو هزيمة المانيا ـ وهو اهم القرارات الاستراتيجية بالنسبة لاستراتيجية التحالف في الحرب العالمية الثانية ـ قد ظهر على المستوى الانكلو ـ امريكي .

ومن خطط الحرب الخمس الاساسية التي كانت الاركان الامريكية مشغولة بها منذ صيف عام ١٩٣٩ كانت خطة « قوس قزح » (٥) قد لاءمت تماما بصورة اكثر دقة الاستراتيجية المرسومة في اب ج ـ ١ . وفي ١٤ ايار ١٩٤١ ، صدق المجلس المشترك خطة « قوس قزح ٥ » وخطة اب ج ـ ١ . وفي اوائل حزيران ارسلت الوثائق الى الرئيس . وعندما اندلعت الحرب ، كانت الاستراتيجية المجملة المتبناة هي بصورة رئيسية أ ب ج ـ ١ « وقوس قزح ٥ » .

وفي زمن « بيرل هاربر » ، عملت الولايات المتحدة وبريطانيا ، المرتبطتان بمصالح مشتركة في شمالي الاطلسي ، الى السير معا بدقة . والواقع ان الولايات المتحدة كانت آنئذ حليفة غير محاربة ولكنها وافقت ، اذ كانت بحاجة الى ذلك ، ان تهزم المانيا اولا وكانت لا تزال لا تملك نظرية مصدقة او خطة ما عن كيفية التصرف من اجل هزيمتها وتحرير اوربا . وكذلك ايضا لم تكن القوى المسلحة الامريكية في الحقيقة موافقة موافقة تامة فيما بينها على كيفية هزيمة المانيا ومتى سيكون ذلك وأين .

ان اختلاف المفاهيم بين البريطانيين والامريكيين بالنسبة للنظرية الاستراتيجية بدأ بالظهور باكرا . وحتى في مؤتمر ا ب ج في اوائل عام ١٩٤١ ، قدم البريطانيون ايطاليا والبحر المتوسط كخط ملائم لمهاجمة المانيا . وفي صيف عام ١٩٤١ اثناء مؤتمر الاطلسي اقترح الرؤساء البريطانيون الاعتماد على الحصار ، والقصف ، والنشاطات الهدامة والدعاية لاضعاف ارادة المانيا وقدرتها على المقاومة . وقد شددوا على نظرية سبر غور نقاط ضعيفة بواسطة قوات مدرعة خفيفة الحركة وضاربة بشدة تعمل على اطراف الاراضي التي تسيطر عليها المانيا وفي المانيا ذاتها بدلا من اجراء عملية ارضية على مقياس واسع لتلتقي بالقوة الكاملة للآلة العسكرية الالمانية . ويتوقع البريطانيين منذ البداية عملية عبر القنال بالقوة على اعتبار ان الضربة الكبرى ضد المانيا كانت آنئذ في طريق الافول ، كانوا مهتمين كثيرا بعمليات تحضيرية ــ مع ما يمكن ان يدعى فيما بعد عمليات « متممة » في البحر المتوسط . وكان المفهوم البريطاني متناسقا مع وضعها كجزيرة ، ومع تقاليدها البحرية وتجاربها في حروب القارة الاوربية ــ بالاضافة لحروب انتهازية وانهاكية . وكانت مزيجا من العوامل العسكرية والسياسية ، ومن التجارب البريطانية في الحرب العالمية الاولى ودانكرك ، ومن اختيارات رئيس الوزراء ونستون تشرشل . وكانت تقاس لتناسب مصالح منتشرة واقتصادا ضيق المدى وقوة بشرية محدودة لجيوش برية ولاستثمار القوتين البحرية والجوية .

وكانت النظرية والافكار الامريكية مختلفة تماما . ففي زمن ماض لايتجاوز تشرين الثاني ١٩٤٠ ، كان الاميرال « ستارك » قد صرح بان العمليات على نطاق واسع يمكن ان يحتاج اليها لقهر المانيا . وفي صيف عام ١٩٤١ قام مخططو استراتيجية الجيش ، بعد ان قدروا المتطلبات المحتملة لبرنامج النصر الذي وضعه الرئيس ، باكمل فحص قام به الجيش حتى ذلك التاريخ على نطاق واسع للقضايا الاستراتيجية ، دارسين حجم وبنية القوات المخصصة للمهمة ، ومسارح العمليات ، وتواريخ التنفيذ . وانتهوا الى الخلاصة « علينا ان نستعد لقتال المانيا ونشتبك معها حاليا ونهزم قواتها البرية ونحطم ارادتها نهائيا في القتال ». وربما انهم كانوا غامضين بالنسبة للعمليات الاولية ، فقد كانوا آنئذ على استعداد

للتفكير بصيغ مواجهة الجيوش الالمانية من الامام ـ وكلما تم ذلك بسرعة كان افضل . وهنا تكمن النواة النظرية الامريكية عن حرب الحشد والتركيز ، بالمحافظة على الحرب التقليدية « العنيفة والفاصلة » المؤدية الى هزيمة الجيوش المعادية . وقد عكست التفاؤل الامريكي ، وثقة امريكا بآلتها الصناعية ومواردها المادية ، مع عدم ميلها لتحمل حرب طويلة منهكة ، وايمان العسكريين بسرعة تحضير جيش مدني كبير لاهداف هجومية .

وبما انه قد سمح للذراع الجوي للجيش بتقدير متطلباته الخاصة بحرب متوقعة بشكل واضح ، فقد انتهز الفرصة لتطبيق مفهومه الثوري عن النظرية الاستراتيجية . وقام قسم خطط الحرب الجوية ، الذي شكل في واشنطن حديثا والذي ملئت وظائفه باعضاء قدامى من مدرسة قوات الطيران التكتيكية ، بكتابة نظرية القصف الاستراتيجي ضمن خطة ، وهي اول خطة جوية للحرب العالمية الثانية واشهر وثيقة غير عادية . والحقيقة انها كانت خطة عمل مفصلة للحرب المقبلة تتضمن في خطوطها الكبرى استعمال القوة الجوية لتحطيم بنية المانيا الصناعية والاقتصادية . وقد اعتمدت على دقة القصف في ضوء النهار للاهداف الاستراتيجية المنتقاة لشل طاقة المانيا الحربية . ونظرا لتشكك مخططي الجو بامكانية غزو أوربا على مدى واسع قبل ربيع ١٩٤٤ (وهذا توقع مناسب للغاية) فقد رأوا ان هذا التاريخ متوافق مع ذروة برنامج القصف الاستراتيجي الذي تصوره ضد المانيا . وقد اضافوا بشكل واضح : « انه في حال نجاح الهجوم الجوي ، قد لا يكون من الضروري القيام بهجوم بري » . الا انه وضع في الاعتبار مساندة جوية لغزو تعقبه حملة برية . وعلى الرغم من هذا الايمان القوي بالنصر لدى القوة الجوية فانه لم يكن يأتلف تماما مع موقف وزارة الحربية فان الخطة التي وضعها قسم خطط الحرب الجوية ، وهي ميثاق القوات الجوية التخطيطية في الحرب العالمية الثانية ، قد اقترنت بموافقة قسم الخطط الحربية للجيش الذي يضم الجنرال آرنولد (رئيس القوات الجوية التابعة للجيش) ، والجنرال مارشال والسيد لوفيت (معاون وزير الحربية للشؤون الجوية) ، والسيد « ستمسون » (وزير الحربية) ، وقد ادمجت في تقرير المجلس المشترك المؤرخ في ١١ ايلول ١٩٤١ . وهكذا باختصار نجد

قبل بيرل هاربر ، ان عقيدة رسل اصلاح الجويين قد حظيت اخيرا باعتـراف على مستوى السلاح الجوي والاسلحة الاخرى . ان المسلك الاوربي الـذي دشنه الاميرال « ستارك » في تشرين الثاني ١٩٤٠ قد اعاد الجيش الى الصورة الاستراتيجية . وقد ا عطى كذلك القوة الجوية فرصـة لتملـي ارادتهـا الاستراتيجيـة .

وقد وضع « بيرل هاربر » نهاية للسنوات الثلاث التحضيرية للحـرب ولكن الخطط العسكرية كانت لا تزال بعيدة عن الاتمام . وكان التنسيق للخطط الاستراتيجية مع خطط التعبئة الاقتصادية والقوى البشرية في بدايته فقط ، ولم تكن قد تطورت اية عقيدة استراتيجية مفهومه لحرب يخوضها حلفاء . ولم يتوصل الى اتفاق ثابت في كيفية هزيمة المانيا واليابان سواء على مستوى الاسلحة الثلاث او على المستوى الانكلو ـ امريكي .

وقد ظلت « فترة الحرب القصيرة » التي طال امدها معتبرة نعمة للتخطيط الاستراتيجي . فقد فكرت حفنة من المخططين المتعجلين المكافحين من اجل الابقاء على خططهم جنبا الى جنب مع التطورات الدولية المتحولة والسياسة القومية المتغيرة باستعمال تعابير الاجماع والتحالف بصورة متزايدة متخلين عن المفاهيم الموروثة من الزمن السابق . وقد صار ممكنا حل النظرية المتعارضة والتطبيق. فمثلا عندما حاول الجيش في عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ ان ينشط القيادة العامة ، تبين له سريعا بان هذا المفهوم المخطط لجبهة حرب وحيدة من نوع الحرب العالمية الاولى لا يفي بحاجات الاستراتيجية لحرب المسارح المتعددة التي كانت تـلوح في الافق . وبناء على ذلك ، بدأ المخططون بالتفكير بانشاء قيادة عامة عليا فعلية للجيش لزمـن الحرب تكون مقرها في واشنطن ، وهـذه الخطة وضعت موضع التطبيق في اذار ١٩٤٢ .

وقد تعلم المخططون ايضا انه مهما كان شأن نظرياتهم وخططهم ، عليهم ان يعتمدوا على « قائد عام » نشيط وقوي ميال لاتباع طريقه الخاص بـه . فمثلا عندما وصف الرئيس بدقة الطريق من اجل اعادة التسلح في تشرين الثاني ١٩٣٨ ، اصطدمت افكاره الخاصة باعادة التسليح بأفكار العسكريين المحترفين

وقد كان قسم كبير من دعواته من اجل الطائرات في ذلك الحين معارضا لمفاهيم هيئة الاركان الاخذة بتطور منظم لقوة متوازنة . اما تأييد مساعدة الولايات المتحدة في سد احتياجات الحلفاء بالاضافة الى توسيع القوات الامريكية المسلحة فقد كان قرارا اساسيا في الزمن السابق للحرب من قبل القيادة السياسية الاتحادية . ومما له مغزاه ان ارادة الرئيس ، وليست العقيدة الاستراتيجية ، هي التي دفعت الى هذا القرار . وبعد « بيرل هاربر » باشر المخططون يقدرون ، ما سيصبح حتى اكثر وضوحا فيما بعد ، وهو ان القيادة السياسية الاتحادية ستلعب دورا هاما في سياسة التحالف واستراتيجيته على الرغم من علاقة العمل الوثيقة نسبيا التي تربطها مع اركانها العسكريين .

وعليه فقد قطع المخططون في زمن « بيرل هاربر » شوطا بعيدا في تصحيح وضعهم مع الواقع . وكانت القوى المسلحة ، وهي في هذا الوقت ثلاث قوى فعليا ، قد ادمجت نظرياتها المتطورة في الخطط الاستراتيجية التي اتصفت بصفات اكثر شبها بالعالم الذي في حالة حرب . وقد بدات بالتوصل الى حلول وسط والى التعود على تعاون فيما بينها يتنامى في لجان التخطيط المشتركة . وكذلك فقد انطلقت في الدراسة ضد نظرية بريطانيا وفي ادراك كم هي مختلفة عن نظريتها . وقد دخلت البلاد الحرب للمرة الاولى في تاريخها وهي متقدمة تقدما هائلا في تفكيرها الاستراتيجي من حيث كيفية خوضها .

اختبار الحرب :

ومع الحرب جرت اندفاعات جديدة وضغوط وعدد أوفى من الحلول الوسط والتصحيحات في النظريات الاستراتيجية والمفاهيم . وعلى الرغم من افضلية اوروبا المتفق عليها ، فان هجوم اليابانيين على « بيرل هاربر » والحاجة لتوقيف تقدمهم عرضا للشبهة المفهوم الالماني الاول من مستهله . وقد اعترف الاميركيون بأنهم يخوضون حربا استراتيجية دفاعية ضد اليابان ولكن لم يكن لديهم عقيدة عن كيفية القتال في حرب محدودة . وكذلك فان الرأي العام لايغفر حربا دفاعية بتمامها ومحدودة ضد اليابان في انتظار هزيمة المانيا . وبما ان موارد الولايات المتحدة العسكرية انصبت بسرعة في

الباسفيك ، فان الاستراتيجيين الاميركيين ادركوا بأن القوات بمجرد وجودها تولد استراتيجيتها الخاصة بها . فقد تجمعت القوات البرية والجوية في اوستراليا بعد ان اصبح من غير الممكن ترك اليابانيين مندفعين عبر منطقة الباسفيك دون اشغالهم . اما القوات البحرية فقد استعادت نشاطها بسرعة بعد كارثة جزر هاواي ، وباشر الاستراتيجيون البحريون بالسعي للبدء بمفهوم « خطة اورانج » القائمة على هجوم في الباسفيك الاوسط . وقد ادى قرار الرئيس بدعم الصين الى نزيف اشد في موارد الولايات المتحدة العسكرية. ان الحرب المحدودة لن تبقى محدودة . وقد ناهت متطلبات الحرب ضد اليابان في مدة سنتين تقريبا متطلبات الحرب ضد المحور في اوربا . ولم يظهر رجحان ميزان قوة اميركا العسكرية في سبيل هدف هزيمة المانيا قبل حلول سنة ١٩٤٤ .

وطالما ان الحرب ضد اليابان بعثت في الغالب شأنا خاصا باميركا ، فان الاستراتيجية ظلت موضع اهتمام بين القوى المسلحة . وبسبب المصلحة التقليدية البحرية في الباسفيك والمتطلبات الكبيرة بالنسبة للملاحة هناك وبخاصة السفن الهجومية ، تحملت البحرية معظم العبء بتطويرها استراتيجية الهجوم لتلك المنطقة . ولذلك كان على الخطط البحرية للباسفيك الاوسط ان تتوافق مع مفهوم « الجنرال ماك آرثر » القائم على الزحف على اليابان عن طريق محور « محور غينيا الجديدة » — « مانداناو » . وهكذا فان استراتيجيتي خرق قد حلتا محل التقرب المحوري الوحيد الاصلي ، وهذا قاد الى استراتيجية تحين الفرص وهي لاتختلف عن تلك التي الح في طلبها البريطانيون من اجل الحرب في اوروبا . وكانت القضية الحساسة عما اذا كان يمكن هزيمة اليابان بالقصف والمحاصرة فقط ام لابد من القيام بغزوها ، والتي لم تعط النظرية الاميركية لما قبل الحرب جوابا حاسما لها ، قد نوقشت الى حين استسلمت اليابان وجعلتها بحثا اكاديميا . وفي النهاية تجاوزت الحرب بسهولة النظريين . واستخدمت القنبلة الذرية قبل ان تتطور عقيدة للحرب الذرية .

ومن جهة اخرى ، فان الاستراتيجية الحربية الاوروبية كانت مرسومة

على مستوى دولي مع كفاح الولايات المتحدة مع مختلف المصالح القومية والمفاهيم الاستراتيجية لبريطانيا وروسيا . وفي هذا المجال رمى الجيش بعد « بيرل هاربر » في حشده القوات في سبيل عملية عبور مبكر للقتال ، الى التمرس على الائتلاف مع المفاهيم البريطانية وعلى التبدلات والترتيبات من اجل عبور القنال ، وعلى عمليات القصف الاستراتيجي في البحر المتوسط . الا انه من خلال نظرية الحشد يحتمل ان يكون الاستراتيجيون الأميركيون في « البانتاغون » قد وجدوا مجالا مشتركا مع الاستراتيجيين الروس في « الكريملين » .

اما فيما يتعلق بالنظريين الجويين ، فقد انحلت تقريبا عقيدة عشر سنوات بالغارات الجوية النهارية المشؤومة على « شوانغورت » في المانيا في تشرين ١٩٤٣ . وفي الحقيقة فانه بدون اضافة المقاتلات البعيدة المدى المرافقة مما لم تلحظه عقيدة ماقبل الحرب ، لكان القصف الإستراتيجي الاميركي قد فشل فشلا ذريعا . وعلى الرغم من الاضرار الهائلة التي لحقت بالمانيا والهابان معا خلال القصف الاستراتيجي فان التجربة في الحرب العالمية الثانية لم تعط جوابا واضحا حاسما عن قدرة القوة الجوية على دحر العدو .

ومن الوجهة التنظيمية الادارية ، اصبحت الحرب العالمية الثانية بالنسبة للاستراتيجيين الاميركيين حربا تنظيمية ، فهي حرب تعاون القيادة ، وتعاون هيئات أركان التخطيط الكبرى في العواصم وفي القيادات الميدانية . وقد أصبح انتاج الاستراتيجية صناعة منتظمة في الاشغال الكبرى التي أصبحت تمثلها المؤسسات العسكرية الاميركية الهائلة في زمن الحرب . وقد رسمت الخطط على أساس يومي وتم الوصول الى اتفاق عبر التسلسل الكامل للاقنية . وازدهرت طريقة اللجان في القوى المسلحة ، وفيما بين أنواع القوى المسلحة ، وعلى مستويات دولية وجمعت القادة والخبراء معاً لانتقاء طريقة للعمليات . وفي المؤتمرات الدولية الكبرى ، أخذ رؤساء المجلس – روزفلت وتشرشل واحيانا ستالين – بعين الاعتبار توصيات اللجان واصدروا المقررات النهائية .

وبسبب المعركة الدائمة . للتوفيق بين الاهداف والوسائل ، كان الحل

الوسط النقطة الاساسية في المؤتمرات الدولية . وعلى الرغم من الاهتمام « بالمبادىء » ، تحولت الاستراتيجية الحليفه لتصبح انتاجا مشتركا مطروقا بشدة على سندان الحاجة . وقد حددت الاحداث كما هو شأنها في معظم الحالات الاستراتيجية معكوسة .

وخلال كل ذلك ، كان على المخططين الاميركيين ان يحسبوا حسابا لرئيس نشيط كان حتى قبل « بيرل هاربر » قد ابلغ أنه يود القيام بدوره الخاص . ولم تصبح مهمتهم أكثر سهولة بواقع ان قائدهم الاعلى وجد نفسه أحيانا متفقا مع تشرشل أكثر من اتفاقه مع معاونيه . وبالنسبة للرئيس كان قصده المحافظة على التحالف في حالة تأهب لاهداف الحرب كما لاهداف مابعد الحرب . ان الاستراتيجية شأنها شأن السياسة فن ماهو ممكن . وعلى المخططين ان يدركوا أنه لم يكن متبنيا أية عقيدة استراتيجية سوى النصر .

ان الفصل بين المجالات السياسية والعسكرية في السياسة القومية الاميركية استمر خلال الحرب تدعمه صيغة الرئيس بطلب الاستسلام دون قيد أو شرط . ولم تظهر للوجود أية عقيدة استراتيجية لتصف الاهداف السياسية والعسكرية بصيغة متماسكة قبل الحرب وأثناءها . ولم تكن الاستراتيجية الاميركية السياسية والعسكرية منسجمتين بانتظام وهي ثغرة أثارت بصورة خاصة نقدا لاذعا بعد الحرب .

وكان نضوج المخططين الاستراتيجيين الاميركيين الذي كان بادئا بالظهور قد تسارع سيره أثناء الحرب العالمية الثانية مما أضاف فصلا جديدا الى ثقافتهم . وكما صرح الجنرال « مارشال » في احدى المرات ، فان ثقافته العسكرية وكذلك تجربته في الحرب العالمية الاولى قد بنيتا على الطرق ، والانهر ، والسكك الحديدية ، وفي الحرب العالمية الثانية كان عليه أن يكتسب « ثقافة » مبنية على المحيطات وكان عليه ان يتعلم كل شيء من جديد . وان هذا النزاع العالمي الحقيقي الاول قد عرض الاستراتيجيين الاميركيين لكل انواع الاحتكاكات النظرية والواقعية بالحرب التي أصبحت جماعية أكثر من أي وقت مضى . وقد اتسعت آفاقهم الفكرية . وجعلتهم الحرب قادرين أيضا على ممارسة

مهارتهم ـ بحرب الغواصات ، وبالهجمات البرمائية ، وبالوثوب علـى الجزر ، وباستراتيجية « القفز فوق الظهر » ، وبقوات محمولة على ناقلات سريعة ، وبقوات مدرعة ـ كل ذلك بتحويل الموازين مرة أخرى لصالح الهجوم .

ولقد خاض الاميركيون الحرب في اطار استراتيجية مهيأة خارجا عن أقسام النظرية الاوروبية وجزيئياتها وعن التجربة الاميركية ومبتكراتها . ولم يظهر اي « رالف والدو إيمرسون » لتوجيه نداء درامي من أجل تصريح أمريكي يعلن الاستقلال عن النظرية الاوروبية . الا ان المبادىء التي اختارها الاميركيون لتقوية هيكل الفكر الاستراتيجي العام والتي اشتركوا فيها مع الاوروبيين ، كانت منسجمة وتقاليدهم وسياساتهم القومية . وأظهروا في كل وقت ميـلا لحلول سريعة ومباشرة وكاملة . ومع أنهم مازالوا ينظرون الى الحرب بكراهية، ويعتبرونها انقطاعا عن الوضع الطبيعي يجب انهاؤه بأسرع وقت ممكن ، فقد فرضوا أسلوبا أميركيا ومدخلا أميركيا لدراسة الحرب والاستراتيجية العالمية واجبروا شركاءهم في التحالف على ان يشاطروهم ذلك . ولما كانت القـوة العسكرية المتولدة في العالم الجديد قد أصبحت أكثر مهارة بتقديمها قضيتها الاستراتيجية الخاصة بها فانها قد ثبتت استقلالها الاستراتيجي عـن العالم القديم .

ولما كانت القوة الاميركية قد تدفقت الى الميدان بقدرة ساحقة ، فقد توصل الاميركيون بالتدريج الى التحكم باستراتيجية حلفائهم . واكتسبوا ثقة دائمة بحيازتهم للقوة . وكانوا قادرين على التمسك باستراتيجيتهم مع الحلفاء في المؤتمرات المعقودة لبحث الاستراتيجية الاوروبية وكذلك لدى ادارتهم الحرب بحرية في الباسفيك . وكنتيجة لذلك سجلت الحرب العالمية الثانية تحولا في التجربة الاستراتيجية للولايات المتحدة عن الحرب العالمية الاولى . اذ انه كان على الولايات المتحدة في الحرب الاولى ان تتبنى استراتيجية خططها الحلفاء . أما في الحرب الثانية فقد لعبت دورا كبيرا في صياغة استراتيجية الحلفاء ، وفي الباسفيك انشأت استراتيجية اميركية كان على الحلفاء ان يتقيدوا بها .

واذا عدنا بالنظر الى الماضي ، تبدو لنا الاستراتيجية الاميركية أقل نجاحا

حيثما نجد العقيدة الاستراتيجية السابقة للحرب أقل وضوحا بالنسبة للعلاقات الحربية بالسياسة والدبلوماسية ، ولمجال الاستراتيجية الكبرى لا الاستراتيجية العسكرية . وقد دالت على انها أكثر مهارة بتبني الانتاج المكثف في الاقتصاد من أجل الحرب ويحل مسائل الحرب الفنية بالارتجال على مدى واسع . وبنبائها على النظريات ، والخطط ، والتجارب لسنوات مابين الحربين ، فانها بوصفها أمة « وعمل » قد أبدت مهارة فائقة بتطبيق القوة بمقياس واسع وفي الابعاد الثلاثة للحرب . واذا كانت استراتيجية زمن الحرب فير متميزة بتصميم جديد عظيم صنعته يد ماهرة للحرب والسلم فانها كانت مطبوعة على كفاءة التكيف طبقا للحاجات العسكرية . وقد هيأ الاميركيون بنجاح الثورة التكنولوجيا العسكرية وفي التكتيك اللذين كانا يتطوران في السنوات مابين الحربين الى حرب الحشد وخفة الحركة كما كان شأن الحرب العالمية الثانية في التحول . وفي نهاية التجربة الكبرى في الحرب التي لم تجابه مثلها البلاد ، برزت الولايات المتحدة بوصفها الدولة العسكرية المتزعمة للعالم الغربي. وهكذا فقد اصبح الاستراتيجيون الاميركيون مسايرين للعصر .

القِسْمُ الثالِث

- ١١ -

تطور العقيدة العسكرية السوفياتية منذ عام ١٩١٨

بقلم مالكولم ماكنتوش

ولد « مالكولم ماكنتوش » عام ١٩٢١ ودرس في اكاديمية ادنبرة وجامعة غلاسكو . وخدم في الجيش البريطاني (في الفرقة الاسكتلندية الملكية ، وفي جهاز المخابرات ، وفي القوات الخاصة) ومن عام ١٩٤١ – ١٩٤٦ في الشرق الاوسط، وايطاليا ، والبلقان ، ومن عام ١٩٤٤ – ١٩٤٦ كان ضابط ارتباط مع جيوش الاحتلال السوفييتية في رومانيا وبلغاريا وعضوا في لجان الرقابة في تلك البلاد. ومنذ عام ١٩٤٨ كان مساعدا ثم رئيسا للبرامج الالبانية والبلغارية في هيئة الاذاعة البريطانية ، وعمل ترجمانا للسيد « كوسيغين » عام ١٩٥٥ وللسيدين خروتشيف والمارشال بولغانين في عام ١٩٥٦ ابان زيارتهما لبريطانيا . ومنذ عام ١٩٦٠ اصبح مستشارا في الشؤون السوفييتية لمعهد الدراسات الاستراتيجية . وهو مؤلف لكتاب : « استراتيجية وتكتيك السياسةالخارجية السوفييتية » ، وهو الآن يعمل في كتابة تاريخ الجيش السوفياتي .

ان الجيش الاحمر جيش العمال والفلاحين ، الذي اطلق عليه هذا الاسم لاعطاء القوة المنشأة في ٢٣ شباط ١٩١٨ اسمها الرسمي ، كان في منتصف ثورته وغليانه السياسي الناجم عن هزيمة جيش روسيا الامبريالي والتدهور السياسي والاقتصادي للحكومة التي كان في خدمتها . وعليه فقد كان « السلم وعدم الالحاق » يشكلان هدفا من الاهداف الاولى للادارة البلشفية الجديدة لدى تسلمها السلطة ، وقد اكتشفت سريعا انه كان عليها حماية نفسها ليس فقط ضد القوى المركزية الراغبة في ضم اراضي في الشرق ، بل أيضا ضد الثوار المسلحين من قبل عناصر مضادة للشيوعية داخل روسيا نفسها ، يدعمها من نواح عديدة الحلف . وقد تبين ان غير النظاميين من رجال الحرس الاحمر . الخشنين الذين زودوا النظام بالقوة المسلحة اثناء الثورة نفسها ، كانوا لايزالون غير قادرين على القيام بهذه المهمة ، وقد تحقق « لينين » سريعا بان انشاء جيش على مدى واسع قد اصبح محتوما . وادى ذلك في النهاية الى تجنيد مايقرب من خمسة ملايين من الجنود الفلاحين الذين كانوا قد حاربوا الالمان والنمسويين لمدة أربعة أعوام والذين كانوا غير راغبين في التطوع لخدمة عاملة اطول . واضطر البلاشفة ايضا الى استخدام عدد كبير من الضباط السابقين من الجيش الامبريالي . « كعسكريين متخصصين » ، يعملون بكفاءة مهنية

كقادة ، وضباط اركان ، وفنيين تحت اشراف مفوضين سياسيين من الحزب الشيوعي . وبهذه الطريقة حصلت الحكومة السوفييتية على القوات الضرورية لهزيمة اعدائها في الداخل وفي الخارج ، على الرغم من ان ذلك لم يمر دون أزمات قاسية معنوية وتنظيمية ، وقد تمت هزيمة كبيرة على يد البولنديين . وفي وسط سلم مستت الى حد ما تم التوصل اليه في عام ١٩٢٢ ، انتهى البلاشفة الى اقرار طبيعة القوات المسلحة وحجمها لاول دولة ماركسية في العالم .

وكان الوضع الذي جابه الحكومة السوفياتية ومستشاريها العسكريين فريدا من نوعه . فالآلة العسكرية الكبيرة للحكومة الامبريالية قد انهارت في الحرب ضد القوى المركزية . وباستثناء هيئة الاركان العامة (التي كانت مهنية الى درجة عالية ومؤسسة على النموذج النمسوي الهنغاري) وقد حلت بعض الاكاديميات العسكرية العليا نفسها عمليا . وتم القتال في الحرب الاهلية لعام ١٩١٨ — ١٩٢٢ على أسس مرتجلة ، وفي حين كان لدى قادة الجيش الاحمر القليل من الاسلحة المتقدمة او التجهيزات ، فانهم كانوا قادرين على الانطلاق بعملهم العقائدي بما يشبه الصحيفة البيضاء . وفي بعض نقاط التنظيم كانت غالبية القادة موافقة على وجوب التخلي عن التقاليد الامبريالية في الجيش والغاء القاب الضباط ورتبهم ، وعلى جميع الرتب ان ترتدي زيا موحدا ويجب الا يبقى امتيازات كالرواتب المختلفة او المطاعم المنفصلة للقادة وضباط الاركان. ويقتضي المحافظة على الانضباط الشكلي القديم بأقل قدر ممكن ، وحتى ان بعض العناصر في القوات كانت تواقة للابقاء على مبادىء انتخاب القادة ومناقشة الاوامر في الجيش الشيوعي الجديد .

ومقابل هذه الخلفية كان للنقاش حول الشكل المقبل والعقيدة العسكرية للجيش الاحمر عدة جوانب . ففي احد الاجنحة وقفت مجموعة من الجنرالات السابقين والكولونيلات من الجيش الامبريالي تدافع عن جيش نظامي يتمتع بنظام جيد وانضباط . وكان هؤلاء بزعامة « الميجر جنرال سفيشن » قد اعلنوا ان الحرب عرضة لبعض العوامل الدائمة التي تتعلق بتطوير الاسلحة ، والقوة الاقتصادية ، وموارد القوى البشرية وصفاتها ، والتقاليد العسكرية ، وان جيشا أحمر تقليديا يلائم بصورة أفضل استثمار هذه المتطلبات الاساسية.

وعارضوا الاعتماد على تجربة الحرب الاهلية ، مع نجاحاتها في الخيالةوالقطارات المدرعة والغارات بعيدة المدى خلف خطوط العدو ؛ مدعين بان ذلك كان قتالا قد تم تحمله بوسائل مرتجلة ولن يكون لاية حرب في أوروبا هذه الصفة ومن جهة ثانية كانت دروس تلك الحرب ذات قيمة محدودة . وقد وافق مفوض الحرب « تروتسكي » مع « سيفيشن » على الطبيعة العامة التي تتصف بها عوامل تحمل الحرب . ولكنه اشاد بقيمة تجربة الحرب الاهلية بصورة أقوى مما فعل الاختصاصيون العسكريون . وفي الجهة الاخرى من النقاش وقفت مجموعات من قادة الميدان الناجحين في الحرب الاهلية ، وكان بعضهم سابقا من صغـار الضباط في الجيش الامبريالي ومن معتنقي الشيوعيـة المتحمسين امثال « ميخائيل توكاشيفسكي » و « ايرونيم ابوريفتش » ، وكل منهما قاد جيوشا في العشرينات من اعمارهما . وآخرون ممن كانوا قد صفوا أنفسهم أمثال صف الضابط السابق « سيمون بوديوني » ، والعامل السابق « ميخائيل فرونزة » ، و « كليم » فوروشيلوف ، وفاسيلي بلبيوكير ، الذين اعتقدوا بأن تجربة الحرب الاهلية كانت كلها ذات اهمية ، وان مفهـوم « المناورة » التي مارسوها يمكن ان يصلح اساسا لاية حرب مقبلة . أما حرب الخنادق والدفاعات الثابتة والتحصينات فهي أشياء من الماضي : وعلاوة على ذلك ، يمكن للشيوعية ان تؤمن الايحاء بعقيدة متأصلة في روح الهجوم ، التي يجب ان يؤسس كـل تدريب وكل تصور للجيش الاحمر عليها .

وقد اتخذ« تروتسكي » موقفا خاصا مع ابرز المتحدثين باسم هذه المجموعة وهو ميخائيل فرونزه بالنسبة للهجوم في التفكير العسكري السـوفياتي . وقد ركز مفوض الحرب بأنها كانت نظرية حسنة ، الا انه في الوضع المهنك الذي وجدت روسيا نفسها فيه في منتصف العشرينات كانت النظرة الوحيدة الممكنة وكذلك العقيدة بالنسبة للجيش الاحمر نظرة تقليدية ودفاعية . وان كل تفكير بتشريب عقيدة الى الجيش الاحمر مع روح الهجوم في مجال الدعم العسكـري للثورات الشيوعية في الخارج (كما دافع عن ذلك توكاشيفسكي الشاب الملتهب حماسا) هو مهزلة على حد قول تروتسكي . (ويجب الا يغرب عن البال أن تروتسكي نفسه كان قد عارض الزحف على وارسو عام ١٩٢٠) . وقد دعا

تروتسكي لاقامة قوة تغطية نظامية لحماية الحدرد السوفياتية ، وتحويل بقية جيش زمن السلم الى قوة برية ، تتمركز وتجمع في اهم المراكز الصناعية من البلاد بهدف المحافظة على توازن خاص للبروليتاريا الصناعيـــة . الا ان كل التركيز في التدريب والعقيدة يجب ان يكون دفاعيا ، وعلى العموم ، مبنيا على العوامل الدائمــة المتأصلــة على مقيــاس حربي واســع في مسرح العمليــات الاوروبيـــة .

وفي حين كان هذا النقاش في تقدم ـ وفي الواقع في حين كان تروتســكي يضع بعض أفكاره موضع التنفيذ ـ تعرض مفوض الحرب لنار حامية اصلاه اياها خصومه من التسلسل الحزبي السياسي واخرج من الوظيفة في كانــون الثاني ١٩٢٥ . وأعقبه فرونز ، وفي اعادة توزيع المناصب العسكرية الذي تلا ذلك ، استلم الداعون الى الهجوم والحرب خفيفة الحركة المعتمدة على الخيالة المراكز المرموقة . وكان فرونزه أيضا عالما بفقر الاتحاد السوفييتي ، وتابــع تروتسكي تقسيم الجيش البري الى قوة تغطية مؤلفة من احدى وثلاثين فرقة مشاة نظامية او فرق « بنادق » بنسبة أربعة وستين في المائة من قوتها الحربية. الا أنه رأى في ذلك ان مفهومه عن قوة ضاربة خفيفة الحركة قد توقف في جيش الزمن السلم بسبب اعادة تنظيم الخيالة الحمراء في احدى عشرة فرقة جميعها « نظامية » ماعدا واحدة . وفي حين كان العسكريــون الاخصائيــون أمثال الجنرال السابق « س . س . كامينيف » ، و « ن.ن بيتن » قد قلدوا مناصب ثانوية في مفوضية الدفاع في حقلي الادارة والتفتيش ، بينما أعطي المساندون الثابتون للهجوم مراكز حساسة مثــل رئيس عمليات هيئــة أركان الجيش (م.ن. توكاتشيفسكي) ، ورئيس التدريب العسكري والتثقيف (القــائد اليهودي في الحرب الاهلية ا.ي.ياكير) . واسندت قيادة القوة الجويةالحمراء الى «ب.ا ـ بارانوف » ، وهو من الموالين المقربين لـ فرونزه ، ومــن المفيد الاشارة الى أن اعادة تنظيم القوة الجوية التي تلت ذلك ، تضمنت انشاء عنصر للقصف البعيد بالاضافة الى اسراب الدعم في الميدان .

وقد توفي فرونزه قبل مضي سنة على استلامه مفوضية الدفاع وخلفهفي تشرين الثاني ١٩٢٥ فوروشيلوف . وبما ان فوروشيلوف قد أعطى موافقته

على مفهوم فرونزه العسكري الذي كان النظريون والمطبقون امثال توكاشيفسكي، وايبوروفيتش ، وشابوشنيكوف ، وترياندافيلوف ، يدونونه في الكتب وعلى صفحات الصحف العسكرية السوفياتية ، فقد كان من الطبيعي ان يصبح مطلبه: الاسلحة والعربات التي يجهز بها الجيش الاحمر ويدربه على حرب مناورة . وقد سجل انه في عام ١٩٢٦ - ١٩٢٧ انتجت صناعة السيارات السوفييتية ٥٠٠ سيارة فقط وانه كان يوجد ثلاثون دبابة حقيقة فقط في كامل المنطقة الواسعة بين جبال الاورال والباسفيك . وفي هذه الظروف ليس من المستغرب أن يلقي فوروشيلوف وزملاؤه بوزنهم لدفع الثورة الصناعية التي بدأها ستالين بخطة السنوات الخمس والتي تبنت او بالاحرى وسعت اتفاقات تروتسكي السابقة مع الجيش الالماني بشأن مشاريع عسكرية صناعية وتدريبية مشتركة سوفيتية المانية في الاراضي السوفيتية . وكذلك ليس من المستغرب ايضا ان يبحث زعماء الجيش الاحمر عن المطبوعات والمؤلفات التي خطها الكتاب العسكريون أصحاب النظرة الثاقبة للمستقبل . وان عددا من هؤلاء (بما فيهم ليدل هارت) قد لجيء اليه لتعزيز المعرفة والتجربة والخيال في ادارة الجيش الاحمر الجديد .

وكانت النزاعات الوحيدة التي اشتبك فيها الجيش الاحمر بين ١٩٢٢ و ١٩٣٨ هي الحملة القصيرة ضد القائد الصيني في منشوريا عام ١٩٢٩ ، التي اجتازت في اثنائها المجموعات السوفييتية الحدود الصينية لتقضي على تحشدات القوات الصينية وتوقف الخرق المتزايد للحدود السوفييتية الشرقية النائية. ومع ان العملية قد توقفت بسبب النقص في وسائط النقل والقصور الاداري ، فان التخطيط والتحضير السياسي للقوات عكس جيدا على السواء الروح الهجومية ومحاولة استخدام المناورة .

وقد عجلت الافكار نفسها بدفع « توكاشيفسكي في أوائل الثلاثينات لاجراء تجربة مع أشكال جديدة من استخدام القوات يمكنها ان تزيد في حركة الجيش الاحمر وفي كفاءته لهجوم سريع . وفي مقال كتبه في ذلك الحين والذي يمكن حتى اليوم ان تكون فحواه معاصرة فقد ركز على حاجة الاتحاد السوفييتي لدمج الدبلوماسية والسياسة الخارجية مع التطور الصناعي والقوة العسكرية . واعلن

ان الحرب في المستقبل ستكون على مقياس واسع وستدوم مدة أطول من حرب عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ وستقحم حياة اي بلد ما بأسرها في مثل هذه الحرب. وعلى مستوى مماثل من الاهمية ، تحضير مواصلات البلاد ونقلياتها وحيازة جيش حديث ، وبحرية ، وقوة جوية . وقد ادى ظهور قاذفة القنابل الى جعل صناعة اي بلد ما معرضة للخطر ، ولهذا على الحكومة ان تنشر المصانع والمعامل في مناطق اقل تعرضا . واما بشأن الحرب الدائرة نفسها فقد كتب « تشوكا شيفسكي » ان هزيمة قوات العدو وحدها في ميدان المعركة بعد سلسلة من العمليات الهجومية يمكن ان تؤدي الى النصر ، واذا ماهوجم الاتحاد السوفييتي من الشرق او من الغرب ، فعلى الجيش الاحمر ان يقوم بدفاع متحرك الى ان تكتمل التعبئة وحينئذ ينتقل مباشرة الى الهجوم الاستراتيجي . ويقتضي ان تتميز فترة الدفاع بهجمات مضادة تكتيكية والا يعتمد على تحصينات دفاعية ثابتة الا فيما ندر . وكذلك فان « تشوكاشيفسكي » قد اقر بانه في عام ١٩٣٠ ــ ١٩٣٢ كانت القوة الدفاعية للرشاش لانزال اكبر من القوة الهجومية للدبابة . وقد توقع في يوم ما ان تكون الدبابة قادرة على صد اسلحة المشاة وان تقرر لنفسها مهمة تزويد الجيش الاحمر بما يلزمه من عربات مصفحة وتجهيزات مساندة . لان هدفه الاساسي هو جعل الجيش الاحمر ككل(وهنا عارض أولئك الذين دافعوا عن جيش صغير خفيف الحركة مع قوة نار مدمرة) يتحرك بسرعة المركبة وليس بسرعة الرجال السائرين على الاقدام .

وكان « توكاشيفسكي » بملاحقته هذا الهدف ، بوصفه رئيسا للتسلح، قد انشأ اول « لواء آلي » في الجيش الاحمر عام ١٩٣٠ . وكان مؤلفا من كتيبتي دبابات وكتيبتين آليتين مع مدفعية مساندة واستطلاع . وفي عام ١٩٣٢ رؤي ان الالوية الآلية ناجحة نجاحا كافيا بتنظيمها في فيلق ميكانيكي ، وفي السنة نفسها ظهرت للوجود اكاديمية للآليات والمكننة لدراسة الحرب المدرعة ونشر المركبات الآلية وسط الجيش الاحمر . وجرت تمرينات في أعوام ١٩٣٣ــ١٩٣٦ جرب فيها التعاون بين المشاة ، والخيالة ، والمدرعات ، والطائرات ، في عمليات التفافية . ولعله لم يكن من قبيل الصدفة ان جنرالات الجيش الاحمر الذين اداروا عمليات الالتفاف الكبرى في الحرب العالمية الثانية مثل ستالينغراد ،

وكورسن ـ شيفشنكوفو ، ومنسك في اعوام ١٩٤٢ ـ ١٩٤٥ ؛ كانوا من أصحاب الرتب المتوسطة . من القادة في الخيالة او الوحدات المدرعة في المقاطعات العسكرية الغربية من الاتحاد السوفييتي عندما اجريت هذه التمارين . وكان هناك تجربة اخرى هي انشاء وحدات المظليين عام ١٩٣١ ، واستخدامهم في الاستيلاء على ارض امام المدرعات المتقدمة والمشاة . كما جرى نقل قوات اخرى جوا ، وفي عام ١٩٣٦ نقلت فرقة كاملة من حملة البنادق من الشرق الاقصى الى غربي روسيا بطائرات نقل القوة الجوية للجيش الاحمر .

وقد نفذت تغييرات تنظيمية كبيرة في الجيش الاحمر في عام ١٩٣٤ أعطت القائد العسكري سلطة اكبر على وحدته وعلى مفوضه السياسي ، ونظمت الرتب والانضباط على مدى الخطوط التقليدية لجيش محافظ . وفي ذلك الوقت ايضا باشرت نتائج الخطط الخمسية بالظهور لدى القوات فبلغ عدد الدبابات في المستودعات مقدار ٧٠٠٠ دبابة في عام ١٩٣٥ ، تساندها مائة ألف عربة نقل عسكرية ومائة وخمسون ألف جرار . أما « تشوكاشيفسكي » الذي كان بسبب تجاربه من عام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ قد رفع الى رتبة « مارشال الاتحاد السوفييتي » فقد عبر عن عقيدته العسكرية بتنظيمات ميدانية ، نشرت في عام ١٩٣٦ . وركزت هذه الانظمة على ان النصر في الحرب يمكن احرازه فقط بالهجوم الجاري بسرعة والمستمر بتعاون كامل بين جميع الاسلحة . وان المشاة المعززة بالدبابات ، والمدفعية ، والقوة الجوية ، تقرر مصير المعركة البرية ، وعلى المدفعية ، والدبابات ، والطائرات ان تفتح ثغرة بهجماتها ، في جهاز العدو الدفاعي الذي تستولي عليه المشاة وتتمسك به . وعلى المدفعية ايضا مسؤولية دعم المدرعات بتدميرها قوة نيران العدو المضادة للدبابات ، بحيث يمكن استخدام القوات المدرعة على نطاق كبير . ويجب استخدام الدبابات والوحدات الآلية بكامل قوة الفيلق وان لا توزع بوحدات صغيرة لدعم تشكيلات المشاة .

ويجب ان تنفذ العملية البرية الهجومية بتشكيل مجموعات هجومية مؤلفة من مشاة ، ودبابات ، ومدفعية ، وان يقذف بها في أضعف نقطة من خط العدو . وعندما تنجح مجموعة او اكثر من هذه المجموعات يقذف القائد « بمجموعات مساندة » تدعمها نيران المدفعية . وعندما يستكمل فتح الثغرة

يستخدم القائد كل وسائله المتحركة المتاحة له ـ من دبابات ، وعربات نقل ، ودبابات تحمل مشاة ، وخيالة ـ لتمزيق وحدات العدو والقيام بالتفافات لسحق العدو بنار المدفعية والهجمات الجوية . وهذه العمليات يجب ان تتبعها المطاردة التي يشترك فيها المظليون والقوات المحمولة جوا مع القوات المدرعة والخيالة بالاندفاع الى الامام والى أبعد ما يمكن نحو اراضي العدو . وقد عالجت الانظمة ايضا بتوسع العمليات الدفاعية وركزت حول الحماية من النار في المراكز الدفاعية والحاجة الى هجمات مضادة دائمة .

وهذه الانظمة الميدانية مدينة بوضوح بكل ما هو صالح فيها الى الفكر الخيالي لدى النظريين العسكريين والمخططين ، ولكن مع ان هذه النماذج من العمليات قد نفذت في التمارين فان تدريب الجيش الاحمر لم يكن ليبلغ المقاييس العالية للانظمة . وقد لاحظ المراقبون العسكريون الغربيون الذين حضروا المناورات السوفييتية عام ١٩٣٦ بأن القوات المتدربة قد تجاهلت بشكل كبير الانظمة ، وقامت بهجمات جبهية بثبات شديد وأبدت اهتماما قليلا بالتعاون بين أسلحة القوى المسلحة . ومع ذلك اذا كانت العقيدة بطيئة بتسربها الى جميع مستويات جيش كبير كما كان لدى السوفييت ، فانها كانت موجودة لدى القيادة العليا ، ومن المؤكد انها قد قورنت برضى بالعقيدة المماثلة في فرنسا ، واليابان ، او ايطاليا .

وقبل التوصل الى تقدم ابعد ، انزل التطهير الذي قام به ستالين ضربة بالجيش الاحمر . ولمدة سنتين ، اعتبارا من ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ ، قطعت بالواقع أوصال جهاز الضباط السوفييتي اربا اربا . فقد أعدم الالوف من القادة ، وضباط الاركان ، والمستشارين السياسيين رميا بالرصاص او سجنوا ، ونفذ حكم الاعدام بثلاثة مارشالات من أصل خمسة (توكاشيفسكي ، وبلوخر ، وييغوروف) ، وكان الذين حلوا محلهم غير جديرين بمراكزهم العالية من نواح عديدة وبعيدين كل البعد عن تفكير اسلافهم العسكريين . وقد تبنى رئيس التسليح الجديد ، الذي رفع فيما بعد الى رتبة مارشال وهو المارشال « كوليك » ، النتائج الخاطئة الناجمة عن الحرب الاهلية الاسبانية وهي ان

زمن التشكيلات المدرعة الكبيرة قد ولى ، فأمر بحل المجموعات الآلية وباعادة تبعية القوات المدرعة بوصفها ألوية دبابات وكتائب دبابات مستقلة مرتبطة بفرق البنادق . وجرد المشاة من الاسلحة الاوتوماتيكية والقوات الارضية من المدافع الفعالة المضادة للطائرات . وكان من حسن حظ الجيش الاحمر أن « الحربين المحليتين » ضد اليابانيين خلال فترة التطهير (معارك بحيرة كاسان في ١٩٣٨ وخالكين ـ غول في ١٩٣٩) قد خاضها رجال استوعبوا العقائد الجديدة مثل : « المارشال بلوخر » ، والمارشال المقبل جوكوف . والواقع ان تطويق الجيش السادس الياباني في خارج الحدود المنغولية - الذي خططه جوكوف ونفذه ، كان فعالا وسريعا مع انه تمم بخسائر فادحة من الضحايا السوفييت . ولكن عندما حاول الجيش الاحمر ان يباشر غزوا لفنلندا في شتاء ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ فقد بلغ بضعفه ابعادا مشؤومة . والحقيقة انه قبل ان يستلم المارشال « تيموشنكو » كافة القيادات في شباط ١٩٤٠ ، ويوجه الهجوم السوفييتي والمجموعات المساندة له الى المراكز الدفاعية العاصفة الثابتة مع الدعم الناري من كل جهة ، تخلى الجيل الجديد الذي أعقب التطهيرات ، من القادة السوفييت من كل ما اقتبسه من الطرائق الحديثة ، وقذف بمشاته على المواقع الحصينة للفنلنديين دون التفات للخسائر البشرية .

ومن بين دروس حرب فنلندا العديدة (والحملات الالمانية الناجحة في بولونيا وفرنسا) التي تلقاها القادة العسكريون السوفييت ، دعت الحاجة مجددا الى تشكيلات مدرعة كبيرة ، وادارة أفضل للقوات يمارسها القادة الاقدمون وتحسينات في الاتصالات السلكية واللاسلكية . وادت الاولى الى اعادة تشكيل خمسة وعشرين فيلقا آليا في اوائل عام ١٩٤١ ، وانتشار جيوش تغطية على امتداد حدود الاتحاد السوفييتي الغربية تتألف من فيلقي حملة بنادق وفيلق ميكانيكي ، ويبلغ مجموعها خمسا الى ست فرق ، وفرقتي دبابات وفرقة آليات . وكان ايضا لدى بعض الجيوش فيلق خيالة تحت القيادة .

وطالما كان الاهتمام منصبا على الفكر العسكري ، فان تلك حقبة كان فيها قادة الجيش المتأثرين بالنوعية الممتازة لكثير من المعدات التي كانت تصل

من معامل الاسلحة ـ لقد بدأت الدبابة ت ـ ٣٤ تصل الى فرق الدبابات الجديدة عام ١٩٤١ ـ ينامون ملء جفونهم وسط تفاؤل القادة السياسيين السهل في موضوع هجوم عدو ما على الاتحاد السوفييتي . وقد اكدوا انه اذا حدث مثل ذلك الهجوم ، فسيتوقف على الحدود وتنتقل الحرب فورا الى اراضي المعتدي . والحقيقة ان روح الهجوم كانت لا تزال سائدة ، وروح الجيش المعنوية عالية ، لكنها كانت روحا جهلت او حذفت اشارات الخطر التي تضمنتها النجاحات الكبرى الالمانية بواسطة المدرعات والتعاون بين الجيش والقوات الجوية . ولعل اكثر حالة عدم ادراك الحقائق الحربية تطرفا كانت التوجيهات الصادرة عن مفوضية الدفاع في ٢٢ حزيران من عام ١٩٤١ بضع ساعات بعد ان انطلق الهجوم الالماني في مسيرته . فقد دعت الى توقيف الغزاة الالمان دون ان يكون على الجيش الاحمر ملاحقتهم بعد الحدود ما لم تصل أوامر أخرى .

وقد أصابت صدمة الغزو الالماني الجيش الاحمر وهو غير مستعد للدفاع ضد الحرب الخاطفة وفي وسط اعادة تنظيم قواته المدرعة واعادة انتشار مجموعاته في مناطق الحدود . وقد شقت المجموعات المدرعة الالمانية الجبارة تحت أمرة الجنرالات « هوبز ، وهوث ، وغودريان ، وفون كليست » طريقها عبر جيوش التغطية السوفياتية وطوقت جيشين منها الى الغرب من « مينسك » وأسرعت نحو نهري الدفينا والدنيبير ، حيث كانت تشكيلات الخط الثاني الروسية متجمعة . ودارت معركة دموية وطويلة حول « سمولنسك » أوقفت الزحف الالماني لمدة شهرين الا انها أدمت الجيوش الروسية في منطقة « المركز الابيض » ، ومهدت الطريق لسلسلة من الكوارث العسكرية التي لا مثيل لها في التاريخ الروسي . ففي الشمال شق الالمان طريقهم حتى ابواب لينتغراد وعزلوا المدينة عن باقي روسيا ، وفي الجنوب ، أتاح الوسط الروسي الضعيف للالمان التقدم نحو « كييف » من الشمال ، وأدت ثغرة مفتوحة في اوكرانيا الى تطويق المدينة مع ٢٥٠.٠٠٠ من الجنود السوفييت . وكان ما سيحدث أشد وأدهى اذ انه في تشرين الاول كان ما يقرب من كامل الجبهة السوفييتية الغربية محاصرا الى الشرق من « سمولنسك » ويتضمن كامل الجيوش الثمانية او

قسما منها ، وباشر الجيش الالماني زحفه على موسكو . الا ان الفزاة هنا قد صدموا وكانت التعبئة السوفياتية قد بدأت بالتأثير على توازن القوة البشرية ، ويجمع القيادة حوالي اثني عشر جنرالا تقريبا حول موسكو من الذين جاءوا من التقهقر المرير من ذوي السمعة الحسنة ، خلقت القيادة العليا الظروف لاحراز النصر في جبهة العاصمة . وبالاضافة الى ذلك ، كان الجيش الالماني نفسه منهوك القوى وقد كان للشتاء الروسي الرهيب تأثير على الالمان يفوق تأثير الجيش الاحمر الذي كانت روحه المعنوية ايضا قد ارتفعت لانه كان يدافع عن عاصمته ذاتها . وكانت موسكو نصرا روسيا ، الا انه بفضل صلابة وحدات الصدمة الالمانية وحذاقتها المهنية لم تتحول الهزيمة الى تشتت .

وقد خرج الجيش الاحمر من محنته التي دامت طوال ستة اشهر مطهرا تطهيرا قاسيا . كما تبدو الكثير من ثقة زعمائه ، وعلى الرغم من انتصار موسكو ، فقد انتشر تشاؤم شديد على نطاق واسع بالنسبة لامكانية دحر الالمان ، بين اولئك الذين كانوا قد واجهوا حقد الفزاة بتمامه في انقضاضهم . الا انه في داخل الاركان العامة ، لم تعالج فقط بعناية فائقة وبتفهم قضايا تصحيح التكتيك وطرق القتال بل عولجت ايضا الحلول الاساسية للفكر العسكري في الحرب الالمانية . وقد أحدثت مديرية لتقييم تجربة الحرب في الاركان العامة عام ١٩٤٢ ، ومع اننا ليس لدينا ما يشير بوضوح الى نموذج العمل التحليلي الذي قامت به هذه المديرية ، فانه يبدو منطقيا القول بأن جزءا من مهمتها كان تقييم الاخطاء وضيق الفكر العسكري السوفييتي . فمن جهة ، أظهر الالمان ما هي قيمة الهجوم الذي يجري على اساس ضربات كتل مدرعة وتعاون من قبل القوتين الارضية والجوية الماهرتين . ومن جهة اخرى ، لقد قدم المفكرون السوفييت جوابا ضعيفا في موضوع كيفية هزيمة مثل هذه العمليات . وهناك بعض الاشارة من قبل الصحف العسكرية السوفييتية في الحقبة ما بين ١٩٥٩ — ١٩٦٠. الى ان هذا النقاش حول الفكر السوفييتي العسكري السابق لعام ١٩٤١ كان لا يزال يتقدم ، وان البحث كان بين اولئك الذين لاموا مفكري ما قبل الحرب لانهم قصروا في الاهتمام بالدفاع ضد الهجوم الاستراتيجي الذي قام به العدو واولئك الذين اعلنوا بأن العمل الاساسي في هذه الناحية قد

انجز ، الا ان تحديد ستالين السياسي لنموذج الحرب التي على الجيش الاحمر ان يخوضها جعل القيام بتدريبات عملية وتمارين في مجال الدفاع الاستراتيجي غير وارد . ومن المفيد التنويه الى ان احد المعلقين المعول عليهم جدا ومن الذين كتبوا في عام ١٩٦١ التزم جانب نقاد الفكر العسكري السابق للحرب ، مع انه يبدو من بعض معلومات محدودة موثوق بها ان وجهة النظر الثانية ايضا كان محتواها كافيا للتوصية بها .

وبعد معركة موسكو استعد كلا الجانبين بعنف من اجل استلام زمام المبادرة لحملة الصيف عام ١٩٤٢ ، وكان الروس بالواقع هم الذين وجهوا الضربة الاولى في اوكرانيا في القطاع الجنوبي والجنوبي الشرقي من لينينغراد . الا ان هجماتهم كانت غير مخططة تخطيطا جيدا ، وقد نفذت تنفيذا سيئا كما انهم كانوا ألعوبة بيد قادة مجموعة الجيش الالماني . وفي حين كان جيش الصدمة الثاني قد دمر جنوبي لينينغراد (واستسلم قائده الجنرال فلاسوف الى الالمان) فقد المارشال تيموشنكو ثلاثة جيوش في حوض الدونتز ، وكان عاجزا عن منع الالمان من فتح ثغرة استراتيجية أعقبت ذلك في الدون والفولغا ، وفي القوقاز . وقد ارتد الروس الى مدينة ستالينغراد الصناعية حيث زجوا بأنفسهم ونجحوا بالثبات في ارض ضيقة على الضفة الغربية من الفولغا مجبرين الالمان على ان يقذفوا اكثر فأكثر بالرجال والعتاد لاتمام الاستيلاء على هذه المدينة التي اصبح اسمها وحده ، كما يبدو ، يسحر هتلر . وفي تشرين الاول عام ١٩٤٢ كان لدى الالمان ما يزيد عن ٣٠٠٠٠٠ رجل مجمعين على رأس نتوء كبير من الدون الى الفولغا ، الا انهم تخلوا عن الضفتين على امتداد الدون عبر سهوب القوقاز التي كانت تحرسها قوات رومانية وايطالية . وقد اخذت القيادة العليا السوفييتية هذا الوضع بعين الاعتبار مضافا اليه نصيحة قيادة جبهة ستالينغراد المحلية فخططت لحركة التفاف حول المجموعة الالمانية بحركة كماشة شمالي ستالينغراد وجنوبيها قاصدة القطاعات التي كانت بيد قوات الدول التابعة . وقد جرى تجميع كبير للجيوش في ظروف احيطت بالسرية الشديدة ، وفي ١٩ تشرين الثاني وجه الروس ضربتهم . فانهار جناحا الدول التابعة ، وعلى الرغم من الاخطاء وسوء التقدير من الجانب السوفييتي ، التقى

ذراعا الكماشة ، غربي ستالينغراد في ٢٣ تشرين الثاني . وبعد مضي ثلاثة اشهر استسلم ما تبقى من الجيش السادس الالماني المتجمد والجائع ؛ وبذلك ربح الروس اول انتصار استراتيجي لهم بالقوات المتحركة . وكانت احدى صور الهجوم الروسي المضاد هي ان الذراع الشمالي للكماشة كان على رأسه جيش دبابات يتألف من فيلقي دبابات وفيلق خيالة وست فرق بنادق وهي تشكيلة بنيت بصورة واسعة على مفهوم « توكاتشيفسكي » بالاستخدام الكثيف للدبابات والخيالة حسب انظمته للميدان في عام ١٩٣٦ . ومع ان قائد ذلك الجيش من الدبابات لم يكن ناجحا فقد اخذت القيادة العليا دروسا عديدة من عمليات الجيش ، وعندما وقع الصدام الرئيسي الثاني مع الالمان في « كورسك » في صيف ١٩٤٣ كان تشكيل جيش الدبابات قد عدل باستبعاد الخيالة والمشاة ودعم فيالق الدبابات بفيالق آلية ثقيلة .

وقد سجلت معركة « كورسك » ، التي قاوم فيها الروس اغراء استباق الهجوم الالماني او احباطه مسبقا ، نقطة تحول في الصراع السوفييتي – الالماني وللمرة الاولى عمل الروس ما كانوا يصرحون بقدرتهم على عمله في عام ١٩٤٠ ، فقد واجهوا الهجوم الالماني ودحروه حيثما كانوا مرابطين . وفي معركة استثنائية ثقيلة من ٥ تموز الى ٥ آب هزم الروس هجمات المانية قام بها ما يقارب المليون جندي الماني ، وعندئذ استقدموا ثلاثة جيوش دبابات (الجيش الثالث والرابع والخامس) ليحدثوا ثغرة عبر خطوط الالمان ويتابعوا الزحف حتى نهر الدنيبر واستطاع قسم من جيش الدبابات الثالث بقيادة الجنرال ريبالكو ان يقتحم بنجاح نهر الدنيبر قرب « كييف » من خط الزحف ، وحينئذ تمسك برأس جسر يدافع فيه ضد هجمات الالمان المعاكسة الضارية – وهذا مثال جيد عن تحولات القوات المتحركة السوفييتية الجديدة . ويجب ان ننوه مع ذلك بأن محاولة استخدام مجموعات محمولة جوا في عبور الدنيبر قد فشلت واقلع فيما بعد عن استخدام هذه المجموعات في مثل هذا الدور في الحرب السوفييتية – الالمانيـة .

وكانت حملات عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥ ، التي انتهت بالاستيلاء على برلين.

وفيينا واحتلال اوروبا السرقية والوسطى ، شاهدا على اكتمال فنون المعركة واستراتيجيتها اللتين برزتا تدريجيا وبجهد منذ عام ١٩٤١ . وقد تطور تخصص اكمل للقطعات للقيام بدور هجومي مع تشكيل جيوش حرس وجيوش صدمة : كان يوجد من الاولى احد عشر جيشا ومن الثانية خمسة جيوش في عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ . وكانت هذه تشكيلات بشرية الا انها مجهزة جيدا بصورة خاصة بالمدفعية وبمدافع الهاون ، وأخذت على عاتقها الهجمات الاولية على مواقع محضّرة في بداية الهجوم . وتتحرك جيوش الدبابات والجيوش الميكانيكية وكذلك الفيالق بسرعة عبر الثغرات التي تحدثها تلك الجيوش — وأحيانا كما جرى في قطاع المارشال « كونييف » في عملية برلين ، في مساء اليوم الاول — وتنطلق لمطاردة العدو وتطويقه (ويؤتى بالخيالة لتعمل في ارض سبخة او محرجة) بتعاون وثيق مع الجيوش الجوية التكتيكية الملحقة بكل جبهة . وتباشر غالبا كل عملية تطويقا واحدا او اكثر لقوات المانية كبيرة او تنتهي بذلك في حين تتبعها كتل من جيوش مشكلة في غالبيتها من المشاة لتصفية جيوب المقاومة واحتلال نقاط العدو المنيعة والدفاع عنها . وفي بعض العمليات — مثلا — غزو شرقي بروسيا وعاصفة كونيغزبيرغ — تهاجم جيوش المشاة في قطاعات ثانوية بآن واحد مع جيوش الحرس او جيوش الصدمة واحيانا تستعير من تشكيلات الهجوم عندما تكون تلك الاخيرة معانية من خسائر استثنائية فادحة بالرجال .

وقد تطور الجيش الاحمر الذي بلغ برلين ، وفيينا في أكثر النواحي في الواقع الى نوع من القوة التي كان « توكاتشيفسكي » وزملاؤه قد أوصوا بها وتوقعوها في حقبة ١٩٣٠ — ١٩٣٦ . وكانت تتصف بالكثافة التي تطلبها بوصفه روسياً يعالج جغرافية روسيا باعتبارها شرطا أساسيا لازما للنجاح . وقد تمرس قادتها على استخدام الدبابات بكثافة — كان لدى قائد جبهة واحدة ما يبلغ ١٧٠٠ دبابة تحت تصرفه — وظل الامر مستمرا على هذا النحو وطرأ تحسن على الروح الهجومية والمناورة في ميدان المعركة . والحقيقة كان لا يزال هناك بعض الشلل والقصور في عام ١٩٤٥ . مثلا بطء العربات التي تجرها الخيل لنقل المؤن والخدمات الطبية والادارية الاولية في القطاعات الثانوية وفقر

مقياس الذكاء والمبادهة لدى بعض المجندين في سني الحرب الاخيرة . الا انه يجب الا يغرب عن البال انه حتى هذا اليوم ليس هناك ارقام كاملة عن مجموع خسائر السوفييت وكانت التعبئة تحفر بعمق في صفوف الاحداث وفي مجموعات من الكهول . وقد التقى أحد الكتاب شخصيا بصبيان في سن السادسة عشرة في الجيش الاحمر عام ١٩٤٥ وبرجل من المشاة كان قد فقد احدى عينيه في حرب روسيا واليابان عام ١٩٠٤ – ١٩٠٥ .

ولم تكن سنة ١٩٤٥ نهاية لحرب مظفرة فقط بل كانت بداية لعصر الذرة ، الذي واجه فيها المفكرون العسكريون الحاجة الى التخلي عن كثير من مبادئهم الاساسية في محاولة لتحديد الاهمية الحقيقية للاسلحة الذرية اذا ما نشبت الحرب مرة اخرى . وهكذا في حين كان الغرب جاريا وراء هذا الهدف داخل الاوساط الحكومية وخارجها ظهرت القنبلة الذرية في زمن ركود في فكر الاتحاد السوفييتي العسكري . ومن الاسباب الداعية الى ذلك تلكؤ ستالين في اعطاء اهمية حاسمة لسلاح لم يملكه الاتحاد السوفييتي . وقد وصفه في عام ١٩٤٦ بأنه وسيلة « لترويع ضعيفي الاعصاب » ، واضاف بأنه ليس بمقدوره كسب الحروب . وهناك دليل ضعيف في الصحف السوفييتية العسكرية لعام ١٩٤٥ – ١٩٤٦ على قيام بعض محاولات من قبل قادة محنكين لتطوير افكار جديدة عن المعارك الحربية ، الا انه منذ عام ١٩٤٧ اصبحت جميع الكتابات خاضعة ليد ستالين الجامدة . وكانت العقيدة العسكرية قد ضغطت رسميا الى « خمسة عوامل ثابتة » عددها ستالين باختصار في خطاب له بعد معركة موسكو في زمن كان فيه من السمات الهامة للمعارك بين المانيا وروسيا ، التحمل مقابل الخبرة في المعركة . وكانت عوامل ستالين الخمسة : ثبات الجبهة الداخلية ، والروح المعنوية للقوات المسلحة ، وعدد ونوعية فرق الجيش ، وعدد ونوعية الاسلحة ، وامكانيات القادة . ولئن كان كل من هذه العوامل صحيحا فان تجاهل اهمية المفاجأة والتدمير الكثيف الذي تستطيع ان تحدثه الاسلحة الذرية كان بمثابة حكم على المفكرين العسكريين بالكسل والثقة المبالغ فيها وعلى الجيش ككل بجهل حقائق الحرب . وفضلا عن ذلك فقد استمر ستالين في توقعه لحرب عالمية ثالثة على شكل حملة اوروبية على اساس بري

واستبقى ١٧٥ فرقة حملة بنادق ودبابات وفرق آلية ، واربعين فرقة مدفعية ومدفعية مضادة للطائرات في الخدمة العاملة في الجيش الاحمر (الذي أعيدت تسميته في عام ١٩٤٦ بالجيش السوفييتي) . وثمة بعض الادلة على ان ستالين ايضا توقع ان ينتشر جيشه الكبير في اوربا الشرقية وغربي روسيا كقوة رادعة تستطيع ان تجتاز اوربا الغربية اذا ما هدد الاميركيون باستخدام احتكارهم للقنبلة الذرية لشن هجوم جوي على الاتحاد السوفييتي . الا ان الواقع يظل ان المفكرين العسكريين السوفييت في حياة ستالين لم يكن مسموحا لهم بالرجوع حتى الى المطبوعات المحفوظة حول الاهمية الحقيقية للاسلحة الذرية والنووية لمناقشة التهديد الجوي الاميركي للاهداف السوفييتية . وقد ردد المارشالات السوفييت المرموقون واحدا بعد الآخر الصيغة « الستالينية » للعوامل الخمسة الدائمة . ومما يزيدنا دهشة انه كان مطلوبا منهم ان يفعلوا ذلك في وقت كان فيه مهندسو الدفاع السوفييت من علماء وبناة قد سمح لهم بالسير قدما لتطوير الطائرات المتقدمة والصواريخ (بما فيها العابرة للقارات التي ظن عدم امكان استخدامها في ذلك الوقت ١٩٤٦ – ١٩٤٩ في الولايات المتحدة) والاسلحة الذرية والنووية . ويمكننا ان نستنتج فقط ان تأني ستالين (وطموحه) قد قاده للسماح بحيازه آخر انواع الاسلحة الا ان تشككه الفطري ومحافظته جعلاه مترددا في التخلي عن الطرائق الحربية التي تصور انه فهمها وسيطر عليها خلال الحرب العالمية الثانية . يضاف الى ذلك ان غيرته وزهوه قد لا يدعانه يسمح لمستشاريه العسكريين ان يبحثوا في مجال الحرب والعقيدة بطرق لا بد وان تعطيهم ميزة عليه في المعرفة والادراك للتقنيات الحديثة . وهي معرفة يمكنها بصورة مفهومة بحسب طبيعته الشكوكية للغاية ان تزود الرجال العسكريين الذين يملكون قوة تحت تصرفهم بنوع من رافعة للقوة كان ستالين قد خشيها في عام ١٩٣٧ – ١٩٣٩ عندما اضعف طاقة البلاد الدفاعية لكي يضمن لنفسه مركز القوة الشخصي .

وليس من المستغرب في هذه الظروف ، انه خلال اشهر من وفاة ستالين في اذار ١٩٥٣ بدأ نقاش حول الفكر العسكري بين اعضاء القيادة السوفييتية العليا بصدد قضايا الحرب في عصر الذرة . ومن بين اشهر المساهمين المرموقين

كان الميجر جنرال « ن.ا. تالنسكي » الذي امضى مدة طويلة كضابط اركان ، والفريق « ب.ا. كيروتشين » رئيس اكاديمية فرونزه العسكرية ، ومارشال القوات المدرعة « ب.ا. روتمستروف » رئيس اكاديمية القوات المدرعة .
ولمدة عامين ظل الجنرالات والمارشالات السوفييت يتناقشون فيما بينهم متذوقين طعم الحرية غير المعتادة في النقاش . وفي عام ١٩٥٥ اطلقوا عقيدة عسكرية اعتقدوا بانها تنسجم مع طاقة التهديد الاميركي ومع كفاءة السوفييت العسكرية. وصفوة القول ، ان اتفاق الراي كان على ان قيادة الجو الاستراتيجية الاميركية قادرة على التسلل الى مراكز الدفاع الجوية السوفييتية تقريبا ومهاجمة اي هدف في الاراضي السوفييتية بأسلحة نووية ، وقد يكون هذا العامل الرئيسي في بحث السياسات العسكرية السوفييتية . وثانيـا ، يجب علـى القوات السوفييتية ان تكون في وضع تحبط فيه كل هجوم جوي اميركي نتيجة تحسين الدفاع الجوي في البلاد والقدرة على تدمير ولو قسم من القوة الضاربة الاميركية على الاقل في قواعدها الجوية والبحرية **قبـل** شن الهجوم ــ اذا كان قد ورد خبر صحيح تام الى موسكو عن هجوم اميركي وشيك . وهذا ماسمي بسياسة « الضربة الوقائية » ، التي كانت ، بالواقع ، قد رفضت من قبل السيـد « خروتشيف » بوصفها كثيرة المخاطر ولا يمكن الاعتماد عليها . وثالثا ، اوصى المتناقشون بتخفيض حجم القوات البرية والجوية وجعلها اكثر قابلية للحركة مع قوة نار اعظم تتضمن اسلحة تكتيكية نووية . وكانت احدى صور هـذه التوصيـة التي كانت ضمنية دون التعبير الصريح عنها في الدليل ، هي انه تجاه الاشعاعات التي يمكن ان تصيب الاراضي السوفييتية نتيجة هجـوم نووي اميركي ، يكون لجيش متمتع بحركـة عالية وبقوة جوية حظ اكبر في شق طريقه في اوروبا الشرقية والاتحاد السوفييتي في حملة سريعـة ضد دول حلف شمالي الاطلسي (وربما ايضا في الشرق الاوسط) وبذلك يهرب مـن الاراضي السوفييتية المثقلة بالاشعاعات على وجه افضل مما كان يفعله جيش زمن ستالين المتخبط .

وباستثناء عقيدة الضربة الوقائية ، قبلت قيادة الحزب تلك العقيـدة العسكرية وباشرت باجراء تغييرات تنظيمية مبنية عليها في القوات السوفييتية

عــام ١٩٥٥ . ورفعت قيــادة الدفاع الجوي الى نظام « الفرع » الرابع فن القوات المسلحة (للجيش ، والبحرية ، والقوة الحوية) وجمعت القيادة العامة الجديــدة المقاتلات ، والصواريخ ، والمدفعية المضادة الطائرات تحت قيادة احد مارشالات الاتحــاد السوفييتي . وادت التخفيضات التدريجية في القوات البرية والجوية في عام ١٩٥٩ الى ايجاد قوة تقليديــة اكثر قابلية للحركــة ولكنها مع ذلك زادت في قوتها النارية بادخال صواريخ تكتيكية تحمل رؤوســا حربيــة نووية . وفوق كل شيء حوفظ على قوة النار ضد الحلف الاطلسي في اوروبا وزيدت ببناء ثابت لصنف صواريخ متوسط ذات القذف الذاتي في غربي روسيا قادرة على ضرب الاهداف في بريطانيا والمانيا الغربية وفرنســا وايطاليــا بالاسلحة النوويــة . وفي الوقت نفســه اخرجت الاركان العامــة والاكاديميات العسكرية عقيدة تكتيكيــة لشن حرب برية وجوية في الوضــع النووي . وبالاستناد لهذه العقيدة يجب ان تكون قوة النار النووية في ميدان المعركة مستخدمة لتدمير اسلحــة العدو النووية ولتحطيم مراكز دفاعــه . وبنسبة درجة التدمير الحاصل ونوعه على القوى البرية والجوية ، ينبغي أن يترك لها متابعة اهدافهــا باستثمار الضربة النووية التي يجب ان تتضمــن احتلال الاراضي وتدمير جيوب المقاومة المعزولة أو متابعة العدو الذي ضعف او ولى هاربا . وعلى الجيوش ان تتقدم بسرعة كبيرة على امتداد محاور منفصلة على مسافة كبيرة وينتظر من قادة الميدان ان يعملوا بمبادهة هائلة منتهزين اية فرصة يمكن ان تساعدهم على التوغل في تقدمهم .

وقد تطورت هذه العقيدة التكتيكية بالاستناد الى عمل المفكرين العسكريين السوفييت في الاركان العامة والاكاديميــة العسكرية ، وبقيت معمولا بها حتى اليوم ، والمرجح انها لن يطرأ عليها تعديلات اساسية في السنوات القريبــة القادمة . وان قابلية المجموعات البرية للعبور في منــاطق ملوثــة بالاشعاع بواسطــة مركبات مغلقة واجتياز الانهر تحت الماء واستعمال الثياب الشخصية الواقية قد طبق وسيطرا عليه ولا شك تحسينات ومن جهة اخرى يواجه الاتحاد السوفييتي الشكوك نفسها وكذلك الغموض الذي نعانيه نحن الآخرين في الغرب عندما نحاول تحديد اثر استخدام الاسلحة النووية في القتال على الجيوش المشتبكة وعلى المدنيين من الشعب . واكثر من ذلك اكد السوفييت

بأن المجموعات المدربة تدريبا جيدا ستكون قادرة على التغلب على الصدمة الناجمة عن استخدام تلك الاسلحة وعلى بلوغ اهدافها المحددة لهـا على جميع المستويات على ان ذلك سيظـل بشكل اكبر اشارة استفهام في الحرب المعاصرة .

ان المجال الذي تغير فيه الفكر العسكري السوفييتي من حيث الطاقة منذ عام ١٩٥٥ كان في مجال الاستراتيجية العسكرية السياسية الواسع . فان خروتشيف في وقت ما من عام ١٩٥٩ ، مدعوما بزيارته للرئيس ايزنهاور في « كامب ديفيد » وبوقوفه على التقدم السوفييتي بالصواريخ ذات الحركة الذاتية العابرة للقارات وتطويرها والتي كانت قريبة من بلوغ اوجها بعد مضي سنتين على اول اطلاق ناجح في آب ١٩٥٧ ، توصل الى الاستنتاج بأنالولايات المتحدة تحت قيادة مسؤولة لم تعد تشعر بالاغراء لاستخدام قوتها الاستراتيجية لشن هجوم نووي مفاجىء على الاتحاد السوفييتي ــ وصرح بذلك علنا . وقد اعتقد بأن القوة الرادعة لنظامي الاسلحة الاستراتيجية كان فعالا بدرجة متساوية اجمالا وقد ساعدته في هذا المضمار الاسطورة المتنامية بأن الاتحاد السوفييتي قد تجاوز الولايات المتحدة بالقوة الاستراتيجية بواسطة طريقة مختصرة عبر الصواريخ العابرة للقارات وقد أنشأ خروتشيف القوات الصاروخية باعتبارها « فرعا » خامسا للقوات المسلحة في كانون الثاني ١٩٦٠ ، معلنا انها ستكون نموذج القوة المسلحة الرئيسي وان الافضلية يجب ان تعطى لانمائها بالعدد والكمال في النوع ، وهذا ايضا يؤدي الى السماح للحكومة السوفييتية بتخفيض نفقات الدفاع عن اسلحة اخرى من الخدمة وتخفيض القوة البشرية والبحرية السطحية ، وقوة الطيران التكتيكية ، والجيش بمقدار الثلث . الا انه كان هناك تأرجح في اعتماد الاتحاد السوفييتي التقليدي على تفوق القوات البرية نحو مفهوم جديد كامل بالنسبة للروس : الردع من خلال القوة الاستراتيجية .

ان الاضطراب الوحيد في هذا التغيير في التركيز الذي اكتشف الزعماء السوفييت بعد زوال جو **انفراج** « كامب ديفيد » انه قد اختفى باخفاق مؤتمر القمة في باريس في شهر ايار ١٩٦٠ ، هو ان قوات الصواريخالاستراتيجية

السوفييتية ، على الرغم من انها كانت الاولى في المجال التجريبي ، فانها لم تكن قادرة بأن تضاهي قدرة الانتاج الاميركي عندما بوشر بعرض اجهزة يمكن الاعتماد عليها مثل « بولاريس » و « مينوتمان » . وكان برنامج تطوير القوة الاستراتيجية الذي اعلن عنه الرئيس كنيدي في آذار ١٩٦١ توقع بلوغ هدف صنع ٨٠٠ صاروخ مينوتمان العابرة للقارات (أرتفع فيما بعد الى ١٥٠٠) وخمسا واربعين غواصة بولاريس ، في حين كان برنامج السوفييت على الارجح يتراوح ما بين ٧٥ ــ ١٠٠ صاروخ عابرة للقارات مع عشرين غواصة قاذفة صواريخ للحقبة نفسها . وفي هذه الاحوال لم يكن مما يثير الدهشة ان السيد خروتشيف قد حاول ان يحل قضية برلين بالتحدي عام ١٩٦١ قبل ان تصبح هذه القوات الاميركية الاستراتيجية ــ والزيادات المماثلة في الجيش الاميركي والقوات الجوية ــ ذات فاعلية . وكذلك ليس من المستغرب ان الحكومة السوفييتية قد الغت من طرف واحد تجربة الاسلحة النووية في عام ١٩٦١ مع تشديد على الاسلحة ذات المقاومة البالغة ــ مايفوق الثمانية والخمسين ميغا طن في حالة واحدة . وربما كان صحيحا قولنا ان ازمة الصواريخ الكوبية التي سادت عام ١٩٦٢ كان لها هدف يضاف الى عدة اهداف سياسية ونفسانيةهو هدف تضييق الشقة بين قوتي اميركا والسوفييت الاستراتيجيتين باقامة قاعدة لقوة استراتيجية ضاربة مكلفة على بعد ١٠٠ ميل من ارض الولايات المتحدة وهي جغرافيا تلتف حول شبكة الانذار المسبق الاميركية .

الا ان المغامرة الكوبية باءت بالفشل ، ومنذ منتصف ١٩٦٣ شجعت الحكومة السوفييتية ازدياد **الانفراج** في العلاقات مابين الشرق والغرب ، وعادت الى مفهوم يساير العصر لسياستها الدفاعية لعام ١٩٦٠ يتضمن تشديدا مجددا لاولوية قواتها الاستراتيجية الصاروخية وتخفيضا قليلا في القوة البشرية في الفروع الاخرى من القوات المسلحة وفي ميزانية الدفاع . ومن المستحيل تحديد مدة ديمومة **الانفراج** الحالي الا انه من الطبيعي ان تنشأ اسباب عسكرية وجيهة حاليا يجب ان يتحملها على السواء المفكرون العسكريون والقادة المسؤولون لاستمرار تناقص التوتر في المستقبل الماثل للعيان . ومن الواضح ان الاقتصاد السوفييتي لايمكنه ان يضاهي قدرة انتاج

الولايات المتحدة في عدد المركبات الاستراتيجية المسلمة . وفي حين ان استعمال الروس للرؤوس الحربية الكبيرة يمكن في بعض الظروف ان يعدل في ميل كفة الميزان غير الملائم الى درجة محدودة ، فاننا اذا تحدثنا بصورة عامة نجد ان الاتحاد السوفييتي بالواقع قد بني على اساس العيش بمفهوم استراتيجي ادنى . وهذا يتضمن تبني سياسة خارجية باخطار اقل حيث يكون للولايات المتحدة او لحلف الناتو علاقة مباشرة مع نمو مطرد لقوات الصواريخ الاستراتيجية وللقوات الجوية بعيدة المدى ولعناصر الغواصات المجهزةبالطاقة النووية والقذائف البحرية . ويتضمن ايضا ابحاثا موسعة في فنون الدفاع الجوي ، وبخاصة المضاد لاجهزة اسلحة القذائف وهي التي كان فيها الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في عام ١٩٦٣ على المستوى نفسه تقريبا . واخيرا ، فان العقيدة السوفييتية والتخطيط السوفييتي سيستمران في الاعتماد الكبير على دور القوات البرية في اية اعمال حربية على المسرح الاوروبي وسيهدفان الى زيادة قوة النار (النووية والتقليدية) والحركة والتدريب القياسي لقواتهما في وسط اوروبا وشرقيها .

والخلاصة ان الفكر العسكري في الاتحاد السوفييتي قد مر بمراحل متفاوتة من حقل نشاطه . ففي احدى المرات ، في بداية العشرينات ، كانت الهبة الثورية في روسيا ضخمة الى حد ان المفكرين العسكريين بعد الحرب الاهلية كان امامهم تقريبا ساحة واضحة للعمل . وقد ضاقت طبيعة التقاليد حتى اصبحت معدومة تقريبا . ومن هذه المناقشات المبكرة انبثق مفهومان : ان المتطلبات الاساسية هي الهجوم والحركة ولا يمكن ان يساورنا الشك الا قليلا من هذه الناحية في انه كان لكتابات الكتاب العسكريين من ذوي البصيرة في الخارج تأثير هائل على المنظمين العمليين في الجيش الاحمر كالمارشال « توكاشيفسكي » . ومع تطهيرات الجيش وظهور جيل غير متمرس من القادة فقد غدت عقيدة الهجوم مشوهة في صورة معتقد سياسي موثوق به اجمالا اكثر مما ينبغي ، وقد لعب دورا كبيرا في كوارث الدور الاولي من الحرب السوفييتية ــ الالمانية .

وبعد الحرب التي اتحدت فيها عقيدة عملية باستخدام مجموعات

الصدمة المتحركة ، مع المزايا التقليدية التي تؤمنها القوة البشرية السوفييتية ، دخل الفكر العسكري في دور انحطاط في عهد ستالين . ولم يحدث قبل ١٩٥٥ ان صرف الاهتمام الكامل لتعرض الاهداف السوفييتية لخطر الهجوم الجوي والقذائف . وحتى ذلك الحين كان المفكرون العسكريون الرسميون قد تعلقوا ــ وذلك في القسم الاعظم على امتداد الخطوط المماثلة لخطوط زملائهم الغربيين ــ بقضايا استخدام الاسلحة النووية من الناحية الاستراتيجية وتكتيك ميدان المعركة على السواء . وفي الواقع ثمة نقطتان تشكلان الاساس لهذا التحليل للفكر العسكري السوفييتي هما : اولا ، انه لم يكن يوجد مفكرون عسكريون غير رسميين من المرتزقة في الاتحاد السوفييتي ولا مراسلو دفاع حقيقيون ملحقون بالصحف السوفييتية ولا معاهد غير حكومية حيث يمكن ان تطرح على الجمهور قضايا الدفاع والحرب . ولكننا نحن في الغرب لانكتشف سوى نسبة ضئيلة من الحجة التي تتنقل خلف ابواب الاركان العامة الموصدة وفي الاكاديميات العسكرية . وثانيا ، ان الاتحاد السوفييتي قد حكمه منذ عام ١٩٤٥ (مع فاصل صغير من ١٩٥٣ ــ ١٩٥٥) وحتى مؤخرا ، رجلان : ستالين وخروشيف وقد اعتبر كل منهما نفسه خبيرا في القضايا العسكرية وكان مستعدا لاستخدام كامل ثقل قوته العسكرية ليرى افكاره حول الفكر العسكري مقبولة لدى القوات المسلحة . ولكن ما قد يخدعنا اكثر هو امكانية ان المفكرين العسكريين المحترفين حقا في مؤسسة الدفاع سيكون لهم تأثير اكبر على الفكر الدفاعي لدى القادة السياسيين الجدد اكبر مما كان لهم في حكم خروتشيف . واذا ماحدث ذلك فان مجموعة المفكرين العسكريين واصحاب النظريات قد يصبحون اقرب الى مركز السلطة في الاتحاد السوفييتي اكثر من اية سلطةاخرى كبرى في النصف الثاني من القرن العشرين .

- ١٢ -

العقيدة الاستراتيجيــة الاميركية والدبلوماسيــة

بقــلم : هنري كيسينجر

ولد هنري .أ. كيسنجر عام ١٩٢٣ ودرس في جامعة هارفارد . وخدم في جيش الولايات المتحدة في جهاز ادارة الاستخبارات المضادة من عام ١٩٤٣ - ١٩٤٦ وعلم مادة ادارة الحكومة منذ عام ١٩٥٤ في جامعة هارفارد ، التي عين فيهـا استاذا منذ عام ١٩٦٢ ، وهو عضو في مركز هارفارد للشؤون الدولية ؛ وكان فيه مديرا مساعدا من عام ١٩٥٧ - ١٩٦٠ وعمل كمشاور لوكـالات عديـدة في حكومة الولايات المتحدة ، بما فيها مجلس الامن القومي . وتتضمن مؤلفاته « **الاسلحة النووية والسياسة الخارجية** » (الذي فاز بجائزة وودرو ولسن في عام ١٩٥٨) ، وكتاب « **ضرورة الاختيـار** » الذي يتضمن وجهـات نظـر في سياسة اميركا الخارجية ، و « **الشركة المضطربـة** » ويتضمن اعـادة تقييم لحلف الاطلسي ، ومقالات عديدة في الاستراتيجية والشؤون الدولية .

طبيعـة القوة الحديثة :

ان مميزات الاسلحة الحديثة الفنية معروفة جيدا . ونحن مـدركون ان البشرية تملك قدرة افناء نفسها في ظرف ساعات . وأي مكان في الدنيـا يمكن تدميره من أي مكان آخر في دقائق . وقد جعلت قوة الهجوم قوة الدفاع مكشوفة الى حد بعيد . وحتى الدفاع الذي يبلغ مفعوله نسبة تسعين بالمائة قد لايكون بمكنته ان يحول دون الضرر الفاجع .

الا ان النتيجة التي يجب ان نستخلصها من وضع الامور هذا ، ليست بالسهولة التي نتصورها . ان البعض يعتقد انه اذا كانت المخاطر قد اصبحت اشـد بما لايقـاس فـان مبـادىء الاستراتيجيـة الاساسيـة ظلـت هي نفسهـا . واما بالنسبـة لآخرين فان الحرب قـد اصبحت لايمكن التفكـير بهـا فهم يطلبون ان ترتب الدبلوماسية كل الخلافات مـن خلال ممارسـة المفاوضات بمهارة .

ولكل وجهة نظر صعوبتها . فاذا كانت التغييرات الكمية الكثيفة بمكنتها ان تسبب التغييرات الكيفيـة ، حينئذ يجب ان نعتبر ازدياد التدمير المهـدد بالاسلحة النوويـة عصيبا . وثمة ثغرة اساسية تحدث عندما يضطر احـد الحكام لتضحيـة عشرات الملايين من الاحياء بدلا من الآلاف بينما ان قـراره

لا يعود لمدة طويلة يتضمن خسارة مقاطعة بل بقاء مجتمع بذاته . وحتى اذا كانت المبادىء الاستراتيجية التقليدية لم تصبح بالية بتمامها فان الحاكم سيتردد بكل تأكيد من وضعها موضع التجربة .

الا ان القول بأن سيادة الدبلوماسية غير المؤهلة قد بدأت هو أيضا تبسيط مفرط مساو للآخر . واذا كانت الحرب قد أصبحت اليوم آخر ملاذ للرجال اليائسين فهذا لم يجعل الدبلوماسية اكثر سهولة . بل على العكس جعل معالجتها اكثر صعوبة . في الماضي لم ترجع قط مفاوضات فاشلة الامور الى نقطة انطلاقها . بل كانوا يلجأون الى ضغوط اخرى لادخالها في اللعبة . الا ان الكثير من هذه الضغوط لم يعد صالحا لمدة اطول وهكذا ايضا اصبحت الدبلوماسية اقل ليونة . وحيث لا توجد عقوبة لعدم الاذعان لايوجد باعث للوصول الى اتفاق . وبما ان الحكام قد اصبحوا بصورة متزايدة ممتنعين عن اللجوء الى الحرب فان المفاوضات قد اصبحت اكثر تعلقا بالطقوسيات .

ومع ذلك فان اي تحديد لانطباع القوة على الدبلوماسية يجب ان يبدأ بمناقشة مميزات القوة في العصر النووي . ويمكن ان تكون بعض التعاريف مفيدة .

١ ـ **القوة الهجومية** : هي قدرة وحدة سياسية على فرض ارادتها على وحدة اخرى .

٢ ـ **القوة الدفاعية** : هي قدرة دولة ما على تجنب اكراه دولة اخرى .

ويمكن تقسيم القوة الدفاعية ايضا الى اقسام ثانوية : الى سياسة دفاعية صرفة والى سياسة وقائية . وللقوة استخدام دفاعي صرف عندما ينتظر بلد ما التهديد حتى يتجسد قبل معالجته . ويكون استخدامها على صورة وقائية عندما تكون السياسة موجهة نحو تجنب تحديات محتملة وليس تحديات آنية . ولقد كانت سياسة الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية دفاعية صرفة ميالة لترك الاخطار تصبح لاغموض فيها لتسيطر على كل جهد من اجل التغلب عليها . ويمكن ان يتاح ذلك لان

الهامش العريض للبقاء قد ضمن بأن لاتحول مبكر يمكن تصوره قد يهدد المصلحة القومية .

وكانت سياسة بريطانيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تمثل طريقة التصرف الحذر . وقد عملت بريطانيا على مبدأ ان « انتويرب » يجب الا تقع في ايدي الدول الكبرى . وهذا لم يكن ناجما عن ان أي يقين بأن مثل هذا الحادث سيكون له ذيول عدائية بل على الاصح بسبب ان بريطانيا لن تكون لمدة اطول قوية كفاية للمقاومة اذا ما وقع ما هو اسوأ .

٣ ـ القوة الرادعة : هي القدرة على منع بعض التهديدات او الاعمال من ان يتم تنفيذها عن طريق تهديد مماثل او اعظم .

وليس ثمة تناسق بالضرورة بين قوة الهجوم وقوة الدفاع . وتملك بعض الدول قدرا قليلا من الاولى ولكنها تملك كثيرا من الثانية . فقد حاولت سويسرا مثلا ان تمزج بين استحالة بلوغ ارض ما مع القدرة على تجنيد نسبة هائلة من الموارد القومية . وكانت الدول في هذا الموقف قادرة على منع بلاد اخرى من فرض ارادتها . ومن جهة اخرى ، لم تلعب أي دور فعال جدا في الشؤون الدولية .

وليس للقوة نظام مقاييس مطلق فهي دائما نسبية . ففي القرن السابع عشر كان من التفاهة محاولة مقارنة قوة اليابان بقوة بريطانيا العظمى طالما انهما لاتملكان الوسائل التي تجعل قوة كل منهما تضغط على الاخرى . وظل هذا الفصل الجغرافي في القوة يشكل حقيقة حتى منتصف القرن التاسع عشر . وبعد ذلك ، اصبحت قارة صغيرة ، هي أوروبا ، من الناحية الطبيعية متفوقة تفوقا بالغا على البقية واستطاعت ان تملي ارادتها في الشؤون الدولية .

وتتوقف القوة ايضا على عوامل نفسية مثلما تتوقف على عوامل موضوعية. وما لم تستخدم حقا فهي تبقى كما يتصورها الشعب وقد تعقدت مميزات القوة الى ابعد من ذلك في الحقبة الحديثة . ولسبب واحد اصبح اثرة القوة الحديثة الآن بحجم العالم . فان معظم الاقطار النووية قادرة على تدمير أي

قسم من الكرة الارضية من اراضيها نفسها . وبالاضافة الى ذلك اصبح كل قطر منها المعارض الرئيسي للقطر الآخر . ففي الوقت، الذي بلغت فيه اخطار القوة اعلى حد لها لم تبلغه قط سابقا اصبحت السياسة الخارجية بالواقع عالمية .

وهذه الاخطار قد ارتفعت بصورة خاصة لان القوة الهجومية هي الآن متفوقة كثيرا على القوة الدفاعية . وليس من جهاز دفاعي موجود أم يتصور وجوده يبدو قادرا على تجنب الضرر الذي اصبح بما لايقاس اكثر تدميرا من كل ما قام بمعاناته أي مجتمع على الاطلاق . وقد ادى ذلك الى التفريق بين السياسة الخارجية الحذرة وبين السياسة الدفاعية ، ففي مواجهة الاخطار تبدو السياسة الخارجية حذرة وان هدفها هو منع الاعداء المحتملين من حيازة قوة هجومية مدمرة محتملة . الا ان سياسة الدول الكبرى الحالية قد اصبحت سياسة دفاعية غير مخصصة لمنع تجميع القدرة العدوة بل للانتقام ضد الضربة ــ وقد تكون دالة على فوات الاوان في حينه لاسباب عديدة .

وقد اصبحت القوة الرادعة اهم مظهر للاستراتيجية المعاصرة مع ان الردع هو قبل كل شيء قضية نفسية . ان تحديد المخاطر التي يتوقف عليها يصبح اقل فأقل دقة في وجه اسلحة لم يسبق لها مثيل من حيث الحداثة والتدمير . وان خدعة تحمل على محمل الجد لاكثر نفعا من تهديد جدي يحمل على محمل الخدعة . والاستراتيجية من الآن فصاعدا لن تستطيع ان تحصر نفسها في اختبار تحديد نظام الاسلحة بل عليها ان تتضمن تفهما كافيا لحسابات المعارضين .

وفضلا عن ذلك ، فان الردع يدلل على قوة احتمال بصورة سلبية ، أي طالما ان الامور **لم تحدث** . ولسوء الحظ يكون دائما من غير السهل ان نبين لماذا لم يحدث شيء ما . وقد يبدو ان النجاح قد احرز بالاستناد لاحسن النظريات الاستراتيجية او بشق النفس بالاستناد الى بعض منها يمكن قبوله . ومن الممكن ايضا ان نؤكد بأن القطر الذي اتخذت اجراءات الدفاع ضده لم تخطر له اية نية بالمهاجمة اولا . وعليه فان الردع الناجح يمكنه أن

يسند نظريات ومخططات آيلة الى الزوال او انه يستطيع تشجيع الحياد . وهو يوفر باعثا ضعيفا لنوع التجديد السياسي والاستراتيجي المتماسك مع تكنولوجيا متغيرة بسرعة .

وخلاصة القول ان القوة قد نمت على مقياس غير متناسب مع اكثر الاهداف موضوع النزاع . ومهما كان شبح القوة الذي يستطيع معظم المتنافسين ان يكون بمتناول يدهم فان خوف التصعيد لايمكن اغفاله . وهكذا فان معظم الدول النووية تتراجع امام فكرة استخدام القوة مباشرة بعضها ضد البعض الآخر . فان لديها القدرة على تدمير بعضها بعضا ولكن هذه الواقعة تعمل على تخفيف قدرتها على التهديد لان التهديد ليس جديرا بالثقة والمخاطر بالغة الضخامة . وهذا يشكل تحديا لم يسبق له مثيل لاولئك الذين يصوغون عقيدة استراتيجية .

العقيدة الاستراتيجية واجماع الرأي الوطني :

ان كل بلد متقدم بتقسيمة استراتيجية يتوفر لديه اختيارات فنية اوسع مما يستطيع عطاءه . وسواء أكان انتقى الصواريخ ذوات الرؤوس الكبيرة ام الصغيرة وسواء اكان ركز على القوة النووية ام على القوة التقليدية فالامر يتوقف على عقيدته الاستراتيجية اكثر مما يتوقف على التقنية الموافقة لها . الا ان العقيدة الاستراتيجية يجب الا تصبح شيئا نظريا او عقائديا ثابتا . ان دورها هو تحديد الاخطار المحتملة وكيفية معالجتها ، ووضع اهداف ممكنة واساليب لتحقيقها . ويجب ان توفر طريقة عمل للظروف التي تصفها بأنها « عادية » . وستجرب ملاءمتها بنسبة ما اذا كانت هذه الاحداث العادية تقع بالفعل او اذا كانت القوات المطورة مسبقا هي ملائمة لمعالجة التحديات الحقيقية .

ففي الفترة مابين الحربين صعدت العقيدة الفرنسية قيمة الدفاع وبنت خططها حول خط ماجينو . مع ان محاولات الالمان المحتملة لاسقاط معاهدة فرساي كان يمكن تجنبها فقط بعمل هجومي افرنسي . وبعبارة اخرى ، في الوقت الذي اصبح فيه خط ماجينو نافعا كانت ترتيبات معاهدة فرساي قد

تم اسقاطها . وهكذا فان عقيدة فرنسا الاستراتيجية قد ساهمت في شلل السياسة الفرنسية . وعندما عادت جيوش المانيا لاحتلال ارض الرين وهاجمت حلفاء فرنسا في اوربا الشرقية ظلت السلطة الفرنسية ساكتة والسياسة الفرنسية عاجزة . وحتى عندما حدث اخيرا الهجوم المنتظر طويلا في الغرب فقد التف حول جناح التحصينات الفرنسية .

ان عقيدة استراتيجية خاطئة قد تقود الى كارثة . اما العقيدة الاستراتيجية الصلبة للغاية فيمكنها ان تمتص طاقة كبرى في محاولة التوفيق بين ما قد حدث وبين ما هو منتظر . فاذا كانت معقدة جدا فشلت تحت وطأة اتخاذ القرار بشأنها . ان خطة « شليفن » ، وهي المخطط الالماني العسكري للحرب العالمية الاولى ، جهزت لكل احتمال ما عدا التوتر النفسي الذي يصيب القائد . وقد فشلت فشلا ذريعا لان الزعماء الالمان فقدوا اعصابهم . ففي وجه التقدم الروسي في شرقي المانيا ــ الذي لحظته خطة شيلفن مسبقا ــ بادروا الى طلب النجدات من الغرب مضعفين قوة هجومهم في لحظة حاسمة . ومما زاد في سخرية القدر ان تلك النجدات كانت في حالة انتقال عندما خيضت المعارك الحاسمة في كل من الشرق والغرب .

الا انه في الحالة التي لاتوجد فيها عقيدة على الاطلاق ، يعمل المجتمع باسلوب عملي يحكم فيه على النتائج العملية في حمل القضايا بحسب « ما هي جديرة به » على حد قولهم ، وان اية حادثة تشكل قضية خاصة . وتصرف طاقة اكبر لتقرير اين نحن ثم الى اين نحن قاصدون . فيفرز لكل حادثة جناح ويعالجها الخبراء من حيث الصعوبات الخاصة التي تتضمنها دون ادراك كان لعلاقتها بالاحداث الاخرى . وهذه هي المخاطرة التي كانت الولايات المتحدة تتعرض لها الى ان شرعت في الاشراف على العالم الحر .

ولكي تكون الاستراتيجية فعالة ، عليها ان تجمع عدة متطلبات . فينبغي ان تكون قادرة على كسب اجماع الوطن من حيث القيادتين الفنية والسياسية على السواء . ويجب أن يتفهمها المعارضون الى الحد الذي يتطلبه الردع الفعال . وان تحوز على دعم حلفائها اذا ارادت ان تظل الاحلاف متماسكة .

وعليها ان تكون متناسبة مع القضايا في المناطق غير الملتزمة بفكرة معينة وذلك بقصد تثبيط الفوضى الدولية . ولسوء الحظ ان التوفيق بين مختلف هذه الاهداف بعيد عن ان يكون سهلا وقد يكون مستحيلا .

ان طبيعة القوة لم تكن في يوم من الايام سهلة التحديد الا ان هذه القضية اصبحت معقدة في العصر النووي بسبب تدمير الاسلحة الهائل والتغير السريع في التقنية . ومع ان المخاطر هائلة فان القوة اصبحت على الدوام غير ملموسة وغدت الاسلحة حديثة ومجردة — وكل شيء يتوقف عليها . وقد ركزت المناقشة حول معاهدة خطر التجارب النووية ، الانتباه على مسألة ملاءمة الرؤوس الحربية النووية . ولكن في الواقع ثمة انظمة اخرى للعناصر الاساسية للاسلحة تتضمن قدرا اكبر من الشكوك . اننا لا نعرف الا عن طريق النظريات الصلابة المقدرة لعنابر صواريخ مينوتامان اذ لم يجر نسبيا سوى اختبار بضعة صواريخ من كل نوع . وكذلك لم تجر سوى تجربة قليلة للقصف المتجمع ، كما ان انظمة الدفاع الجوي تخطط دون معرفة خصائص الهجوم . وينجم عن كل سلسلة من الاختبارات النووية عدد هائل من حوادث غير متوقعة .

ولما كان من الصعب ان نكون متأكدين من المميزات الفنية لانظمة الاسلحة ، فان استخدام الاسلحة الحديثة قابل تماما للنقاش . فما هو التهديد الذي يمكن للمرء ان يمارسه بواسطة الصواريخ ذات الوقود الجامد ؟ واذا كانت الاسلحة على حد بعيد من التهيئة كيف نستطيع ان ندلل على الاستعداد المتزايد الذي استخدم تاريخيا كانذار ؟ ومن الممكن أن يكون باستطاعة الصواريخ انجاز اغلب المهمات الفنية المحددة حتى الآن للطائرات وان نعتبر المرحلة التدريجية المخصصة لادوار قاذفة القنابل في سبيل ذلك ، سائرة في اتجاهها الصحيح . ولكن هل انصرف التفكير المناسب نحو نوع الدبلوماسية التي تنجم عن تهديد انتقامي يتوقف بصورة كبيرة على قذائف بوقود جامد في عنابر تحت الارض ؟ لقد وجه اثناء ازمة كوبا في تشرين الاول ١٩٦٢ تحذير لتوزيع قاذفات القنابل على المطارات المدنية . فأي تكتيك مساو يمكننا

اللجوء اليه عندما تكون القوات الاستراتيجية مؤلفة بكاملها من الصواريخ ؟

وعن طريق اسئلة مماثلة لهذه الاسئلة اضعوا على الاستراتيجية المعاصرة صفة نظرية وميثا فيزيائية تقريبا . وظهرت ثغرة متزايدة في الاتساع بين جعل الدروس الفنية سفسطائية مغالطة وبين كفاءة مجموعة القادة المرهقين بالاعمال لامتصاص تعقيدها . وليس من المعقول انه باستطاعة حتى اكثر الرؤساء وجدانا ان يخصصوا عدة ساعات لقضية مطروحة خصص لها المحلل سنوات لدراستها . فهم ليس لهم سوى العمل بالتقديرات التقريبية ويكون قرارهم خاضعا للضغط . وحتى في حال ادراكهم الكامل للتناسق المنطقي للنظرية الاستراتيجية فانهم ملزمون بوزن النتائج المترتبة على الاخفاق . وبعبارة اخرى هناك خطر في أن نظريات بمثل ما هي عليه من التعقيد البالغ ، تسبب نوع الاخفاق النفسي الذي لاحظناه بشأن « خطة شليفن » عام ١٩١٤ .

وهناك قضايا لا يمكن تجنبها تتعلق بالثقة والاختصاص بين المستويات الفنية والسياسية بشأن اتخاذ القرار الوطني يمكن ان تجعل من الصعب تطبيق عقيدة استراتيجية : ان مهندسي الاستراتيجية بحاجة ليقظة مستديمة بان مجلسهم لا يضم جماعة من الزملاء يتمتعون بالاختصاص نفسه بل من افراد متعجلين جدا ليست الاستراتيجية بالنسبة اليهم سوى احدى مشاغلهم . وهكذا فان تعقيدا بالغا قد يقود الى الشلل . وعلى الاستراتيجيين في اية مرتبة ان يسألوا عن واضع القرار : هل يفقه العقيدة ؟ هل هو مؤمن بها ؟ هل ستصادف العقيدة احتمالات ام انها توفر عذرا لعدم الاتيان باي عمل ؟ هل توحي بالاحساس بالسيطرة ام انها تسبب شعورا بالعجز ؟ ماذا يقصد واضع القرار بالواقع عندما يقبل استراتيجية ما ؟ هل يقبلها مع مفهوم ، انه في الظروف المرسومة هذا ما سيعمله او انه لن يعمل شيئا ؟ ان دارسا حكيما للاستراتيجية لن يقصر في ادراكه ان الفن لا يمكن ان يكون نهاية بحد ذاته وان السياسة بصورة اساسية تتوقف على التعليل غير الملموس وعلى الهدف والارادة .

فكر الولايات المتحدة الاستراتيجي :

ان مثل هذه التأملات هي بوجه خاص ذات علاقة بالنقاش الاستراتيجي

كما تطور في الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية . فقد خرجت الولايات المتحدة من الحرب في وضع من التفوق العسكري لا يقبل التحدي . وقد بدا ان الحرب قد اثبتت جميع بديهيات الاستراتيجية الامريكية التقليدية . فـان الولايات المتحدة على الرغم من تعبئتها المتاخرة قد استطاعت مع حلفائها ان تدحر المعتدي . وقد تم النصر بالانتاج الكثيف للمعـدات . وكـان القصف الاستراتيجي الذي استطاعت الولايات المتحدة ان تؤمنه دون خوف مـن الثأر قد اعتبر من قبل العديدين كمفتاح للنصر وكان النصر قد عبر عنه بصيغـة الاستسلام غير المشروط .

وبصورة حتمية سبب هذا للفكر الاستراتيجي الامريكي في الحقبة التي تلت الحرب ، الانطلاق بوصفه تكيفا مع قواعد الحرب العالمية الثانية الاساسية. وقد ادمجت الاسلحة النووية الحديثة ضمن التطبيقات القائمة على اعتبارها متفجرات اكثر فعالية . « ان خطط الامن القومي » ، كما قال الجنرال عمـر برادلي في عام ١٩٤٨ : « علينا ان تأخذ بعين الاعتبار أمكانية تعرض الولايـات المتحدة لهجوم جوي ولهجوم محمول جوا في الوهلة الاولى . وان احتمال مثل هذه الهجمات وتطبيقها تزداد يوما فيوما ... فعلينا (لذلك) ان نتأكد عـلى الفور من القواعد التي يهاجمنا منها العدو من الجو . وثم علينا ان نشن هجوما مضادا فوريا ... وبصورة رئيسية من الجو ... ولنقوم بضربتنا المضـادة سنكون بحاجة الى قواعد لا نملكها الآن . ان وضع يدنا على (هذه) القواعد والتمسك بها يتطلب عناصر مقاتلة من الجيش ... واخيرا تحين مرحلة التعبئة الكاملة والجهود الهجومية الى اقصى حد . وبالاشتراك مع سلاحي الجو والبحر سيشتبك الجيش بعمليات مترابطة مخططة لنقل الحرب الى ابعد وبشـدة متزايدة على الدوام . وكلما اقتربنا مـن العـدو كلمـا ازدادت مقاومتـه تصميما ... » ان نظرية الثأر الجماعي لم تكن جديدة عندما اعلن عنها دالاس . وقد أصبح بدهيا خلال الخمسينات ان نمو القوة النووية السوفييتية بعيدة المدى قد خلق قضايا جديدة . فللمرة الاولى يستطيع معتد ان يوجه تهديدا الى الولايات المتحدة ليس فقط من قواعد خارجية بل من موطنه نفسه . وقد بينت الدراسات الدقيقة التي قام بها « البرت وولستيز » قابلية قيادة طيران

الولايات المتحدة الاستراتيجي للتعرض للاصابة . وقد ركز « وولستيز » على أن الميزان الاستراتيجي اصبح « دقيقا » لتوقفه على عوامل مثل قابلية تعرض قواعد القوة الثأرية للاصابة والوضع النسبي للدفاع الفعلي والدفاع السلبي والقدرة على الاطلاع على اهداف العدو .

ومع ان غاية « وولستيز » كانت جلب الانتباه الى قابلية تعرض قوات الولايات المتحدة الاستراتيجية فان من نتائج نظريته كان اعطاء فرصة جديدة من البقاء للمفاهيم التقليدية في النصر الكامل . لاننا اذا عكسنا مركز اهتمامه بامكاننا التدليل على ان النصر في حرب نووية عامة كان لا يزال مفهوما ذا اهمية .

وقد قاد هذا الى مفهوم « الرد المرن » الذي صرح به علينا وزير دفاع الولايات المتحدة المستر « روبرت ماكنامارا » في « آن آربر » في ١٦ حزيران ١٩٦٢ : « الى الحد الممكن ، يجب ان تواجه الاستراتيجية الاساسية في حرب عامة نووية ممكنة ، بالطريقة نفسها تماما التي اديرت بها اكثر العمليات العسكرية تمسكا بالتقاليد في الماضي . وبكلمة اخرى ، ان الاهداف العسكرية الرئيسية يجب ان تكون تدمير قوات العدو العسكرية وليس شعبه المدني » .

وفي بداية التصريحات عن « الرد المرن » ، ركز المتحدثون الرسميون باسم الادارة على شكل القوة المضادة والمحوا الى ان الحرب النووية العامة يمكن ان تخاض الى نهايتها على اساس اعتبارات عسكرية صرفة . وقد تقوى هذا الشعور بتصريحات المسؤولين خاصة بتقرير ماكنامارا الى لجان القوى المسلحة والذي وصف فيه « مشهدا » واحدا اساسيا للحرب النووية العامة : هجوم نووي بمقياس كامل على الولايات المتحدة .

ان الجاذبية المنطقية لهذه النظرية قد حجبت عدة صعوبات هي بالدرجة الاولى ان الإعتماد على استراتيجية القوة المضادة سيتقهقر بصورة اكيدة في السنوات المقبلة . ولما كانت القوات الثأرية ستتكاثر وتصبح متفرقة وسيصبح صعبا بشكل متزايد ، تحديد الاهداف بدقة او منح الرئيس الثقة الكافية بان مكانها الصحيح معروف مما يفيد الشيء نفسه .

يضاف الى ذلك ان نظاما ما للصواريخ يصبح اكثر تنوعا وتعقيدا اذ بعضها

سيكون اكثر قساوة بوصفه انشاءات تحت الارض وبعضها سيكون متحركا فوق الارض والبعض الآخر في البحر وهذا ما سيعقد قضية تنسيق الهجوم بصورة هائلة .

وهكذا فانه حتى على افتراض ان نسبه قوة الثأر السوفييتية التي بمستطاع الولايات المتحدة ابادتها بقيت ثابتة — وهذا افتراض تفاؤلي غير مضمون — فان العدو المطلق الباقي قابل للزيادة . ومهما تكن امكانية صنعها الفنية فمن المؤكد انه ستحصل زيادة في العوائق السياسية والنفسية في وجه استراتيجية مبنية على ذكاء متناثر متوقف على عدد كبير من الاسلحة التي ليس لها تجربة عملية في زمن الحرب .

وفي الوقت نفسه ان الادعاء الاساسي بان حربا عامة ستنطلق حقا بهجوم نووي سوفييتي على الولايات المتحدة عرضة للتساؤل الجدي . وفي حال افتراضنا اختلاف الحجم في القوات الاستراتيجية بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة فمن الصعوبة معرفة ما الذي سيدفع حتى برجل التخطيط السوفييتي المندفع الى الدخول في مثل هذا السباق الطائش . وبالاستناد الى شهادة السيد ماكنامارا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٣ بان امكانية الولايات المتحدة، بعد ان تكون قد امتصت اول ضربة ستبقى كافية « لتوجيه ضربة مضادة اولا الى مراكز القاذفات السوفييتية ، ومواقع الصواريخ ، وباقي المنشآت العسكرية بالاضافة الى قواتها النووية البعيدة المدى لتخفيف قوة اي هجوم يتبع ذلك — ومن ثم اذا لزم الامر ، ان تضرب بالمقابل الشبكة المدنية والصناعية على وجه مراقب ومدروس » — .

ان قوة الولايات المتحدة الاستراتيجية التي باستطاعتها امتصاص ضربة سوفييتية مفاجئة سترد بالمقابل بضرب اهداف عسكرية سوفييتية وتظل قوية قوة كافية لضرب المراكز المدنية على وجه مدروس ، يجب ان تكون متفوقة تفوقا هائلا على السوفييت وفضلا عن ذلك ، فان غالبية الصواريخ عابرة القارات الامريكية ستكون في مواقع قوية وستكون قذائف البولاريس متحركة

في البحر . وغالبا ما يكون من المستحيل تصور الظروف التي سيشن فيها السوفييت هجمتهم الكاملة على مثل تلك القوة .

بالاضافة الى ذلك ، فان هذه النظرية تتضمن انه نظرا لكون الولايات المتحدة متفوقة عدديا وهي بذلك في موقع تستطيع فيه ان توفر المدن السوفييتية ، فسيكون لدى السوفييت ما يسميه ماكنامارا « باعثا لتوفير مدن الولايات المتحدة . ولا شك ان اصحاب النظريات العسكريين قد انكروا بصورة قوية امكانية هذا النوع من الحرب . وهذا لا يكون حاسما اذا لم يكن منسجما مع حقائق المعادلة الاستراتيجية . فان حرب الاستنزاف ، على افتراض امكانيتها فنيا ، لن تكون لمصلحة الجهة الاضعف . وفي مواجهة خصم متفوق عدديا ، تكون الاستراتيجية الحساسة في البدء بمهاجمة المدن ، وربما « بالسيطرة » على الرد بتدمير بعض المدن الصغيرة اولا . ولكي تكون الولايات المتحدة واثقة ، فعليها أن تنتقم على هذا الشكل . ولكن مهما كان مغزى مفهوم التفوق في الحرب المحدودة بالاهداف العسكرية ، فسيبقى شك صغير بان نقطة الاشباع يمكن بلوغها بسرعة عندما يصبح السكان المدنيون هم الهدف .

وعلى الاخص فانه مهما كان شأن الكفاية الفنية لصيغة « الرد المرن » فلقد كانت على الدوام غير منسجمة مع الحقائق النفسية فليس من السهولة بمكان ان نتصور كيف يتسنى لرئيس ما ان يكتسب ثقة كافية ليربط كل شيء بالاسلحة التي تجرب عمليا في زمن الحرب وعلى اساس الذكاء الغامض منع تأكده بخسارة عشرات الملايين من الضحايا .

وهذا هو السبب الذي من اجله نمت عقيدة الولايات المتحدة اكثر تواضعا وابتدات باقامة اهداف محدودة اكثر لاستراتيجية « الرد المرن » . ان المواقع القوية للصواريخ العابرة للقارات يمكن تدميرها تدميرا كاملا الا ان ذلك سيكون لقاء ثمن باهظ من حيث عدد الاسلحة الهجومية اللازمة لدفنها خارجا كما قال الوزير ماكنامارا في عام ١٩٦٤ . وفضلا عن ذلك اننا ستقوم في حالة ضربة ثابتة بهجوم معظمه على المواقع الخالية التي منها اطلقت نيران الصواريخ . اما قيمة محاولة تأمين قدرة على تدمير نسبة عالية جدا من مراكز الصواريخ عابرة

القارات السوفييتية القوية تصبح أكثر عرضة للتساؤل بالنظر لزيادة قـوة قذائف الصواريخ في الغواصات السوفييتية ...

ان الهدف كان في اول الامر جعل ضرر الولايات المتحـدة محـدودا في الهجمات اللاحقة : وهكذا ظهر ان استراتيجية « الضرر المحدود » هي افضـل الطرق العملية والفعالة التي علينا ان نتبعها ... وفي حين كان لا يزال هناك بعض الفروق في الحلم حول التساؤل عما يجب ان يكون حجم مثل تلك القوة فان هناك موافقة عامة على انها يجب ان تكون كبيرة بشكل كاف لتأمين التدمير، الفردي او الجماعي ، للاتحاد السوفييتي ، والصين الشيوعية ، والـدول الشيوعية التابعة كمجتمعات قومية تحت اسوأ الظروف الممكنة للحرب المعلنة والتي يمكن افتراضها . وبالاضافة الى ذلك ، القضاء على امكانياتها في خوض الحرب وبذلك يحدد الضرر الذي سيصيب هذه البلاد وحلفاءنا الى ابعد مـدى ممكـن .

وبهذه الصيغ ينبثق « الرد المرن » بوصفه تكيفا معقدا مع حقائق العصر النووي . وكان على العقيدة الاستراتيجية الامريكية . ان تواجه هذه الحقيقة الاساسية . ومنذ ذلك الحين كانت القضية الاساسية للاستراتيجة هي جمع قوة متناسبة مع الهدف . وفي عصر الاسلحة النووية الحرارية ، اصبحت قضية القوة بالغة الحد المتناسبة مع الاهداف ، هي السائدة . وقد اضاع التفـوق معناه التقليدي ونمت العلاقة بين القوة والدبلوماسية نموا اكثر غموضا .

القـوة والاحـلاف :

بما ان موقف الولايات المتحدة تجاه الحرب العامة قد تبدل فقد برزت قضايا جديدة ذات صلة بسياسة التحالف . ففي الماضي كانت دولة ما تهب لمساعدة دولة اخرى لان هزيمة الحليف كانت تعتبر مقدمة لهزيمة الدولـة نفسها او انها تتضمن تراجعا نسبيا في وضعها العالمي . وكانت نتائج المقاومـة تبدو مفضلة على مخاطر عدم الاتيان بحركة . اما مع الاسلحة الحديثة فليس بدهيا بحد ذاته ، ان النتائج القصوى للجمود ستكون اردأ من نتائج النزاع الفورية . واذا كانت عقيدة الاستراتيجية ترتكز على التهديد بحرب نوويـة

عامة فان اندلاع حرب يتضمن مخاطر كانت في الماضي مرافقة للهزيمة الكاملة . اما اذا جرت محاولة لخلق رد اكثر مرونة فان ذلك يزيد في تأجيج نـار الشكوك التي تكون دائما ناضجة في تحالف دول ذات سيادة وقد اضفي على الحجـة لون بان الشريك الاكبر يرعى مصالح حلفائه باقل جدية مما يرعى مصالحـه الذاتية . ان قضية حلف الاطلسي اذن تكمن في ان ضغوط التكنولوجيا الحديثة تقف في وجه مفاهيم السيادة التقليدية . والتحدي هو اما ايجاد بنية سياسية اكثر جمعا واما رؤية تآكل تدريجي لتماسك الحلفاء . وهـذا صحيـح لان الشكوك الملازمة للتحليل الاستراتيجي في تحالف دول ذات سيادة قائمة عـلى حقيقة ان السيادة تقتضي ان يكون ثمة حق وحيد الطرف لافساد نظرة المـرء الذاتية . واذا ما تضمن اتحاد ما شريكا مسيطرا فتكون القضية اكثر ثبوتا . اذن ان البقاء يبدو احتمالا متوقفا ليس فقط على اعمال الخصم بل ايضا على استقامة الشريك الاكبر . وكنتيجة تنشأ لدى الحلفاء الضعـاف نزعة التعليق **بالوضعأ لراهن** الذي يتمتع بميزة الاعتياد ويشكل ايضا ضمانا لصلابة الشريك الاكبر . وفي العـلاقات الاوربيـة الامريكية في فترة بعـد الحـرب ، بـدا الاوربيـون في بعض الاوقـات اكثر تشوقا للحصـول على تكرار الضمانـات من تشوقهم لتطويـر سياسة مسؤولـة تختص بهم . وعـلاوة على ذلـك ، فانهم في أي جهـد لتطوير وجهات نظر سياسية واستراتيجيـة مستقلـة اصطدموا دون ان يتوقعوا بتعقيدات العصر النووي .

وهناك حالة وثيقة الصلة بالموضوع هي المناقشة حول الرقابة النوويـة ضمن حلف الاطلسي . واذا استعملنا التعابير الفنية المحضة ، فمن المرغوب فيه ان تكون جميع الاسلحة في حلف ما تحت الرقابة المركزية . الا ان الرقابة الفردية لتلك الاسلحة هي على نحو ما لا تأتلف مع حلف دول ذات سيادة لانها تجعل بقاء جميع الحلفاء في الوجود وكأنه يتوقف على قرار احدها . ان تصادم المفهوم الامريكي بشأن المقتضيات النووية مع رغبة بعض شركاء الولايـات المتحدة بان تحتفظ بالحد الاعلى من التحكم بمصيرهم كان له شأن في بعـض التوتر الذي ساد حلف الاطلسي .

ان تجميع القوة النووية في يد قطر واحد يثير مجموعة من القضايا وتثير الاسلحة الحديثة قضية اخرى . في الماضي كان باستطاعة القطر المهدد اما ان يقاوم واما ان يستسلم . فاذا اختار المقاومة عليه ان يستعد لقبول قدر من الضرر المادي نتيجة لذلك وخسارة بالارواح . وليس باستطاعة اي حليف بعيد ان يمد يد المساعدة اليه ما لم يكن قادرا على جعل قوية تتحمل العبء في منطقة النـزاع .

الا ان الاسلحة الحديثة قد ادت الى نشوء وضع جديد . وما يريده كل قطر عضو في الحلف هو التأكد من ان اي هجوم سيعتبر ذريعة للحرب . وتكتمل الاعاقة باضافة تهديد حليف بعيد عنه الى قوته الخاصة . الا انه لدى كل دولة ما لا يقل عن دافع واحد للتقليل من ورطته في حال فشل الردع . ومن هـذه الناحية يمكن لسلسلة الاسلحة الحديثة ان تؤمن فرصا ليس لها نظائر سابقة. ففي عام ١٩١٤ لم تستطع بلجيكا ان تبني دفاعها على استراتيجية تجعل مـن بريطانيا الهدف الاول ، الا انه في عصر القذائف العابرة للقارات اصبحت تلـك الامكانية الفنية قائمة .

وهكذا ليس من الصعب معرفة لماذا نجد قسما من الخلاف الاستراتيجي ضمن حلف الاطلسي ينطوي على تسابق لتحديد قطاع الحرب اذا فشـل الردع ، ولو ان هذا الامر لم يعلن بصورة واضحة . ومع ان مصالح الحلف يمكن ان تكون غير قابلة للتجزئة التامة ، فان ذلك لا يضمن زوال الخـلاف على كيفية بلوغ هذه الاهداف .

وهناك اقتراح لاصلاح الامور هو الاعتماد بصورة اكبر علـى اسلـوب المشاورة . ولا شك في ان المشاورة الرسمية يمكن ان يطرا عليها تحسين لا بـل يجب ان يتم ذلك . ولكن من المفيد ان نتذكر انه لا يمكن للمشاورة مـع ايـة حكومة ما ان تؤمن تطابقا في الآراء . ومهما يكن مدى المشاورات فانه يتطلـب بالنتيجة اصدار قرار ، ومن المؤكد ان الامر سيصبح اكثر صعوبة عندما يكون للدول ذات السيادة علاقة بالموضوع . فالبعض (من زعماء حـزب العمـال البريطاني) قد ارتأى انه على بريطانيا ان تقلع عن اسلحتها النووية مقابـل

صوت اكثر تأثيرا في السياسة الامريكية . ولا شك انه من المتوجب ان يلقى الحلفاء اذنا صاغية . ولكن ما هو بالضبط ما يستلزمه « صوت اكثر تأثيرا » ؟ هل هو فيتو على كل سياستنا الخارجية ؟ هل هو فيتو على خطط القائد الاعلى للقوات الحليفة ؟ ماذا يحدث عندما تختلف الآراء او عندما لا تأتلف المصالح ؟ ان هذه الاسئلة تضمن جزءا فنيا وجزءا سياسيا على السواء .

وعلى المستوى الفني ، تتوقف فاعلية المشاورة على كفاءة الاطراف المساهمة . وعلى الرغم من بيروقراطيتنا ، فان للكثير من الدوائر حق الادلاء بآرائها ، وثمة عدد اصغر بكثير ممن له وزنه حاليا . وطالما ان القيمة المعطاة للراي متناسبة مع الكفاءة التي يعكسها ، فلنا ان نتساءل حقا ما اذا كان حلفاؤنا في المسيرة الطويلة يمكنهم ان يتشاوروا بصورة واقعية في حين تمتلك الولايات المتحدة نظريا كل المعرفة الفنية والسيطرة المادية على الاسلحة النووية . وللمرء ان يتشكك في انه اذا كان التحالف سيظل من الوجهة السياسية حيويا فان متطلباته ستكون اوسع كثيرا من الاعتبارات الفنية المتعلقة بالاستراتيجية .

اما من حيث المظهر السياسي ، فمن المحتمل ان الاهتمامات المعبر عنها بشأن عدم وجود تخطيط استراتيجي مشترك هي الدلائل وليست الاسباب للعديد من التوتر بين الحلفاء . فاذا كان التحالف لا يمكنه ان يطور الاجراءات للدبلوماسية المشتركة او ان يوافق على الاقل على مجموعة مفروضة من الاختلافات ، فانه ليبدو من التناقض الاصرار على رقابة استراتيجية موحدة . (يجب الا نصدم اذا راينا بلدانا محجمة عن الاعتماد ببقائها على احد الحلفاء في حين ان حلف الاطلسي لم يعمل حتى على تطوير سياسة تجارية مشتركة نحو بلدان الكتلة الشيوعية) . ان الخلافات الحادة حول مسائل كالسويس، والكونغو ، والمفاوضات التكتيكية من اجل برلين ، او الدفاع عن الجنوب العربي ، تبرهن ان الخلافات في الحلف ليست غريبة ولا جديدة . وفي الوقت الحاضر نجد الولايات المتحدة في وضع مستغرب تغامر فيه بهيبة كبيرة لدى قوة « الناتو » متعدد الاطراف وجهاز السيطرة الاستراتيجية الموحد ، في حين ان بعض القضايا ذات الاهمية البالغة كمفاوضات الشرق والغرب او الحرب في

جنوبي شرقي آسيا تعالج اما من طرف واحد او من اطراف متعددة بقدر الامكان وبالاختصار ان القضية الجديدة التي تطرحها التكنولوجيا العسكرية الحديثة هي ادماج السيادة الالزامي . ولا شيء سوى ذلك يمكن ان يعطي جوابا للمعضلة والواقع اذا لم يتم ذلك فيبدو انه لا مفر هناك من نمو الحياد .

القوة والحياد :

لا شك في ان الحياد ليس مفهوما جديدا الا ان اشكاله قد تغيرت في الفترة الحديثة . وكانت الدول بصورة تقليدية حريصة على أن تكتسب اعترافا رسميا او قانونيا بقرارها البقاء غير مشتركة في الحرب . وفي اغلب الاحيان كان القرار يتخذ بشأن ذلك . وهكذا فان ايطاليا على الرغم من تحالفها الشكلي مع احد المحاربين ، بقيت محايدة في بداية كل من الحربين العامتين . ويمكن ان يكون الحياد عملا من اعمال السياسة القومية المدروسة . وقد صرحت بعض الدول مسبقا بانها لن تشترك في النزاع بغض النظر عن الحلول او طبيعة القوات المتخاصمة مالم تهاجم أراضيها ذاتها . وقد أعلنت السويد وسويسرا حيادهما بتصريح وحيد الطرف . والا فان الحياد ، كما هي حال بلجيكا ، يمكن ان يحدد له نظام دولي بموافقة رسمية من الدول الكبرى . وسواء أكان القطر المحايد قادرا على الاحتفاظ بموقفه فان ذلك . يتوقف على الاغراء الذي يمثله للمهاجم وكذلك على المساعدة التي ترغب الاقطار الاخرى بتقديمها . وان الاغراءات بدورها تعكس المنفعة التي يمكن جنيها من جراء خرق الحياد . فان بلجيكا باعتبارها تقع الى جانب طرق الغزو المؤدية الى فرنسا كانت أقل حظا في تجنب الحرب من السويد .

ان البلدان التي تتوق الى الحياد يمكنها ان تعتمد من اجل دفاعها على قوتها الذاتية او على المساعدة اللازمة التي يمكن البلاد الاخرى ان تمدها بها . فاذا كانت تواقة للاكتفاء الذاتي فعليها ان تزيد قواتها العسكرية زيادة اكبر مما هو مطلوب من عضو في نظام الاحلاف . وحتى في حال ادخال اختلاف الموارد في الحساب فان قوة السويد العسكرية تفوق كثيرا قوة النرويج .

ومن جهة ثانية ، عندما يجعل احد المحايدين نفسه ، اما بسبب نقص

موارده او بسبب سياسة متعمدة ،معتمدا على مساعدة البلدان الاخرى ، فقد حدث في الماضي ان امتزجت مساوىء سياسة التحالف مع مساوىء الحياد . ونادرا ما كان المحايد بمفرده قويا قوة كافية لردع الاعتداء ، في حين ان حياده في الوقت نفسه قد جنبه وضع ترتيبات دفاعية مشتركة مع من يمكن ان يكون حاميا له . ان موقع بلجيكا في الحربين العالميتين يبرز هذه الناحية . ولكن لا اهمية للسياسة العسكرية المتبعة ، فلقد كان الحياد يتضمن في الماضي الرغبة في الامتناع عن التورط الشديد فيالسياسة الدولية .

ومع ان هذه النماذج من الحياد التقليدي لا تزال باقية فقد لحقها تعديل ذو مغزى من جراء الاتجاهات المتضاربة . فمن جهة ، اثار اكتشاف القوة النووية الشكوك حول قدرة اي بلد غير نووي على الدفاع عن نفسه ضد خصم نووي . وبعبارة اخرى ، ان المحايد مجرد من القدرة على فرض مخاطر عسكرية استثنائية على هدف المعتدي اذا كان هذا الاخير على استعداد لاستخدام الاسلحة النووية واذا كان المحايد لا يمكنه الاعتماد حماية نووية خارجية .

وفي الوقت نفسه ان طبيعة البنية السياسية الدولية ذات القطبين تجعل احتمال الحماية اقوى بنسبة زائدة جدا عما كان عليه في الماضي . ان بلدا ما بالنسبة للشؤون الدولية المعاصرة يتحمل اضرارا اقل مما لو بقي محايدا وحتى انه يمكن انيكتسب مركزا مرموقا من جراء منافسة الدول الكبرى بسبب انتمائه . ولقد ادى العصر النووي الى اضعاف التفريق الواضح بين الحلفاء والمحايدين . فمع ان الهند محايدة فقد أمنت لها نسبة الحماية نفسها في وجه هجوم صيني كما ان ذلك قد يتناول في ظروف مماثلة الباكستان ، العضو في حلفين .

ان هذا التغيير في الحسابات قد ادى الى بروز نموذج جديد للحياد : فهناك بلدان تستغل عمدا مجابهة الدول العظمى ليس في سبيل زيادة امن اراضيها بقدر ما هو في سبيل الرفع من دورها الدبلدماسي . فهي بابتعادها كل البعد عن الوقوف منفردة في الخلافات الدولية تورط نفسها بنشاط محاولة تحريك الدول العظمى وعرض اهدافها الخاصة في المسيرة .

وهذا النموذج من الدبلوماسية مربك لرسوخ النظام الدولي ، وله آثار عكسية على القوتين الاعظم وعلى الدول غير الملتزمة نفسها . كما ان هذا النموذج الجديد للدول الحيادية غير المنحازة بآثار نزاعا لا يمكن لاحد العملاقين النوويين ان ينتصر فيه ، بسبب انظمتها الخاصة بها ، فانه يقوم بمغامرة غير مستقرة ويشجع الفوضى السياسية . وستجد الامم الجديدة على المدى البعيد صعوبة في التوفيق بين الحياد وبين تدخل لا يتوقف . وبنسبة درجة اقناع الدول غير المنحازة للدول العظمى بان دعمها لها ذو اهمية فهي اما ان يتودد لها واما ان تخضع لضغوط . وحينئذ يصبح الحياد اغراء لطلب الود .

وهكذا فان عنصرا جديدا من التقلب قد اضيف الى الشؤون الدولية وعلى الرغم من ان بعض الحياديين قد جنوا فائدة من تجنب الحرب فانهم ايضا قد اكتشفوا فوائد بادامة المنافسة بين الدول العظمى لانهم رأوا ان هذا الخلاف يمنحهم مركزا مرموقا للمساومة ولتوقعات تطور اقتصادي لا يصبون اليه لولا ذلك .

أما الدول العظمى فهي بدورها قد اصابها اجحاف بسبب التناقض . اذ على الرغم من ان تفوقها النسبي على باقي الامم لم يكن في يوم من الايام اكبر مما هو عليه فهو أيضا لم يكن قط أقل ملاءمة لان استعمال الاسلحة النوويةضد غير المنحازين قد استبعد في جميع الاهداف العملية . وفي الوقت نفسه اصبحت القوات العسكرية الاخرى اقل ملاءمة لتحمل حرب ضعيفة دائرة في مناطق غير المنحازين .

وقد نجم عن ذلك دبلوماسية الضعف . فعندما هددت الامم غير المنحازة الغرب بقولها : اذا نحن اصبحنا شيوعيين فسيكون ذلك اسوأ لكم مما هو اسوأ لنا . وقد خلق هذا شكلا من اشكال الابتزاز وشجع قيام نزاعات محلية عديدة انجرت اليها الدول العظمى وكان ذلك في غالب الاحيان ضد رغباتها الذاتية . وكنتيجة طبيعية فان هذا يعني ان اية دولة كبيرة مصممة على الاخلال بالتوازن تستطيع عمل ذلك بثمن بخس . فان بيع الاتحاد السوفييتي الى الجمهورية العربية المتحدة ام الى اندونيسيا اسلحة خارجة

عن الاستعمال من شأنه ان يقوض مركز الغرب الى صورة لا يمكن القيام معها بعمل مباشر .

واذا كان لدى الامم غير المنحازة في زمننا هذا فرصة لم يسبق لها مثيل لمتابعة مصالحها الذاتية فهي ايضا واقعة تحت ضغوط جديدة . ففي الماضي كان الحياد عادة موقف امم متلاحمة جدا واثقة من هويتها ومصممة على الدفاع عنها . الا ان العديد من الامم المستقلة حديثا لا تزال تتحرى عن هوية لها . وغالبا مايكون الرباط الوحيد لشعبها هو التجربة المشتركة للحكم الاستعماري . اما التلاحم الداخلي فهو مؤمن فقط بصورة مترجرجة .

وهكذا بينما نجد حكومات كثير من الامم غير المنحازة في مأمن نسبيا من الضغوط العسكرية التقليدية التي كانت ترمي بثقلها على الحياد ، فهي معرضة بصورة غير اعتيادية للتهديم الداخلي . وهذه البلدان ذات الامكانية في اثارة عدم الاستقرار الداخلي يمكنها ان تحرز نفوذا دوليا بسببه . وان نقص اشكال القوة التقليدية ، بما في ذلك القوة النووية ، يمكن ان يكون له مقابل اكبر وزنا هو وجود مراكز تدريب لحرب العصابات . وستنظر الحكومات المجاورة نظرة جدية جدا الى امكانيات التهديم .

ان اكثر الحروب تكرارا واكثر نوع منها احتمالا هي الحرب التي لدى الغرب اقل استعداد لها عسكريا وسياسيا ونفسيا . ففي حرب العصابات تفقد قوة النيران المتفوقة قابلية التطبيق . ولا تحتاج العصابات الا للاشتباك بالمعركة فقط عندما تتمتع بتفوق محلي ، لكن على المدافعين ان يكونوا اقوياء في كل مكان لكي يستبقوا ما هو غير منتظر . ولم تعد القدرة على احتلال ارض ما حاسمة ، لان الهدف الحقيقي قد اصبح روح الشعب المعنوية ونظام الادارة المدنية . فاذا كان بالمستطاع تقويض ذلك من الداخل ومن خلال معركة طويلة فان الثوار سيتفوقون بغض النظر عن عدد المعارك التي كسبتها القوات المدافعة .

وان ما يجعل الموقف معقدا بصورة خاصة هو ان ليس هناك حل عسكري صرف لحرب العصابات . ان التهدئة تتطلب حكومة قادرة على اجتذاب اخلاص

الشعب . الا انه من الصعب اقامة مثل هذه الحكومة بسبب الطبيعة الخاصة لحرب العصابات التي من اهم اهدافها في الغالب هم الحكـام الاداريـون . بالاضافة الى ذلك ، فانه بالنسبة لحكومة غربية تساعد حليفا افريقيـا او آسيويا ، يمكن ان يكون المعيار لكيفية تشكيل حكومة ثابتة خداعا . ان حكومة ما يمكن أن تكون مستقرة اذا كانت مستبدة . وبالمفارقة يخلق المجتمع المتطورة تفككات . فكيف يمكن اتمام التطور والاستقرار معا وكذلك التقدم والامن ؟

وهناك في اغلب الاحيان اتجاه لتجزئة القضية . فان البعض يتمسك بان قضية حرب العصابات هي بجوهرها سياسية . بينما يتمسك آخرون بـان النجاح العسكري يجب ان يسبق بناء المؤسسات السياسية . ولكن القضيتين في الحقيقة متلازمتان . فانه يقتضي أن يقام البناء السياسي خلال قيام حرب العصابات . ونجد في العديد من البلدان ان ذلك جوهري اذا اريد تجنـب الحرب الاهلية . ولا يبقى ثمة هدف عاجل للتحليل بل استفهام عن طبيعـة الحكومة النيرة في الدول المتطورة .

الخلاصـة :

ليس حادثا مفاجئا ان يتضمن بحث موضوع قضية الولايات المتحـدة الاستراتيجية القاء اسئلة اكثر من اعطاء اجوبة . فان الطريقة التقليدية في التحليل العسكري التي ترى في الحرب استمرار للسياسة ، لكن بوسائلهـا الخاصة الملائمة ، لم تعد قابلة الان للتطبيق . ان السياسة والاستراتيجيـة تبرزان لدى كل نقطة . فليس هناك من رجل دولة يقطع النظر عما يبدو عليه العهد الذي يعيش فيه من هدوء ، يستطيع ان يتغاضى عن الخيارات المفاجئة العنيفة البارزة امامه . وما من قضية يمكن ان تترك بمفردها بصورة كيفية لحكم السلاح . ان الاتصال في العصر النووي بين الخصوم هام بصورة خاصة . وان الرقابة على السلاح تتطلب الصفة المستعجلة نفسها التي تتطلب دراسة الاستراتيجية والدبلوماسية .

وهكذا نعود الى قضيتنا الاصلية . الانطباع الذي يتركـه التحليـل الاستراتيجي على اتخاذ القرار . لبضع سنوات خلت عندما جذبت الاستراتيجية

انتباه المحللين الاكاديميين لاول مرة ، كان عدم الترابط بين الطرق الفكرية التقليدية وبين طبيعة الاسلحة الحديثة واضحا . وطالما ظل التحليل نظاميا كان من المحتمل ان يكشف التناقضات والضعف الذي يحتاجه التصحيح . اما اليوم فان الوضع اكثر تعقيدا . فقد استكملت نسبة كبيرة من التحريف في الدراسات الفنية الى درجة ان الخطر في الحقيقة هو اليوم بالضبط عكس ما كان عليه منذ عشر سنوات . فان المهارة في التحليل الكمي يمكن ان تنزل الى درجة ادنى تلك العوامل التي لا يمكن ان تقدر كميتها . ويمكن ان تكون النظرية الاستراتيجية المعقدة مرضية فكريا الى حد ان صعوبة تطبيقها من قبل الاشخاص في لحظات بالغة التوتر والاضطراب قد تؤدي الى اغفالها . وقد يكون من المغري معاملة الحلفاء بوصفهم عوامل لاتفاق امني ونسيان توقف مساهمتهم القصوى على امور كثيرة غير ملموسة تتعلق بالارادة الاستراتيجية . ومن اخبار الصحف من يوم الى يوم عن الحوادث يمكن ان نفقد رؤية حقيقة حاجتنا لمقياس عام قوي يقاس التقدم السياسي في البلاد النامية .

وفي جميع تلك المجالات يستطيع دارس الاستراتيجية ان يكون نافعا اذا حدد دوره بتواضع . فعليه الا يدعي ان لديه الدواء الشافي لكل داء قد فشل قصيرو النظر في السلطة عن اكتشافه لان الحلول السهلة قد اكتشفت بأسرها . ان قضايانا الباقية مستعصية لانها معقدة . ويمكن للمثقف ان يحذر من تجزئة السياسة بجلب الانتباه للرابطة الداخلية للاحداث . ويمكنه ان يؤمن التبصر للزعماء الحكوميين الغارقين بالتفاصيل اليومية التي تجعلهم غير قادرين على تركيز كامل انتباههم لامور اعمق . وفوق كل ذلك يمكنه ان يؤكد على الدوام على ان ليس هناك من جواب افضل من السؤال الذي يدعو اليه . وفي زمن مشحون بالاسئلة يشكل هذا وحده اكبر تحد .

(١٣)

معضــلات سياســة التحــالف

مقالــة مبنيــة على الادراك المؤخــر

بقلم الشريف الاستير بوشــان

ولد « ألاستير بوشان » عام ١٩١٨ ، وهو الولد الثالث للورد ثويد سموير (جون بوشان) ، الروائي ، والمؤرخ والحاكم العام في كندا . تعلم في كلية ايتون وكلية « كريست تشرش » في اكسفورد ، وعمل طوال الحرب مع الجيش الكندي وفي ادارة المراقبة في الفارة على دييب عام ١٩٤٢ وفي حملة شمال غرب أوروبا عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ ، وكمساعد ناشر لمجلة « الايكونوميست » من عام ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، ثم أصبح مراسلا للابزرفر في واشنطن من عام ١٩٥١ — ١٩٥٥ ومراسلها السياسي والحربي من عام ١٩٥٥ — ١٩٥٨ . وفي عام ١٩٥٨ عين المدير الاول لمعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن . وتتضمن مؤلفاته :

« قاضي القضاة الاضافي » ، و « حياة وولتر باجيهوت » ، و « الناتو في الستينات » ، ومضمون الاتكال المتبادل ، والاسلحة والاستقرار في اوروبا (بالاشتراك مع فيليب وندسور) ، والولايات المتحدة ، ومقالات عديدة عن القضايا الاستراتيجية والدفاعية ونزع السلاح .

تدخل الدول ذات السيادة في تحالفات بقصد التوسع في الاهداف السياسية المشتركة والتي تقتنع بأنها لا تستطيع انجازها منفردة . وفي غالب الاحيان يكون للاحلاف بالتعريف دورة حياة محدودة ما لم تتحول الى اتحادات او الى نوع من علاقة سياسية عضوية . ان الاهداف القومية تتغير والتهديد الذي يجعل جديرا بالاهتمام ، اخضاع بعض المصالح القومية لتطور سياسة تعاونية ، يتغير ايضا ، ويمكن ان تصبح ضغوط الحلف كبيرة الى حد عدم التحمل . اذ لما كان التحالف شعار السياسات الدولية لما يقرب من ثلاثة آلاف سنة وكان محتما عليه ان يطور الضغوط الداخلية بعد ان تزول حقبة الخطر الواضح الجاثم وذلك منذ أن اصبح متضمنا العلاقة بين دول قوية ودول اقل قوة مضيقا حرية الاثنتين دون ان يمنح بعضها تأثيرا على سياسة البعض الآخر . « والتماسك نفسه لا يمكن ان يشكل الاهمية القصوى لكل من الحلفاء بمفرده طالما ظل الحلف حلفا محدودا وتخدمه منظمة دائمة بدلا من استخدامه معبرا قصيرا الى شكل اسمى من التشارك . ولا يمكن ان يكون هذا هكذا دائما بالنسبة للحلف بوصفه كلا عندما تؤدي الوحدة المبالغ فيها الى انقاص فاعلية شراكة ما وبصورة خاصة بالنسبة للاقطار من غير الخصوم في زمن السلم » .

ان القضايا الملازمة لاحلاف ما بعـد الحرب التي نشأت حول نواة من المصلحة الاستراتيجية المشتركة الواضحة قد اصبحت اكثر حدة بفعل العصر النووي . وقد اعطى وجود الاسلحة النووية اسبقية لاستراتيجية الردع التي اصبح الحصول بواسطتها على تطلع مشترك بين عدد من الحلفاء اكثر صعوبة مما هي عليه الحال بشأن استراتيجية الدفاع . وان واقعة اعتبار الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي دولتين نوويتين بنظام مختلف الاهمية بالنسبة لاية دولة اخرى حالية او مقبلة ، يزيد في تفاوتات اخرى في القوة سواء منهـا الكبيرة ام الاقل كبرا من مجموعتي الحلفين الكبيرين . ان خطر أي لجوء الى القوات النووية وسرعة اصدار القرارات الذي يمكن ان يتطلب وسائل اسرع من الصوت يخلق مسائل جديدة تتعلق بالرقابة الجماعية واصدار القرارات وكذلك فان اخطار المجابهة النووية يمكن ان تفرض الجمود والتضييـق على الاطماع السياسية كجعلها بعض الاعضاء الصغار من التحالفات دون راحة واعطاء الدول الكبرى الضامنة مع انها نظريا غير راضية ، قدرا من المصلحة المشتركة التي قد لا تتقاسمه مع جميع اصدقائها الاسميين . (ان الولايات المتحدة مثلا في السنين العشر الماضية كان لها مصلحة في الحيلولة دون هجوم تشان كاي شيك السريع على ارض الصين مثلما كان للاتحاد السوفييتي مصلحة في منع هجوم تقوم به الصين الشيوعية كرد عليه) . وبعبارة اخرى ، ان درجة تورط قوة عسكرية ما كشفت عنها مجموعة من الاخطار ، يمكن ان تشكل عاملا يتجه نحو اضعاف التحالف الذي كانت تلك القوة مساهمة فيه .

ومع ذلك ، فان عددا كبيرا من معاهدات الاحلاف كان قد وقع في العشرين سنة الماضية وبدا القليل منها انه محتمل الالغاء في المستقبل القريب . وقـد اخترت ان اركز بحثي هذا حول قضايا معاهدة منظمة حلف شمالي الاطلسي ، ليس فقط لانها الوحيدة بل لكونها اكثر مثيلاتها اهميـة . فهي تضم زمرة صعبة المراس من بلدان متعجرفة وقديمة ذات تقاليد عسكرية قوية خاصة بها والتي قادت حوارا مكشوفا حول تقصير بعضها والبعض الآخر يفوق كثيرا ما هو ممكن حتى في يومنا هذا بين بلدان حلف وارسو . واما حلف شمالي الاطلسي فتجابهه خيارات اكثر صعوبة من اي حلف آخر في الاستراتيجية العسكرية في

سبيل التحري عن العلاقة الصحيحة بين القوة العسكرية والدبلوماسية . وعلى الرغم من انه يضم فقط اربعة عشر حليفا من بين اثنين واربعين من حلفاء الولايات المتحدة فان قضايا الرقابة الجماعية واتخاذ القرارات التي سيطرت على حلف شمالي الاطلسي ستصبح بنظري على الاقل ذات أثر أكبر في أحلاف آسيا والباسفيك .

هناك على الاقل ثلاث طرائق مختلفة يمكن للمرء ان يدرس بموجبها قضايا معاهدة منظمة حلف شمالي الاطلسي . أولها ، مراجعة تاريخ سياسة حلف شمالي الاطلسي ومقرراته في سبيل تتبع تطور العقدة الحالية في العلاقات السياسية والعسكرية ، والطرق التي قام فيها الحلف بردود الفعل نحو التغييرات التي حصلت في بيئته ونحو التبدلات في ميزان القوى بين اعضائه . والثانية هي فرز القضايا الاربع او الخمس التي بدت منذ البداية اكثر القضايا صعوبة في ايجاد حل لها ورسم مصائرها في مختلف ادوار تطور حلف شمالي الاطلسي : كالعلاقة الصحيحة بين الردع والدفاع في اوربا ، والمكانة الحقيقية للحلفاء ونفوذهم النسبي ، والقضية الالمانية ، بوصفها اختبارا لتطابق المصلحة بين الحلفاء ، والوسائل التنظيمية للتخطيط الجماعي ووضع القرارات ودور التحالف في مواجهة التهديدات لمصالح اعضائه او أمنهم خارج اوروبا .

والطريقة الثالثة هي في كتابة تاريخ التحالف من حيث تأثير افكار الرسميين وغير الرسميين على السواء : افكار « أتشيسون » وبرادلي ، و « ليدل هارث » ، و « سليسر » و « جوان » في السنوات الاولى ، وافكار « دالس » و « صانديس » ، و « برودي » و « ولستيتر » في السنوات الوسطى ، وافكار « نيتز » أو « كيسنجر » ، و « غالوا » أو « ستراوس » في محاولة تكييف استراتيجية الحلف مع عصر الصواريخ ، وافكار « ماكنامارا » و « بوي » أو « آرون » في النضال من اجل دفع الحلف لانهاء القضايا المعلقة وتوحيد اوروبا الموعود .

ان الجمع بين هذه الطرق ، الذي على « رانكي » أو « جيبون » ان يحاوله في المستقبل ، سيكون عملا ضخما قد لا يكون ممكنا الا عندما تكون وثائق العديد

من البلدان المختلفة تحت تصرف الدارس . ان كل ما حاولته في هذه المساهمة المتواضعة هو انتقاء قضية مركزية واحدة في حلف الاطلسي ، هي السيرة على التخطيط الاستراتيجي والسياسي ، وتقصي اسباب صيرورتها صعبة الحل كما تبدو الآن اذا استعملنا ما وصفه الرئيس « ايزنهاور » باهتمام : « عشرين من عشرين ادراك متأخر » .

ويوجد اليوم موافقة عامة ، بعد مرور خمس عشرة سنة على توقيع معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، حول العناصر التي تتألف منها قضية وضع القرارات الجماعية . احدها هو الصعوبة في خلق اية مجموعة سيطرة ذات حجم ملائم داخل حلف شمالي الاطلسي ، لاغراض التخطيط الاستراتيجي ولمعالجة الازمات ، بحيث يقبل الاعضاء غير المشتركين من الحلف في المجموعة هذه بمعالجة مسائل السلم والحرب وان استحالة وضع خمسة عشر اصبعا على زناد البندقية معترف بها من قبل جميع البلدان الاعضاء : فهناك الحل البريطاني او الفرنسي القاضي بخلق نظام ثنائي او ثلاثي للسيطرة مع الولايات المتحدة وهو مع ذلك لا يحظى بثقة العواصم الصغرى ولا واشنطن . وفكرة ترك معالجة الازمات الكبرى بين يدي رئيس الولايات المتحدة يمكن ان تكون مقبولة في اوسلو او في لاهاي او لشبونة ، ولكن ليس في باريس او لندن . وعليه فان اية محاولة لابتكار حل وسط ، كمديرية خماسية او سباعية ، تلاقي قضايا لا حل لها تتعلق بالمركز كما جرى بين اوتاوا وروما ، واستنبول او بروكسل . وهكذا طفقت الحجة تدور وتدور في المحافل ، الى ان حلت محلها حجة جديدة حول الرغبة في ايجاد حلف داخل الحلف ، مبني على قوة نووية متعددة الاطراف يشترك فيها بعض الحلفاء دون البعض الآخر . وقد حاول عبثا اميركيون عديدون ، وبخاصة منذ استلام ادارة كنيدي للسلطة ، ان ينبهوا الى ان الازمات الحقيقية التي يمكن ان يواجهها الحلف قد لا تتضمن اسلحة نووية ، لان خططه واهدافه تتضمن فقط شكلا واحدا لاستراتيجية معاصرة : اذ ان الحلفاء الاوروبيين يظلون منشغلين بالاسلحة النووية ، ومأخوذين بقدرتها وهيبتها مستبعدين الاشكال الاخرى من القوة الاستراتيجية . وقد حاولت بريطانيا وفرنسا ايجاد حل خاص بهما وذلك بتطوير قواتهما الاستراتيجية

الوطنية : مع ان اعمالهما متماسكة من حيث الاساس مع البنية العسكرية الاصلية لحلف شمالي الاطلسي الذي ، تخلفه « المجموعة الدائمة » ، اعترف ببريطانيا وفرنسا بأنهما قوتان عسكريتان مختلفتان بنوعهما واهميتهما عن كندا او البلدان الاوروبية الاخرى ، كما ان مطالبتهما بدور نووي قد أوجد مشاكل جديدة دون ان تحل المشاكل القديمة .

واذا ما اردنا ان نستقصي اسباب نشوء هذا الوضع ، فالسؤال الاول الذي يتبادر الى الذهن هو كيف توصل حلف شمالي الاطلسي الى ضم مثل هذه المجموعة الكبيرة والمتنوعة من القوميات وهل ان احدا قد قدر مسبقا النتائج ؟ الم يقم الدبلوماسيون في زمن سابق ، كمهندسي نظام فيينا مثلا ، الذين حاولوا أن يقابلوا قوة روسيا في اوروبا في اواخر الاربعينات بانشاء نظام مركزي قوي ، مبني على اكثر الدول العسكرية فعالية ، كالولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، مثلا ، ومن ثم توسيع حمايته لقوميات اقل حيوية ولكنها ذات تفكير مماثل : فقد اعطت بريطانيا ، مثلا ، ضمانات امنية للبلاد الاسكندنافية ، وكذلك فرنسا الى جيرانها في القارة ، كما ان الولايات المتحدة مع قوتها النووية القائمة دعمت كامل النظام وضمنت كذلك بلادا بعيدة كالبرتغال ؟ وان مثل هذا النظام ، مع انه محافظ ، كان ينبغي ان يسمح بطريقة عمل جماعية تتطور الى مجموعة صغيرة من الاقطار الى ان تستطيع بلدان اخرى ، مثل المانيا على سبيل المثال ، ان تشترك في وضع القرار في يوم ما بدلا من تمتعها فقط بحماية الحلف .

ان طرح السؤال يتطلب غالبا الاجابة عليه . ففي المقام الاول ، كان التفكير بمثل هذا الاسلوب التقليدي يعتبر منافيا للاخلاق في اواخر الاربعينات ، وخاصة في واشنطن . فان عالم التكتلات المبنية على المصلحة العابرة قد انقضى الى الابد : ولئن كانت السياسة السوفييتية حاليا تجعل نظام الامم المتحدة معطلا كما انها تشكل تهديدا مباشرا لاوروبا الغربية ، فان الاختيار الشرعي الوحيد الذي كان متاحا لمجموعة من الدول المهددة هو تنظيم ميثاق أمن أقليمي بموجب المادة (٥١) من ميثاق الامم المتحدة . (ان عضو مجلس الشيوخ « فاندنبرغ » قد روج علنا لاقتراحه بتاريخ ١١ حزيران ١٩٤٨ ، ودافع عنه بسبب الضرورة

لدعم ميثاق الامم المتحدة بايجاد ميثاق أمن اقليمي اطلسي تحت سلطتها . وفي كتاب السيد دالس : « حرب أو سلام » ، الذي نشر في عام ١٩٥٠ ، اعتبر حلف الاطلسي تحالفا اقليميا فقط مشابها لميثاق « ريو » الذي وقع عام ١٩٤٧) . وقد اقيمت ادلة على ان ميثاقا اقليميا للامن يجب ان يشمل احدى المناطق بغض النظر عن اختلاف الفرضيات او اهمية البلاد المنضمة اليه . وظل مفهوم الامن الجماعي مسيطرا على التفكير الرسمي الاميركي ، في حين ان العديد من الاميركيين اضمروا الاعتقاد ، الذي لم يكن معبرا عنه علنا حتى مؤخرا ، وهو انه اذا كان التجمع الاوروبي يمكن ان يصبح واسعا وكبيرا بقدر كاف فانه يستطيع ان يجمع نظام سياسة ودفاع مستقل .

ولم يكن لدى الحكومة البريطانية ولا الفرنسية ايمان قوي حقيقي بالامن الجماعي بعد تجربة سنوات ما بين الحربين . وكانت مصلحتهما المركزية قائمة على تدخل القوة الاميركية في الدفاع الاوروبي بموجب معاهدة وباسرعة الممكنة عن طريق وجود مادي هناك . « ان الهدف الحقيقي لهذا الميثاق ان يعمل كرادع » ، كما قال ارنست بيفن . و « اننا نعلم » ، كما قال هنري كوي ، رئيس وزراء فرنسا ، « انه اذا حدث مرة ان احتلت اوروبا الغربية فستأتي اميركا مرة اخرى لنجدتنا ... الا انكم في هذه المرة ستكونون قائمين بتحرير جثة ميتة » (ان البيانات الفرنسية الرسمية في ذلك التاريخ ، مصحوبة بتوسل لسرعة تدخل اميركي باية شروط ، اصبحت تطالع اليوم باستغراب) . ان معاهدة دانكرك الفرنسية ــ البريطانية ثنائية الطرف (١٩٤٧) لا بد وانها قد أرست اسس علاقة ثنائية . الا انه في أثناء انتظار التدخل الاميركي اسست بريطانيا وفرنسا نظامهما العسكري الجماعي الخاص بهما : وهو معاهدة بروكسل في شهر اذار ١٩٤٨ ، التي ضمت بلجيكا ، وفرنسا ، وهولندا ، واللوكسمبورغ ، والمملكة المتحدة . واذا كان على الولايات المتحدة ان تنضم الى نظام جماعي للدفاع عن اوروبا فان البلدان الثلاثة المضافة لا يمكن استبعادها بعد الآن .

وتحت ضغط حصار برلين الشديد وسياسة الاتحاد السوفييتي في

اوروبا في شتاء ١٩٤٨ ــ ١٩٤٩ ، بدأ عدد البلدان التي رغبت في المساهمة في عملية التدخل هذه يزداد بسرعة . وحتى منذ الحرب كانت كندا قد توقعت شكلا من اشكال التدخل الاميركي في اوروبا كأساس لسياستها هي الاخيرة هناك ، وكانت من جهة ثانية راغبة في رؤية النظام الجديد مؤسسا بأكثر ما يمكن من التوسع . وفي شباط ١٩٤٩ أدى ضغط السوفييت على النرويج ، من اجل توقيع ميثاق عدم اعتداء مع الدول الاسكندنافية ، الى جلوس النرويج على مائدة المفاوضات في واشنطن ثم حذت الدانمرك حذو النرويج . وبما ان الحماس لفكرة الامن الاطلسي الجماعي قد نمت في الصيف الذي سبق توقيع معاهدة الاطلسي فقد مورس ضغط مهذب حتى على ايرلندا والسويد للانضمام الى حلف الاطلسي . وقد قوبل هذا الضغط بمقاومة مهذبة مماثلة .

وقد تم كسب البرتغال وايسلندا ، مثل الامبراطورية البريطانية ، في لحظة قلق ملائمة ، وذلك لان الاثنتين كانتا تسيطران على قواعد جوية استراتيجية هامة . ولكن اسبانيا كانت مكروهة كرها شديدا من قبل الجناح الاوروبي للاحزاب اليسارية الى حد عدم قبول ترشيحها للعضوية . وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك ابرمت الولايات المتحدة اتفاقا مصلحيا مع اسبانيا من نوع كان يمكن اجراؤه في وقت أبكر مع البرتغال وايسلندا ، في سبيل الحصول على قواعد . ويبدو ان الاميركيين والبريطانيين قد رغبوا في ادخال ايطاليا في حلف الاطلسي وذلك على الاكثر لخوفهم من ان تؤدي ردة تيتو عن النظام السوفييتي في السنة التي سبقت توقيع معاهدة حلف الاطلسي ، الى ضغط سوفييتي في جنوبي غربي اوروبا او في وادي الدانوب دون ان يكون ثمة قواعد ملائمة لمعارضته . وفضلا عن ذلك بدا ان قوة الحزب الشيوعي الايطالي يمكن كبحها بواسطة رابطة اقتصادية وسياسية واسعة مع بلاد غربية اخرى .

وفي اواخر صيف عام ١٩٥٠ قرر جيش الولايات المتحدة بأن مساهمة المانيا العسكرية في الحلف اصبحت ضرورية اذا كان نظام الامن الجماعي الذي اصبحت فيه الولايات المتحدة حاليا متورطة تماما سيصبح نظام الدفاع الجماعي الذي اقتضاه نشاط السياسة السوفييتية المتواصل في آسيا كما في اوروبا .

وقد دفع خريف عـــام ١٩٥٠ الخلافات الاميركيـــة والاوروبية في الرأي الى الاصطدام . فقد اصبح واضحا اخيرا لدى الحكومات الاوروبية ان ثمن الضمان الاميركي كان توسعا في نظام الدفاع الجماعي في اوروبا . وكان هذا الادراك وكذلك معرفة ان القوة العدوة السابقة هي التي ستكون اكبر مصدر للرجال التقليديين الذين سببوا فحصا للضمير في باريس وفي عدة عواصم اخرى في اوائل الخمسينات . ولكن في جو الحرب الكورية وجدت الحكومات الاوروبية انه قد يكون من المستحيل تقريبا مقاومة الحجة الاميركية بأن حلف الاطلسي يجب ان يستمر في تلقي دعم الكونغرس والرأي العام فقط الى الحد الذي يؤمن فيه اقوى دفاع عسكري ممكن لاوروبا . ومع ذلك هل كان لدى مخططي الولايات المتحدة احدى الافكار الغامضة عن 'المأزق الاستراتيجي الذي كان في طور التطور في اقل من عشر سنوات وعن شبه ظل الخوف والشك الذي سيحيط بالاسلحة النووية وبالتالي بقيمة قدرتها الضمانية ، وهل كانوا مصرين بذلك المقدار على ربط الضمان بنظام دفاعي جماعي ؟ تلك هي انواع الاسئلة غـــير المستحبة التي سيطرحها احد المؤرخين يوما ما .

وعلى هذا فان حلف شمالي الاطلسي تضخم الى حجمه غير العملي بحجة عدم ادراك مركزي للمتطلبات الخلافية حول ميثاق الضمان ومنظمة الامـــن الجماعي . وخلال ما يقرب من عشر سنوات فشلت الادارة الاميركية المتتالية في ادراك الانشغال الاوروبي بشأن طبيعة الضمان الاميركي . وخلال خمس عشرة سنة وجدت الحكومات الاوروبية انه من الصعب قبول الالحاح الاميركي بأن عليهم ان يحولوا التزاماتهم المتعلقة بالامن الجماعي الى نظام دفاع تقليدي ويخففوا الاعباء التي وضعتها اخيرا الولايات المتحدة على عاتقها عام ١٩٥٢ في سبيل جعل ضمانها موثوقا به اكثر .

ان أولى امارات الشك حول التركيب المتنافر للعضوية في الحلف لم تتضح للعيان حتى باشرت الولايات المتحدة بممارسة ضغطها في خـــريف ١٩٥٠ لضم اليونان وتركيا لحلف الاطلسي وهو اقتراح قبل على مضض في اجتماع أوتاوا للحلف في المؤتمر المنعقد في تشرين الاول ١٩٥١ . ولما كنت قد اعددت

تقريرا عن ذلك الاجتماع بوصفي صحفيا فباستطاعتي ان اتذكر الشكوك التي ساورت الاسكندنافيين ، والافرنسيين وبلدان بلجيكا وهولندا واللوكسمبورغ ، وكندا بشأن الحكمةمن توسيعميثاق أمن أطلسيجماعي الى بلدانبعيدة كلالبعد عن الاطلسي ، وكذلك المخاوف التي عبر عنها علنا بأن عضوية اليونان وتركيا ستضم بلدين ، لا مصلحة لهما في المنطقة ، في سياسة البلقان . وفي زمن فشل فيه الحلف في ان يكون له أي تأثير على النزاع القبرصي وكذلك عندما كانت القوات الكندية والاسكندنافية ، تحت حماية الامم المتحدة وليس تحت حماية الميثاق الاقليمي الامني ، تحاول بيأس منع القبارصة من منح اليونان وتركيا ذريعة للحرب . وقد بدت لي هذه المخاوف لثلاث عشرة سنة خلت بأن لها ما يبررها .

ولكن حجم الحلف لم يشكل المصدر الوحيد للصعوبة بمحاولته تطوير استراتيجية مشتركة او القيام برد فعل سريع في وجه التطورات الخارجية . ويمكن ان نفرز تطورين كان لهما كبير الاثر في الوضع المعقد الحالي احدهما محاولة بريطانيا اولا وفرنسا ثانيا ان تخلقا وسط هذا النظام الموسع المؤلف من دول متساوية اسما حقيقة **اتفاق** دولي مع المقاومة المتطورة الاميركية له . والثاني هو انهيار مبدأ المقابلة بالمثل الاميركية الاوروبية بجعل دفاع حلف الاطلسي الاوربي نوويا .

ان الروابط السياسية والعسكرية بين لندن وواشنطن التي انشئت في الحرب العالمية الثانية ظلت متماسكة في الحقبه التي سبقت توقيع معاهدة حلف الاطلسي مع ان بريطانيا قد انكر عليها حقها في الحصول على جميع المعلومات المتعلقة بتصميم السلاح النووي الامركي وانتاجه . وقد لعب الرسميون البريطانيون دورا رئيسيا في تطور آلية الناتو الداخلية وفي بنيتها القيادية ، وبصورة خاصة في انشاء احدى المنظمات التي قبلت بأنه ولئن كان الكل متساوين الا ان للبعض اهمية اكثر من الآخرين ، وهي « المجموعة الدائمة » التي تضم ممثلين لرؤساء الاركان في أمريكا وبريطانيا وفرنسا ومقرها في واشنطن . وفضلا عن ذلك ، وعلى الرغم من وجود اتصال بشأن

القضايا النووية لم يكن البريطانيون الذين انطلقوا في برنامجهم النووي الخاص في عام ١٩٤٦ ممنوعين من ابداء آرائهم . وكثيرا «ايقال ، واعتقد بصحة ذلك ، بأن مذكرة رؤساء الاركان البريطانيين عام ١٩٥٢ ؛ التي استرعت الانتباه الى تعثر الاقتصاد في بعض فروعه الاساسية الذي نشأ عن محاولة الحفاظ على مؤسسات تقليدية واسعة للدفاع في القارة الاوروبية وعلى سلاح جوي استراتيجي نووي مما كان له أثر هام على اعادة النظر في الاستراتيجية الاميركية عام ١٩٥٣ مع توسع أكبر في الردع النووي وأقل في قوات الدفاع التقليدية .

ولكن لما كانت الاستراتيجية الاميركية قد باشرت نموا اكثر تعقيدا ، أولا مع تطور القنبلة الهيدروجينية ومن ثم مع بداية تهديد سوفييتي مباشر لاميركا الشمالية وادخال اعتبارات جديدة حول معقولية الردع ، وقابليته للثلم ومختلف اوضاعه على نحو ان المناقشات العامة في المجموعة القائمة قد قللت من رضى بريطانيا شيئا فشيئا . ومع ذلك فقد كان هناك اعتبارات اخرى داخلة في الموضوع هي رغبة بريطانيا في اخفاء التوسع المتزايد في برنامجها الخاص بالاسلحة النووية في عام ١٩٥٦ - ١٩٥٧ المرتبط مباشرة بالرغبة في الحصول على مدخل الى التخطيط الاستراتيجي الاميركي بكامل سلسلته ، وهي سياسة أثمرت بتعديل قرار الولايات المتحدة الخاص بالطاقة الذرية لصالح بريطانيا عام ١٩٥٨ . وهكذا فان الطريقة البريطانية وتطور قوة ضاربة نووية فعالة تماما في لندن وفي مكان آخر ليكونا أكثر الطرق فعالية لتحويل الحلف المجرد الى ميثاق .

وكانت فرنسا تضع هذا التكتيك البريطاني تحت الرقابة الدقيقة حتى قبل ان تقرر حكومة م. موليه عام ١٩٥٦ ، بعد ثماني سنوات من بريطانيا ، وضع برنامج سلاح نووي قومي . وهي الاخرى قد اكتشفت بمرور الزمن بأن الوضع كدولة كبرى اسما ضمن الحلف لا معنى كبير له دون مدخل للتخطيط الاميركي الاستراتيجي النووي . وقد حاول الرئيس ديغول ايجاد طريق اقصر من الطريق الذي سلكته بريطانيا في اقتراحه المباشر في تشرين الاول ١٩٥٨ في

نظام ثلاثي للتشاور ومعالجة الازمات سواء أكان ذلك داخل منطقة حلف الاطلسي ام خارجه ولكنه باء بالفشل .

وقد وصلت فرنسا بقوة قاذفات القنابل النووية الخاصة بها والتي أصبحت عملياتية ، الى مركز بريطانيا الذي حققته عام ١٩٥٨ . ولكن في الوقت نفسه نشأ تصميم اميركي حاسم ، والحقيقة تصميم حليف ، على مقاومة اية محاولة تطوير **ميثاق** داخلي حول حيازة قوات نووية وطنية . والاسباب معقدة (على الرغم من ان احدها بسيط كل البساطة وهو نقص اللباقة وعدم الثقة الواضح الذي عامل بهما **الجنرال** الولايات المتحدة) . وهي مكونة في قسم منها من اعتبارات عسكرية فنية ، كالخوف من ان يكون لدى القوات النووية الوطنية الصغيرة حذر غير مناسب وحماية وضع آمن رادع ، وفي قسم آخر من الخوف في حال استخدام فرنسا لبرنامج نووي وطني من اجل اقتفاء اثر بريطانيا الى ميثاق كامل مع الولايات المتحدة ، وهناك احتمال ان تطلب المانيا ذلك او اية دولة اخرى ذات كفاءة اقتصادية وبذلك يصبح الضمان الاميركي لاوروبا موضع تساؤل . وذلك من ناحية الاتجاه الذي أخذ بالنمو تدريجيا منذ شرط الرئيس ايزنهاور الثاني وهو انه قد حان الوقت لكي تباشر الولايات المتحدة اسلوب توسيع نطاق التفاهم والاتفاق مع الاتحاد السوفييتي بدلا من بناء قوة ذات تماسك سياسي مع حلفائها الرئيسيين . وقد خيمت على تطور هذا الموقف وعقدته رغبة العديد من الاميركيين ذوي النفوذ في رؤية **الميثاق** يتوسع ليس بين الولايات المتحدة واقوى حلفائها بل مع كيان اوروبي متحد جديد ـ ليحل محل المشاركة في **الميثاق** .

والنتيجة هي انه لاسباب حسنة ام سيئة كان لسياسات الجمهورية الخامسة أثر في تقويض هدف **ميثاق** الدول العظمى داخل حلف الاطلسي او على الاصح تحويله الى قرار اميركي لاقامة علاقة أوثق مع المانيا مبنية على مفهوم جديد اصطناعي هو قوة نووية مراقبة ومسلحة متعددة الاطراف . وكذلك يمكن جني مكاسب سياسية لزمن قصير وبخاصة في حقبة تكون فيها الولايات المتحدة راغبة في الحصول على موافقة المانيا على سياسة استكشاف دبلوماسي

مع الاتحاد السوفييتي وبلدان أوروبا الشرقية . وفضلا عن ذلك ، فان المانيا باعتبارها اقوى دولة برية في وسط اوروبا لها ملء الحق بمقعد في المجموعــة الداخلية حيث تتقرر سياسة حلف الاطلسي وحيث يجب ان تتخذ القــرارات ابان الازمات . الا ان نظاما تنقصه فرنسا لا يمكن اعتباره بالواقع نظاما ذا فاعلية لمنظمة الدفاع الغربي .

وثمة سبب واحد يفسر لماذا تغلبت فكرة الدخول في حلف عسكري مع الدول الاوروبية على المعارضة الاميركية التقليدية للاحلاف المتشابكة ، وادت في الحقيقة الى اثارة حماس شديد لدى المسؤولين الاميركيين ، هو ان ذلك قد نم عن احتوائه لمبدأ مرض هو المعاملة بالمثل . وقد ارادت الولايات المتحدة ان تركز على هذه الاشكال من الدفاع الغربي التي كانت متكيفة معها اكثر من غيرها : كتطوير قوة الجو والبحر والقوة النووية . اما الاوروبيون فيودهم التركيز على تقوية الدفاع الاوروبي البري ضد الاتحاد السوفييتي ، وكل واحد يرغب في ان يكون مرتكزا على جهود الآخرين ويمكنه مع ذلك احداث تأثير نافع على سياسة الآخرين . ولو كان من الممكن تطوير هذه الصيغة لكان الكثير من التوترات الحالية بين الحلفاء لا اثر له .

اما الاسباب العامة التي من اجلها سقطت هذه الصيغة فمكشوفة جيدا اذ انها من جهة ذات صلة بالاطماع التكنولوجية والصناعية الناشئة لدى معظم الدول الاوروبية او من جهة ثانية السخط الاميركي المستديم لفشل الاوروبيين في تحمل نصف الصفقة المتعلقة بالقوات التقليدية وهو سخط اصبح اكثر شدة بعد عام ١٩٦١ عندما جعلت دقة الميزان الاستراتيجي الكلي ، من المرغوب فيه تطوير نظام دفاع اوروبي مرن بقدر الامكان .

الا انها قد تكون العملية الفريدة التي أدت اكثر ما يكون الى هــدم الاسس السياسية الاصلية لحلف الاطلسي ، ومن اجل جعل جميع قضايا وضع السياسة الجماعية اصعب حلا كان هناك ادخال الاسلحة النووية الى أوروبا . ولعل ذلك كان مما لا يمكن تجنبه ، اذ انه ولا شك من الصعب ان نشاهد كيف

استطاع ، في عام ١٩٦٠ ، ميزان قوى محلي مرض ان يظل ثابتا دون منع بعض الطائرات التي تحمل اسلحة نووية والصواريخ من الوقوف بتعادل امام القدرة السوفييتية . الا ان الشيء الذي لم يلاحظه احد في ذلك الوقت هو انه بادخال الاسلحة النووية الميدانية الى اوروبا الذي تكشف عن كونه نظرية خاطئة بدرجة كبيرة تحابي الدفاع وتهدف الى التعويض لاوروبا عن النقص في تعبئة الفرق المستعدة ، وكانت قضية السيطرة العملياتية على الحلف بأسرها متروكة بين ايدي الاميركيين . واذا طرحنا جانبا التخبط الذي نشأ في التفكير العسكري المهني حول الامكانية العملية لحرب نووية محدودة ، أو سواء أكانت الاسلحة النووية قسما من قوات الردع او الدفاع للحلف ، فان مفعول نظام المفتاح المزدوج كان في جعل رد الفعل الفردي لقائد فرقة او لواء من اية جنسية كانت تجاه هجوم على جبهته متوقفا على قرار من البيت الابيض . والحقيقة ان الحكومات الاوروبية قد خسرت التحكم في قضايا السلم والحرب الذي أولتهم اياه بنية حلف الاطلسي في نظام المجلس واللجنة بصورة نظرية . وهذا هو السبب الذي من اجله اقام دارسو الحلف الدليل ليضع سنوات خلت على انه يجب اما ان يستنبط نظام جديد لوضع القرارات الجماعية ، ربما في واشنطن لا في باريس ، للعمل على مسافة اقرب من قلب قوة حلف الاطلسي العسكرية واما ايضا ان يقسم الى انظمة اوروبية واميركية متفرقة .

وهناك صورة واحدة للسيطرة الامريكية الضيقة على عملية اتخاذ قرارات حلف الاطلسي منذ ادخال الاسلحة التكتيكتية في عام ١٩٥٧ ، جديرة بالاشارة اليها . فمنذ عام ١٩٥١ ، عندما تقرر وضع اتفاقية أمن جماعي في نظام دفاع جماعي ، كان القائد الاعلى لاوربا امريكيا . ولم يكن صعبا على الجنرال ايزنهاور (١٩٥١ — ١٩٥٢ او حتى على الجنرال « غرونتر » (١٩٥٣ — ١٩٥٦) اكتساب ثقة واشنطن واهم الحكومات الاوربية معا ، منذ ان احتفظت هذه الاخيرة بدرجة هامة من الاستقلال وكان دور القائد الاعلى لقوات الحلف في اوربا دور منسق اكثر منه دور قائد . الا ان وضع الجنرال « نورستاد » (١٩٥٦ — ١٩٦٣) كان اكثر صعوبة الى درجة كبيرة لانه كان ايضا قائدا ، ووضعه ، كقائد دولي وامريكي ، قد اصبح مبهما اذ ان خلافات الراي حول الاستراتيجية النووية

شرعت بالتطور بين واشنطن والعواصم الاوربية . وقد وجد نفسه في اغلب الاحيان مكافحا في سبيل وجهة النظر الاوربية مع الحكومة التي يرتدي بزتها . اما الجنرال « ليمنتزر » الذي شغل المنصب في عام ١٩٦٣ فقد رأى نفسه في الوضع ذاته تقريبا .

ويشبه تاريخ منصب القائد الاعلى لقوات الحلف في اوربا منصب نائب الملك في الهند . ففي الايام الاولى من الحكم البريطاني عندما كان نائب الملك شخصية نائية يتداول بصورة رئيسية مع رؤساء الولايات من الامراء ، كان هناك خلاف بسيط في الموالاة . وبما ان القبضة البريطانية على ادارة الهند قد تشددت وبدأ تطور الشعور القومي الهندي ، فقد وجد نواب الملك المتتابعون انفسهم متبنين الحجة الهندية ضد الحكومة البريطانية ، التي كان من المفروض انهم قائمون بخدمتها وتمثيلها . وفي مثوى الابطال الذي يستحق ان يدفن فيه جميع الموظفين العامين الذين اسيء فهمهم : يمكن للجنـرال نورستاد وخلفائه ان يجدوا ارضا رحبة مشتركة مع اللورد هاليفاكس واللورد لينليثغو، واللـورد ويفـل .

من بين خمسة عشر موقعا على معاهدة حلف الاطلسي بقي اليوم فقط خمسة اشخاص بارزين في السياسة هم : « المستر ديريك ستيكر » من هولندا الذي انصرف حديثا الى الحياة الخاصة بعد محاولة تتسم بالشجاعة الا انهـا لم تنجح الا جزئيا لنفخ روح الحياة في الآلة الدولية المعقدة التي كانت قـد انشئت في ظل المعاهدة ، والسيد « سباك » ، وهو حاليا وزير خارجية بلجيكا للمرة الثانية ، واحد القادة البارزين في النضال من اجل الحيلولة دون تحول استياء اوربا من النظام الاطلسي الى رغبة في ميثاق صغير لغربـي اوربـا ، والسيد « ليستر بيرسون » ، وهو الآن رئيس وزراء كندا ، وهو الذي نقل اهتمامه الرئيسي من مصالحه الدولية الى محاولة بناء مجموعة غير رسمية من الدول الصغرى يمكنها تقوية امكانية الامم المتحدة لحفظ السلام ، والسيد هالفارد لانغ من النرويج المهتم ايضا بالهدف نفسه عموما ، والسيـد «دين انشتيسون » في مركزه الخاص كشخصية مرموقة في واشنطن المهتم بصورة

خاصة في خطبه العامة بقيمة التحالف كوسيلة للعمل على ايجاد تسوية للقضية الالمانية . ان لاهتمام هؤلاء المهندسين الاربعة بمعاهدة حلف الاطلسي المتبدل، مدلولة لانهم يتبنون التساؤلات التي على كل باحث في هذا التحالف ان يوجهها لنفسه في يومنا هذا . فان نجاحات نظام حلف الاطلسي واضحة ، فالولايات المتحدة متورطة بعمق يماثل العمق الذي بلغته منذ خمس عشرة سنة مضت من اجل سلامة اوربا . وبعد عهد الاضطراب المتسبب عن الانطباع الشوري للصاروخ على التفكير الاستراتيجي فمن الواضح بأن لديها عن طريق برنامج مينوتيمان وبولاريس الوسائل لتدعيم ضمانتها . وقد اعطت التقديرات الضعيفة لقوة الاتحاد السوفييتي في اوربا ، التي سادت الى ما قبل بضع سنوات خلت، المكان لحكم اكثر وزنا . وواضح انه يوجد الآن ميزان للقوة المتأهبة هناك . ولو ان نظام دفاع حلف الاطلسي المحلي ليس بالقوة وبالمرونة التي يتمناها له الكثيرون . وعلى كل حال ان توقع قيام السوفييت فجأة **بنزهة عسكرية** ضد اوربا الغربية لا يسبب أرقا كثيرا في هذه الايام . فمن المشكوك فيه ما اذا كان الاتحاد السوفييتي بعد تجربة ازمة كوبا في تشرين الاول ١٩٦٢ ، مستعدا لاختبار الاعصاب او القوة حتى بالنسبة لبرلين . وعلى الرغم من ان التكلفة المالية كبيرة (ما يقرب من ٥٠٠٠٠ مليون دولار في السنة للدفاع المباشر عن منطقة حلف الاطلسي أو صد هجوم عليها) فهي ممكنة التحمل لمجموعة من المجتمعات الموسعة .

ان المسائل السياسية المركزية التي جابهها الحلف في النصف الثاني من الستينات خلال السنوات الاربع او الخمس قبل ان تحصل الدول الاعضاء بعد عشرين سنة على حرية الاختيار للانسحاب من نظام الحلف هي ثلاث .

المسألة الاولى هي هل بامكان حلف الاطلسي ان يخدم اغراض الاستراتيجية الغربية باستثماره الاتجاهات نحو المركز في اوربا الشرقية . ويعني هذا بالتعابير العسكرية تصحيح النظام المعقد للغاية للدفاع والردع الذي اوجد في اوربا ان لم يكن على الاصح بسبب افكار فجة كمخطط «راباكي» الاصلية فعلى الاقل من اجل اقتراحات الرقابة على الاسلحة المنظور اليها نظرة اكثر اهمية والتي عليها التقليل من اخطار مجابهة نووية عالية في وسط

اوربا وبالتالي التقليل نوعا ما من مستوى التسلح هناك . وبدون مثل هـذه المبادهات يمكن للمحاولات التي تبذل من اجل اعادة علاقات طبيعية بين نصفـي أوربا عن طريق التجارة او بالمبادلات الاخرى ان تبدو غير ملائمة .

اما المسألة الثانية فهي ذات صلة وثيقة ، فيما اذا كان لـدى زعمـاء الحلف التفكير والصبر لرؤية ان ضعف التوتر في اوربا سيزيد بدلا من ان ينقص الارتباط الامريكي في شؤون اوربا ، حتى ولئن كانت الولايات المتحدة متورطة ايضا بعمق في الشرق الاقصى ، او فيما اذا كان التماثل السهل بين التطور الاقتصادي والاستراتيجي الموجود ضمنا عندما نتحدث عن قوة اوربية منفصلة وعن استراتيجية كذلك ، او عن « مشاركة » استراتيجية ، فان ذلك سيلهب الخيال الشعبي . ويمكن لقرار تتخذه واشنطن لزيادة حرية العمل خارج اوربا ، ولئن كان يعني خسارة الدعم السياسي للدول الاوربية ، او توسع غير محدود في محاولة الجنرال ديغول ان يطور سياسة افرنسية منفصلة تجاه الاتحاد السوفييتي ، ان تودي بالحلف الى نهايته لان المؤسسات التـي طورها وهي بين الحكومات وليست فوق القوميات ، لا تملك اندفاعا خاصا بها .

اما القضية الثالثة فلها علاقة بالثانية . وهناك سبب واحد يفسر لمـاذا يبدو حلف الاطلسي كأداة ملائمة للاستراتيجية الغربية هو ان مشاكل مجابهة الكتلة الشيوعية قد اصبحت معقدة غاية التعقيد . فأي شكل من التهديد لاوروبا والولايات المتحدة الآن يشكل مخـاطر غير مقبولة من قبل الاتحـاد السوفييتي . واذا جمعنا هذا مع الانشقاق الذي قد خلق سياسات صينية وروسية متنافسة في العديد من البلدان فانه سيدفع بموسكو الى الرجوع الى « استراتيجية غير مباشرة » ، وهي التي نجد مبادئها موسعة بوضوح لدى « ب.هـ. ليدل هارت » منذ ثلاثين سنة خلت . وفي مواجهة هذا النوع من التهديد في الهند الصينية ، وافريقيا ، واميركا اللاتينية ، وفي الشرق الاوسط ، فاننا نجد ارتباكا في التفكير لدى اغلب الحكومات الغربية وبصورة خاصة في واشنطن حول ما اذا كان حلف الاطلسي ميثاقا اقليميا فقط او انه الاداة الرئيسية للغرب . ان نظام القطبين اللذين يتحكمان الآن بالضرورة بمعظم سمات الاستراتيجية المباشرة لا ينطبق بالضرورة على اشكال اكثر دقة من

النضال غير المباشر ، اذ يمكن لكل بلد من البلدان الغربية ان يتبع سياسات متباعدة مع عدم تعرضه لعقاب فردي الا ان ذلك سيكون على حساب ضرر كبير يصيب مصالح الغرب ككل . فهناك تباعد في مواقف فرنسا والولايات المتحدة بالنسبة لجنوبي شرقي اسيا ، وسياسات متباعدة لبريطانيا واميركا بشأن كوبا ، وسياسات متباعدة بين بريطانيا والمانيا في شرقي اوروبا ، يمكنها ألا تحدث أي ضرر آني للبلدان ذات العلاقة الا انها تقود الى تقهقر اسرع للميثاق بدلا من أن تتعارض بشأن الاسلحة والسياسة العسكرية في اوروبا .

وفي عهد اصبحت فيه العلاقات الدولية اكثر ميوعة مما كان يتصور أثناء أزمنة التجمد في الحرب الباردة ، الا ان اخطار التصاعد نحو الحرب الاستراتيجية تكون ضمنية في كل لاندلاع لنيران الحرب في أي مكان من العالم ، فقد يكون ذلك حقا دافعا لايجاد وسائل افضل لوضع السياسة الجماعية بين الولايات المتحدة واكبر حلفائها الاوروبيين وستتزود من التنوع في التهديد الشيوعي اكثر من تمركزه .

* * *

- ١٤ -

التـــدريب والعقيـــدة

في الجيش البريطاني

منذ عـــام ١٩٤٥

بقــلم : آلون غوين جونز

(اللورد شالفونت)

ولد الون غوين جونز حامل وسام الامبراطورية البريطانية ، ووسام الصليب العسكري (اللورد شالفونت) عام ١٩١٩ وعين ضابطا في عام ١٩٣٩ في فرقة حدود جنوبي ويلز والتي خدم فيها في بورما والهند في الحرب العالمية الثانية . وبعد الحرب خدم في الملايو ، حيث حصل على وسام الصليب العسكري ثم خدم في قبرص . وتبع ذلك تعيينات في الانواج ، والاركان ، والاستخبارات في الشرق الاوسط وباريس والمانيا وفي وزارة الحربية . ثم استقال من منصبه عام ١٩٦١ ، حينما عين مراسلا حربيا في صحيفة التايمز . وفي تشرين الاول عام ١٩٦٤ منح لقب نبيل مدى الحياة وعين عضوا في مجلس شورى الملكة عندما اصبح وزير دولة للشؤون الخارجية مع مسؤولية خاصة من اجل نزع السلاح . وتتضمن مؤلفاته : « **السيف والروح** » وهو تحليل للقوة العسكرية الاميركية .

عندما يطرا تغيير من حين لآخر على وطيفة القوات المسلحة في السياسة الدولية ، فليس من المستغرب ا نيكون هناك اضطراب في التدريب وفي العقيدة التكتيكية لدى الجيوش . ومن الامور المميزة للمؤسسات العسكرية القديمة ، ان طرائقها راسخة في الماضي ، ومكرسة للعادات والتقاليد وهي متأثرة بأساليب تنظيمية متسببة غالبا عن مقتضيات ادارية ومحافظة غريزية اكثر مما هي متسببة عن متطلبات الفاعلية في المعركة .

ومنذ عام ١٩٤٥ واجه الجيش البريطاني تطورين هامين ، احدهما سياسي والآخر فني ، اتفقا على المطالبة بمعالجة جديدة كليا للتدريب والعقيدة . والاول خاص باهتمام بريطانيا وبتصفية المسؤوليات الامبراطورية وافول نجم بريطاني عن مركزها كدولة عسكرية عظمى . والثاني ذو علاقة وثيقة ومتبادلة مع تطور عام ونقصد به تأثير الاسلحة الذرية والنووية على الاستراتيجية والتكتيك .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، لم تكن اهمية الاسلحة النووية قد ادركت تماما . ان قوة الانفجار المدمر المجردة كانت واضحة وضوحا كافيا في هيروشيما وناجازاكي ، الا ان اثرها النهائي على « قابلية الاستعمال » للقوة العسكرية لم يكن بعد قد توضح . اما مفهوما الحرب الجماعية

والاستسلام غير المشروط فكانا في الظاهر مبررين بهزيمة المانيا . وقد تم النصر بتطبيق القوة الكثيفة التي نفذت بدون رحمة من بداية المعركة حتى نهايتها . وقد اصبحت الجيوش الكبيرة والتعبئة العامة والاحتياط المنظم المدروس مقبولة كمقومات للمؤسسة العسكرية . وانبرى الجيش البريطاني بسرعة بعد ان وضعت الحرب اوزارها لتحليل ونشر ما اعتقد انها دروس مستفادة منها .

وكان الدرس الاساسي هو الحاجة لجيوش كبيرة ، عاملة واحتياطية . وكان احد الاسباب لهزائم عام ١٩٤٠ المخزية ــ عندما توقف اخيرا رجال الدعاية عن اظهارها كظفر مجيد ــ هو عدم الاستعداد . فان بريطانيا ، كما اشير الى ذلك ، لم تكن قد فرضت التجنيد الالزامي في الوقت المناسب كي يتم تدريب قوات قادرة على الصمود امام الهجوم الالماني . لذلك فان نظام التدريب ونظريته بين اعوام ١٩٤٥ ــ ١٩٥٠ كان يهدف الى تعليم وتدريب جيش وطني كبير مع مفاهيم الحرب الجماعية في البر . والمبادىء التي كان ذلك التدريب مبنيا عليها قد تضمنتها سلسلة الكراسات التدريبية الاولى لما بعد الحرب المنشورة بين عامي ١٩٥٠ ــ ١٩٥٢ وبصورة خاصة المستندات الاساسية الثلاثة وهي « **ادارة الحرب** » ، **وفرقة المشاة ، والفرقة المدرعة** . واما البحث في التأسيس العسكري لدور القوة فقد تبلور في عبارة مفردة في مقدمة رئيس الاركان العامة الامبراطورية لكتاب « **ادارة الحرب** » : « ان الاسلحة وطرق شن الحرب تتغير باستمرار الا ان المبادىء الاساسية تظل هي نفسها » . والعقيدة كانت تتضمن التدمير التام لارادة العدو في المقاومة . ويقتضي لتطبيقها على التدريب غرس الروح الهجومية ، والارادة على التدمير ، والحماس الشديد المرسوم بعناية بحيث ينظر الى قوات العدو وكأنها شيء شرير . وكان الموقف من الحرب ، حتى قبل ادخال الاسلحة النووية في الحساب ، موضوع تهجم من قبل اصحاب النظريات العسكرية وبصورة خاصة « ليدل هارت » .

ومع ان « ليدل هارت » اشار منذ عام ١٩٤٠ الى بعض تطبيقات الاسلحة النووية كأداة للسياسة ، وعلى الرغم من انه توسع في تحذيراته في **الدفاع عن الغرب** عام ١٩٥٠ ، فان اعتراضاته على عقيدة الحرب غير المحدودة ليست

مبنية بكاملها على اعتبارات التدمير الشامل . فقد اعتقد ببساطة كلية بأن الظفر الكامل ليس الا سرابا . وفي كتابه الصغير الممتاز **الثورة في ادارة الحرب** ، المنشور عام ١٩٤٦ ولكن المكتوب قبل اسقاط القنابل الذرية على اليابان ، اشار الى احدى ابرز المقدمات في تآليف كلوزفيتس وهي « ان ادخال مبدأ الاعتدال في فلسفة الحرب يعتبر سخافة . اذ ان الحرب عمل العنف المتابع الى اقصى حد . واكد « ليدل هارت » بأن الجنرالات والسياسيين ظلوا دائما غير مدركين عنصر ما وراء الطبيعة في عقيدة كلوزوتيس — اي الادعاء الاساسي الفلسفي بأنه عندما يجري العقل البشري محاكمة في التجريد لا يمكنه ان يقف فجاة دون بلوغ الحد الاقصى الا انه عندما ينتقل من المجردات الى الحقيقة فان الظروف تتغير من حيث الاساس . وهذه الاعتقادات الخاطئة المتعلقة بحقائق عقيدة كلوزوتيس العميقة ، كما يقول « ليدل هارت » ، جذبت الى ادارة الحرب الدوافع البدائية لجمهور مشبوب العاطفة ضاربا نصية الحكم عرض الحائط . وقد اشار الى ان جمع غاية غير محدودة مع طريقة غير محدودة في الحرب العالمية الثانية — كتبني طلب استسلام دون قيد او شرط مع استراتيجية حصار تام وقذف مدمر — قد ادخل تناقضا منطقيا هو محاولة الحفاظ على التمدن الاوروبي من خلال استخدام أبعد الوسائل عن المدنية في ادارة الحرب منذ كوارث المغول .

والواقع أن « ليدل هارت » قد عرض نظرية عن دولة عسكرية تبدو فاسدة بالنسبة للجنرالات والحكام حتى في حالة راحة ونشاط في نهاية حرب ظاهريا مظفرة . فقد كتب : « ان القضية شبيهة بالنقد المعدني الذي له وجهان — « الوجه الاول » هو تجنب الحرب « والوجه الثاني » هو تحديد الحرب . واذا كانت التجربة قد علمتنا شيئا فيجب ان نكون الآن قادرين على ادراك خطر التركيز على السياسة التكاملية الاخلاقية في منع الحرب مع اهمالنا ضرورة تضيق الحرب في حال فشل تلك السياسة — وهكذا لانهمل التطلعات الى سلام لاحق » . وبعد مضي عشرين سنة تقريبا نال هذا موافقة الفكر الاستراتيجي الجماعية الشاقة الكاملة حيثما سارت قوة العقل في قضايا الحرب . واما في ذلك الحين ، كما كان ينتظر ، فلم يكن هناك متسع له في

تدريب الجيش البريطاني وعقيدته . وفي السنوات الخمس التي تلت نهاية الحرب توصلت طرق اعوام ١٩٣٩ ــ ١٩٤٥ ومفاهيمها الى انشاء تفكير عسكري رسمي واقعي ومتسامح كما هي الحال دائما ، ومتشكك في « نظريات العسكريين البلشفيك » والاستراتيجيين غير العمليين البعيدين عن الحياة اليومية .

وفي السنوات الخمس التالية ، بين عام ١٩٥٠ وعام ١٩٥٥ ، كان الجمود الطبيعي الذي اعقب الحرب قد بلغ نهايته . وقد بدأت تطورات جديدة وهامة بالتأثير على سياسات الغرب العسكرية وبخاصة بريطانيا . وفي عام ١٩٤٩ اصبحت البلدان الغربية متنبهة بصورة جماعية لتهديد اوربا من الشرق فولدت منظمة حلف الاطلسي الشمالي مع منظمة قيادة عسكرية رسمية تحت امرة اول قائد اعلى للحلفاء في اوربا الجنرال ايزنهاور . وبدلا من ان يقوم الحلفاء بالتفكير بامكانية اقامة قوة احتلال تصبح تدريجيا اصغر فقد واجهوا آنئذ « أهداف لشبونة » الهائلة وهي خطة انشاء تسعين فرقة للدفاع عن اوربا ضد هجوم روسي . ان المطلع على هذه المواضيع سيلاحظ بشيء من الغبطة انه ولئن كانت « اهداف لشبونه » قد افرغت في صيغة ، فقد كتب ليدل هارت في « الدفاع عن الغرب » الذي نشر عام ١٩٥٠ : « اذا كان الاتحاد الغربي يمتلك حتى عشرين فرقة جاهزة من نوع جيد ومجهزة تجهيزا حديثا ومتهيئة للعمل في المكان المعين كلواء اطفاء ، فسيتغير الموقف بكامله الى الافضل » . وفي الفترة نفسها دعمت الحرب الكورية الحجج المؤيدة للجيوش الموسعة وذلك بالتأكيد الى الحد الذي تهتم به اميركا . ولكن من أدلى بالحجج الحاسمة من اجل جيش مجند الزاميا في زمن السلم انما كانت الامبراطورية البريطانية الاستعمارية . وفي اوائل الخمسينات تركت حرب الادغال في الملايو الوفا من الجنود البريطانيين مشغولين بصد الحملة الارهابية الشيوعية ومـا ان أوشكت دلائل هزيمة الارهابيين بالظهور حتى شبت ثورة الماوماو في كينيا وبدأت ازمة الايوكا في قبرص . وفي البداية لم يكن لهذه التطورات ، بغض النظر عن وضع مطلب ظاهري بزيادة عدد الجنود في الجيش الجاهز أي تأثير جذري على التدريب والعقيدة . وبقدر ماكان الجيش البريطاني في الـزاين

علاقة ، تحول العسكريون المسلكيون مع كل مظهر من مظاهر الارتياح عن الاعمال الروتينية المثيرة للاعصاب والمثبطة للروح المعنوية في جيش محتمل ، الى عمل واقعي واكثر حيوية في التدريب . ولم يكن هناك مع ذلك أي دليل على تفكير جديد حول التنظيم والعقيدة التكتيكية . وعادت الفرق المدرعة وفرق المشاة الى الظهور بكاملها مع احمالها المعوقة الثقيلة وجداول تنظيمها الاعتيادية المطمئنة . وانتشرت معدات الفسيل المتنقلة ووحدات الاستحمام ووحدات البريد الفرعية وورشات العمل وسرايا الشرطة العسكرية ، وكذلك ظهرت تمارين التدريب على المعركة الخاصة بمجموعة الجيش الواحد والعشرين وصقلت بشغف ووضعت موضع التنفيذ مجددا . وحتى انه لم يكن لاول ظل للاسلحة النووية « التكتيكية » عبر ميدان المعارك في بادىء الامر أي تأثير ملموس . وقد غدا من دستور ايمان موظفي المخابرات في الغرب بأن الاتحاد السوفييتي متفوق تفوقا كبيرا بالقوات البرية في وسط اوربا ، وفي بولونيا ، وفي غرب روسيا ، وكان هناك توقع ضئيل بأن تصبح الدول الاوروبية ، حتى مع المساعدة الاميركية ، مستعدة للقيام بالتضحيات الضرورية لترجيح الميزان فيما يتعلق بوزن القوات الدفاعية بالقدر المعتبر ضروريا . وبدا أن الحل هو الاسلحة النووية في ميدان المعركة .

ومن الجدير بالملاحظة ان العديدين من اصحاب النظريات الاستراتيجيين كانوا متشككين في الاعتقاد بامكان حلول الاسلحة النووية محل الرجال أو في عملها لصالح الدفاع بالضرورة . فقد اعتقد الكثيرون بأنها تمثل قوة عسكرية غير قابلة للاستخدام وان استعمالها في ميدان المعركة سيخلق ظروفا من الفوضى يصبح فيها ضبطها مستحيلا ولا يمكن فيها لاية معركة منظمة ان تدوم اكثر من بضع ساعات . ويبدو ان هذه الشكوك لم تساور ظاهريا حماة العقيدة الرسمية . فقد رفض المخططون البريطانيون لبعض الوقت قبول اية ضرورة لتغييرات جذرية في التكتيك ، أو التدريب ، أو التنظيم . ونظروا الى الاسلحة النووية الميدانية ببساطة كلية بانها شكل اوسع وافضل من اشكال المدفعية . فقد اغفل احد مشاهير الجنرالات البريطانيين وهو يتحدث الى طلابه في كلية اركان الجيش في كمبرلي في ذلك الحين بنفاذ صبر ، سؤالا يتعلق

بالتدريب على الحرب النووية : « القنبلة الذرية يابني ، هي شبيهة تمـاما بأية قنبلـة اخرى . فاذا سقطت على رأسك فهي ترديـك قتيلا واذا لم تسقط فـلا خوف عليـك » . وكان من الصعب معرفة ما اذا كان الضبـاط الشبان الخـارجون من قاعـة المحـاضرات غـارقين في التفكير ام كـان يستـولي عليهم الـذهول .

وحتى في المانيا كانت التطبيقات التكتيكية للاسلحة النووية بين القوات البرية بطيئة النفاذ الى تدريب الضباط والجنود . وكان هناك قـدر من الخضوع الروتيني في الادارة البرية العامة وكانوا يحضون الجنود على الاسراع بقذف انفسهم ووجوهم الى الارض عند رؤيتهم السحابة المنتشرة على شكل قطر ـ وهذا قسم من نصيحة تبدو لدى امعان النظر فيها ذات قيمة مشكوك فيها ، اذ لو انهم كانوا في ذلك الوقت في حالة يتمكنون فيهامن مشاهدة السحابة على ايـة حال فهم يودون ان يكونوا متمددين على ظهورهم . وكان اول رد فعل للتهديد النووي هو النزول تحت الارض الى اعمق ما يمكن وهذه غـريزة رائعة لحفظ الذات الا انها ليست غالبا ذات صلة بالحاجة لادارة دفاع ذات فاعلية . وقد جرى في عرض لاينسى لمركز دفاع نووي خاضع للتهديد النووي امام الطلبة المتجمهرين في كلية الدفاع الامبراطوري ان طمرت سريـة نفسها في سهل ويستفاليا بمهارة فائقة . ولكنها استخدمت في العملية المعـدات الهندسية لفرقة كاملة واستغرقت ثلاثة ايام في مهمتها . واذا ما ادخلنـا في الحساب كمال عرض جيش الرين العسكري فقد كان واضحا ان هـذا النوع من الحفر لامحل له في معركة دفاعية مائعة .

وكذلك فان طلبات حرب العصابات الجديدة بدت بالمثل عسيرة الهضم . ففي البداية كانت الحاجة ببساطة تدعو الى زيادة في القوات كما في عمليـة فلسطين ، لتقوم بدعم الشرطة ، او كما في العمليات المتفرقة ضد الاشقياء في ارتيريا ، لتتدخل في حملات تأديبية وعمليات « زحف اعلام » تقاد بالمراسـم المنظمة وفق اسلوب الحدود الشمالية الغربية . ولكن في الملايو واجهت القوات البريطانية لاول مرة عدوا متدربا على تكتيك عصابات ماوتسي تونغ التقليدية . انها مجموعات صغيرة من رجال العصابات الاشداء ، تتحرك في الادغـال كتحرك

السمك في المــاء ، وتشكل قضية مختلفة جدا عن قضية اولئك الاشخــاص الايمائيين شبه المضحكين المنتمين الى الغوغاء المألوفة عبر اجيال من مسرحيات كليــة الاركان القصيرة الذين كاوا يتدربون على واجباتهم في مساعدة السلطة المدنية . وكان حملة الابواق وحملة الاعلام المسجل عليها « تفرقوا او نطلق النار » باللغتين الانكليزية والاوردية يستخدمون بصورة هامشية في تلــك الحروب الصغيرة الشريرة . وقد تعلم الرجال الموجودين في المنطقة المهنــة بسرعة ، ففي الملايو مثلا ، اصبح مركز الشرق الاقصى لتدريب القوات الارضية احدى احسن المدارس التكتيكية لجيش مابعد الحرب . وقد طور هذا المركز فلسفــة متماسكة عن الحرب ضد العصابات وابتكر تمارين فعالة لمعركة الادغال ودرب كل ضابط او جندي وصل الى الملايو قبل بدئه بعملياته في الادغــال . وفي كينيا نفذ ضباط وجنود بريطانيون متنكرون في زي افريقيين وكانوا قــد عملوا مدة طويلة في الادغال وواجهوا عدوا غير مألوف بتكتيك غير مألوف ، اعمالا باهرة . اما في الوطن خلفهم فقد كانت الوحدات المختصة للشرق الاقصى والشرق الاوسط لاتزال تدرب على عمليات « تطويق وبحث » ومنــاورات ضــد الاخلال بالامن تجري في ساحــة الثكنات متبقيــة من عهد السياسة الامبرياليــة .

الا انــه في عام ١٩٥٥ تحولت طبيعة العمليات العسكرية بادخال السلاح النووي الى ميدان المعركة وبتطوير حرب العصابات كعنصر في تكتيك التهديم . ولم يحدث اي تغيير حقيقي في تدريب الجيش البريطاني . وبعد عشر سنوات من نهايــة الحرب بسط تقرير كتبــه رجل عسكري شهير في صحيفة مؤسسة الادارة الملكيــة المتحدة ، نظريات الدفاع المحلي في معركة الادغال كما نفــذت ضــد اليابــان في « أراكان » موحيــا بأن هناك ولا شــك مؤشرات للمستقبل في تلك الحملات » .

اما آراء النظريين العسكريين فلم يعد لها تأثير سوى في تطوير الاسلحة والتقنية . وكان ليدل هارت قد ذكر في كتابه : **« دفاع عن الغرب »** (١٩٥٠) عن الدفاع عن اوربا الغربية : « لدى تفكيري في الموضوع بدا لي ان الاحتياج الاول في الظروف الحالية هو الى تطوير قوة برية متحركة تحركا عاليا ضمن

الحد الادنى الضروري لصد راس الحربة الروسية الذي يمكن ان يتسرب مع هجوم جوي ... » وكتب عندما كانت مشاة جيش الرين تفكر في مشروع تجميد انعزالي على امتداد خطوط النهر الالمانيه ... ان عناصر القتال من المشاة يجب ان تحمل في عربات لكي تتمتع بامكانية حركة ومناورة مساوية للوحدات القتالية المدرعة .طالما ظل الامر يتعلق بحروب غير نظامية في المستعمرات فان النظريين لايتوصلون لتقدير الاثر الذي تخلفه عقائد ماونسي تونغ على الحرب الثورية . وظلت حرب العصابات تعني حركات المقاومة في بولونيا وفرنسا ويوغوسلافيا او بطولات لورانس الطنانة وغير المألوفة واولئك الذين ورثوا عنه ساعته وخنجره في الصحراء الغربية وفي ادغال بورما .

وظل التدريب والعقيدة في الجيش البريطاني عام ١٩٥٥ بجوهرهما تدريب وطن تحت السلاح وعقيدته مسخرين لمبدأ حرب غير محدودة تخوضها قوات كثيفة تنبذ على مضض تنظيم العلمين وشواطىء النورماندي وتكتيكاتهما. ففي عام ١٩٥٦ انعكست هذه المفاهيم البالية في عملية بدات في جو فشل وذل وكان ذلك عهدا جديدا في سياسة بريطانيا العسكرية . وقد برهنت حملة السويس ، بغض النظر عن ملابساتها الصاخبة في سياسة بريطانيا الخارجية، بكل بساطة على انه سواء أكان المرء مدافعا عن القرار السياسي بمهاجمة مصر أم منددا به فان الآلة العسكرية كانت عاجزة عن انتاج القوة الصحيحة في المكان الصحيح وفي الوقت الصحيح . وكما علق الكابتن « سيريل فولز » باعتدال مقنع في كتاب **« فن الحرب »** عـام ١٩٦١ : « لقد كشف عن نقص في التجهيز الذي كان من الواجب ان يكون بعا يا في قضية لها تلك الصفة ولكن المقاومة لها منظمة تنظيما افضل واكثر جراة » . وصحيح ان المفهوم السياسي كان ممتازا كما وصفه « غاي ونت.» و « بيتر كالفو كوريسي » في كتابها : **أزمة الشرق الاوسط** (١٩٥٧) : و « الحق يقال ان الحملة كانت شبه ناجحة نجاح حملة « وولشيرين » الكلاسيكية في عام ١٨٠٩ والتي يستشهد بها عادة كمثل اعلى على فقدان التصميم وبعد النظر والاختصاص لدى الحكومة » . والواقع يبقى مع ذلك ان المؤسسة العسكرية قد تبين عدم

كفاءتها لمواجهة متطلبات السياسة الخارجيـــة مهما كانت غرابة تلك المتطلبات. وقــد حدثت مفاجأة الكشف في وقت كانت فيه عوامل اخرى قد بـاشرت بزرع الشكوك بشأن سياسة الاحتفاظ بجيش جاهز على مستوى كبير وكـان اكثرها حسما العامل المالي . اذ ان المخزون الهائل من الذخيرة والتجهيزات المجمعة اثناء الحرب كانت اما مستعملة او انها اصبحت قديمة ، وان تبديلها وفي الوقت نفسه الاستمرار في الانفاق على جيش الزامي من اجل اللباس والاطعام والاسكان لامر يفوق موارد ميزانية الدفاع .

ومع ان الفيلد مارشال اللورد مونتغومري صرح في شباط ١٩٥٥ بايجاز اولمبي مهيب : « الادارة الوطنية هي الشكل الجوهري للدفاع الحديث » ، فقد اصبح الآن واصفوا السياسة الرسمية مقتنعين بأن الامر ليس كـذلك . وتبنوا متأخرين مفهوما كان حينئذ في طريق فقدان صحته ــ هو عقيدة الانتقام النووي الكثيف ــ وقرروا الاعتماد على قوات صغيرة نظامية تعمل بفكـرة خاطئة مزدوجة هي ان الاسلحة النووية يمكنها ان تاخذ مكان الرجال في ترتيبات القطر العسكرية وتوفر على الحكومة كمية من الاموال في عملها . وفي عام ١٩٥٧ نشر بيــان شهير عن الدفاع وهو لايزال يحمل اسم وزير الدفاع الذي قدمه الى البرلمان . ففدت « بيــان صانديز الابيض » مـدلولا خاصا كحقيبـة غلادستون ، مع انها قد دلت على كونها ظلا اقل ديمومة . وقد تضمنت مفهوم قوة صغيرة في اوروبا مخصصة للعمل « كضربة سلك » معوقة اذا ما تعثر بها المهاجم فسيسقط كامل القدرة الاستراتيجية النووية الضاربة وكذلـك الاحتياط المركزي الاستراتيجي الجاهز لكي تعالج امور ماوراء البحار متيحة تخفيض الحاميات في الخارج . وبما ان اية حرب كبرى يعتبر اليوم انه من المؤكد تطورها بسرعـة الى تبادل نووي عالمي فان الاحتياطي الكبير ــ وهــذا احــد الاسباب الثانوية للخدمة الوطنية ــ اصبح زيادة عن اللزوم . وكــان على بريطانيا ان تطور قاذفات عابرة للقارات لتعاون او اذا اقتضت الحـال لتحل محل قوات القاذفات من طراز ف . وكان الجيش الذي واجه سياسة دفاعية وصفها المستر صانديز بأنها « اكبر تغيير على الاطلاق حدث في الاوقات العادية ووصفتها صحيفة **التايمز** بانها في ذات الوقت جريئـة وذات تفكـير

ناقب ، قد شعر ببداية نظـام جديد ورتب بموجب ذلك تدريبه وعقائـده التكتيكية . واختار العمل على هذا المنوال في ظل حرب عالمية باردة ومحدودة ، ومع ان الخطوط التي تقسم هذه الفئات هي دائما غير واضحة في أية حـالة من احوال الحرب الباردة المحدودة ، فان هذا سيبقى الهيكل الذي سيتطور بموجبه تدريب الجيش والعقيدة .

أما الكتابات في شؤون التكتيك والنظريات في ذلك العهد فقـد كانت وفيرة . ففي الولايات المتحدة بصورة خاصة طور الاستراتيجيون والمحللون ادق المفاهيم واكثرهـا مبالغة في التحريف عن دور الاسـلحـة النوويـة . وقبـل بحث تطـور طرق الجيش منـذ ١٩٥٥ ، مـن الضـروري اجـراء انتقاء لبعض اهم الخيوط من تلك الانسجـة المزدحمة والمجردة احيانا المتعلقة بالنظرية العسكرية .

وكان العامل الحاسم في التغيير بميزان القوة النووية ، ومعـه التطور السريع لافكار جديـدة حول متى يجب استخدام الاسلحة النووية ــ ومـا هو أهم من ذلك ، متى سيكون استعمالها انتحاريا . وطالما ظلت الولايات المتحدة محتفظة بالاحتكار الذري ونتيجة لذلك بالاسلحة الحرارية الذرية فان عقيدة الانتقام الكثيف تظل صحيحة ويمكن ان يهدد الاتحاد السوفييتي بالاجهاز عليه كرد فعل **لأي** توسع عسكري في أي مكان من العالم ولو كان محدود الهـدف والوسيلة . وكان التهديد بالتعبير الاستراتيجي معقولا . وعلى الروس أن يصدقوه لانه لم يكن لديهم وسائل دفاعية ضد القوة الضاربة النووية للولايات المتحدة ولم يكونوا يملكون ايـة قوة للنار يمكن ان تروع الولايـات المتحـدة من خلال خوف رد الفعل الانتقامي . وهذه هي العقيدة التي اتخذت اساسا للفرضية الاستراتيجية من اجل وضع بيان صاندين الابيض ، الذي جرد الامة المسلحـة ، واستبدل بها مفهوم الحرب النووية غير المحدودة الذي جعـل **النفير العـام** يبدو وكأنه ضجيج الشارع الخلفي .

وحتى لو كانت العقيدة الجديدة لعصر الذرة قد ابرمتها الدائرة الرسمية فقد كانت في طريق فقدانها فاعليتها . والحقيقة انها لم تعـد « معقولـة »

وذلك اولا لان الاتحاد السوفييتي قد قابلها باحداث تهديد لاوربا الغربية بواسطة صواريخ من النوع المتوسط موضوعة قريبة من الحدود . وكان رد فعل الغرب ضد هذا التهديد باكرا في عام ١٩٥٠ بالحزم الاميركي وذلك بادخال الاسلحة النووية الى ميدان المعركة في اوربا الوسطى . ولكن الميزان كان آنئذ بكامله قيد التغيير . فبقدر ما اسرع الاتحاد السوفييتي الى اتمام الوسائل ليس لضرب اوربا فقط بل الولايات المتحدة ايضا بالاسلحة النووية فقد باشرت عقيدة الثأر الكثيف بفقدان قوتها . وقضي عليها نهائيا عندما اكمل الروس « امكانية الضربة الثانية » وهي القدرة على امتصاص الهجوم النووي الاميركي ، ومع ذلك انزال الخسائر الفادحة بالولايات المتحدة . ولم يعد مبدأ « ضربة الشريط » معقولا بعد ذلك . وبدا ضروريا آنئذ تامين مجموعة مؤتلفة من الردع والدفاع على كل المستويات لعمل عسكري ممكن . وسواء أكان هناك ثورة ام حرب عصابات فيقتضي مواجهتها على البر بعقائد تكتيكية متطورة بدقة ، وبجيوش مدربة تدريبا خاصا لهذه الغاية . ويجب ان يكون في اوربا فرق كافية لترد بطريقة محدودة على الاعتداء مدة كافية لسبر غوره أي للتمييز بين حادث حدود وهجوم على مستوى كامل . ويجب ان تكون قادرة على القتال مع اسلحتها النووية الميدانية او بدونها وتكون قاذفاتها النووية التكتيكية متوقفة على تطور المعركة . حتى ولو ان جميع وسائل الردع والدفاع غير النووية قد فشلت فسيظل من الضروري مراقبة استخدام الاسلحة النووية اما بمحاولة تحديد استخدامها في ميدان المعركة واما برقابة شديدة لطرائق التسليم والاهداف في مبادلة استراتيجية محدودة مرسومة لاتاحة استمرار النشاط الدبلوماسي . وقد توصلت الموافقة الاجماعية على اهم نظرية عسكرية مسؤولة مع تشديدها على تحديد الضرر وعلى العمل المتدرج في وقت مبكر من الستينات الى نتيجة يجب ان نلخصها بصورة معقولة في عبارة وردت ل ليدل هارت قبل خمس عشرة سنة ... « ان احسن الحظوظ يمكن ان يكمن في محاولة احياء مجموعة نظامية لقوانين حرب محدودة — مبنية على راي واقعي بأن الحروب قد تحدث مرة ثانية وبان تحديد الدمار من مصلحة كل انسان » .

وكان الانطباع النظري لهذه العقيدة ذات الاستجابة العسكرية المرنة والدقيقة عميقا على تنظيم القوات المسلحة وتدريبها . فقد تلطت فرقا برية مدربة تدريبا عاليا باعداد كبيرة وبمستوى تجهيز خفيف وواسع قابل للنقل بالطائرات وتكون على درجة عالية من خفة الحركة الاستراتيجية والتكتيكية . اما انظمة الاطلاق النووية فيجب ان تنوع وان تكون قابلة لادق رقابة وغير متأثرة نظريا بالهجوم المفاجيء . وقد جرى بحث علاقة القوات النووية البريطانية الضاربة بهذه المفاهيم من قبل « الاستيربوشان » في مكان آخر من هذا الكتاب. فلقد اتجه التدريب في الجيش البريطاني كما اتجهت العقيدة في الفئات الرسمية لحرب عامة محدودة وعالمية نحو اتباع المحاور الرئيسية لتقدم نظري ولكن بتمعن وبخطوات وئيدة . اذ ان التمعن الاقل كان يؤدي أحيانا الى انحرافات مبددة ومحبطة وخطرة في اغلب الاحيان .

وقد كانت الافكار الاولى بشأن طبيعة الحرب العامة بالاسلحة النووية قد بنيت على الاعتقاد بأن تصنيعها سيكون صعبا ومكلفا الى درجة الصدوف عنه . وكما نظر قادة الجيوش البرية الى اسلحة الميدان النووية بأنها شكل اقوى من المدفعية ، كذلك نظر مخططو الاستراتيجية الى انظمة اطلاق ما هو أبعد مدى منها بأنه ليس اكثر من توسع في قاذفات الحرب العالمية الثانية . وهذا سبب ظهور مفهوم « حرب الظهر المقصوم » الذي تصبح بموجبه الجيوش الاعتيادية والبحرية مشتبكة للاستيلاء على قلب ارض العدو لتدمير قدرته على القتال . وقد استخدمت هذه العقيدة لتبرير الاحتفاظ بالتكتيك التقليدي والطرق التدريبية وكذلك للابقاء على احتياطي كبير يمكن تعبئته اثناء مرحلة « الظهر المقصوم » . وقد توسع هذا المفهوم فشمل ميدان المعركة حيث يجب على حد قولهم ان توزع الاسلحة النووية الى قادة الفيالق والجيوش بعناية مثلما توزع قطع الشوكولاتة في بيوت الحضانة . وليس ذلك لكون العدد الكبير المعطى دفعة واحدة بضربهم بل لانها تكلف كثيرا ويصعب الحصول عليها . وكانت النتيجة ان اصبحت اهداف الميدان طقوسية مضجرة ومعيارها ان اسلحة الميدان النووية تستعمل فقط لاهداف هامة معادلة لاهداف كتيبة مشاة او متكافئة معها .

وقد غدا بدهيا بسرعة انه لن يحدث نقص بالاسلحة النووية سواء اكانت استراتيجية ام تكتيكية كما تحقق اصحاب النظريات العسكرية بزمن طويل قبل المخططين الرسميين . وانه بعد تبادل عدد كبير من الاسلحة من وزن الميغا طن اصبحت امكانية السيطرة على حرب « الظهر المقصوم » بعيدة . وكذلك اصبحت فرص ادارة معركة برية منظمة يتراشق الجانبان فيها بأسلحة نووية ككرات لعبة التنس . وكان « ليدل هارت » في كتابه **«الردع ام الدفاع»** (١٩٦٠؟ قد عاد الى **لازمته المتكررة** في تحديد الهدف وطرق ادارة الحرب ، مقترحا اعادة تنظيم الجيش البري في قوات مدرعة ضاربة وفرق مشاة خفيفة فقد كتب : « ان مثل هذا التنظيم سيزود بلدان حلف الاطلسي بفرصة دفاع فعال خال من التعرض للخطر البالغ باللجوء الى الاسلحة النووية — وبذلك بتقوي الردع . لان الحاجة الاولى اليوم هي تقوية القنبلة الهيدروجينية الرادعة ، التي تحولت الى تهديد ذي حدين ، بتطوير حاجزة النار ومطفئتها غير النوويتين — على الارض ، على ان تكون جاهزة للاستعمال دون تردد او « تأجيل » . وبينما كان ليدل هارت يركز جوهر الرد المرن ، كان اولئك المسؤولون عن تدريب الجيش البريطاني يطورون وضع خطط لمعركة نووية في اوروبا !. وكان القادة المتعاقبون للقوات البريطانية في المانيا مقتنعين بانه ليس فقط اية حرب في اوربا الوسطى ستكون نووية من يوم اندلاعها بل ان مثل هذه الحرب يمكن ادرتها وفاقا لقواعد المناورات التكتيكية العادية . وقد غدا الانتشار وقابلية الحركة الهين توامين واعتقد كثيرون من القواد اعتقادا راسخا بان الاسلحة التكتيكية النووية قد عملت لصالح الدفاع . وحتى بعد تمارين ادارة القيادة ، برهنت طرق الحرب والمناورات الاخرى بصورة حاسمة ان ميدان الحرب النووي يصبح بعد ثمان واربعين ساعة ارضا مفقودة مع رئاسة اركان ومواصلات وخطوط تموين محطمة وظلت اسطورة « فيلق في المعركة النووية » قائمة والكتيب الارجواني اللون الذي احتوى قدسيتها ظل كتاب جيش الراين المقدس . وفي السنوات القليلة الاخيرة فقط نظر الى امكانيات الدفاع التقليدي في اوربا نظرة كلها جدية .

وكانت احدى النتائج ذات القيمة التي اشغل بها الجيش بمعركة البر

انووية الموت النهائي لخدعة ان الاسلحة النووية يمكنها ان تحل محل الرجال في المعركة الدفاعية . وقد اكتشفوا كما اكتشف الاميركيون قبلهم بان ميوعة المعركة ونسبة الضحايا العالية لا تعنيان تطلب جنود اقل بل اكثر من ذلك كثيرا وهذا الدرس المتعلق بالمتطلبات البشرية يجب ان يذكر بناء على التجربة في فئات العمليات التي دعاها المخططون الحرب الباردة . وكان الاساس الضمني للبيان الابيض لعام ١٩٥٧ ان الاعمال البريطانية فيما وراء البحار ستتضاءل تدريجيا تاركة الجيش الجديد المحترف يتجمع في احتياطي استراتيجي في بريطانيا : اي قوة صغيرة متحركة ضاربة بشدة وهذا هو الوصف الذي اعتادت رطانة الجندي شبه الهجائية ان يطلقه عليها . وهذا الاعتقاد المبني على تفسير خاطىء لاثار استراتيجية التقدم البنيوي في المستعمرات ظل مادة من الايمان الرسمي لما يقرب من خمس سنوات . وان ما حصل في تلك الاثناء هو انه كلما نالت امة ما مرموقة من بلدان الكومنولث الجديدة الاستقلال تتطلب مساعدتها فرقا اكثر مما كان البريطانيون بحاجة اليه لحفظ النظام . وهكذا فان متطلبات ما وراء البحار زادت نموا بدلا من ان تتضاءل .

وبقدر ما كان للتكتيك والتدريب علاقة ، كان الجيش آنئذ يتمثل الدروس القيمة من تجربته الواسعة في حرب مقاومة العصابات . وقد بدأت مجموعة ضباط من مجموعة لواء الكمونولث في الملايو ، العاملة بتعاون وثيق مع القوات الاميركية في جنوبي شرقي اسيا ، بتحليل ليس فقط لدروس الملايو وكينيا وقبرص بل لدروس الفرنسيين في الهند الصينية كذلك . وقد درست بدقة عقائد ماوتسي تونغ وشي جيفارا . وكانت نتيجة هذا البحث في اعادة التقييم، عقيدة تدريب جديدة تخلت عن العقائد القديمة للسياسة الامبراطورية والآراء الخاصة للمحامين عن القوات الخاصة المكرسين انفسهم لذلك . وكانت دروس الماضي ، ان النجاح ضد قوات العصابات يتوقف بالدرجة الاولى على الالمعية - السياسية والعسكرية وعلى الآلة الفعالة للتنسيق بين الموارد السياسية والعسكرية وعلى تدريب القوات المحلية . وكان واضحا بأنه لاتستطيع دولة جديدة ان تحقق هدفها في الاستقلال اذا كان وجودها يتوقف على توفر اعداد كبيرة من الفرق الاجنبية .

وقد حصل الجيش من دوره في « الحرب الباردة » على خبرة يحسد عليها وذلك بسبب استخدامه الخيالي لعبر الماضي من جهة وبسبب ان عمليات من ذلك النوع كانت بالواقع من اهتماماته المفضلة من جهة أخرى . وقد احدثت المحطات الاجنبية الجذابة ، والسفر والاثارات مع مزيج من خطر واع ، اغراء قويا للفكر العسكري . وكذلك كما اشار احد الضباط النشطين في قبرص شبيها بلعبة تراشق قديمة كبير مع الاهتمام الاضافي بان اللغة يمكن أن ترد الضربة احتمالا وقال احد اشهر المتميزين من الضباط القادة في الملايو بان عملياته في الادغال جعلته يشعر شعور رئيس صيادي الثعالب مع مساعده حامل السوط ، وقادة السرايا كصيادين والجنود كمجموعة اولى من كلاب الصيد . ومن الممكن ان الجنود وهم غير شاعرين بما يتضمنه هذا التشبيه الرهيب من اعمق المعاني ، قد تذوقوا الحرب الباردة في الشرق الاوسط والشرق الاقصى اكثر من دورات التمارين الدائمة في وستفاليا وفي سهل سالزبوري . « التحق بالجيش وشاهد العالم » قد عادت الى الظهور في اعلانات التعبئة .

واذا كان الجيش قد طور عقيدة تدريب غريبة لحربه العامة وعقيدة ممتازة لحربه الباردة ، فهو يبدو قد خرج عن الافكار المتعلقة بالحرب المحدودة. او انه كان ثمة احتمال لوجود عدد كبير من الافكار الى درجة انه لم يكن هناك من يقرر اختيار احداها . فقد كان من الصعب على كل حال تحديد ما هي الحرب المحدودة . وكانوا يؤكدون في اغلب الاحيان بصورة عابرة انه ليس هناك حرب محدودة في اوربا لان امكانياتها مقتصرة على افريقيا والشرق الاوسط والشرق الاقصى . فان عبد الناصر في افريقيا ، وروسيا او اتباعها في الخليج العربي ، وشراذم الصينيين في جنوبي شرقي آسيا او هونغ كونغ كانت كلها معتبرة اخطار محتملة . وقد تنقلت المقترحات لمعالجة ذلك ذلك خطأ بين امكانيات حرب على نمط الحرب الكورية مع قوات تقليدية كبيرة وبين استخدام اسلحة نووية ذات قدرة منخفضة على خطوط المواصلات أو على الاهداف المنوعة . ففرسان الجو وقوات المهمات البحرية ونزول القوات المختلطة الى البر كانت كلها مندفعة من اجل تنفيذ مهماتها الا انه لم يكن ممكنا تطوير اية عقيدة متماسكة اذ ما من احد يستطيع ان يتصور ماذا يمكن أن تشبه الحرب

المحدودة . وقد رفع الخبراء ايديهم يائسين باحثين عن ملجأ في صفحات كراساتهم عن المشاة والفرق المدرعة قائلين انها يجب ان تشكل دليلا كما يحاول الضائع في لندن ان يتلمس طريقه الى ساحة الطرف الاغر بخريطة لـ نوتنغهام . ويجب الا يغرب عن بالنا ان الكراسات قد كتبت في بداية الخمسينات وتضمنت عقيدة النورماندي والصحراء الغربية . وفي تلك المناسبة ، قضت الحقائق المالية العسيرة وقضايا القوة البشرية على الشكوك والترددات ، وسرعان ما اصبح واضحا انه مع الاحتياطي الاستراتيجي الجاهز وتحديدات التحرك المفروضة بسبب ضيق مجال النقل الجوي ونقل القوات البحرية فان احسن ما يمكن ان يؤخذ ويشرك بالمعركة بسرعة وبصورة فعالة انما هي مجموعة جنود لواء وقد جعل هذا التحديد للقوة بالاضافة الى الكبح السياسي الذي نشأ عن دور بريطانيا الجديد الثانوي كقوة عسكرية عالمية ، مستحيلا التفكير بحرب محدودة بقوات بريطانية منفردة بمعنى مقاومة النزول الى اليابسة والهجمات المحمولة بالطائرات ضد اراض عدوة ، وقد اتضح الآن اكثر من اي وقت مضى ان السويس كانت آخر تجربة ، ان لم نقل التجربة المحزنة ، التي قامت بها دبلوماسية السفن الحربية البريطانية . ومنذئذ اصبحت الحرب المحدودة بالنسبة للجيش البريطاني تعني عمليات من النوع الذي نفذ في الكويت عام ١٩٦١ اي انتشار القوات الصغيرة بطلب من حكومة صديقة على ارض مؤمن فيها قاعدة للعمليات ، واذا ما عنت دروس الكويت شيئا ما فهو ان العملية يجب ان تدار بأساليب الردع الموضوعة للحؤول دون الاعتداء او التدمير لا هزيمتهما . ولو ان قوات قاسم قد هاجمت الكويت قبل وصول الجنود البريطانيين فمن المحتمل الا تكون العملية قد حصلت مطلقا . ولو انها هاجمت **بعد ذلك** فربما كان ذلك قد ادى الى سبر عنيد وربما حاسم لقوة البحرية البريطانية لما وراء البحار . ولقد عانى الجنود غير المتأقلمين كثيرا من الحر القاسي ، وكان هناك شك بالدفاع ضد الدبابات . وخطر من ندرة المدفعية . وكانت فعالية بعض التجهيزات متأثرة بصورة جدية بالمناخ — فقد غلت مبردات المركبات الى حد الجفاف واصبح رجال طواقم الدبابات منهوكين حتى في الحالة التي لم يكونوا فيها داخل الدبابات المغلقة عليهم للعمل . ويجب أن تؤخذ عبر

كثيرة من تجربة الكويت . ففي البداية كان لدى الاوساط الرسمية نفور مضعف للعزيمة من الاعتراف بضعف العملية الواضح . وقد عرضت كمثل على السرعة الفائقة والفاعلية في التخطيط البريطاني والانتشار . وان الحجة بأنها قد احبطت هجوما كانت مقبولة ـ والحقيقة انه كان هناك زهو ـ لتعمية الامكانية الاكثر اهمية وهي انه لو حصل هجوم لكان انتهى حتما باذلال بريطانيا . وقد اتهم احد الضباط الاطباء ، الذي شاهد خطر اقحام رجال غير متأقلمين وتجهيزا غير مهيأ في تقلبات مناخية مفرطة بالقساوة ، اتهاما صارخا من قبل الضباط الاعلى بانه شخص فشل في تدبر الامر . وكانت هناك دلائل على ان السلطات العسكرية كانت تود بحرارة ، على المبدأ الشرقي ، قطع رؤوس جميع النقاد لعملية الكويت لكونهم ناقلين لانباء سيئة . ومع ذلك ، فقد بدأت مشاورات هادئة تسود تحضير الجنود وتدريبهم على عمليات الحرب المحدودة ، وكذلك عندما طلبت حكومة اتحاد الجنوب العربي مساعدة في منطقة الحدود اليمنية في عمليات عام ١٩٦٤ ، التي صعدت من عدن ، كانت في ادوارها الاولى على اية حال ، سريعة وفعالة .

ان بشائر المستقبل مشجعة بصورة معقولة فهناك دلائل على معالجة واقعية للقضايا التكتيكية المتعلقة بمعركة برية اوربية . ويبدو ان عبر الملايو وكينيا قد تسربت الى الكتب الجديدة الباحثة في التدريب . وقد بدأ تقييم مثير لاهمية التحرك التكتيكي والاستراتيجي في حروب « المناوشة النارية » بالقيام برسم شكل التدريب والعقيدة للاحتياطي الاستراتيجي . وبقي هناك عائقان مرتبطان فيما بينهما ارتباطا وثيقا يقفان في طريق اولئك الذين لا يزالون يهدفون في الجيش لايجاد تنوير اوسع هما مسألة القوة البشرية وتنظيم سلاح القتال الاساسي وهو المشاة .

وعندما اقترح البيان الابيض لـ « سانديز » جيشا نظاميا مؤلفا من ١٦٥٠٠٠ ضابط وجندي ، كان قد توصل الى هذا الرقم عن طريق تقدير دقيق للاعداد التي يمكن توفرها والمحافظة عليها عن طريق التطوع . ولما كان هذا مستندا كما هو شأنه الى عقيدة ردع نووي كثيف ، فانه لم يكن له علاقة بالاهداف التي كان الجيش ولا يزال يطلب اليه بلوغها . وفي عام ١٩٥٦ قامت

لجنة تحت اشراف نائب رئيس هيئة الاركان العامة الامبراطورية (الجنرال « هل » ، وهو اليوم فيلدمارشال ورئيس اركان وزارة الدفاع) بفحص مبني على متطلبات العمليات واوصت برقم ٢٠٠٠٠٠ باعتباره الحد الادنى . وقد قبل الرقم ١٨٢٠٠٠ كحل وسط محتمل بوصفه رقم تخطيط من قبل الجيش الا انه كان واضحا دائما في اذهان مخططي الجيش بان تطبيقات كثيرة يجب ان تخفض . وازدادت بهذه المناسبة اهداف الجيش . ان الحساب البسيط لا يمكن الهروب منه ــ فان الجيش ليس كبيرا بقدر كاف ليعمل ما يطلب اليه عمله . واحد الحلول الممكنة للقضية هو ادخال نسبة من التجنيد الجزئي : أما خدمة الزامية او تجنيد بالقرعة . ولسوء الحظ كان ظل الخدمة الشاملة مخيما على المواقف السياسية والعسكرية . فالسياسيون يعتقدون ان الخدمة الاجبارية هي سم في مراكز الاقتراع ، وان المؤسسة العسكرية برفض عجز التجنيد الشامل المخيف مع آلته التدريبية الثقيلة جدا ومضيعته للوقت وللقوة البشرية المضعفة للروح المعنوية . وعديمة التفريق . والى جانب ذلك ، فان الجنود يتمتعون بجو المجال المغلق لكافة القوة النظامية مع مجموعات نواديها ذات النفوذ والوحدات الاخرى الاجتماعية والعائلية المحصورة . واخيرا هناك عقيدة غريبة هي انعكاس لايمان الشعب البريطاني الذي لا يمكن السيطرة عليه ، بمزاياهم الاخلاقية الفذة وهي ان الخدمة العسكرية الاجبارية التي يمكن ان تكون مقبولة في قارة اوربا او في اجزاء اجنبية بعيدة كالولايات المتحدة هي نوعا ما غريبة عن طراز معيشة البريطانيين .

وعلى الرغم من ان بعض الصعوبات التي عاناها الجيش بوصوله الى عقائد تكتيكية قابلة التطبيق والى طرق تدريبية كذلك تسند بصورة اكيدة لنقص القوة البشرية فان البعض الآخر ناشيء عن وضعه اليد على الموارد الحالية المتاحة . والخطا الرئيسي هو ان التنظيم الحالي يملك ميزان اسلحة متفاوتة . وهذا ناشيء الى حد ما عن تركيز قديم الطراز على ترتيب الافضليات المقارنة بين « الاسنان والذيل » ــ نسبة الجنود المحاربين الى المصالح الادارية ــ والى حد ما عن بعض المميزات التنظيمية الصلبة في الاسلحة القاتلة . ان نسبة الاسنان الى الذيل هي الرمز المقدس والشعار المتبقي من ازمنة الاسلحة

البسيطة .. ولا نقصد القول بان صلاحه قد زال زوالا كاملا . ولا يزال من الاهمية ان نؤكد بان البشر ليسوا ضائعين في ادارة غير ضرورية في حين يمكن أن يستخدموا بنجاعة ، الا انه في اي جيش صغير نسبيا يملك مثل تلك الاسلحة والتجهيزات كالصواريخ الموجهة ارض — جو ، والاسلحة المضادة للدبابات المحمولة جوا ، وناقلات الجند المدرعة ، يصبح المفهوم القديم « للكتيبة الكبيرة باليا ». ان المطلوب هو قوة صغيرة خفيفة الحركة بكفاءة عالية مجهزة بنظام أسلحة وتجهيزات معقدة . وسواء اكانت هذه القوة ستنتشر في حرب عالمية ام في حرب محدودة ، ام انها ستستخدم لمتطلبات الامن الداخلي في الحرب الباردة، فانها تتطلب حسب تعريفها شبكة اتصالات منظمة تنظيما جيدا ، ودرجة من مجهود الاستخبارات والدعم الفني اكبر كثيرا مما كان يتوخاه الجيش في الماضي . ان الخيالة والمدفعية والمشاة لا نفع لها اذا كان على عيني لقائد العام غشاوة من نقص المعلومات . واذا كان قاصرا عن التحكم بوضع متحول بسرعة عن طريق اتصالات جيدة وفعالة واذا كانت الاسلحة الصعبة والمركبات والتجهيزات الالكترونية لم يحافظ عليها فرق من الفنيين المدربين تدريبا عاليا. ويتبع ذلك ان عدد الدبابات والرشاشات والحراب التي يمكن أن تنشر في جيش حديث محدود ليس من حيث عدد الرجال الذين يمكن تجنيدهم في « الاسلحة القاتلة » بل من حيث عدد الفنيين الالكترونيين المدربين وعاملي الاشارة ومصلحي المركبات الذين يمكن تأمينهم لابقائهم في الميدان . ان هذه النسبة متحولة ويجب ان يتبدل معها تنظيم الجيش .

. . ان مثل هذا التحول في الميزان ، يجب في حال ضرورته ، ان يكون بالمقارنة موضوع تخطيط للقوة البشرية . الا ان الطريق مغلقة بعائق هائل : وجود عدد من وحدات الاسلحة القاتلة والتي لايمكن تغيير مجموعها الا باللغمة المندمجة او بالتشتيت . والقضية بالنسبة للمدفعية الملكية والهندسة الملكية هي غالبا بتمامها احدى قضايا قيادات الضباط المقدمين وخطر الاضرار ببنيسة مهنة الضابط . واما في الفيالق الملكية المدرعة فالامر اكثر صعوبة ، وبالنسبة للمشاة وهي تلك « المؤسسة » الاكثر محافظة على التقاليد والمحاطة بالغيرة فهي تبدو دائما انه لا يمكن قهرها .

وتتالف المشاة في الوقت الحاضر من سنين كتيبة ، وخطط على ان يكون هذا العدد موجودا لدى الجيش النظامي بكامله . ومن بينها ثلاث كتائب مظليين ، وثمان حرس راجل تستخدم الى حد ما للقيام ببعض المهام الخارجية في لندن . والتسع والاربعون الباقية هي مشاة الخط وهي منظمة من اجل اغراض التعبئة والتدريب في الوية المشاة .

ان كامل منظمة المشاة تشمل ما يقرب من ربع القوة البشرية في الجيش كما هو مخطط الآن : فمن بين ال ١٦٠٠٠٠ فان عدد الرتب الاخرى في كل الجيش النظامي يبلغ حوالي ٤٥٠٠٠ مخصصة للمشاة . ومن هؤلاء ، حوالي ٣٥٠٠٠مخصصة لتزويد الستين كتيبة بالرجال والباقي مستخدم في آلة التدريب وبمهمات خاصة خارج وحداتهم .

ان انتشار هذا القسم الهائل من القوة المخططة في الجيش خاضع لبعض العوامل المقيدة التي هي من صميم تنظيم المشاة القائم . وان معظم الستين كتيبة ، على الرغم من الملغمات حديثة العهد ، لها روابط تقليدية واقليمية قوية تمثل عددا محددا من الوحدات تركت في الوجود مع اهتمام قليل بمتطلبات العمليات أو بالتخفيف من نقص القوة البشرية . وهذا يعني انهفيبعض الاحيان عندما يمكن تبرير وجود اقل من ستين كتيبة من حيث العمليات يقتضي الاحتفاظ بعدد اضافي من الوحدات لان تفريقها او تركها في نشاط معلق ليس ممكنا دون الاساءة البالغة الى حساسية المشاة التقليدية . واذا ما اصبحت القوة البشرية يوما ما وافرة فيمكن حينئذ تبرير ذلك على اساس الثبات والروح المعنوية القوية الا انه في ازمنة نقص القوة البشربة يواجه الجيش الاحتمالين المخيبين اما نشر رجاله سواء على الكتائب الستين وبذلك تركهم دون القدرة او تخصص القوة البشرية وفاقا لطريقة الافضلية . وفي الحالة الاولى تكون كفاءة الوحدات في اهم مراكز العمليات متدنية . وفي الحالة الثانية تستحيل هذه الكتائب غير المنهمكة في اغراض عملية ذات اهمية آنية ، الى قوة منحطة كثيرا الا انها تظل موجودة على شكل ما ومع انها غير ذات فعالية عمليا فانها تستخدم قوة بشرية يمكن ان تستخدم في مكان آخر مع الاستفادة منها .

وبالاضافة الى ذلك ، هناك نظام تدريب غير اقتصادي لترنيب المراكز والقرعة . واذا طرحنا جانبا لواء الحرس ولواء المظلات ، اللذين انيط بهما ادوار وقضايا خاصة ، فان مراكز تدريب لواء المشاة لها دورها في هذا التدريب وتلك الاغراض الادارية . وختاما ان القضية باسرها واقعة تحت سحر تجنيد الالوية والافواج البرية . وقد احدث هذا بنية غير متوازنة تماما كانت فيها الالوية كلواء الهايلند تستطيع ان تجند عددا من الرجال اكثر من الحاجة في حين ان المقاطعات الوطنية والالوية الانكليزية مثلا ينقصها الرجال الى حد اليأس ولا توجد طريقة لتوجيه المجندين الى الالوية حيث يحتاجونهم ولا من اجل نقلهم بعد تجنيدهم . والصورة التي تبرز هي احدى الصور التي انشيء منها اهم سلاح قتال لدى الجيش وضع من عدد اعتباطي ودائم من الوحدات مع منظمة تدريب غير اقتصادي واسلوب تعبئة غير متوازن يستخدم بصورة مبالغ فيها أثمن سلعة لدى الجيش ــ القوة البشرية .

وثمة دواء وحيد ممكن هو فرق من المشاة مشكلة رسميا ومنظمة على الاسس نفسها المنظم عليها فوج المدفعية مع الحرية المطلقة لادارة المجندين او الجنود المدربين داخل الوحدات التي يحتاجونهم فيها مع قابلية تغيير عدد الكتائب الموجودة في اي وقت ليتمشى مع متطلبات العمليات ومع نظام تدريب مركزي يصلح لكل الفرق . ومن المحتمل ان يحدث ذلك . الا انه لن يحدث الا في مناخ راي عسكري وسياسي يتأقلم معه بصورة تدريجية . الا انه قد يكون من غير الحكمة الانتظار حتى ياتي جيل آخر يتربى قبل بداية المسيرة التي من المحتمل ان تقود الى الانشاء العقلاني والمنطقي لفرق المشاة . وهذا يمكن اجراؤه على ثلاث مراحل فالمرحلة الاولى يجب ان تخصص لتصحيح التبديد غير الاقتصادي للجهد التدريبي . ويمكن اجراؤه دون الاضرار ببنية الفوج القائمة بتركيز التدريب وادارة المجندين في ثلاث او اربع مؤسسات تدريبية بدلا من اربعة عشر مركز تدريب موجودة حاليا . والمرحلة الثانية ، التي يجب ان تكون في آن واحد مرافقة للمرحلة الاولى ، ينبغي ان تكون تحويلا تدريجيا للالوية القائمة الى افواج ، وهي طريقة قد اتبعت على مضض شديد . فمثلا ، لم يعد « لواء ويلش » يتألف من حملة بنادق ويلش الملكية ، وحرس حدود

جنوبي ويلز ، وفوج ويلش اذ ان كل منها يجهز كتيبة من اصل كتائب المشـاة الستين ، وبذلك يصبح فوج ويلز الذي يتألف من ثلاث كتائب . ويمكن ان يكون لكل منها لباس يتميز به ، في الوقت الحاضر ، وان يحافظ على تقاليـده التي تميزه عن غيره الا أنه علينا ان نستهدف مرحلة تصبح فيها الكتيبة الاولـى والثانية والثالثة لفوج ويلز ، واي من هذه الكتائب يمكن ان تحرك مؤقتـا من نسق المعركة اذا كان الموقف الفعلي لم يعد يبرر وجود ستين كتيبة .

والمرحلة الثالثة يجب ان تكون اندماج هذه الافواج الموسعة في الويـة تتوافق مع مراكز التدريب الثلاثة او الاربعة وترتكز عليها . ومع كل دور مـن هذا التطور تصبح ادارة المجندين ممكنة وكذلك نقل الجنود عبر منطقة اوسع الى حين انشاء فرقة من المشاة في المرحلة الاخيرة . وستتألف هذه من عدد الكتائب الضرورية للعمليات . وسيسجل المجندون في قائمة المشاة ويوضعون في الكتيبة التي هي بحاجة اكثر اليهم وسيخفض عدد الرؤساء في التدريب والادارة بصورة محسوسة . ولن نخرج عن الموضوع اذا ألمحنا الى ان مثل هذا التنظيم اساسي اذا كان مفهوم « مجموعة المعركة » ؛ وهي قوة جميع الاسلحة التـي يقودها مقدم او عقيد ، سيرى النور يوما ما .

وفي محاولة للتخلص من بعض الامور الشاذة الواضحة اكثر من غيرهـا من هذا النوع في مصلحة تنظيمية واحدة وبالتخطيط ، تم في عام ١٩٦٣ توحيد وزارات القوات المسلحة في وزارة دفاع موسعة . ولم يحن الوقت بعد لتحديد تأثيرات هذا التنظيم بصورة كاملة ، الا انه منذ الآن تبدو دلائل تشير الى انـه وقع تحت سحر تأخير التكتيكات داخل انواع القوى المسلحة . ومن الممكن الادعاء بانه جاء متأخرا بصورة مؤلمة . وقد كان النظريون العسكريون منـذ اواخر القرن التاسع عشر يدافعون عنه دون جدوى ويبدو من المناسب ان نختتم هذه الصفحات بآخر كلمات قالها « ليدل هارت » . فقد كتب في عـام ١٩٤٦ عن تخطيط تخصيصات الموارد العسكرية : « ان افضل شيء هـو تخطيط الدفاع ككل مع نظرة واجبة الى الحدود الطبيعية والظروف المتغـيرة معا . ان الاقتصاد الحقيقي في القوة يمكن ان يتمم سياسة ضمان اكثر قوة من خلال تخطيط مندمج توحي به نظرة ثاقبة » . وفي عام ١٩٥٠ ذهب الـى ابعد

من ذلك في كتاب : « **الدفاع عن الغرب** » : « ان اوضح خطوة الى الامام والخطوة الطبيعية هي جمع القوى المسلحة الثلاث في قوة واحدة » .

وبعد مرور ثلاث عشرة سنة على ذلك ، خطت المؤسسة العسكرية اولى خطواتها في طريق الدمج . وكان لايزال من الضروري التغلب على مراكز الرقابة الخلفية للقوى الرجعية .

